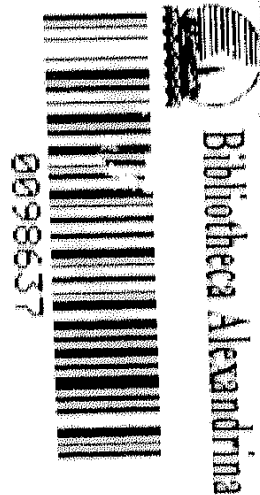


# دوستويفسكي

الاعمال الأدبية الكاملة المجلد ١٤

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

الرواية





الاعمال الأدبية الكاملة  
المجلد الرابع عشر

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر  
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر  
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر  
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شيارو  
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٢٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

المراهق  
١

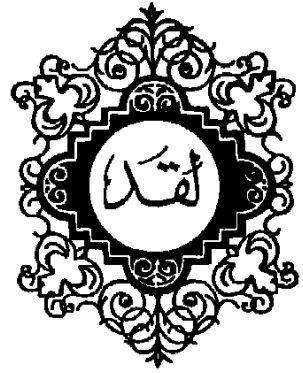
## جميع الحقوق محفوظة

« المراهق » ، نشرت هذه الرواية اول مرة فى مجلة « حوليات الوطن » ، المجلد ٢١٨ - ٢٢٣ ، من شهر كانون الثانى ( يناير ) الى شهر كانون الاول ( ديسمبر ) سنة ١٨٧٥

الجزء الأول

## الفصل الأول

١



فرغ صبرى ، فهأنا آخذ بكتابة قصة خطواتى الأولى فى طريق الحياة . وكان يمكنى مع ذلك أن أستغنى عن هذا . ان هناك شيئا محققا لا ريب فيه ، هو أننى لن أكتب سيرة حياتى عن غير هذه الفترة ، ولو قدر لى أن أعيش مائة سنة . فلا بد أن يكون المرء حقيرا فى شدة افتتانه بنفسه حتى يتحدث عنها بغير خجل ولا جياء . وشفيعى الوحيد فيما أفعله الآن هو أن الذى يحدونى الى الكتابة ليس ما يحدو اليها سائر الناس : اننى لا أكتب بغية الحصول على اعجاب القارىء ومدىحه . ولئن خطر يبالى فجأة أن أسجل ، كلمة كلمة ، كل ما وقع لى منذ السنة الماضية ، فانما تدفعنى الى ذلك حاجة داخلية : ان الوقائع التى تحققت قد خطف بصرى وملأت على نفسى . وسأقتصر على تسجيل الأحداث ، متحاشيا ، بكل ما أوتيت من قوة ، أن أتعرض لما هو غريب عنها ، ومتحاشيا الأعيب الأدب وزخارف البيان . رب أديب يسلخ من عمره ثلاثين عاما فى الكتابة ، ثم هو يجهل آخر الأمر لماذا كتب طوال هذه السنين . ولست بالأديب على كل حال ، ولا أنا أحب أن أكون أديبا . وعندى أن استخراج ما تنطوى عليه نفسى ومحاولة وصف عواطفى

من أجل أن أعرضها في سوق الأدب هي في نظري من الأمور المعيبة التي تدل على صغار . ومع ذلك أتنبأ ، على كره مني واستياء ، أنه قد يستحيل . على أن أتحاشى وصف عواطفى تحاشياً كاملاً وأن أتجنب عرض تأملاتي وأفكاري ولو كانت عامية : فالى هذا الحد يسقط العمل الأدبي بصاحبه ولو كان لا يفعله الا لنفسه . وقد تكون هذه الأفكار على جانب عظيم من العامية ، ذلك أن ما تقدرونه أتم قد لا يكون له أية قيمة في نظر انسان غريب . على أن هذا الكلام كله استطراد . وهأنذا فرغت من التمهيد ، ولن أعود بعد الآن الى شيء من ذلك . فلأبدأ العمل ، وان لم يكن ثمة شيء أعسر من الشروع في تأليف كتاب ، وربما لم يكن هناك شيء أعسر من الشروع في العمل على وجه الاجمال .



سوف أبدأ أو قل اننى أريد أن أبدأ مذكراتى بيوم ١٩ ايلول  
( سبتمبر ) من السنة المنصرمة ، أى على وجه الدقة باليوم الذى التقيت  
فيه أول مرة بـ ..

ولكن .. لأن أذكر الشخص الذى التقيت به سلفا على هذا النحو،  
فى حين أن أحدا لما يعرف شيئا فذلك أمر عامى ؟ بل اننى لأعتقد أن هذه  
اللهجة نفسها عامية ، فهأنذا أقع فى الزخرفة الأدبية بعد أن آليت  
على نفسى أن أجتنبها . ثم انه ليس يكفى المرء أن يرغب فى الكتابة على  
نحو معتدل حتى يستطيع أن يفعل ذلك . وأحب أن ألفت نظركم أيضا  
الى أننى أعتقد أنه ليس هناك لغة أوروبية تصعب الكتابة فيها كما تصعب  
الكتابة فى اللغة الروسية . لقد أعدت الآن قراءة ما كتبت فى هذه  
اللحظات ، فلاحظت أننى أذكر كثيرا من هذا الذى كتبتة . فلماذا تكون  
الأشياء التى يعبر عنها انسان ذكى أغبي كثيرا مما يبقى فى ذهنه ؟ لقد  
لاحظت هذا الأمر فى نفسى غير مرة ، ولاحظته فيما أقوله للناس طوال  
هذه السنة الماضية الحاسمة ، ولقيت من ذلك عذابا أليما .

ورغم أننى أبدأ باليوم التاسع عشر من ايلول ( سبتمبر ) ، فسأقول  
بكلمتين ؟ من أنا وأين كنت قبل ذلك التاريخ ثم ما لعله كان قائما فى  
ذهنى ، ولو جزئيا ، فى ذلك الصباح من اليوم التاسع عشر من ايلول  
( سبتمبر ) ، بغية أن أيسر الفهم على القارئ ، وربما على نفسى أيضا .

أنا طالب قديم من طلاب المدارس الثانوية ، وقد بلغت الآن السنة الواحدة والعشرين من عمري . اسمي دولجوروكي ، واسم أبي الشرعي ماكارا ايفانوف دولجوروكي ، وهو قن سابق من أقنان الأسياد آل فرسيلوف . أنا اذن ابن شرعي ، رغم أنني ولد غير شرعي الى أقصى حد ، ورغم أن نسبي أمر محقق لا يساور الشك فيه أحدا من الناس . واليكم تفصيل ذلك : منذ اثنين وعشرين عاما زار مالك الأطيان فرسيلوف ( وهو أبي ) أراضيه في مقاطعة تولا . واني لأفترض أنه كان حتى ذلك الحين انسانا تافها ، وأستغرب كيف أن هذا الانسان الذي خطف بصرى منذ طفولتي الى هذا الحد ، وأثر في تكوين نفسي تأثيرا يبلغ هذا المبلغ من القوة ، وألقى ظله علىّ زمنا لعله طويل ، لا يزال الى اليوم لغزا في نظري من وجوه لا حصر لها . ولكنني سأعود الى هذا الأمر من بعد . ليس سهلا على المرء أن يأخذ بسرد قصة . ومهما يكن من أمر فان هذا الرجل سيملاً كتابي كله .

كان فرسيلوف في ذلك الحين يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وكان قد فقد زوجته منذ زمن قصير . وكانت زوجته هذه فتاة تنتمي الى المجتمع الراقى ، ولكنها لم تكن على جانب كبير من الثراء ، وكان اسمها فاناريوتوفا ، وقد أنجب منها صبيا وبتنا . ان ما أعرفه عن هذه الزوجة التي توفيت في سن مبكرة ناقص كثيرا ، ضائع في ثنايا الأمور التي عرفتھا وجمعتها . هذا الى أن كثيرا من ظروف حياة فرسيلوف تفوتني ، لأنه كان يعاملني دائما في كبر وتعال ، وكان يغلق نفسه دوني ، وكان يهملني ، رغم ما كان يظهره تجاهي من مذلة تدعو الى الدهشة في بعض الأحيان .

يجب أن أذكر على سبيل العلم بالشيء أنه قد بدد أثناء حياته ثلاث ثروات ، ثروات ضخمة ، يبلغ مجموعها أكثر من ٤٠٠٠٠٠٠ روبل أو يزيد . وهو لا يملك الآن كوبيكا واحدا بطبيعة الحال .

لقد جاء يومئذ الى أراضيه « لا يدري لماذا الا الله » ؛ أو هذا على الأقل ما ذكره لي بعد ذلك شارحا . ولم يكن طفلاه الصغيران معه ، بل كانا عند أقارب له ، على عادته دائما ، فكذلك كان يفعل بأعقابه طوال حياته ، شرعيين كانوا أو غير شرعيين . وكان في أملاكه عدد كبير من الخدم ، أحدهم هو البستاني ماكار ايفانوف دولجوروكي . وأضيف هنا ، حتى لا أضطر الى العودة الى هذا فيما بعد ، أنه قلَّ بين الناس من كرهوا اسمهم ولعنوه كما كرهت اسمي ولعنته طوال حياتي . كنت كلما دخلت مدرسة أو التقيت بناس تضطرنى سنى الى الاجابة عن أسئلتهم ، من معلمين أو مربين أو مراقبين أو كهنة أو أى أحد من هذا القبيل ، أسأل عن اسمي ، فاذا عرفوا أن اسمي هو دولجوروكي ، شعروا بالحاجة الى أن يسألوني :

– الأمير دولجوروكي ؟

فأضطر في كل مرة أن أشرح لجميع هؤلاء الخليلين :

– بل دولجوروكي فحسب .

وانتهت هذه ال « فحسب » الى انارتى اثاره تبلغ حد الجنون . يجب أن أقول ، من قبيل الاطلاع على هذه الواقعة ، أنني لا أذكر أن أحدا من الناس أغفل أن يطرح على هذا السؤال : صحيح أن بعضهم كان يطرحه دون أى اهتمام ( ولست أدري في الواقع فيم كان يمكن أن يهتم هذا الأمر ) ، ولكنهم كانوا يطرحونه جميعا ، من أولهم الى آخرهم . حتى اذا عرف السائل أن اسمي دولجوروكي فقط رمقتى في العادة بنظرة حمقاء لا معنى لها ولا مبالاة فيها تدل على أنه كان لا يعرف

هو نفسه لماذا ألقى هذا السؤال ثم انصرف • ولكن الذين كانوا يجرحون شعوري أكثر من سائر الناس انما هم رفاق المدرسة • كيف يسأل تلميذ من التلاميذ رفيقا جديدا ؟ ان التلميذ الجديد ، التائه اللب المضطرب النفس ، فى اليوم الأول من دخوله المدرسة ( أية مدرسة ) هو فريسة للتلاميذ يتندرون عليه ويضطهدونه ويسومونه سوء العذاب : انهم يتحكمون فيه ، يغيظونه ، يعاملونه كما يعامل خادم • هذا طفل قوى البنية متملىء صحة وعافية يقف فجأة أمام ضحيته وجها لوجه ويتفرس فيه بضع لحظات ناظرا اليه نظرة قاسية وقحة ، فيجمد التلميذ الجديد أمامه صامتا ينظر اليه من جانب ، اذا هو لم يكن جانا ، وينتظر ما سيقع من أحداث •

- ما اسمك ؟

- دولجوروكى

- الأمير دولجوروكى ؟

- بل دولجوروكى فقط •

- ها •• فقط •• بلاهة !

وانه لعلى حق : فلا شىء أشد بلاهة من أن يسكون اسم المرء دولجوروكى دون أن يكون أميرا • وهذه بلاهة أجرها ورائى دون أن يكون لى فى فى ذلك ذنب • وفيما بعد ، حين أصبحت أغضب من هذا الأمر غضبا شديدا ، صرت أجيب دائما عن سؤال من يسألنى « هل أنت أمير ؟ » بقولى :

- بل أنا ابن خادم كان قنا •

وبعد ذلك أيضا ، حين أهاجنى السؤال فى ذات يوم اهاجة عنيفة ، وجدتنى أجيب عنه بقوة وحزم قائلا :

- بل اسمى دولجوروكى فقط ، وأنا ابن غير شرعى لمولاي السابق

الأمير فرسيلوف •

لقد أحسست حين اهتديت الى هذا الجواب بأننى كنت فصيحاً غاية الفصاحة ، ورغم أننى لم ألبث أن أدركت أن فى هذا الجواب حماقة لا محل لها ، فأننى لم أعدل عنه فوراً . أذكر أن أحد أساتذتى اكتشف - وهو الأستاذ الوحيد الذى اكتشف ذلك - أننى « ممتلىء النفس بمعانى الانتقام والتمرد » . ويمكن أن أقول على وجه العموم ان الناس استقبلوا غضبى هذا بجدٍ لا يخلو من اهانة لى . وقد اتفق أن قال لى أحد رفاقى ، وهو فتى قصير القامة سليط اللسان ، لم أكن أخاطبه الا مرة فى العام ، قال لى وقد لاح فى وجهه تفكير عميق وأشاح بصره عنى قليلاً :

- هذه المشاعر تشرفك طبعاً ، ولا شك فى أن هناك ما يدعوك الى الاعتزاز والفخر ، ولكننى لو كنت فى مكانك لما زهوت كثيراً بكونى ابن زنا . . لكأنك من هذا فى عرس حقا !

وأصبحت منذ ذلك الحين لا أباهى بأننى ولد غير شرعى .

أعود فأقول ان الكتابة باللغة الروسية أمر شاق جداً : لقد سوّدت حتى الآن ثلاث صفحات من أجل أن أشرح كيف كان استيائى من اسمى طوال حياتى ، ولا شك فى أن القارئ قد خلس من هذا الى اعتقاد صادق ساذج بأن مرد غيظى الى أننى لست أميراً ، بل دولجوروكى فقط . ولكننى لن أتدنى الى حيث أشرح الأمر وأبرىء نفسى مرة أخرى .

بين ذلك العدد الكبير من الخدم كان هنالك ، عدا ماكار ايفانوف ، فتاة كانت في نحو الثامنة عشرة من عمرها حين أظهر ماكار دولجوروكى ، فجأة ، وهو فى الخمسين من عمره رغبته فى تزوجها . وأنتم تعلمون أن الزواج بين الأفتان الخدم فى عهد القنانة انما يتم بموافقة الأسياد ، وربما تم أحيانا بأوامر منهم . وكان يسكن فى المنطقة أيامئذ سيدة يسميها الناس عمه ، والحق أنها لم تكن عمه أحد . لكننى لا أدرى لماذا كان جميع الناس يسمونها عمه ، عمه على وجه العموم ، حتى لدى أسرة فرسيلوف التى لعلها كانت تربطها بها صلات قرابة . ان اسمها تاتانيا بافلوفنا بروتكوفنا . وكانت تملك هى أيضاً ، فى ذلك العهد ، فى تلك المنطقة نفسها ، خمسة وثلاثين « نفسا » ؛ وكانت بحكم الجوار تدير أملاك فرسيلوف ( ٥٠٠ نفس ) أو قل تشرف عليها ؛ وكان هذا الاشراف ، فيما قيل لى ، يسارى اشراف أى موظف من الموظفين المعلمين الذين يملكون خبرة خاصة . على أن معارفها هذه لم تكن تهمنى فى شىء . وانما أريد أن أضيف ، متجنباً كل رغبة فى المديح أو التملق ، أن تاتانيا بافلوفنا هذه كانت مخلوقة نبيلة بل وأصيلة .

لم تعارض هذه السيدة رغبة ماكار دولجوروكى القائم المزاج ( يظهر أن مزاجه كان قائماً جداً ) ، بل شجعتة أكبر تشجيع . وكانت صوفيا أندريفنا ( تملك الخادم التى كانت فى الثامنة عشرة من عمرها ، وهى أمى ) قد تيمت منذ سنين ؛ وكان أبوها الذى كان يحترم ماكار دولجوروكى احتراماً عظيماً ويضمّر له امتناناً كبيراً لا أدرى ما مصدره ، كان أبوها هذا قناً كذلك ، فلما وافاه المرض قبل ست سنين ، وورقد على

سرير الموت ، بل وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بربع ساعة فيما يدعى بعض الناس ، حتى لقد كان يمكن أن تعد وصيته نتيجة من نتائج الهديان لولا أنه قن لا يملك أن يوصى بشيء ، دعا إليه ماكار دولجوروكي وقال له أمام الناس وبحضور الكاهن ، قال له بصوت عال وهو يوميء بيده الى ابنته : « نشئها واتخذها زوجة لك » . لقد سمع الناس جميعا هذا الكلام . أما ماكار ايفانوف دولجوروكي فانتى لا أدري ما هي العواطف التي حملته على الزواج : أهو تزوج راغبا في هذا الزواج مبتهجا به ابتهاجا كبيرا ، أم هو تزوج قياما بواجب ووفاء بعهد ؟ أغلب الظن على كل حال أنه أقبل على هذا الزواج بمظهر من لا يبالي الأمر ولا يكثرث به . لقد كان رجلا يعرف منذ ذلك الحين كيف يصطنع المظهر الذي يجب أن يظهر به . وهو على عدم درايته العميقة بالكتب المقدسة وعلى جهله القراءة والكتابة ( ولكنه كان يحفظ الصلوات على ظهر القلب ، ويعرف خاصة تاريخ حياة بعض القديسين ، عن طريق السماع ) ، كان ذا طبع حازم ، بل كان في بعض الأحيان على جانب من جرأة ومجازفة . كان بطيء الكلام ، قاطع الأحكام ، وكان يعيش حياة كريمة فاضلة على حد تعبيره الغريب . كذلك كان هذا الرجل في تلك الأيام . وكان طبيعيا أن يتمتع باحترام الناس كافة ، ولكن يقال ان الناس كانوا في بعض الأحيان يستقلون ظله ولا يطيقونه . غير أن كل شيء قد تغير حين ترك المنزل : فلم يتحدث عنه أحد بعد ذلك الا حديثه عن قديس أو شهيد . ذلك كله أعرفه من مصدر مطلع .

أما أمي فقد احتفظت بها تاتانيا بافلوفنا قرية منها حتى السنة الثامنة عشرة من عمرها رغم ارادة الخطيب الذي كان يريد أن يعلمها بموسكو ، فثقتها بعض الشيء ، علمتها الحياطة والتفصيل وآداب الحياة الاجتماعية بل علمتها القراءة قليلا . أما الكتابة فلم تتوصل أمي الى اجادتها يوما . وكان هذا الزواج بماكار ايفانوف أمرا مقرررا في نظرها

منذ زمن بعيد ، وكل ما وقع لها عندئذ قد بدا لها رائعا وقيدت الى المعبد طائعة مختارة ، يبدو على وجهها أكبر هدوء يمكن أن يظهر على وجه فتاة في حالة كهذه ، حتى ان تاتانيا بافلوفنا قد وصفتها حينذاك بأنها أشبه بسمكة . ان تاتانيا بافلوفنا هذه هي التي أطلعتني على ما يتعلق بطبع أمي في ذلك العهد . وقد وصل فرسيلوف الى أراضيها بعد هذا الزواج بستة أشهر تماما .

ولا أستطيع أن أحزر على نحو يرضيني كيف بدأت الأمور بينه وبين أمي . واني لأميل الى تصديق ما أكده لي هو نفسه في العام الماضي محمرا الوجه ، رغم أنه روى لي القصة كلها مسترسلا منطلقا « مرحا » ، فقال ان الأمر لم يكن حكاية طويلة ، وان كل شيء قد جرى من تلقاء نفسه « هكذا » . . . أعتقد أن ذلك صحيح ، وأن كلمة « هكذا » هذه كلمة موفقة رائعة . ورغم كل شيء فقد ظلت دائما شديد الرغبة في أن أعرف كيف بدأ هذا الأمر . لقد كنت دائما وما أزال أحتقر هذه الأشياء القذرة . وطبعي أن ما يؤجج في نفسي هذه الرغبة ليس من نوع الفضول السخيف . يجب أن أذكر لكم أنني حتى السنة الماضية لم أكن قد عرفت أمي ان صح التعبير ، فقد عهد بي الى غرباء منذ نعومة أظفاري ، من حرص فرسيلوف على تمتعه بالراحة وخلو البال ( سأتكلم عن هذا فيما بعد ) ، ولذلك لا أستطيع أن أتصور كيف كان وجهها أيامذاك . ترى اذا لم تكن جميلة ، فما الذي عساه أغرى بها رجلا مثل فرسيلوف ؟ تلك مسألة تهمني ، لأن الناس يرسمون لهذا الرجل هنا صورة غريبة كل الغرابة . ومن أجل هذا تراني ألقى ذلك السؤال ، فأنا لا ألقيه من قبيل فساد الخلق وفضول الطبع . لقد قال لي هو نفسه ، هذا الرجل القاتم المزاج المغلق النفس ، قال لي بتلك السذاجة المحيية التي لا أدري من أين كان يخرجها ( كمن يخرج منديلا من جيبه ) اذا أراد أن يخرجها ، قال لي انه كان في تلك الأيام « كلبا صغيرا أبله » ، وانه دون



أن يكون من أولئك الناس العاطفين الحالمين كان قد قرأ منذ قليل قصة « أنطوان الضحية » وقصة « بولين ساكس » ، وهما كتابان أدبيان أثرنا في الجيل الجديد تأثيرا حضاريا لا يقدر مداه . وأضاف أنه لعله قد عاد الى الريف مدفوعا بتأثير « أنطوان الضحية » ، قال ذلك جادا أكبر الجد . فعلى أية صورة استطاع هذا « الكلب الصغير الأبله » أن ينشئ علاقة بينه وبين أمي ؟ يخطر ببالي في هذه اللحظة أنه لو كان هناك قارىء يقرأ هذا الكلام الذى أكتبه لانفجر يضحك على حتما ، ولعدتني مراهقا مضحكا لا يزال يحتفظ ببراءته الغبية ويطمع فى فهم أمور لا يفهم منها شيئا البتة ! وهذا صحيح ، فانى مازلت لا أفهم من هذه الأمور شيئا ، وأنا أعترف بذلك بلا فخر ولا اعتزاز ، لأننى أعرف أن فقدان التجربة هذا أمر سخيف لدى شاب فى الحادية والعشرين من عمره ، ولكننى سأقول لذلك السيد القارىء انه هو أيضا لا يفهم فى هذه الأمور شيئا ، وسأبرهن له على ذلك . صحيح أننى لا أعرف من شؤون النساء شيئا ، ولا أريد أن أعرف شيئا أيضا ، وسأظل استخف بهذا ما حييت ، فقد آليت على نفسى أن لا أحفل به ، ولكننى أعرف مع ذلك أنه رب امرأة تفتتک بجمالها أو بما لا أدرى ، فى طرفة عين ؟ و رب امرأة أخرى لا بد لك من ستة أشهر حتى تعرف مصدر السحر وأن ترى هذا السحر . فهذه المرأة الثانية ، اذا أردت أن تراها كاملة وأن تحبها لا يكفى أن تنظر اليها ، ولا يكفى أن تكون جريئا ، وانما ينبغى لك شيء آخر . اتنى من ذلك على يقين رغم أننى لا أعرف شيئا ، والا كان يجب أن ننزل جميع النساء الى منزلة الحيوانات الداجنة وأن لا نحتفظ بها لدينا الا على هذه الصورة . ولعل هذا ما يتمناه كثير من الناس .

وأنا أعلم من عدة مصادر أن أمي لم تكن على حظ كبير من الجمال ، رغم أننى لم أر صورتها التى ترجع الى ذلك العهد يوما ، وهى صورة موجودة فى مكان ما . فمن المستحيل اذن أن يفتن المرء بها من أول

نظرة • ولقد كان في وسع فرسيلوف لو أراد « التسلية » وحدها أن يختار امرأة أخرى ، وكان هنالك امرأة أخرى فعلا ، بل فتاة عذراء هي آنفيزا كونستانتينوفا سابويكوكوفا ، التي كانت تعمل وصيفة في المنزل • أضف الى ذلك أن رجلا يصل الى هنالك قارئاً « أنطوان جورميكا » كان لا بد أن يرى ، بحكم قوانين الأسياد ، أن محاولته اغراء امرأة هي زوج قن من أفاته شيء معيب • انه منذ أقل من شهر ، أي بعد عشرين عاما انقضت على ذلك العهد ، كان لا يزال يتحدث عن أنطوان المسكين حديثا يبلغ غاية الجذ ، مع أن ما سلب من أنطوان كان حصانه لا زوجته • فلا بد أنه قد حدث اذن يومئذ شيء جعل الأنسة سابويكوكوفا تخسر القضية ( وأنا أعتقد انها ربحتها ) • لقد أتج لي مرة أو مرتين ، في السنة الماضية ( ولم يكن في الامكان التحدث اليه كل يوم ) أن ألقيت عليه هذه الأسئلة جميعها ، فلاحظت أنه رغم لباقة كلها ، ورغم انقضاء عشرين سنة على ذلك العهد ، لم يكن يجيب الا بعد رجاء كثير • ولكنني وصلت الى غاياتي ؟ أو قل ، على الأقل ، انه بفضل ذلك الاسترسال والانطلاق الذي كان يبيحه لنفسه في كثير من الأحيان ، قد ثرثر يوما في أمور غريبة • فقال ان أمي كانت من تلك النساء التي لا تعرف كيف تدافع عن نفسها ، ولا يمكن للمرء أن يحبها ، ولكنها ما تلبث على حين فجأة أن يشعر المرء نحوها بشفقة ، لا أدري لماذا ، أسبب عذوبتها أم بسبب شيء آخر ! لا أدري ! ولكن الشفقة تدوم وتبقى ، وبهذه الشفقة يتحقق ارتباط • • • « وأوجز لك الكلام يا صغيري فأقول انه ليتفق للمرء أن يصبح عاجزا عن الانفصال • • • ذلك ما قاله لي • فاذا كانت الأمور قد جرت على هذا النحو فعلا ، كنت مضطرا أن أرى فيه امرءاً آخر مختلفا كل الاختلاف عن « كلب صغير غبي » ، كما وصف نفسه بهذا في ذلك الوقت •

وقد أكد لي بعد ذلك أن أمي أحبته عن « مذلة » حتى لقد أوشك

أن يقول انها أحبته عن « اطاعة كاطاعة العبيد » ! ولقد كذب ! كذب من قبيح التأنق ، كذب على ضميره ، كذب على الشرف وعلى كرم النفس وسماحة الخلق •

رب قائل يقول اننى أكتب هذا على سبيل ازجاء المديح لأمى ، ولكننى سبق أن أعلنت أننى أجهل جهلا مطلقا كيف كانت أمى فى ذلك الوقت • وأكثر من ذلك أننى أعلم حق العلم ظلام البيئة وسخافة الافكار التى تعفت فيها منذ طفولتها وعاشت وسطها طوال حياتها • وقد وقع البلاء على كل حال • يجب أن أبادر ، فى هذه المناسبة ، الى بعض التصحيح : لقد تهت بين السحب ونسيت أمرا كان ينبغى فى الواقع أن أبرزه قبل أى شىء آخر : وهو أن الأمور بينهما قد بدأت بوقوع البلاء راسا ( أرجو أن لا يتظاهر القارئ بأنه لا يفهم على الفور ما اريد أن أقوله ) • أعنى أن البداية كانت بداية سيد من الأسياد ، ولو أن الآنسة سابويكوف قد تركت جانبا ولم تمس بسوء • ويجب أن أتدخل هنا فأعلن أن كلامى هذا لا يناقض ما سلف • فى أى شىء ، يارب ، كان يمكن أن يتحدث رجل مثل فرسيلوف الى امرأة كأمى حتى ولو كان الأمر أمر حب لا سبيل الى مقاومته ؟ لقد سمعت رجلا فاسقين يقولون انه ليتفق فى كثير من الأحيان لرجل يواجه امرأة أن يبدأ الفعل بدون أن يقول كلمة واحدة ، وواضح أن هذا منتهى الشذوذ ، وأنه يثير أقصى الاشمئزاز • وعندى مع ذلك أن فرسيلوف ما كان له أن يبدأ غير هذه البداية مع أمى ولو أراد • أكان يستطيع أن يبدأ بأن يشرح لها « بولين ساكس » ؟ ولقد كان الأدب الروسى أيسر الأمور شأنا عندهما ، على حد تعبيره هو ( حين كشف عن نفسه أمامى ذات يوم ) • لقد كانا يخبئان فى الزوايا والأركان ، ويتربص أحدهما بالآخر على السلالم ، حتى اذا مر بهما أحد وثبا بعيدا كوثوب كرتين ، وقد احمر خجلا ؛ وكان « الطاغى » يرتجف ويرتعش أمام أية كناسة تكنس الأرض ، رغم ما له من حقوق

الاقطاعى • واذا كانت الأمور قد بدأت على نحو ما يبدوها الأسياد ، فقد استمرت على هذا النحو ، ولكنها لم تبقى كذلك تماما ؛ والحق أنه ليس لهذا تفسيرات يجب البحث عنها ، فأمثال هذه التفسيرات لا يمكن الا أن تزيد الظلمات كثافة • ان الأبعاد التي بلغها حبهما هي في حد ذاتها لغز ، لأن الشرط الأول لدى أناس مثل فرسيلوف هو أن يدعوا كل شيء حيث هو ، متى حققوا هدفهم وقضوا وطهرهم • لكن الأمور تمت على غير هذا النحو • فلأن يزننى امرؤ بامرأة جميلة ناقصة العقل من الاقان ( ولم تكن أمى ناقصة العقل على كل حال ) فذلك أمر هو في نظر « كلب صغير » فاسق ( ولقد كانوا جميعا فاسقين ، من أولهم الى آخرهم ، تقدميين ورجعيين على السواء ) فذلك أمر ليس ممكنا فحسب ، بل هو لا مناص منه أيضا ؛ لاسيما اذا تذكرتم وضع أبى من حيث أنه ترمل شابا ومن حيث أنه عاطل لا يعمل شيئا • أما استمرار الحب مدى الحياة فأمر خارق • ولست أضمن أنه أحبها على كل حال ، ولكننى أعلم واقعة ثابتة هي أنه جرها وراءه طوال حياته •

لقد ألقىت أسئلة كثيرة ، الا أن بين هذه الأسئلة سؤالاً هو أهمها جميعا ، لم أجرؤ أن أطرحه على أمى طرحا قاطعا ، رغم أنني تقربت اليها كثيرا فى السنة الماضية ، ورغم أنني بفظاظتى وعقوفى وشعورى بأنتى مجننى علىّ لم أتحرج معها قط • ذلكم السؤال هو كيف أمكنها ، هي المتزوجة منذ ستة أشهر ، هي التى تسحقها معانى قداسة الزواج سحق ذبابة ، كيف أمكنها ، بعد مالا يزيد على خمسة عشر يوما ، أن تسقط فى خطيئة كهذه الخطيئة ؟ ثم انها لم تكن امرأة منحرفة عن الصراط ، بالعكس ، حتى ليكننى ان أقول ، مستبقا الأمور ، ان من الصعب على المرء أن يتصور نفسها ظلت طاهرة مدى الحياة كنفسها • فليس هناك من تفسير اذن الا أن نقول انها فعلت ما فعلته على غير وعى منها ولا شعور ، لا بالمعنى الذى يستعمله الجامون فى هذه الأيام حين يصفون بذلك

موكليهم من القتل والصوص ، بل بالمعنى الذى يصدق على انفعال من تلك الانفعالات العارمة التى تعصف بضحية ساذجة فندنيها من الفاجعة • ومن يدري مع ذلك : لعلها أحبت حبا شديدا تفصيله ملابسه وفرقة شعره على طريقة أهل باريس ، أو نطقه الفرنسى ( نعم ، الفرنسى ) الذى لم تكن تفهم منه شيئا ، أو العاطفى الذى عزفه على البيانو ! لقد أحبت فيه شيئا لم تر مثله فى حياتها ( وكان رجلا بارع الجمال ) ، ثم أحبته كله الى حد التهالك والسقوط ! • • لقد سمعت من يقول ان هذا كان يقع أحيانا للفتيات من الاقنان فى عهد القنائة ، بل كان يقع مثله لأكثرهن تمسكا بأهداب الشرف • وانى لأفهم ذلك • وعندى ان من الخطأ أن نرده الى العبودية و « المذلة » وحدهما • وأغلب الظن اذن أن هذا الرجل كان يملك من القوة ومن الاغراء ما يكفى لاجتذاب مخلوقة كانت حتى ذلك الحين بريئة تلك البراعة كلها ، وكانت على وجه الخصوص غريبة تلك الغرابة كلها عن طبيعته ، آتية من عالم يختلف عن عالمه كل الاختلاف ، ومن أرض تختلف عن أرضه كل الاختلاف ، فسارت الى هوة واضحة لا ريب فيها • أما أن السير كان الى هوة فأحسب أن أمى قد فهمت ذلك ، لكنها كانت وهى تمضى نحو الهوة لا تفكر •

ان هذه المخلوقات التى لا تملك قوة الدفاع عن نفسها متشابهة متماثلة : تعرف أن الهوة تنتظرها هناك ، ثم هى تجرى اليها لا تلوى على شىء •

وما ان ارتكبا الخطيئة حتى استبدت بهما الندامة • وقد روى لى أبى متندرا كيف أنه أجهش يبكى على كنف ماكار ايفانوفتش حين دعاه الى غرفته خصيصا لهذا الأمر ، بينما كانت هى فى ذلك الوقت • • • راقدة فى مكان ما ، مغشيا عليها فى حجرتها الصغيرة ، حجرة الخادم القن •

ولكن حسبى كلاما على هذه المسائل وعلى هذه التفاصيل الفاضحة •  
 لقد اشترى فرسيلوف أمى من ماكار ايفانوف ، وأسرع ماضيا بها ،  
 مصطحبا اياها منذ ذلك الحين ، كما قلت من قبل ، الى كل مكان تقريبا ،  
 الا اذا غاب غيبة طويلة ؟ فكان عندئذ يعهد بها فى أكثر الأحيان الى  
 عمته ، أى الى تاتيانا بافلوفنا بروتكوفنا التى لا تفتقد قط فى مناسبات  
 كهذه المناسبات • لقد أقاما مددا فى موسكو ، وأقاما مددا فى مقاطعات  
 أخرى أو فى مدن أخرى ، بل أقاما مددا فى خارج روسيا أيضا ، ثم  
 أقاما أخيرا فى بطرسبرج • وسأتحدث عن هذا فيما بعد ، أو قد لا أتحدث  
 عنه البتة ، ولكننى أقول اننى ولدت بعد زواج ماكار ايفانوفتش بسنة ؟  
 وبعد سنة أخرى ولدت أختى ؟ وبعد عشر سنين أو احدى عشرة سنة ولد  
 أخى الأصغر وهو صبى ممرض مات بعد بضعة أشهر • وكان من شأن  
 هذه الولادات الأليمة أن فقدت أمى جمالها ، أو هذا ما قيل لى على  
 الأقل : لقد بدأ الهرم والضعف يبدان اليها سريعين •

ولكن العلاقات بماكار ايفانوفتش لم تنقطع يوما • فحيثما يحل  
 فرسيلوف ، سواء أقام عدة سنين متتالية فى مكان واحد أم سافر متنقلا  
 من مكان الى مكان ، فان ماكار ايفانوفتش كان لا يفوته أن يكتب الى  
 « الأسرة » يبلغها أنباءه • وهكذا نشأت علاقات غريبة يختلط فيها شىء من  
 التكلف بشىء من الجد • وانى لأعلم أنه لو كان الامر بين أسسياد  
 ملازج ذلك حتما عنصر كوميدى • ولكن لم يحدث شىء من ذلك فى  
 الحالة التى نحن بصدد الكلام عليها • كانت الرسائل تصل مرتين فى  
 العام ، لا أكثر من ذلك ولا أقل ؟ ومن الغريب أنها كانت متشابهة تشابها

عجيباً . لقد أتيت لي أن أرى هذه الرسائل ، فوجدت أنها لا تكاد  
تتضمن على شيء شخصي ، ولا تكاد تضم الا أخبارا عن أحداث عامة جدا  
وعواطف عامة جدا ، ان صح أن توصف العواطف بمثل هذا : كانت  
تلك الرسائل تتضمن أنباء عن صحة مرسلها وأسئلة عن صحة الأشخاص  
المرسلة اليهم ، وتحتوي على تمنيات وتحيات وتبريكات مهذبة ، ثم  
لا شيء عدا ذلك البتة . . . وأعتقد هذا الاقتصار على الأمور العامة ، وهذا  
الابتعاد عن الشؤون الشخصية هي في تلك البيئة لهجتها اللبقة وآدابها  
الاجتماعية : « الى زوجتنا العزيزة المحترمة صوفيا آندريفنا ، نبعث بأخلص  
تحياتنا المتواضعة » . . . « الى أولادنا الأعززة أعبر عن رضاي ومباركتي  
التي لن يفسدها الدهر » . ثم يعقب ذلك ذكر أسماء الأولاد على ترتيب  
أعمارهم وأنا منهم . ويجب أن أشير هنا الى أن ماكار ايفانوفتش كان  
يملك من حصافة الرأي ما يكفي لأن لا ينبعث « صاحب النبالة السيد  
المحترم آندره بتروفتش » بصفة « المحسن اليه » ، ولكنه كان لا يغفل  
في أية رسالة من رسائله أن يبعث اليه بخالص تحياته المتواضعة وأن  
يسأله الرضى عنه ، وأن يطلب له من الله دوام نعمته عليه . وكانت أمي  
تسارع الى الرد على رسائله ، وتكتبها دائما بأسلوب واحد لا يتغير ،  
وكان فرسيلوف لا يشارك في هذه المراسلة . وكان ماكار ايفانوفتش  
يبعث برسائله من جميع أركان روسيا ، من المدن التي يكون فيها ، ومن  
الأديرة التي يقيم بها زمنا طويلا في بعض الأحيان . لقد أصبح ماكار  
ايفانوفتش جواً أباً يضرب في الأرض ولا يستقر في مكان . وكان لا يطلب  
في يوم من الأيام شيئاً البتة . لكنه كان يجيء الى البيت ثلاث مرات في  
السنة بلا تخلف ، فيتلبث قليلا عند أمي التي كان لها منزل خاص بها  
دائماً ، مستقل عن منزل فرسيلوف . سوف أعود الى الكلام على هذا  
الأمر فيما بعد . وحسبي أن أذكر الآن أن ماكار ايفانوفتش لم يكن  
يسترخي على مقاعد الصالون الوثيرة ، بل كان يجلس في مكان ما وراء

حاجز من الحواجز متواضعا • وكان لا يمكث مدة طويلة : فما هي  
الا خمسة أيام أو أسبوع حتى يرحل •

نسيت أن أقول انه كان يحب كثيرا ويحترم كثيرا اسمه ،  
دولجوروكى • ومن الواضح أن هذا منه سخف مضحك • وأسخف  
ما فى الأمر أن هذا الاسم انما يعجبه ويرضيه لأن هناك أمراء يسمون  
دولجوروكى • ألا ما أعجبه من تصور هو نقيض ما يوحي به الحسن  
السليم !

قلت ان الأسرة كانت مجتمعة الشمل دائما ، ولكن بدونى طبعاً •  
كنت كمن رمى خارج السفينة ، فما كدت أولد حتى عهد بى الى غرباء •  
ولم يكن ذلك مقصودا متعمدا ، فحين ولدتنى أمى كانت لا تزال شابة  
جميلة ، وكانت اذن تنفع فرسيلوف نفعا ما ، ولا بد أن يزعجه أن  
يصحبهما طفل صغير كثير الصراخ ، وخاصة أثناء الأسفار • فذلكم هو  
السبب فى أننى بلغت من عمرى العام العشرين دون أن أرى أمى تقريبا ،  
فيما عدا مناسبتين أو ثلاث مناسبات عارضة • ولم تكن عواطف أمى هى  
السبب فى ذلك ، وانما كان السبب فى ذلك تكبر أبى على الناس •



والان هنالك شيء اخر مختلف عن هذا كل الاختلاف •

منذ شهر ، أى قبل اليوم التاسع عشر من ايلول ( سبتمبر ) ، قررت وأنا فى موسكو أن أعدل عنهم جميعا وأن أنطوى على « فكرتى » انطواء نهائيا • واذا كنت أكتب هذه العبارة « أن أنطوى على فكرتى انطواء نهائيا » فلأن هذا التعبير يمكن أن يصور كامل رأيى الأساسى تقريبا • أما ما هى هذه الفكرة فسوف أتحدث عنها فيما يلى من صفحات هذا الكتاب ، بل سوف أسهب فى الحديث عنها • لقد تكونت فكرتى هذه أثناء وحدتى الحاملة سنين طويلة من حياتى بموسكو منذ أيام الدراسة ، ثم لم تتركنى بعد ذلك لحظة واحدة ، بل ابتلعت وجودى كله ابتلاعا • ولقد كنت أعيش فى الأحلام أيضا قبل أن تثبت هذه الفكرة فى نفسى ، فأنتى قد عشت فى عالم مسحور آخر ، منذ طفولتى الفضة ، غير أن أحلامي ، حين بزغت فى نفسى هذه الفكرة الأساسية التى التهمتني التهاما ، قد اشتدت وترسخت واكتست على الفور صورة محددة ، فإذا هى أحلام عاقلة بعد أن كانت أحلاما سخيفة • ان المدرسة الثانوية التى تابعت فيها دراستى لم تكن تمنع أحلامي ، ولا هى منعت بعد ذلك فكرتى • ولكننى أحب أن أضيف الى ذلك أن السنة الأخيرة التى قضيتها فى المدرسة كانت سنة سيئة ، على أتنى كنت خلال سائر السنين الأولى متفوقا أحتل بين رفاقى أولى الصفوف ؛ وذلك يرجع الى فكرتى تلك نفسها ، والى النتيجة التى استخرجتها منها والتى لعلها كانت خطأ • وهكذا فان المدرسة لم تترقل الفكرة ، غير أن الفكرة عرقلت المدرسة • وقد عرقلت الجامعة أيضا • ذلك أتنى منذ أنهيت دراستى الثانوية عزمت

أمري لا على هجر أهلي هجرا حاسما فحسب ، بل كذلك على هجر العالم كله اذا اقتضى الأمر ، رغم أنني كنت ما أزال في العشرين من عمري • فكتبت الى من يجب عليّ أن أكتب اليهم ، ومن يحق لي أن أكتب اليهم بيطرسبرج ، طالبا أن يدعوني وشأنى نهائيا ، وأن لا يرسلوا اليّ بعد الآن مالا لمعيشتي ، وأن ينسوني نسيانا كاملا اذا أمكن الأمر ( هذا اذا خطرت بالهم طبعا ) ، وقائلا انني لن أدخل الجامعة قطعا بحال من الأحوال • ذلك أنني كنت أمام أمرين لا ثالث لهما ، ولا بد أن أختار أحدهما : فاما أن أدخل الجامعة فأرجىء الشروع في تنفيذ فكرتي أربع سنين واما أن لا أدخل الجامعة • وقد اخترت الثانية بغير تردد ، لأنني كنت مقتنعا بذلك اقتناعا رياضيا • وجاءني ردّ فرسيلوف ، أبي الذي رأيتة طوال حياتي مرة واحدة خلال لحظة قصيرة ( والذي اتسع وقته في تلك اللحظة لأن يذهلني ) أقول جاءني رد فرسيلوف على رسالتي التي لم أوجهها اليه على كل حال ، يدعوني ، ببطاقة كتبها بخط يده ، أن أجيء الى بطرسبرج ؟ ويعدني بوظيفة لدى « شخص » • ان هذه الدعوة التي تصلني من رجل جاق المزاج متكبر الطبع صلف الخلق ، من رجل أهملني هذا الاهمال كله ، ولم يكتف ، بعد أن جاء بي الى هذه الحياة وعهد بي الى غرباء ، بأن لا يعرفني بعد ذلك ؟ بل لم يشعر أيضا بشيء من ندامة على ما جنت يده ( ومن يدري فعمله كان خالي البال الا من فكرة غامضة عن وجودي ، لأنه ، وقد ثبت هذا بعدئذ ، لم يكن هو الذي ينفق على معيشتي بموسكو ، بل كان يتولى ذلك آخرون ) ؟ أقول ان هذه الدعوة التي تصلني من هذا الرجل الذي تذكرني على حين فجأة وشرفني بتوجيه رسالة اليّ كتبها بط يده ، قد دغدغت غروري فحددت مصيري • هناك شيء غريب : ان ما أعجبنى في هذه البطاقة ، بين ما أعجبنى فيها ( وكانت صفحة قصيرة على ورقة صغيرة ) هو أنه لم يذكر الجامعة بكلمة واحدة ، ولم يسألني أن أعير رأبي ، ولا أخذ عليّ أنني

لا أريد أن أتابع دراستي ، أى أنه لم يعمد الى شيء من ذلك الكلام الكثير الذى ألف الآباء أن يزجوه لأبنائهم معاداً مكروراً فى مثل هذه الحالات . ومع ذلك فإن هذا بعينه هو ما كان سيئاً منه ، لأنه شاهد جديد على أنه لا يحفل بى ولا يكثر بأمرى . وقررت أن أسافر لسبب آخر أيضاً ، هو أن هذا السفر لن يعوق حلمى الأساسى . قلت لى : «سرى ما يحدث . ولن أرتبط بهم الا زمنياً على كل حال ، زمنياً قد يكون قصيراً جداً . فمتى لاحظت أن هذه الخطوة ، على تفاهتها ، ستصرفنى عن الأمر الأساسى ، قطعت صلتى بهم فوراً ، وتركت كل شيء عائداً الى قوقعتى ، نعم الى قوقعتى ، ولطوت هنالك كسلاحفة . . . ووقع هذا التشبيه فى نفسى موقع الاعجاب الشديد . « ولن أكون وحيداً » ، كذلك استمرت أجرى حساباتى راکضاً من أقصى موسكو الى أقصاها فى تلك الأيام الأخيرة . « لا لن أكون وحيداً ، كما كنت كذلك حتى الآن خلال هذه الأعوام الرهية كلها : بل ستصحبنى فكرتى التى لن أخونها يوماً ، ولو أعجبونى جميعاً هنالك ، ولو وهبوا لى السعادة ، ولو عشت معهم عشر سنين ! » وأستبق الأمور فأقول : هذا هو الشعور الذى خالط نفسى وهذا هو ازدواج الخطط الذى نشأ فى ذهنى وأنا بموسكو ثم لم يارحانى لحظة واحدة ببطرسبرج ( لا أدري هل مررت بى ، وأنا فى بطرسبرج ، يوم واحد لم أحدد لى فى أى قطعتى معهم ومغادرتى ببطرسبرج ) . وأعتقد أن هذا الازدواج كان هو السبب فيما اندفعت اليه من تهور أثناء تلك السنة ، وفيما قارفت من أمور بشعة ، بل فيما انحدرت اليه من صغار ، ناهيك طبعاً عما ارتكبت من حماقات .

لقد ظهر فى حياتى على حين غرة أبٌ لم يكن يوجد قبل ذلك . وأسكرتتى هذه الفكرة أثناء استعدادى للسفر بموسكو ، وأثناء ركوب القطار الى بطرسبرج . أن يكون لى أب فذلك لم يكن الى ذلك الحين شيئاً ، وما أنا ممن يحبون الحنان والدلال : ولكن هذا الرجل لم يشأ أن

يعرفنى ، حتى لقد أذلتنى ؛ على حين أننى كنت طوال تلك الأعوام كلها لا تنصرف أحلامي الا اليه ، حتى لأبلغ من ذلك حد الشبع ( اذا صح ان توصف الأحلام بمثل هذا ) • كان كل حلم من أحلامي منذ طفولتى يتجه اليه ويحوم حوله ويرتد أخسر الأمر نحوه • لا أدرى أكنت أكرهه أم كنت أحبه ، ولكنه كان يملأ مستقبلى كله ، وكان يملأ جميع تنبؤاتى عن الحياة ، وقد جاءنى هذا الشئ من تلقاء نفسه ، وكان يقوى مع تقدمى فى السن يوماً بعد يوم •

وهناك ظرف قوى كان له أيضاً أثر كبير فى سفرى من موسكو • ان ثمة اغراء كان قد قام فى نفسى قبل سفرى بثلاثة أشهر ( ومعنى هذا قبل أن ترد مسألة السفر الى بطرسبرج ) ، فارتعش له قلبى وخفق ! ان ما كان يجذبنى الى ذلك الخضم المجهول هو أننى كنت أستطيع أن أدخل اليه سيداً ، وأن أحكم فيه مصير غيرى • وأى غير ! غير أن عواطف نبيلة لا مشاعر طاغية هى التى كانت تغلى فى نفسى • وأبادر فأقول سلفاً ، حتى لا يوقع كلامى القارىء فى الخطأ ، ان فرسيلوف كان يمكن أن يقدر ( اذا هو رضى أن يفكر فى أمرى ) أن يستقبلنى استقبال فتى صغير خرج أمس من المدرسة الثانوية ، استقبال مراهق غر تحملق عيناه حين يرى النور • ولكننى كنت أعلم كل ما فى جوفه ، وكنت أملك فى عبي وثيقة خطيرة كل الخطورة ، وثيقة لا يتردد أن يهب عدة سنين من عمره ( وأنا أعلم الآن ذلك علم اليقين ) فى سبيل أن أطلعه على سرها • على أننى ألاحظ أننى أتكلم فى ألغاز وأحجيات • ان من المستحيل على المرء أن يصف عواطف دون أن يذكر وقائع • وسوف يجرى الحديث عن كل هذا تفصيلاً فى حينه ، ومن أجل ذلك انما أمسكت بالقلم • لأن يكتب المرء بهذه الطريقة ، فكأنه يهذى أو كأنه يسبح فى النجوم •

## ٧

من أجل أن أصل أخيراً الى اليوم التاسع عشر من شهر ايلول (سبتمبر) سأذكر ، موجزاً وعابراً ، أنني قد وجدتهم جميعاً ، أعني فرسيلوف ، وأمي ، وأختي ( التي أراها أول مرة في حياتي ) على حالة أليمة من الفاقة والعوز ، فهم يعيشون فيما يشبه البؤس أو هم يوشكون أن يصبحوا على البؤس في غد قريب . كنت قد عرفت ذلك بموسكو ، ولكنني لم افترض أن يكونوا قد بلغوا من الفقر هذا المبلغ . لقد تعودت منذ طفولتي أن أتصور هذا الرجل ( أعني أبي في المستقبل ) عظيم المهابة كأنه هالة لألاءة ؛ ولم أكن أستطيع أن أتخيله الا محتلاً أولى المراكز بين الناس . ان فرسيلوف لم يسكن يوماً مع أمي ، فكان يستأجر لها منزلاً خاصاً : ولا ريب في أنه كان يفعل هذا ترفماً واحتشاماً . أما الآن فهم يقيمون جميعاً في منزل واحد هو جناح خشبي في شارع صغير من حي سيمينوفسكى . وكان أثاث المنزل كله قد رُهن ، حتى لقد اضطرت أن أعطي أمي على غير علم فرسيلوف ، الروبلات الستين العجيبة التي كانت معي : أقول عجيبة لأنها حصيلة ما كنزته من مصروفي الذي كنت أعطاه خمس روبلات في الشهر على مدى ستين : ولقد بدأت أكنز هنا الكنز منذ بزغت « فكرتي » في رأسي . لذلك كان فرسيلوف لا يعرف شيئاً عن هذا المبلغ .

ولم تكن هذه المساعدة التي قدمتها لأمي الا قطرة في خضم . لقد كانت أمي وأختي تقومان بأعمال خياطة . أما فرسيلوف فكان يعيش عاطلاً ، كثير النزوات ، ولا يزال يحتفظ بطائفة كبيرة من عادات تقنضي نققات باهظة . كان صعب المراس كثير المطالب ، ولا سيما على المائدة ،

وكانت جميع حركاته وسكناته تدل على أنه امرؤ طاغية . ولكن أمي وأختي وتاتيانا بافلوفنا وجميع أفراد أسرة المرحوم أندرونيكوف ( وهو مدير مكتب في إحدى الدوائر توفي منذ ثلاثة أشهر وكان يعالج أمور فرسيلوف ) وهم عدد لا نهاية له من النساء ، كان هؤلاء جميعاً يركعون أمامه ركوعهم أمام تمثال معبود . كنت لا أستطيع أن أتصور منظرأ كهذا المنظر . يجب أن أقول انه كان منذ تسع سنين أرق حاشية وأشد فتنة . لقد سبق أن قلت انه كان يبدو لي في أحلامي حالة لألاءة ، لذلك صعب على أن أعتقد أن يكون الهرم والبلى قد دبا إليه في مدى سنين تسع لا أكثر ، فسرعان ما شعرت من ذلك بحزن وشفقة وخجل . حتى أن رؤيتي اياه أول وصولي قد احدثت في نفسي شعوراً كان من أقسى ما أحسست به من عواطف في ذلك اليوم . انه لم يكن شيخاً ، فهو لا يزال في الخامسة والأربعين لم يتجاوزها . وحين أنعمت النظر فيه اكتشفت في جماله شيئاً يخطف البصر أكثر من كل ما احتفظت به ذاكرتي من ملامح جماله . صحيح أنه أصبح أقل تالقاً ، وأبسط مظهرأ ، وأدنى أناقة ، ولكن الحياة قد نقشت على وجهه ما فيها من تعقد ، فأضفت عليه معاني جديدة .

ومع ذلك كان الفقر أيسر هموم فرسيلوف قاطبة . لقد عرفت هذا حق المعرفة . كان هنالك ، عدا الفقر ، أشياء أعظم شأنها وأكثر جدأ ، ناهيك عن الأمل الذي لا يزال يحتفظ به ، وهو أن يكسب الدعوى التي أقيمت منذ عام ، والتي سيفصل فيها القضاء بينه وبين الأمراء سوكولسكى بشأن ميراثه ، والتي قد تهيئه بعد زمن قصير بأملاك يقدر ثمنها بسبعين ألف روبل ، وربما قدّر بأكثر من ذلك .

سبق أن قلت ان فرسيلوف هذا كان قد أتلف في حياته ثلاثة موارد : فلمه سينقذ مرة أخرى بميراث جديد ! والمفروض أن يتم الفصل في القضية وصدور الحكم قريباً جداً . وقد وصلت اليهم وهم

على هذا الأمل يحيون • غير أن أحداً لا يقرض مالا بالاستناد الى أمل ، فلم يكن هنالك من يستطيعون الاقتراض منه ، فكانوا يعانون من العذاب ما يعانون بانتظار أن يأتي الفرج •

على أن فرسيلوف لم يكن يذهب الى أحد يلتمس منه العون والوساطة ، رغم أنه كان يقضى نهاره كله خارج المنزل فى كثير من الأحيان • لقد طرد من المجتمع الراقى منذ ما يزيد على عام • وقد ظلمت عاجزاً عن تفسير هذا الأمر رغم جميع ما بذلت من جهود ، ورغم انقضاء شهر بكامله على اقامتى ببطرسبرج • أكان فرسيلوف مذنباً أم لا ؟ ذلك ما كان يهمنى أن أعرفه • وذلك ما من أجله جئت • لقد أدار الناس كافةً ظهورهم له - ومنهم جميع الشخصيات التى تملك نفوذاً والتى استطاع أن يكون له بها صلات سابقة - وذلك بسبب اشاعات ذاعت عن سلوكه شائن سلكه فى ألمانيا قبل ذلك بعام ، بل عن سلوكه فاضح الى أقصى حد ، وذلك فى نظر الناس أنكى وأدهى ؛ حتى لقد قيل انه تلقى يومئذ على مشهد من الناس صفة كالحا له أمير من الأمراء سوكولسكى ، ثم لم يرد هو عليها بأى تحد • فحتى ولداه ( الشرعيان ) ، ابنه وابنته ، أدارا له ظهريهما وأشاحا وجهيهما ، وعاشا منفصلين عنه • ولقد كان هذا الابن وهذه البنت يختلفان الى أرقى المجتمعات بواسطة أسرة فاناريوتوف وبواسطة الأمير العجوز سوكولسكى ( صديق فرسيلوف سابقاً ) • ولكننى حين أنعمت النظر فى الرجل خلال هذا الشهر ، رأيت انساناً عزيز النفس متكبر الطبع لم يبعده المجتمع بل أبعد هو المجتمع - فالى هذا الحد كان يظهر بمظهر الاستقلال ! ولكن هل كان يحق له أن يظهر بهذا المظهر ؟ ذلك ما كان يشغل بالى ويقلق نفسى ! وكان علىّ حتماً أن أعرف الحقيقة كاملةً فى أقصر مدة ، لأننى انما جئت لأقطع برأى فى الرجل • كنت ما أزال أخفى عنه قواى ، ولكن كان علىّ أن أتخذ أحد موقفين : فاما أن أرتضيه ، واما أن أرفضه وأنبذه نبذاً كاملاً • وكان الحل الثانى سيؤلمنى

أشد الألم ، لذلك كنت فى عذاب وقلق • وسأعترف الآن بشيء : لقا هذا الرجل عزيزاً على نفسى •

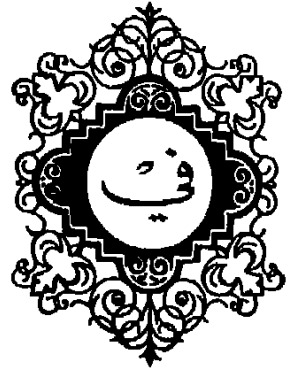
أقمت معهم حتى الآن فى ذلك المنزل نفسه ، وكنت أعمل ، يصعب على أن أمنع نفسى عن بعض الفظاظات • كنت لا أمتنع عن الفظاظات تماماً •

وبعد انقضاء شهر أصبحت ازداد اقتناعاً ، يوماً بعد يوم ، بأن الـ النهائى يجب أن لا أنشده لـديه هو • لقد كان هذا الرجل الصلف يـ أمام عينى لغزاً يحير عقلى ويجرح نفسى جرحاً عميقاً • كان هو ملاطفاً مدارياً ، أما أنا فكنت معه أميل الى المشاجرات منى الى الملا والأمازيح • كانت جميع أحاديثى معه تشتمل على شيء من الالتبا أو تشتمل فى أقل تقدير على نوع من سخريه غريبه من جانبه • اذ البداية ، أى منذ وصولى من موسكو ، لم يأخذنى مأخذ الجد • ولم أـ أن أفهم لماذا كان يعاملنى على هذا النحو • لعله كان قد اقتنع بأـ الضرورى أن يظل مستغلقاً على فهمى • ولكننى ، من جهتى ، كنت أـ أن أتنازل فأسأله أن يعاملنى بمزيد من الجد • أضف الى ذلك أنه له أساليب عجيبه صارمة لا أملك ازاءها أن أعرف ماذا يجب على أعمل • وخلاصة القول انه كان يعاملنى كما يعامل فتى غر ، وذلك ما يؤلنى احتمالاه ، رغم علمى بأن الأمور لا بد أن تجرى هذا المجر وكانت نتيجة ذلك كله أننى انقطعت عن الكلام انقطاعاً يشبه أن يـ تماماً • كنت أنتظر شخصاً سيصل الى بطرسبرج فى وسعه أن يكشف عن الحقيقة نهائياً : فعلى ذلك كنت أعقد آخر أمل لى • ومهما يـ أمر فقد وطنت العزم على القطيعة النهائية ، واتخذت جميع الاجر اللازمة لذلك • كانت أمى تثير شفقتى • ولكن : « اما هو ، واما أنا ذلك ما كنت أريد أن أقترحه عليهما ، أعنى أن أقترحه على أبى وأخـ حتى لقد حددت اليوم • وبانتظار ذلك ، كنت أذهب الى مكتبى •



## الفصل الثاني

١



ذلك اليوم التاسع عشر من شهر أيلول  
 ( سبتمبر ) كان على أيضاً أن أقبض راتب شهرى  
 الأول لدى « الشخص » المذكور . انهم لم  
 يسألونى رأى فى هذه الوظيفة ، بل اكتفوا  
 بأخذى اليه فى اليوم الأول من وصولى فيما أظن . هو رجل على جانب  
 كبير من الفظاظه ، حتى لقد أوشكت أن أضطر الى الاحتجاج . ان  
 الوظيفة التى 'عينت لها هى فى منزل الأمير العجوز سوكولسكى . ولكن  
 الاحتجاج سيكون معناه القطيعة معهم فوراً ، وذلك أمر لم يكن يخيفنى  
 أبداً ، غير أنه يخالف ما رسمته لى من أهداف أساسية . لذلك قبلت  
 المنصب صابراً ، مكتفياً من الدفاع عن كرامتى بالصمت . ويجب أن  
 أبادر فأذكر أن هذا الأمير سوكولسكى ، وهو رجل غنى ومستشار  
 خاص ، لم يكن يمت بقربى الى الأمراء سوكولسكى بموسكو ، الذين  
 آلوا الى الفقر والبؤس منذ سنين ، والذين كان بينهم وبين فرسيلوف  
 دعوى ينظر فيها القضاء . لم يكن بينه وبينهم الا التشابه فى الاسم . ومع  
 ذلك كان الأمير العجوز يهتم بأمرهم كثيراً ، ويحب أكبرهم حباً خاصاً ،  
 وهو ضابط شباب 'يعد' رئيس الأسرة ان صح التعبير . ولقد كان

لفرسيلوف ، فى الماضى ، تأثير كبير على أمور هذا الشيخ ، وكان صديقه ، بل كان له ولياً حقيقياً ، لأن هذا الأمير المسكين ( وقد أدركت ذلك فيما بعد ) كان يخشاه خشية رهيبية ، لا حين دخلت فى خدمته فحسب ، بل فى جميع الأوقات فيما أظن ، ما ظلت صداقتهما قائمة . على أنهما كانا قد أصبحا منذ زمن لا يلقى أحدهما الآخر . فإن الفعل الشائن الذى اتهم به فرسيلوف إنما كان يتعلق بأسرة الأمير نفسه . ولكن الحظ شاء أن تكون تاتيانا بافلوفنا هنالك ، وبواسطتها إنما تم توظيفى لدى العجوز الذى أراد أن يكون معه شاب يقيم الى جانبه فى المكتب . وقد اتفق أيضاً أنه أراد أن يسرّ فرسيلوف ، وأن يخطو هو نحوه الخطوة الأولى ، اتفق أن أراد فرسيلوف ذلك أيضاً . هذا ما قرره الأمير العجوز فى غيبة ابنته ، التى مات عنها زوجها الجنرال ، والتى كان لا يمكن حتماً أن ترضى عن خطوة كهذه . سوف أتحدث عن هذا الأمر فيما بعد ، ولكننى أريد أن أذكر فوراً ان غرابة هذه العلاقة بين العجوز وبين فرسيلوف قد لفتت نظرى كثيراً ، وجعلتني أحسن الظن بفرسيلوف . قلت لنفسي : اذا استمر رئيس أسرة أهينت كرامتها هذا الاستمرار على احترام فرسيلوف ، فذلك دليل على أن الاشاعات التى ذاعت عن سقوط أخلاق فرسيلوف اشاعات كاذبة ، أو اشاعات تحتمل التأويل فى أقل تقدير . وهذا بعض ما منغنى من الاحتجاج : فلقد كنت آمل أن يمكننى دخولى فى خدمة الأمير من التحقق من هذه الأمور كلها .

كانت تاتيانا بافلوفنا هذه تلمب دوراً خاصاً حين وجدتها فى بطرسبرج . كنت قد نسيت وجودها أو كدت ، ولم أتوقع قط أن أرى لها من خطورة الشأن وعلو المنزلة ما رأيت . كنت قد قابلتها حتى ذلك الحين ثلاث مرات أو أربعاً بموسكو . كانت تبتجس لا أدرى من أين ولا بأمر ممن من الناس ، كلما كان يجب أن تسكننى منزلاً ، أو أن تدخلنى ذلك المعهد الداخلى الكالج الحزين ، معهد توشار ، أو أن تنقلنى

بعد ذلك بستين ونصف سنة الى المدرسة الثانوية ، أو تنزلى عند يقولوا  
سيمينيفتش الذى لا يمكن أن أُنسى ذكرها . وكانت ، كلما ظهرت ،  
تبقى سحابة النهار ، تستعرض غسيلي وملابسي وتمضى معى الى  
كوزنتسكى أو الى السوق فتشترى لى الأمتعة اللازمة ، وتجهزنى بكل ما  
أنا فى حاجة اليه ، من آخر علبه الى آخر موسى . وكانت وهى تفعل ذلك  
لا تنقطع عن تقرىعى وتوبيخى وانغراقى بأنواع اللوم ، ولا تكف عن  
امتحانى ، وعن ضرب أمثلة لى بأولاد آخرين من أصحابها أو أقاربها  
( هم من خلق خيالها ) قائلةً انهم جميعاً خير منى فى رأيها ، حتى لقد  
كانت لا تتورع ، والله ، عن قرصى وضربى ضرباً موجعاً مرات كثيرة .  
حتى اذا فرغت من اسكانى وتأمين الاستقرار لى اختفت عدة سنين دون  
أن تترك لى أثراً من آثارها . ان هذه المرأة هى التى تولت الاهتمام بأمرى  
من جديد فور وصولى الى بطرسبرج ، فوظفتنى لدى الأمير العجوز .  
هى امرأة قصيرة القامة جافة الطبع ، ذات أنف دقيق حاد كأنف غصفور ،  
عينين صغيرتين ثاقبتين تشبهان أعين العصافير أيضاً . ولقد كانت ازاء  
فرسيلوف أشبه بعيد : تقف منه موقف العابد كأنها أمام البابا ، ولكنها  
تفعل ذلك عن اقتناع وايمان . على أننى سرعان ما لاحظت ، على غير قليل  
من الدهشة ، أن الناس جميعاً بغير استثناء ، وفى كل مكان ، يحضونها  
احتراماً خالصاً ، ولاحظت خاصة أن الناس جميعاً بغير استثناء وفى كل  
مكان يعرفونها . وكان الأمير العجوز سو كولسكى يقدسها تقديساً .  
وكذلك كان شأنها بين أفراد أسرتها . وكذلك كان شأنها أيضاً مع ولدى  
فرسيلوف المتعجرفين ، ومع أعضاء أسرة فاناريوتوف . ومع ذلك كانت  
تجنى رزقها من الخياطة والغسيل والتطريز ، وتعمل لأحد المخازن فى  
بطرسبرج . وقد تشاجرنا منذ أول كلمة تبادلناها ، لأنها طمعت أن  
توبيخنى كما كانت تفعل ذلك منذ ست سنين ؛ وظللنا تتشاجر كل يوم .  
ولكن ذلك لم يكن يمنعنا من التحادث أحياناً ، وانى لأعترف بأنها أخذت

تحظى باعجابى بعد شهر ؛ وانما يرجع ذلك فى رأى الى ما كانت تصف به من استقلال الطبع ؛ على أنى حاذرت أن أعلن لها ذلك أو أن أشير اليه .

وسرعان ما فهمت أنهم « وظفونى » لدى هذا العجوز المريض لا شىء الا أن « أملاً فراغه » ، وأدركت أن مهمتى كلها هى القيام بهذا العمل . وقد شعرت من ذلك بشىء من المذلة طبعاً ، وما لبثت أن اتخذت اجراءاتى ، ولكن ما كاد ينقضى وقت قصير حتى أحدث هذا الشيخ الغريب فى نفسى أثراً لم يكن فى الحسين ، أثراً هو نوع من الشفقة عليه ، وأصبحت فى آخر الشهر أحس نحوه بارتباط عجيب : وأياً كان الأمر فقد تركت ما كنت قد عقدت عليه العزم من القضاظه فى معاملته . ولم تكن سنه تتجاوز الستين على كل حال . وكانت قد وقعت له حادثة تشبه أن تكون قصة كاملة . لقد أصيب قبل ثمانية عشر شهراً بنوبة عقلية ، بينما كان مسافراً لا أدرى الى أين فقد صوابه أثناء الطريق ، فكان ذلك فضيحة تحدث الناس عنها فى بطرسبرج . وكما يجدر فى مثل هذه الأحوال ، أرسل الرجل الى الخارج ، فما هى الا خمسة أشهر حتى عاد الى روسيا سليماً معافى ، ولكن متقاعدأ . وقد أكد فرسيلوف جداً ( بحماسة واضحة ) أن ما حدث لصاحبه لم يكن جنوناً قط ، وانما كان نوبة عصبية بسيطة . وانى لأكاد أشاركة هذا الرأى . ان كل ما كان يبدو على العجوز هو شىء من خفة لا تليق بسنه كثيراً ، خفة يقال انها لم تظهر فيه يوماً قبل ذلك . قالوا انه كان فى الماضى مستشاراً يبذل النصيح فى مكان ما ، وانه قد عهد اليه يوماً بالقيام بمهمة فأحسن القيام بها على خير وجه . غير أنى ، وقد عرفته منذ شهر ، ما كان لى أن أقدر أن له كفاءات خاصة تؤهله لأن يكون مستشاراً . وقد لاحظوا ( رغم أنى لم ألاحظ أنا شيئاً من ذلك ) أنه أصبح بعد إصابته بتلك النوبة مأخوذاً برغبة قوية فى أن يتزوج سريعاً ، وأنه خلال هذه الأشهر الثمانية

عشر قد فكر في تحقيق هذه الفكرة غير مرة • يظهر أن الناس كانوا يعرفون ذلك ، ويهتمون به • ولكن لما كان هذا الميل لا يتفق كثيراً ومصالح بعض الذين حوله ، فقد كانوا يحيطون العجوز بسياج من كل جهة • لم تكن أسرته كبيرة العدد • لقد ترمل منذ عشرين عاماً ، وليس له الا ابنة وحيدة هي أرملة الجنرال التي يتوقعون وصولها من موسكو بين يوم ويوم ، وهي شابة كان واضحاً أن أباه يخشى طبعها • غير أن للشيخ طائفة من الأفراد يمتون اليه بقربات بعيدة ، وخاصة من جهة زوجته المتوفاة ، وكان هؤلاء جميعاً يعيشون في فاقة وبؤس • يضاف الى هؤلاء ذلك الجمع من الأيتام الذكور والأناث الذين كان يحسن اليهم ويتصدق عليهم ، ويتوقعون أن يجعل لهم في وصيته نصيباً ، ويشتركون لذلك في احكام الرقابة عليه • يضاف الى هذا أيضاً أنه كان منذ شبابه يتصف بخصلة لا أدري أهى مضحكة أم لا : تلك هي رغبته في تزويج الفتيات الفقيرات • انه يزوج فتيات فقيرات منذ خمسة وعشرين عاماً : بعضهن تصله بهن قرابات بعيدة ، وبعضهن أخوات لزوجات أبناء أعمام زوجته ، وبعضهن يربطه بهن أنه كان لهن عراًباً ، حتى ان منهن واحدة كانت بنت بواب منزله • كان يكفلهن صغاراً ، فيعهد بتنشئتهن الى مربيات وخادمات فرنسيات في أول الأمر ، ثم يرسلهن الى أحسن المؤسسات التعليمية ، حتى اذا بلغن مرحلة الزواج دفع لهن مهورهن • فكان هؤلاء الناس جميعاً يحومون حوله بغير انقطاع • وطبعى اذا تزوجت هذه اليتيمات أن يلدن بنات ، فكانت هاته البنات جميعاً تطمع في رعايته ، وكان هو عراًبهن جميعاً ، وكان هذا الجمع كله من الناس يتوافد عليه في أعياده مهتئاً مباركاً ، وكان هو يجد في ذلك متعة لا تفوقها متعة •

وحين صرت في بيته ، سرعان ملاحظت - وكان يستحيل على المرء أن لا يلاحظ ذلك - أنه قد استقر في دماغ العجوز اقتناع أليم بأن الناس أصبحوا ينظرون اليه نظرة غريبة ، وأصبحوا لا يعاملونه كما

كانوا يعاملونه في الماضي أيامَ كان يملك صحته كاملةً ، كان هذا الشعور لا يبارحه أبداً ، حتى أثناء اجتماعات بالناس يسودها أكثر الأجواء مرحاً وفرحاً . لقد أصبح الشيخ مفرط الحساسية سريع التأذى . كان يلاحظ شيئاً في جميع الأعين . وكان يعذبه تعذيباً واضحاً أن يتصور أن الناس لا يزالون يتخلون فيه جنونا . حتى لقد كان يتفرد في وجهي أنا مشتبهاً مرتاباً . وأحسب أنه لو علم يوماً أن أحد الناس أذاع أو أكد هذه الاشاعة لأضمر له عداوة قاتلة رغم أنه انسان لا يعرف قلبه الحقد أبداً . ذلك ما أريد أن يبقى مائلاً في ذهن القارئ . وأضيف إليه أن هذا أيضاً هو ما جعلني أعزم أمرى منذ أول يوم على أن لا أغلظ له القول . حتى لقد كنت أشعر بالسعادة يوم تتيح لي المصادفات أن أفرحه أو أن أسأله : وما أعتقد أن هذا الاعتراف يمكن أن يلقي على كرامتي ظلاً .

ولقد وضع جزءاً كبيراً من ثروته في مشروعات . وساهم بعد مرضه في شركة كبيرة قوية جداً . ورغم أن هذا المشروع كان يديره آخرون فقد كان يهتم به اهتماماً شديداً ، فهو يحضر اجتماعات المساهمين ، وينتخب عضواً مؤسساً ، ويتراأس بعض المجالس ، ويلقى خطباً مسهبة ، ويناقش ويعترض ، يفعل ذلك كله مقتبلاً به راضياً عنه . وكان يعشق لقاء الخطب : فان ذلك يتيح للناس أن يلاحظوا قوة فكره على الأقل . ويمكن أن أقول على وجه العموم انه كان حتى في حياته الخاصة الصميمية يحب كثيراً أن يدخل في الحديث بعض الأقوال العميقة أو بعض الكلمات الجميلة . ولست استغرب منه هذا . ولقد كان في الطابق الأدنى من الدار نوع من مكتب منزلي ، يعمل فيه مستخدم يسير الأعمال ويجري الحسابات ، ويمسك الدفاتر ، عدا قيامه بإدارة شؤون المنزل . ولقد كان هذا المستخدم ، الذي يشغل عدا ذلك وظيفة رسمية ، ينهض بالعمل نهوضاً كافياً ، ولكنهم أضافوني إليه تنفيذاً لرغبة الأمير ، بحجة أنني سأساعده في عمله . ولكنني ما لبثت أن نقلت الى حجرة الأمير ، فلم يكن أمامي

هناك ، ولو من قبيل مراعاة الشكل ، لا عمل ولا أوراق ولا كتب •

اننى أكتب الآن كما يكتب انسان فقد نشوة الحماسة منذ زمن طويل ، وعدل عن كثير من الأمور • فكيف أستطيع أن أصور ذلك الحزن ( الذى مازلت أذكره جيداً قوياً ) الذى ملأ يومئذ قلبى ، وكيف أصور خاصة ذلك الاضطراب الذى استبد يومئذ بى حتى قادنى الى حالة من القلق والهياج بلغت من القوة اننى أصبحت مسهداً لا أعرف الى النوم سيلاً من نفاذ صبرى على الألفاظ التى كنت أطرحها على نفسى بنفسى •

أن يطلب المرء مالاً فذلك طلب حقير جداً ، ولو كان طلباً لأجر ، اذا كان المرء يحس في ركن من أركان ضميره أنه لم يستحق هذا الأجر ، وبالأمر همست أمي في أذن أختي ، على غير علم من فرسيلوف ( حتى لا تسبب ألاماً لأندره بتروفتش ) تقول لها ان في نيتها أن ترهن لدى « بنك التسليف » « أيقونة » كانت تحرص عليها حرصاً شديداً . وكان لي أجر هو خمسون روبلاً في الشهر ، ولكنني كنت أجهل كل الجهل كيف أقبض هذا الأجر ، فانهم لم يذكروا شيئاً واضحاً عن هذا الأمر حين أسندوا اليّ هذه الوظيفة . وكنت قبل ذلك بثلاثة أيام قد سألت المستخدم الذي يعمل في الطابق الأدنى : أين أقبض أجرى ؟ فنظر ليّ بابتسامة انسان دهش ( وكان لا يحبني ) ، ثم قال :

- هل لك راتب تقبضه ؟

وتوقعت أن يضيف الي سؤاله بعد جوابي على الفور :

- وعلام يكون لك راتب ؟

ولكنه اقتصر على الاجابة في جفاف قائلاً : « لا أدري » ، ثم أكبر على دفتره المخطط الذي كان ينقل اليه حسابات سجلت على وريقات . وكان مع ذلك لا يجهل أنني أقوم بعمل . حتى أنني قبل ذلك بخمسة عشر يوماً قد أنفقت أربعة أيام كاملة في عمل عهد به اليّ هو نفسه : وهو نسخ مسودة . وقد اضطرت في الواقع الي صياغة النص كله صياغة جديدة . وكان الأمر أمر مجموعة من « أفكار » للأمير كان يتهاى لتقديمها الي لجنة المساهمين . فكان عليّ أن أنشيء من شتاتها كلا منسجماً ، وأن أصلح الأسلوب . وقد قضينا بعد ذلك مع الأمير ، أنا وهو ، يوماً



بكامله ننظر فى هذه الورقة ، فناقشنى الأمير مناقشة حارة جداً ، ولكنه رضى عنها آخر الأمر . على أننى لا أدرى أقدّمت الورقة الى لجنة المساهمين أم لا . هنا عدا رسالتين أو ثلاثاً من رسائل الأعمال توليت أنا كتابتها بطلب منه .

وإذا أزعجنى أن أطلب أجرى ، فذلك لأننى كنت قد قررت أن أترك العمل ، لشعورى بأننى سأكون مضطراً الى المغادرة أيضاً بسبب ظروف لا سبيل الى تحاشيها . حين استيقظت من نومى فى ذلك الصباح وأخذت أرتدى ملابسى فى غرفتى الصغيرة فوق ، شعرت بقلبى يخفق خفقاناً قوياً ، ثم حاولت أن أصطنع الهدوء وعدم الاكتراث ، غير أننى حين دخلت على الأمير عاودنى ذلك الاضطراب نفسه : ففى ذلك الصباح كان سيصل ذلك الشخص ، كانت ستصل تلك المرأة التى أنتظر منها تفسير كل ما كان يقلق خاطرى ويعذب نفسى ! انها آخماكوف ، بنت الأمير ، أرملة الجنرال الشاببة التى سبق أن تحدثت عنها ، والتى كانت فى حرب صريحة مع فرسيلوف . أخيراً كتبت هذا الاسم ! ولم أكن رايتها قبل ذلك فى يوم من الأيام طبعاً ، ولم أكن أستطيع أن أتصور كيف ترانى أكلمها اذا أنا كلمتها . ولكن كان يبدو لى ( ربما لأسباب كافية ) أن مجيئها سيبدد ظلمات تلف فرسيلوف فى رأى . لم أستطع أن أظل رابط الجأش : انها لحسرة رهية أن يجد المرء نفسه منذ اليوم الأول جباناً كل هذا الجبن ، أخرق كل هذه الحراقة . كان ذلك أمراً عجيباً الى أقصى حد ، وكان كريهاً على وجه الخصوص : ثلاثة مشاعر فى آن واحد . اننى أذكر ذلك اليوم وأحفظه على ظهر القلب .

لم يكن الأمير يعرف ، بعد ، شيئاً عن احتمال وصول ابنته . وكان لا ينتظر وصولها قبل أسبوع . أما أنا فقد عرفت هذا قبل ذلك بيوم ، وعرفته بمحض مصادفة . ان تاتيانا بافلوفنا التى تلقت رسالة من أرملة الجنرال قد أفلت لسانها أمامى ففشت السر وهى تتحدث الى أمى . كانتا

تكلمان همساً ، وتحدثان بألفاظ معماة غامضة ، فحزرت كل شيء •  
 لم أكن أصغى اليهما • ولكنني لم أملك الا أن أصيخ بسمعي حين رأيت  
 علي حين فجأة أن أمي اضطربت اضطراباً شديداً لدى سماعها  
 نبأ وصول هذه المرأة • ولم يكن فرسيلوف وقتئذ في البيت •

لم أشأ أن أنبئ الأمير الشيخ ، لأنني كنت قد لاحظت طوال هذه  
 المدة مدى اشفاقه من وصول ابنته • حتى أنه ، قبل ذلك بثلاثة أيام ، مضى  
 الى حد القول ، علي شيء من الاستحياء وفي شيء من الغموض ، انه  
 يخشى من وصولها علي ، أو قل انه يتوقع قيام شجار بينه وبينها بسببي •  
 يجب مع ذلك أن أضيف أنه كان يحتفظ ازاء أسرته باستقلاله وسلطته  
 وتفوقه ، وخاصة في شئون المال • ولقد كان شعوري الأول تجاهه أنه  
 لم يكن الا امرأة • ولكنني اضطرت بعد ذلك الى تصحيح هذا الشعور  
 قائلاً لنفسي : اذا كان امرأة فانه يحتفظ بشيء من عناد بديلاً عن  
 الرجولة • لقد مرت لحظات كان فيها ، رغم ما يبدو في طبعه من رخاوة  
 ظاهرة ، رجلاً صعب المراس عسير القيادة • وقد شرح لي فرسيلوف هذا  
 الأمر بمزيد من التفصيل فيما بعد • وانني لألاحظ الآن ، علي دهشة مني ،  
 أننا لم نكد نتحدث يوماً عن أرملة الجنرال ، بل كنا نتحاشى أن نتحدث  
 عنها ان صح التعبير : كنت أنا الذي أتحاشى الخوض في هذا الحديث  
 خاصة ، وكان الأمير يتحاشى من جهته أن يتكلم علي فرسيلوف ، حتى  
 لقد أدركت أنه لن يجيبني اذا أنا ألقيت عليه سؤالاً من تلك الأسئلة  
 التي كانت تقلقني ذلك الاقلاق كله وتحيرني تلك الحيرة كلها •

واذا أردتم أن تعرفوا فيم تحدثنا طوال ذلك الشهر قلت : لقد  
 تحدثنا في كل شيء اجمالاً ، ولكننا تحدثنا دائماً في أمور غريبة • وكان  
 ما يعجبني في الرجل كثيراً هو تلك اللطافة الطيبة العظيمة التي كان  
 يعاملني بها • حتى لقد كنت في بعض الأحيان أتأمل هذا الرجل مندهشاً  
 أشد الاندهاش ، قائلاً لنفسي : لو قد عاصرته في المدرسة لكان خير رفيق

لى • وكان وجهه يخطف بصرى فى بعض الأحيان أيضاً : انه جاد أقصى الجذ ( ويكاد يكون جميلاً ) ، جاف أشد الجفاف ، ذو شعر مجعد أبيض كثيف ، واسع العينين ؛ وكان يشع الجفاف من شخصه كله ، وكان حسن القامة ، غير أن وجهه يمتاز بصفة أقرب الى أن تكون مزعجة ، حتى لتوشك أن تكون غير لبقة ، فهو ينتقل فجأة من أقصى درجات الجذ الى أقصى درجات المرح انتقالاً لا يمكن لامرء أن يتنبأ به اذا كان يرى هذا الرجل أول مرة • ولقد قلت ذلك لفرسيلوف ، فأصغى فرسيلوف الى قولى متعجباً ، فانه ما كان يظن أن فى وسعى أن ألاحظ ملاحظات كهذه • ولكنه قال لى ، كمن يقول عابراً ، ان هذه الحالة قد ظهرت فى الأمير بعد مرضه ، لاسيما فى الآونة الأخيرة •

هناك موضوعان مجردان كان يدور عليهما حديثنا خاصة ، أولهما هو الله ووجوده ( الله موجود أم لا ؟ ) ، وثانيهما هو النساء • لقد كان الأمير متديناً جداً ، حساساً جداً • وكانت حبرته تضم خزانه كبيرة ذات مصباح ، زاخرة بالأيقونات • غير أنه كانت تستبد به فى بعض الأحيان نزوة ، فاذا هو يأخذ يشك فجأة فى وجود الله ، ويقول أشياء عجيبة من أجل أن يحرضني على الاجابة • وكنت من جهتي قليل الاكترات بهذه الفكرة على وجه العموم ، ولكن هذا لا ينفي أننا كنا كلانا نتحمس تحمساً صادقاً فى جميع الأحوال • والحق أن هذه الأحاديث التى كانت تدور بيننا قد خلفت فى نفسى ذكرى ممتعة الى هذا اليوم • على أن الحديث عن النساء كان أمتع ما يحب أن يلغو فيه ؛ واذ كنت لا أعشق الحديث فى هذا الموضوع كثيراً ، فاننى لم أكن له فى هذا المجال نعم الجليس ، وكان ذلك يسوؤه فى بعض الأحيان •

وقد أثار هذا الموضوعَ عينه منذ وصلت اليه فى ذلك الصباح • وجدته يومئذ مرح المزاج مبهج النفس ، وكنت قد تركته بالأمس مفعماً بالحزن والأسى • وكان على أن أحل مسألة راتبى فى ذلك اليوم

نفسه قطعاً قبل وصول بعض الأشخاص • كنت أفدر أن خلوتنا ستقطع  
 حتماً ( لم يخفق قلبي في ذلك اليوم خفقاناً شديداً لغير سبب ) ، وقد  
 لا أجرؤ عندئذ أن أتكلم في مسألة الأجر • ولكن الحديث لم يقع  
 يومئذ على شئون المال ، فأحقتني حماقتي طبعاً ، فاذا أنا ( وما زلت أذكر  
 ذلك جيداً ) أنزعج من سؤال طرحه عليّ ، وكان سؤالاً مرحاً كل المرح ،  
 واذا أنا أنطلق أبسط له آرائي في النساء دفعة واحدة بعنف شديد وحمياً  
 قوية ، فما كان منه الا أن ازداد اندفاعاً وحماسة •

## ٣

... لست أحب النساء لأنهن فظات ، لأنهن خرقات ، لأنهن لا يملكن روح المبادرة والمبادرة ، ولأنهن يرتدين ملابس غير لائقة !

بهذه الخاتمة المضطربة المشوشة أنهيت كلامي الطويل •

– رفقا بهن يا عزيزي !

كذلك صاح الأمير فرحاً فرحاً الى أقصى حدود الفرح والمرح ،  
فما زادني ذلك الا غيظاً وحنقاً •

انى امرؤ لين العريكة سهل المصالحة فى الأمور الصغيرة فحسب ،  
أما فى الأمور الكبيرة فلا أخضع ولا أرضخ قط • انك فى الشئون  
اليسيرة وفى المناقشات النافعة التى تدور بين الناس ، تستطيع أن تجعلنى  
ما تشاء ؛ وأنا ألعن هذه الصفة من صفات طبعى دائماً • لقد اتفق لى فى  
بعض الأحيان ، بسبب هذه الطيبة الكريهة فى طبعى ، أن كنت مستعداً  
لتأييد دعى سخيف من أبناء المجتمع « الرافى » لا لشيء الا لأننى فتنت  
برقة حاشيته وحسن تهذيبه ، أو أن أدخل فى مناقشة مع رجل غيبى  
أحمق ، وهو أمر لا يمكن أن يغتفر بحال من الأحوال • كل ذلك لأننى  
لم أتعلم الصمود ، ولأننى عشت وترعرعت فى ركنى المعزول • وطلما  
خرجت من ذلك حائقاً غاضباً ، حالفاً أن لا أعود الى مثله ، فاذا جاء الغد  
تكرر الأمر نفسه • من أجل هذا كنت أعد فى بعض الأحيان صيياً فى  
السادسة عشرة • ولكننى بدلا من أن اكتسب السيطرة على نفسى ما زلت  
حتى اليوم أوتر أن ازداد انجاسا فى ركنى ، ولو فى أقوى صورة من  
صبور كره الناس والبعد عن البشر : « أنا اذا شئت أحرق ، ولكن

وداعاً ! » • أقول ذلك جاداً والى الأبد • على أنتى لا أكذب هذا بصدد  
الأمير ، ولا بصدد الحديث الذى جرى بيننا •

صحت أقول فيما يشبه المعادة :

- لست أتكلم لأسرّك ، وإنما أنا أعبر عن رأىى •  
- ولكن كيف تكون النساء فظّات ، وكيف تعد ملابسهن غير  
لائقة ؟ ألا ان هذا لأمر جديد !

- هن فظّات • اذهب الى المسرح ، اذهب الى نزهة • ان كل رجل  
من الرجال يعرف يمينه ، فاذا تقابل رجلان أفسح كلا منهما الطريق  
لصاحبه ، هذا يتجه الى يمينه وذاك يتجه الى يمينه • أما المرأة ، أقصد  
السيدة ، لأننى عن السيدات انما أتكلم ، فانها تقتحمك حتى دون ان  
تلاحظك ، كأنك مضطر أن تخلى لها مكانك • اننى مستعد أن أتنازل عن  
موضعى لمخلوق ضعيف ، ولكن المسألة هنا ليست مسألة حق مفروض •  
لماذا هى وائقة بأننى مضطر الى اخلاء مكانى لها اضطراراً ؟ ذلك ما يفيظ !  
اننى لا أملك الا أن أبصق اشمزازا فى مثل هذه الالتقاءات • ورغم هذا  
كله يملأن الدنيا صراخاً بأنهن مضطهدات ، ويطالبن بالمساواة • كيف  
يتحدثن عن المساواة وهنّ يدستننى ويملأن فمى غباراً ؟

- غباراً ؟

- نعم • لأنهن يرتدين ملابس غير لائقة • لابد أن يكون المرء  
فاسقاً حتى لا يلاحظ ذلك • ان المحاكم نفسها تعقد جلسات سرية حين  
تشتمل القضية على أمور غير لائقة : فلماذا يسمح بمثل هذه الأمور فى  
الشارع ، حيث الجمهور أكبر عدداً ؟ انهن يعلقن على أردافهن ذيولاً ذات  
حفيف ، ليبرهنوا على أنهن نساء جميلات : يفعلن ذلك صريحاً ظاهراً بغير  
استخفاء ولا استحياء • وليس يمكن أن لا ألاحظ ذلك ، والشبان  
يلاحظونه أيضاً ، والطفل والصبى الصغير يلاحظانه كذلك • ألا ان هذا

لعيب وعار ! ولأن يعجب بهن رجال مسنون فاسقون ماجنون يجرون وراءهن ويخرجون ألسنتهم متلمظين ، فلا ضير ! الا أن هنالك شبيبة طاهرة يجب أن نحميها • لم يبق الا أن يبصق المرء تقزراً واشمئزازاً • ان السيدة من هؤلاء تذرع الشارع جيئة وذهابا ، ووراءها ذيل طوله متر يكس الأرض ويثير الغبار • وعليك أنت الذي يتفق أن تكون سائراً خلفها أن تغذ الخطى راكضاً حتى تتجاوزها ، أو أن تثب الى الطرف الآخر ، والا حشت أنفك وفمك برطلين من الغبار • ثم انها تجر هذا الحرير وراءها على الحصى ثلاثة كيلو مترات ، لا شيء سوف أن تتبع « الموضة » ، ومرتب زوجها من مجلس الشيوخ خمسمائة روبل في العام • ألا ان هذا هو مصدر جميع الرشاوى • انى لأبصق عندئذ بصوت صاحب مسموع •

لقد سجلت للقارىء هذا الحديث على نحو فيه شيء من روح السخرية ، وفيه ما كان فيه من حرارة وغنف حين جرى بينى وبين الأمير • ولكن الأفكار التي وردت في ذلك الحديث لا تزال أفكارى الى الآن •

قال الأمير مهتماً :

ـ ولم يقع لك شيء ؟

ـ أبصق وأمضى • وطبيعى أن السيدة تفهم ما أعنى ، ولكنها لا تظهر شيئاً ، بل تظل مقتحمة طريقها على فخامة وأبهة وجلال لا تلتفت الى ولا تلوى على شيء • مرة واحدة قام شجار بينى وبين امرأتين تجران كلتاها ذيلين فى الشارع • لم أنطق بألفاظ نابية طبعاً ، ولكننى قلت بصوت عال ان هذين الذيلين يؤذيان بصرى •

ـ قلت ذلك هكذا ؟

ـ طبعاً • ان هذه المرأة تدوس أولاً قواعد المجتمع ثم هى عدا ذلك

تثير عجاجاً فى شارع حافل بالناس : فأنا أتتزه ، وشخص آخر يتتزه ،  
 وشخص ثالث يتتزه . . . . أياً كان هذا الشخص . . . . سواء أكان اسمه  
 فيدور أم كان اسمه ايفان . ذلك ما قلته بصوت عال . ثم اتنى على وجه  
 العموم لا أحب مشية النساء حين تترى من خلف . قلت ذلك أيضاً ولكننى  
 قلته تلميحاً لا تصريحاً .

— ولكن كيف تفعل ذلك يا صديقتى ؟ قد تسبب لنفسك أذى .  
 ان فى امكانهن أن يشكينك الى القضاء .

— مستحيل . ما عسى أن تكون شكواهن ؟ رجل مر بجانبهن ،  
 وكلم نفسه . ان من حق كل انسان أن يفصح عن رأيه فى الهواء . لقد  
 قلت كلاماً مجرداً لم أتجه به اليهن . هن اللواتى هاجمتنى . أخذن يقلن  
 كلمات نابية ، أسوأ كثيراً من كلماتى . قلن اتنى ولد قليل الأدب ، واتنى  
 يجب أن أحرم من الحلوى ، واتنى من أتباع المذهب العدمى ، وان عليهن  
 أن يأخذننى الى الشرطة ، واتنى انما تشببت بهن لأنهن وحدهن ولأنهن  
 ضعيفات ، واتنى كنت سألوذ بالفرار لو كان معهن رجل . فما زدت على أن  
 طبلت منهن ببرود أن يدعثنى وشأئى ، فانى منتقل الى الجهة الأخرى . غير  
 أننى أضفت الى ذلك : « ولكن من أجل أن أبرهن لكننى على أنى لا أخشى  
 رجالكن واتنى مستعد لأن استجيب للتحدى ، فهأنذا أتبعكن لأقف على  
 مسافة عشرين متراً من منازلكن أنتظر أن يخرج الى رجالكن . . . »

— أهذا ممكن ؟

— طبعاً . كان ذلك حماقة منى ، ولكن دمنى كان فائراً فوراناً  
 شديداً . هكذا جررتنى وراءهن مسافة تزيد على ثلاث كيلو مترات ، فى  
 جو خانق من الحر الشديد ، حتى « معهد الأوانس » . ثم دخلن داراً  
 من خشب بلا طوابق ، داراً لائقة والحق يقال ، تترى من خلال نوافذها  
 أزهار كثيرة ، وطائران من طيور الكنارى ، وثلاثة كلاب جميلة ، وطائفة .



من لوحات ذات أطر • لبثت أمام البيت في وسط الشارع نصف ساعة •  
 فرأيتهن يطلن ثلاث مرات خفية؟ ثم أسدلن جميع الستائر • وأخيراً  
 خرج من باب صغير موظف طاعن في السن ، اذا صدق ما تدل عليه سحنته ،  
 يرتدى ثوباً مما يلبس في المنزل ، أو رداء بسيطاً على كل حال ، فوقف  
 أمام الباب ، ينظر الى واضعاً يديه وراء ظهره ؟ ونظرت اليه ، فحول بصره  
 عني ، ثم نظر مرة أخرى وابتسم لي • فأدزت ظهري ، وانصرفت •

— ولكن هذا من شأن شيلر يا صديقي • هناك أمر آثار دهشتي  
 دائماً : ان خديك لحرراوان ، وان وجهك ليفيضان عافية • فهل يشمئز  
 من النساء من كان كذلك ؟ أيعقل أن لا تثير فيك المرأة شيئاً وأنت في هذه  
 السن من ريعان الصبا ؟ يا عزيزي (١) ، كنت أنا في الحادية عشرة من  
 عمري حين نبهني المربي الذي كان يتولى تنشيتي أنني أسرف في الاقتراب  
 من تماثيل « حديقة الصيف » للنظر اليها •

— أتريد مني يا أمير أن أذهب الى « امرأة » ما من تلك الأماكن ،  
 الى « جوزيفين » ما ، ثم أعود أنقل اليك أخباراً عنها ؟ ! أنا أيضاً رأيت  
 عرى المرأة كاملاً ولما أتجاوز الثالثة عشرة •• ومنذ ذلك الحين انسا  
 شعرت منه بالاشمزاز •

— أتقول هذا جاداً أم هازلاً ؟ يا بني (٢) ، ان امرأة نضرة لهي  
 تفاحة عيقة ؟ أين في هذا ما يثير هذا الاشمزاز كله ؟ •

— حين كنت في مدرستي الداخلية القديمة ، عند توشار ، أي  
 قبل دخولي المدرسة الثانوية ، كان لي رفيق اسمه لامبير • كان لامبير هذا  
 يضربني دائماً ، لأنه كان أكبر مني بثلاث سنين ، وكنت أنا أخدمه

(١) بالفرنسية في الاصل •

(٢) بالفرنسية في الاصل •

وأخلع له حذاءيه • ففي يوم تقديسه الذي يعقب التعميد جاء القس ريجو يزوره بمناسبة تناوله الأول ، فرأيت الاثنين يرتمي كل منهما على عنق صاحبه والدموع تهطل من عينيه ، ورأيت القس يضمه الى صدره ويربت على ظهره • فبكيت أنا أيضاً ، وحسدته حسداً كبيراً • فلما توفي ابوه خرج من المدرسة الداخلية ، ثم لم أره بعد ذلك سنتين بل أكثر ، الى أن لقيته في الشارع مصادفةً في ذات يوم • فقال لي انه قد يجيء الى زائراً بعد حين • وكنت قد دخلت المدرسة الثانوية ، وكنت أقيم لدى نيقولا سيمينوفتش • فاذا هو يجيئني في ذات صباح ، ويريني خمس مائة روبل ، ويسألني أن أتبعه • لقد ظل يضربني في الماضي عامين كاملين ، ومع ذلك ما يزال في حاجة الىّ ، لا لأخلع له حذاءيه فحسب • وقص عليه أموره كلها • فقال انه قد سرق هذا المال من أمه في ذلك اليوم نفسه ، بعد أن صنع مفتاحاً مماثلاً لمفتاح صندوقها ، لأن هذا المال حق له من ارث أبيه شرعاً ، ولا يجوز لأمه أن تمنعه عنه بعد الآن • وقال ان القس ريجو قد جاءه امس مساءً يريد أن يلقي عليه درساً في الأخلاق : دخل الى البيت ، ووقف أمامه ، وأخذ يئن ويتذمر ، مظهراً أشد الاستياء ، رافعاً ذراعيه نحو السماء • « فما كان مني الا أن استللت سكينى وقلت اني سأذبحه (قال سأذبحه) » • ومضينا معا الى كوزفتسكى فأسرنا الى أثناء الطريق أن أمه قد كانت لها علاقة بالقس ريجو ، وأنه قد لاحظ هو ذلك ، وأنه أصبح لا يعبأ بشيء ، ويرى أن كل ما يقال عن التناول سخافات • وتكلم كثيراً أيضاً • وكنت أشعر أنا بخوف • واشترى في كوزفتسكى بندقيّة ذات طلقتين ، وخرجاً مما يحمله الصيادون ، وخراطيش وسوطاً مجدولاً ، ورطلاً من حلوى ، ومضينا نصطاد في الضواحي • ففيما نحن في الطريق صادفنا رجلاً من باعة الطيور يحمل أقفاصاً ، فاشترى منه لامبير عصفوراً من عصافير الكناري • فلما وصلنا الى غابة صغيرة أطلق لامبير العصفور الذي كان لا يستطيع أن يطير بعيداً

عقب خروجه من القفص ، فأطلق لأمير عليه من بندقيته ولكنه أخطأه •  
 كانت تلك أول مرة يطلق فيها ، ولكنه كان يود أن يشتري بندقية منذ  
 زمن طويل ، منذ كنا معاً لدى توشار : كان ذلك حلماً لنا كلينا من ذلك  
 الزمان • كان كالمخترق من فرط الانفعال • ان شعره أسود سواداً مخيفاً ،  
 ووجهه أبيض على احمرار بلون الأرجوان فكأنه قناع ، وأنفه طويل ألقى  
 كأنوف الفرنسيين ، وأسنانه بيضاء وعينه سوداوان • شد العصفور  
 بخيط الى غصن من الأغصان ، وسدد اليه من مسافة أربع سنتيمترات ،  
 ثم أطلق عليه من مدفعيه كليهما ، فبعثره ألف ريشة صغيرة •• وقفلنا  
 راجعين ، فدخلنا أحد الفنادق ، واستأجرنا غرفة وأكلنا وشربنا شمبانيا •  
 ووصلت سيدة •• أذكر أن بذخ ملابسها قد لفت انتباهي وأن ثوبها  
 الحريري الأخضر قد خطف بصري • وهناك رأيت كل شيء •• رأيت  
 ماحدثتك عنه •• ثم عدنا نشرب •• وعاد هو يغيظها ويشتمها • كانت  
 خالعة ملابسها • وأخفى هو ثوبها ، فلما ثار غضبها وطالبت بثوبها  
 لترتيديه ، جلدها بسوطه جلدة قوية على كتفيها العاريتين • فنهضت  
 وأمسكت به من شعره امساکاً قوياً بلغ من الاحكام أنه سقط على الأرض  
 فوراً • فتناول شوكة وأخذ يغرزاها في فخذي • فلما أخذت أصبح هرع  
 الينا الناس ، واستطعت أن أهرب • ومنذ ذلك الحين أصبح العري يثير في  
 نفسي التقزز • وصدقني اذا قلت لك انها كانت آية من آيات الجمال •

كنت وأنا أقص على الأمير هذه الحكاية أرى وجهه يتقلب بين  
 الاشرار والحزن •

— مسكين أنت يا بنى (١) • لقد كنت دائماً على اقتناع بأن طفولتك  
 عرفت أياماً شقية كثيرة •

— لا يقلقنك شأني ، أرجوك •

(١) بالفرنسية في الاصل •

- ولكنك كنت وحدك • أنت نفسك قلت لي ذلك • أما ذلك  
الفتى لامير (١) فقد رسمت لي صورته • • طير الكناري ، ذلك التقديس  
الذي رافقته دموع على الصدر ، ثم قصة أمه مع القس بعد عام • • آه  
يا عزيزي (٢) • مشكلة الطفولة هذه أمر رهيب في عصرنا هذا :  
فما ظلت هذه الرعوس الذهبية ذات الضفائر والبراءة تتطور في طفولتها  
الأولى أماناً وتنظر إلينا بضحكاتها الصافية ونظرانها المشرقة ، فإنا  
نحسبها ملائكة سماء أو عصافير صغيرة رائعة • • حتى إذا انقضى ذلك  
كله • • فقد يحدث أن يكون من المفضل أن لا يكونوا قد شبوا عن  
الطوق !

- هانت ذا متشائم يئس أيها الأمير • حتى لكأن لك أولاداً  
بالفعل • ومع ذلك ليس لك أولاد ولن يكون لك أولاد في يوم  
من الأيام •

- عجيب ! (٣) •

هتف بذلك وقد تغير وجهه فجأةً وأضاف :

- أول أمس ، هه هه ! أول أمس تماماً ، حين قلت لألكسندرا  
بتروفنا سينتسكالا - لاشك أنك صادفتها هنا منذ ثلاثة أسابيع - حين قلت  
لها على سبيل المزاح اننى اذا تزوجت الآن فانى أكون على الأقل مطمئناً  
الى أننى لن أنجب • • أجابتنى فجأةً ، بل أجابتنى بشيء من حنق قائلةً :  
بالعكس ، ستعجب ؛ ان رجالاً مثلك هم الذين لا بد أن ينجبوا حتماً ،  
وستعجب منذ السنة الأولى ، سترى • ، هه هه ! ان جميع الناس يتصورون  
أننى سأتزوج • لا أدري لماذا يتصورون ذلك ! يجب أن تعترف على كل  
حال أن كلامها فكه مضحك ، رغم انه قيل في خبث •

- فكه مضحك ؟ بل انه لمثير مزعج !

(٢،٢،١) بالفرنسية في الاصل •

- أوه يا بنى (١) ! هناك أناس لا يمكن أن يزعل المرء من كلامهم • وان روح المزاح التى توشك أن تزول هى ما أقدره فى الناس أكثر من أى شىء آخر ؛ ثم هل يمكن أن يقيم المرء وزناً لكلام تقوله الكسندرا بتروفنا ؟ •

- كيف ؟ ماذا قلت ؟ هل قلت ان هناك أناساً لا يجب أن •• أهذا ما قلته ؟ صدقت •• ما من انسان يستحق أن يلتفت إليه • تلك قاعدة رائعة ! هذه القاعدة هى بعينها ما أنا فى حاجة إليه • لسوف أسجلها •  
إنك لتتلق أحياناً بحكم رائعة أيها الأمير !

وأشرق وجهه كله !

- أأست ترى يا بنى العزيز أن روح الفكاهة الحقيقية هى الآن بسبيل الاختفاء ، وأنها تزول يوماً بعد يوم ؟ ولكن •• ولكنى أعرف أنا النساء ! (١) صدقتى اذا قلت لك ان حياة كل امرأة ، مهما يكن كلامها ، ليست الا بحثاً أبدياً عن سيد •• ان فيها ظمأً الى الطاعة ان صح التعبير احفظ هذا الكلام •• ولا تستن منهن واحدة •

- صحيح اطلاقاً ! رائع !

كذلك هتفت متحمساً • وكان يمكن أن تندفع فوراً فى تأملات فلسفية حول هذا الموضوع ، مدة ساعة على الأقل ، لولا أن شعرت فجأة بأننى كمن °لسع ، واحمر وجهى احمراراً شديداً • لقد خيل الى أننى كنت بامتداح كلامه أتملقه من أجل ماله ، وأنه سيظن ذلك على كل حال حين سأطلب اليه أجرى • ومن أجل هذا انما أذكر هذه الواقعة هنا •

- أيها الأمير ، سأكون شاكرًا لك أجزل الشكر اذا أمرت بأن يدفع

(٢٠١) بالفرنسية فى الاصل •

لى فى هذا اليوم نفسه مبلغ الخمسين روبلاً ، وهو راتبى عن هذا الشهر •  
كذلك سقت الكلام سريعاً بجملة واحدة ، مع شىء من الاهتياج  
يوشك أن يكون فظاظه •

وانى لأذكر ( لأننى أتذكر ذلك الصباح كله بأدق تفاصيله ) أنه  
وقع عندئذ بيننا مشهد كريبه دميم • انه لم يفهم كلامى فى أول الأمر ،  
بل نظر الىّ طريلاً لا يدرك أى مال أعنى • كان واضحاً أنه لم يكن  
يتصور أننى أتقاضى أجراً • وفيه عساي أستحق أجراً ؟ صحيح أنه أكد  
لى بعد ذلك أنه كان قد نسى الأمر ، ثم لم يلبث بعد أن فهم ، أن تناول  
خمسین روبلاً مرة واحدة ، بسرعة شديدة ، واحمرار واضح • فلما رأيت  
ذلك كله ، نهضت من مكاني وأعلنت له جازماً أننى أصبحت لا أستطيع  
أن أقبل مالاّ وأن ما ذكر لى من أننى سأتقاضى أجراً كان من قبيل الخطأ  
أو الخداع من غير شك ، وذلك حتى لا أرفض الوظيفة ، واننى أفهم الآن  
أنه لم يكن من المفروض أن أتقاضى شيئاً ، اذ لم يكن لى عمل أقوم به •  
فارتاع الأمير وحاول أن يقنعنى بأننى قدمت له خدمات كبيرة ، وبأننى  
سأقدم له مزيداً من الخدمات ، وأن خمسین روبلاً مبلغ زهيد جداً ،  
وأنه سيزيد لى هذا المبلغ ، فذلك واجبه ، وأنه كان قد اتفق على هذا  
مع تاتيانا بافلوفنا ، لكنه ارتكب « نسياناً لا يغتفر » • فانفجرت وأعلنت  
بجازماً أننى ألتخ شرفى اذا أنا تقاضيت أجراً على قصص فاضحة رويتها  
له عن ملاحقتى امرأتين حتى « معهد الأوانس » ، وقلت اننى لم أدخل  
فى خدمته من أجل أن « أسليه » بل من أجل أن أقوم بعمل جاد مفيد ،  
فاذا لم يكن هنالك عمل أقوم به ، فلا بد أن أمضى ، الخ الخ • • ما كنت  
أتخيل أن امرأاً يمكن أن يصيبه من الارتياح ما أصاب الأمير بعد سماعه  
هذه الكلمات القليلة • على أن الأمور انتهت كما يلى : كفت عن  
الاحتجاج ، ودس الأمير المبلغ فى يدي قسراً •

مايزال جينى يحمر حين أتذكر أننى قبلت هذا المال ! ان كل

شيء في هذه الحياة الدنيا ينتهي دائماً بصغار وحقارة • والأنكى من ذلك أنه كاد يبرهن لى على أنني كسبت هذا المال حقاً لا مرأء فيه ؛ وكنت من الحماقة بحيث صدقته لقد • بدا لى أنه يستحيل علىّ اطلاقاً أن لا آخذه •

- يابنى العزيز ، يابنى العزيز (١) ( صاح كذلك وهو يعانقنى ويفرقنى بالقبل - ويجب أن أعترف أنني كنت أوشك أن أبكى لا أدري لماذا، ولكننى ملكت زمام نفسى وحسبت دموعى ؛ وحتى الآن ، وأنا أكتب هذه الأسطر ، يصعد الدم الى رأسى ويحمر وجهى - ) يا صديقى العزيز ، أنت لى بمنزلة ابن ، وقد أصبحت خلال هذا الشهر جزءاً من قلبى ! ليس فى « المجتمع » الا « ناس » ، ولا شيء غير ذلك • ان كاترين نيقولايفنا ( ابنته ) امرأة لامعة مرموقة ، وانى لفخور بهذا ، ولكنها كثيراً ما تجرح شعورى يا عزيزى •• أما أولئك البنات ( وهن فى غاية الظرف واللفظ (١) وأمهاهن اللواتى يأتين مباركات مهشآت بعيدى ، فهن يحملن الى الهدايا من جميل مطرزاتهن ، ولكنهن عاجزات عن قول كلمة واحدة • اننى أملك الآن من هذه المطرزات حوالى ستين مخدة كما أملك من هداياهن كلابا كثيرة ووعولاً جميلة • اننى أحبهن كثيراً ، أما أنت فشأنى معك شأن آخر • اننى أكاد أشعر حين أجالسك بأنى مع ابنى ، أو قل مع أخى ، وما أكثر ما أحب أن تجاوبنى وتسرده علىّ •• انك على حظ من المعرفة بالأداب •• لقد قرأت •• وأنت قادر على الحماسة •

- أنا لم أقرأ شيئاً ، وليس لى من المعرفة بالأداب أى حظ • قرأت ما اتفق أن وقع فى يدي • وفى الستين الأخيرتين لم أقرأ شيئاً البتة ، ولن أقرأ بعد اليوم شيئاً البتة أيضاً •

- لماذا ؟

(١) بالفرنسية فى الاصل •

## - لى أهداف أخرى

- يا عزيزى (١) ، لسوف يكون مؤسفاً أن تقول فى أواخر حياتك ما أقوله أنا الآن : أعرف كل شيء ، ولكننى لا أعرف أى شيء تافع (١) . اننى لا أدرى حقاً لماذا عشت ! غير أننى مدين لك بأمور كثيرة . . . بل لقد كنت أريد . . .

وقطع الأمير حديثه فجأة ، وأظلم وجهه ، وأصبح حالماً . انه بعد كل هزة ( وكانت هذه الهزات يمكن أن توافيه فى كل لحظة ، لا يعلم سبب ذلك الا الله ) ، يفقد فى العادة قدرته على التفكير والتصرف بعض الوقت ؛ الا أنه يبلغ من السرعة فى العودة الى حاله الطبيعية أن ذلك كان لا يضيره كثيراً . وظللنا على هذه الحال مدة دقيقة . كانت شفته السفلى ، السميكة ، متدلية تدلياً تاماً . . . والأمر الذى أثار دهشتى أكثر من أى شيء آخر هو أنه ذكر اسم ابنته ، وخاصةً بهذه الصراحة كلها . وقد عزوت ذلك الى ما اتابه من اضطراب الفكر .

قال فجأة :

- بنى العزيز (٣) . أنت لا تؤاخذانى ، أليس كذلك ؟ أنت لا تؤاخذنى اذا خاطبتك بصيغة المفرد ؟

- أبدأ . على أننى أعترف لك أن ذلك قد ساءنى فى المرات الأولى قليلاً ، حتى لقد أردت أن أبادلك ذلك فأخاطبك بصيغة المفرد . ولكننى أدركت أن ذلك يكون حماقةً منى ، لأنك لا تخاطبني بصيغة المفرد على سبيل الاهانة والاذلال .

ولاحظت أنه كان قد كف عن الاصغاء الىّ ونسى السؤال أساساً ، بينما كنت أتكلم .

(٣،٢،١) بالفرنسية فى الاصل .



ورفع الى نظرتة الشاردة فجأة وسألني :

- وأبوك ؟

انتفضت • أولاً لأنه سمى فرسيلوف أبني ، وذلك ما لم يحبه  
لنفسه يوماً قط • وثانياً لأنه تكلم عن فرسيلوف بادئاً ، وذلك ما لم يحدث  
من قبل •

قلت في جفاف ، وأنا احترق رغبة في الاطلاع :

- انه بلا مال ، يجتر أفكاراً سوداء مظلمة •

- نعم ، انه بلا مال • وفي هذا اليوم نفسه انما تنتظر قضيتهم في  
محكمة النقض والابرام ، وأنا أنتظر الأمير سرجي لأسمع ما سيقوله •  
لقد وعدني أن يجيء من المحكمة الى هنا رأساً • ان مصيرهم كله يتقرر  
اليوم : والأمر أمر ستين ألفاً أو ثمانين • طبعاً أنا أحب الخير لأندره  
بتروفتش ( أي فرسيلوف ) ، وأظن أنه هو الذي سيكسب القضية • ولن  
ينال الأمراء شيئاً • ذلك هو القانون !

صحت مبهوراً :

- اليوم يفصل في القضية ؟

لقد امتلأت انبهاتا حين تصورت أن فرسيلوف لم يتنازل فينبئني بهذا  
الخبر • وسرعان ما قلت لنفسي « لاشك اذن أنه لم يطلع أمي ولعله لم  
يطلع أحداً قط • » •

وفجأة وافتنى فكرة أخرى فسألت :

- وهل الأمير سوكولسكي هو الآن بيطرسبرج ؟

- منذ أمس • جاء رأساً من برلين ، لهذا اليوم •

وهذا نبأ آخر بالغ الخطورة عندي • « سيجيء اليوم الى هنا ،  
الرجل الذي قام هو بالصفحة • • • »

- أى نعم ! ( أردف الأمير يقول وقد تغير وجهه فجأة ) انه لا يزال يعظ ! .. ولاشك .. أنه لا يزال يجرى وراء الفتيات ، الفتيات الصغيرات اللواتى ليس لهن فى الحياة تجارب ! هه هه ! بالمناسبة ، عندى نادرة من النوادر المضحكة جداً !

- من الذى يعظ ؟ من الذى يجرى وراء الفتيات ؟

- آندره بتروفتش ! هل تصدق أنه كان لا ينفك يضايقنا جميعاً : ماذا نأكل ؟ فى أى شىء نفكر ؟ وأسئلة أخرى من هذا القبيل . كان يخيفنا . كان يقول لنا مثلاً : « اذا كنتم متدينين ، فلماذا لا تدخلون الدير ؟ » . هكذا ، لا أكثر ولا أقل . يالها من فكرة ! (١) لعله كان على صواب . ولكن أليس هذا قاسياً ؟ وكان يجب أن يخيفنى أنا خاصة ، كان يجب أن يخيفنى بالحديث عن قيام الساعة ويوم الحساب . أنا خاصة .

- لم ألاحظ شيئاً من هذا وقد انقضى شهر على وجودنا معاً .

قلت ذلك نافذ الصبر ، وقد ساءنى أنه لم يعد الى رشده وأنه لا يزال يتعثر فى كلامه ويسوقه فوضى بغير ترتيب ..

- ذلك أنه أصبح لا يقول لى هذا الكلام . ولكن صدقنى . هذا حق . انه رجل ذكى لا يُجحد ذكاؤه ، وانه عميق العلم ، ما فى ذلك شك . ولكن هل هو متزن ؟ لقد وقع له هذا كله بعد اقامته فى أوروبا ثلاث سنين . وانى لأعترف لك بأن ذلك هزنى هزاً قوياً .. كما هز سائر الناس على كل حال .. اتنى أحب الله يا بنى (١) اننى مؤمن ، مؤمن بقدر ما أستطيع .. ولكنه قد أخرجنى عن طورى فى تلك اللحظة .. ولنسلم بأننى استعملت وسيلة كان فيها شىء من طيش .. لقد فعلت ذلك عامداً ، من قيل النكايه . ثم ان اعتراضى كان فى حقيقة الأمر

(٢٠١) بالفرنسية لى الأصل .

لا يقل جديةً عنه منذ بدء العالم • قلت له : « اذا كان يوجد كائن أسمى ،  
واذا كان يوجد وجوداً شخصياً ، لا على صورة روح مبنوثة في الخليقة ،  
على صورة سائل مثلاً ( لأن هذا أعسر على الفهم أيضاً ) ، فأين هو هذا  
الكائن الأسمى ، أين مكانه ؟ ، يا صديقي ، لقد كن هذا الكلام هراءً  
سخيفاً من غير شك • ولكن ألا ترتد جميع الاعتراضات اليه ؟ وقد غضب  
غضباً رهيباً • ذلك أنه كان قد اعتنق الكاثوليكية هنالك •

- سمعت من يقول هذا • ولا شك في أنه كذب واختلاق •  
- أوكد لك أن هذا هو الواقع ، وأحلف عليه بأقدس ما أقدس •  
أنظر اليه وأنعم النظر ! ثم انك أنت نفسك تقول انه تبدل • فهل تصدقه  
يوم كان يرهقنا ذلك الارهاق كله ؟ كان يصطنع أوضاع قديس ، فلا  
يكاد ينقصه الا أن يقوم بمعجزات • كان يحاسبنا على سلوكنا حساباً  
عسيراً ، أقسم لك • معجزات • • واليك شيئاً آخر (١) • انه سواء أكان  
راهباً أم زاهداً ، فانه يتجول هنا بمسوح على كل حال • • أما الباقي • •  
وبعد هذا يتكلم على المعجزات ! ألا انها لرغبة غريبة لدى انسان من  
المجتمع الراقى ! لست أدعى طبعاً أن • • فتلك أشياء مقدسة ، وكل شيء  
يمكن أن يقع • • أضف الى ذلك أن هذا كله من باب المجهول (١) •  
لكن الأمر لا يليق بانسان من المجتمع الراقى • واني لأقسم لك صادقاً  
غير حانت أن هذا الشيء لو وقع لي أو غرض عليّ لرفضته • هبني أتناول  
اليوم طعام الغداء في النادي ، ثم اذا بي أصنع معجزات (١) على حين  
غرة • لسوف يضحك عليّ الناس عندئذ • • وهل تعلم أنه كان يحمل  
سلاسل ؟

احمر وجهي غضباً فسألته :

- هل رأيت أنت هذه السلاسل ؟

(١) بالفرنسية في الاصل •

– لم أرها ، ولكن ...

– اذن فلك أكاذيب ، تلك أراجيف باطلة ، تلك نميمة أعداء  
بل قل انها نميمة عدو واحد ، لأنه ليس له الا عدو واحد ، هو ابنتك •  
وانفجر الأمير هو أيضاً قائلاً :

– يا عزيزى (١) ، أرجوك وألح فى الرجاء أن لا يُذكر اسم  
ابنتى بعد اليوم بصدد هذه الحكاية البشعة !  
وهمت أن أنهض • لقد خرج الأمير عن طوره ، وكانت ذفته  
ترتجف ارتجافاً •

– هذه القصة البشعة ! (١) أنا لا أصدقها •• ولم أشأ يوماً أن  
أصدقها •• ولكن قيل لى •• صدق أنتى •• صدق أنتى ••  
ودخل علينا خادم فى تلك اللحظة يبلغ عن قدوم زائرين • فقعدت •

---

(١) بالفرنسية فى الاصل •

دخلت سيدتان ، بل قل فتاتان •• احدهما هي زوجة ابن أحد أبناء عمومة المرحومة زوجة الأمير ، أو هي شيء من هذا القبيل • انها واحدة ممن يرعاهن الأمير ، وكان قد وهب لها مهراً ، وهي تملك ثروة ضخمة ( أذكر هنا الآن للمستقبل ) • أما الثانية فهي آنا آندريفنا فرسيلوفا ، بنت فرسيلوف ، التي تكبرني بثلاث سنين وكانت تعيش مع أخيها لدى فاناريوتوفا ، والتي لم أكن قد رأيتها قبل ذلك الا مرة واحدة ، مصادفةً في الشارع ، رغم أنني كنت قد تشاجرت مع أخيها ، مصادفةً كذلك ، في موسكو ( قد أجيء على ذكر هذه المشاجرة التفاهة فيما بعد ، اذا وجدت متسعاً لذلك ، لأنها لا تستحق في الواقع عناء الحديث عنها ) • ان آنا آندريفنا هذه كانت منذ طفولتها أليفة الأمير الكبرى ( كانت علاقات الأمير بفرسيلوف قد بدأت منذ زمن بعيد جداً ) • كنت قد بلغت من الاضطراب بسبب ما حدث قبيل دخولهما أنني لم انهض ، رغم أن الأمير هبَّ واقفاً لاستقبالهما • ثم قدرت بعد ذلك أنه سيكون أمراً مخجلاً أن انهض بعد فوات الأوان ، فلبت جالساً في مكاني • وكنت على وجه الخصوص متحيراً لا أدري ماذا أفعل ، بعد أن صرخ الأمير في وجهي ثلاث مرات قبل دقائق ثلاث ؛ ولبت لا أدري أيجب أن أنصرف أم يحسن أن أبقى • ولكن العجوز الطيب كان قد نسي كل شيء على عادته ، وارتدت اليه حرارته كاملةً جميلةً حين رأى الفتاتين • حتى لقد استطاع أن يسارع فيغير سحنته ، ويغمزني غمزةً عجيبة ، ليهمس في أذني على عجل قبيل دخولهن قائلاً :

- أنظر الى أولب جيداً ، أنعم النظر فيها . . وسأروى لك فيما

بعد . .

وقد أنعمت النظر اليها فعلاً ، فلم أجد فيها شيئاً خاصاً يلفت  
البصر : هي فتاة متوسطة القامة ، بدينة الجسم ، حمراء الحدين احمراراً  
شديداً . وجهه ممتع على كل حال ، من تلك الوجوه التي ترضى  
الشهوانيين . ولقد يعبر عن طيبة ، لكنه يعبر أيضاً عن خفايا . ليس  
الذكاء هو الذى يمكن أن يجعل هذه الفتاة لامعة ، وأعني بالذكاء معناه  
العالى فى أقل تقدير ، لأن المكر واضح فى عينيها . انها تتجاوز التاسعة  
عشرة من عمرها . لا شئ فيها يخطف البصر اذن . فلو كنا فى المدرسة  
الثانوية لوصفناها قائلين : مخدة طرية . ( اذا كنت أصفها هذا الوصف  
المفصل كله فما ذلك الا لأنه سيفيدنى فيما بعد )

هذا الى أن كل ما وصفته حتى الآن مفصلاً هذا التفصيل الذى قد  
يبدو نافلاً لا غناء فيه ولا حاجة اليه ، انما هو توطئة لازمة لما سيلي من  
حديث : انى لم أستطع أن أتحدثى ذكر هذه التفاصيل . فان وجدتم  
كلامى مملاً باعثاً على السأم فلا تقرأوا .

أما بنت فرسيلوف فهى شخص آخر مختلف كل اختلاف : هى  
فتاة فارعة القوام ، أميل الى النحافة ، ذات وجه بيضاوى واضح الشحوب ،  
ولكن شعرها فاحم غزير ؛ عيناها قاتمتان واسعتان . نظرتها عميقة .  
شفاتها رقيقتان بلون الأرجوان . فمها غضض نضير . انها أول امرأة لم  
توقف مشيتها فى نفسى شيئاً من اشمزاز . ثم انها رقيقة الخاشية على  
شئ من جفاف . وجهها لا يعبر عن طيبة القلب بقدر ما يعبر عن الجد  
والاتزان . وهى فى الثانية والعشرين من عمرها ولا يكاد مظهرها  
يشبه مظهر أبيها فى شئ . ومع ذلك يشعر المرء ، لا أدري كيف ، بأن  
بينها وبينه شبيهاً عجيباً خارقاً فى تعبير الوجه والسحنة . لا أدري أهى

تعد جميلة أم لا ، فالأمر هنا أمر ذوق • وكانت الفتاتان كلتاهما ترتديان ملابس بسيطة متواضعة ، ليس فيها ما يستحق أن يوصف • وكنت أتوقع أنني لن ألبث أن تجرح شعوري نظرة من فرسيلوفا أو حركة • وتهيات للأمر • لشد ما أهانني أخوها في موسكو منذ أول لقاء بيني وبينه في هذه الحياة ! وما كان يمكن أن تعرفني إذا رأيتني ، ولكن لا شك أنها كانت قد سمعت عن وجودي لدى الأمير • فقد كان كل ما ينتويه الأمير أو يشرع فيه أو يقوم به يثير اهتماماً سريعاً ويبدو حدثاً كبيراً لدى كل هذه العصابة من الأقرباء « والأدعياء » : فكان شغفه بي على حين فجأة أحقّ باهتمامهم • وكنت أعلم علم اليقين أن الأمير مهتم أشد الاهتمام بمصير أنا أندريفنا ، وأنه كان يبحث لها عن خطيب • ولكن العثور على خطيب لفرسيلوفا كان أعز منالا من العثور على خطيب لواحدة من أولئك اللواتي كن يطرزن له الطنافس •

وعلى خلاف كل ما كنت أتوقع رأيت فرسيلوفا ، بعد أن صافحت الأمير وبادلته بعض الملاحظات الاجتماعية ، تلقي على نظرة استطلاع قوية ، حتى إذا لاحظت أنني أرنو إليها ببصرى أيضاً ، انحنت على حين فجأة متبسمة • صحيح أنها كانت قد دخلت منذ هنيهة قصيرة ، وأنها انحنت كما انحنت في المرة السابقة ، ولكن ابتسامتها قد بلغت من اللطف مبلغاً يدل دلالة واضحة على أنها كانت مقصودة • وما زلت أذكر أنني شعرت من ذلك عندئذ بمتعة رائعة تبعث على الدهشة •

تمتم الأمير متلعثماً وقد لاحظ أنها حيتني وأنتى لبثت قاعداً :

— وهنا ••• هنا ••• صديقى العزيز الشاب أركاد أندريفتش

••• دول

وانقطع فجأة عن اتمام جملته • لعله خجل أن يقدمنى اليها ( أى أن يقدم أخاً لأخته ) • وحيتنى المخدة الطرية أيضاً • ولكننى ما لبثت

أن غلى الدم فى عروقى فجأة ، بحماسة شديدة ، فوثبت عن مقعدى : هى اندفاعة زهو مصطنع لا معنى لها البتة • هى أنايتى نفسها لم تتغير !

قلت أقطع الأمير مقاطعة عنيفة ، ناسياً أنه كان على أن أرد تحية السيدتين ، كما توجب ذلك آداب اللباقة :

- عذراً أيها الأمير ، أنا لست آركاد أندريفتشس ، بل آركاد ماركوفتشس •

- ها ••• نعم ! (١) •

كذلك هتف الأمير وهو يلطم جبينه بأصبعه •

ودوى فوق رأسى سؤال غبى بعض الغباوة بطىء بعض البطء ، ألقته على « المخذة الطرية » وهى تقرب منى اقتراباً شديداً :

- أين تعلمت ؟

- بموسكو طبعاً ، فى اللسيه •

- ها ••• نعم • قيل لى ذلك • هل التعليم فيها جيد ؟

- جداً •

كنت لا أزال واقفاً أجيب كما يجيب جندى رئيسه •

لا تدل أسئلة هذه الفتاة على كثير من الخيال طبعاً • لكن هذا لا ينفى أنها وجدت ما ينسى الآخرين اندفاعتى الحمقاء السخيفة ، وما يهدى اضطراب الأمير ، الذى أخذ يصغى ، بابتسامه فرحة ، الى الأشياء المرحة التى كانت تهمس له بها فرسيلوفا ( كان واضحاً أن الحديث بينهما لم يكن عنى ) • ولكن لماذا قدرت هذه الفتاة التى لا أعرفها البتة أن من

(١) بالفرنسية لى الاصل •



المفيد أن تقول ما يُنسى حماقتى الهوجاء وغير ذلك ؟ ان من المستحيل على المرء أن يصدق أنها فعلت معى ذلك لغير سبب : لا شك أن لها نية • وكانت تنظر الى نظرة استطلاع شديد • لكأنها كانت تريد ، هي أيضا ، أن أكثر من النظر اليها ما أمكن • قلت هذا كله لنفسى ••• ، ولم يخطئ ظنى •

صاح الأمير يقول فجأة وهو ينهض عن مقعده :

- كيف ؟ اليوم ؟

فقلت فرسيلوفا مدهوشة :

- اذن أنت لا تعرف ذلك • يا آلهة الأولمب ( بالفرنسية ) •

كان الأمير لا يعلم أن كاترين يقولايضا قد وصلت اليوم •

وأضفت فرسيلوفا :

- لقد ذهبنا اليها وكنا نظن أنها ركبت قطار الصباح ، وأنها فى الدار منذ زمن طويل • ولكننا التقينا بها أمام سلم الباب ، واصلة من المحطة رأساً ، فطلبت منا أن ندخل اليها ، وستجىء الى هنا بعد قليل •• بل هاهى ذى قد وصلت !

انفتح الباب الجانبى وظهرت تلك المرأة !

كنت أتخيل وجهها من قبل ، وذلك من صورة لها رائعة كانت معلقة فى مكتب الأمير • كنت قد درست هذه الصورة طوال ذلك الشهر • وفى حضورها ، قضيت فى ذلك المكتب ثلاث دقائق ، لا أحول بصرى عن وجهها لحظة واحدة • فلو كنت لا أعرف الصورة ، ثم سألتنى بعد تلك الدقائق الثلاث : « كيف وجدتها ؟ » ، لما أجبتك ، لأننى كنت لا أرى رؤية واضحة •

لقد بقيت لى من تلك الدقائق الثلاث ذكرى امرأة جميلة حقاً ،  
 كان الأمير يعانقها ويباركها بيده ، ثم اذا هو ، على حين غرة ، بعد دخولها  
 فوراً على وجه التقريب ، يلقي نظرة سريعة على \* . ولاحظت بوضوح  
 كيف دمدم لها الأمير بضع كلمات ، وهو يوميء الى من غير شك ، وكيف  
 أطلق ضحكة صغيرة فى حق سكرتيره الجديد وهو يسمينى \* .

ورأيتها تبوّز وترمقنى بنظرة سيئة وتبتسم ابتسامة بلغت من الوقاحة  
 أننى تقدمت خطوة الى أمام ، فاقتربت من الأمير ، وتمتمت مرتعشاً  
 ارتعاشاً جنونياً ، دون أن أستطيع انهاء كلمة واحدة ، مصطك الأسنان  
 فيما أظن :

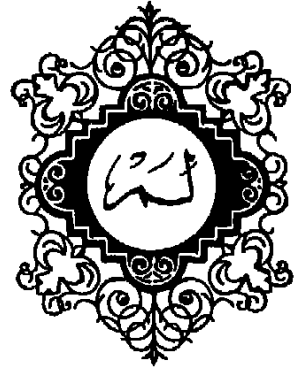
— اذن \* . أنا \* . أنا الآن \* . مشغول \* . أنا ذاهب \* .

وأدرت ظهري وخرجت \* . لم يقل لى أحد شيئاً ، ولا الأمير \* .  
 اقتصروا جميعاً على ملاحظتى بأبصارهم \* . وقد أسرّ لى الأمير فيما بعد  
 أننى بلغت من اصفرار الوجه أنه « شعر بخوف » \* .

وما كان الى الخوف داع \* .

## الفصل الثالث

١



يكن الى الخوف داع : كان هنالك اعتبار واحد يستغرق جميع التفاصيل ، كانت هنالك عاطفة قوية تعوض عندي كل ما عدا ذلك • خرجت وأنا أشعر بنوع من الحماسة • وحين وضعت قدمي في الشارع كنت على استعداد لأن أصدق مغبياً • وبصدفة كأنها ميعاد ، كان ذلك الصباح رائماً : شمس ، ومارة ، وضوضاء ، وحركة ، وفرح ، وازدحام - كيف لم أشعر بأن هذه المرأة أهانتني ؟ وممن كان يمكنني أن احتمل نظرة كهذه النظرة وابتسامة وقحة كهذه الابتسامة ، دون أن أردّ رداً مباشراً مهما يكن أحمق ؟ لاحظوا أنها انما جاءت خصيصاً على نية اهانتني بأسرع ما يمكن ، من قبل أن تراني • كنت في نظرها « سمسار » فرسيلوف ، وكانت مقتنعة منذ تلك اللحظة - وقد ظلت على هذه القناعة زمناً طويلاً بعد ذلك - أن فرسيلوف كان يقبض بيديه على مصيرها كله ، وأنه كان قادراً على تدميرها في أية ساعة ، اذا هو أراد ذلك ، بواسطة وثيقة من الوثائق •• أو هذا ما كانت تشبته فيه على كل حال • كانت المبارزة مبارزة موت • ومع ذلك لم أشعر بانني أهنت • كان ثمة اهانة ، لكنني لم أحسها • بل لقد شعرت بفرح • لقد

جئت من أجل أن أكره ، فإذا أنا أحس اننى بدأت أحبها • « انى لأتساءل هل يستطيع العنكبوت أن يكره الذبابة التى يتربص بها ويقبض عليها • أيتها الذبابة المسكينة ! يخيل الىّ أن المرء يحب فريسته ، أو انه يستطيع أن يحبها على الأقل • هكذا أحببت أنا عدوى • انى لسعيد سعادة رهيبة بأنها جميلة • اننى يا سيدتى لسعيد سعادة هائلة بأن تكونى متعجرفة هذه العجرفة كلها متكبرة هذا التكبر كله : لو كنت أكثر تواضعاً لكنتُ أنا أقل تلذذاً • لقد بصقت علىّ ، وأنا المنتصر فى الواقع • لو أنك بصقت فى وجهى فعلاً ، لما زعلت ، لأنك ضحيتى ، ولأنك لى أنا ، لا له هو ! ما أشد فتنة هذه الفكرة ! لا ، لا ، لأن يشعر المرء شعوراً خفياً بقدرته فذلك أمتع كثيراً من أن يكون مسيطراً سيطرةً ظاهرة • لو كنت غنياً أملك الملايين ، لطاب لى ، فيما أظن ، أن ارتدى ثياباً مرقعة ، وأن أوهم غيرى بأننى أبأس الناس طراً ، وبأننى شبه متسول ، وأن أجعلهم يزدروننى ويحتقروننى : حسبى عند ذلك شعورى بشرائى • • •

بهذا كنت أستطيع أن أفسر أفكارى وفرحى وكثيراً مما شعرت به يومذاك • لكننى أضيف الآن أن ما كتبه فى هذه اللحظات أكثر سطحية فى واقع الأمر : فالحق أننى كنت أعمق احساساً وأشد حياءً • وما زلت الى الآن أشد حياءً حقيقتى مما أقول ومما أفعل ، والحمد لله !

ولعلنى أخطأت اذ أخذت أكتب : ان ما يبقى فى أعماق نفسى من أمور أكثر كثيراً مما يظهر فى كلماتى • ما ظل تفكيرك فى داخلك ، فانه مهما يكن ضعيفاً يظل أعمق منه حين تفصح عنه • ان تفكيرك ، متى عبرت عنه ، يصبح أقرب الى الاضحاحك وأبعد عن الصدق • لقد قال لى فرسيلوف ان نقيض هذا لا يصدق الا على الأشرار من الناس • ان هؤلاء لا يزيدون على أن يكذبوا ، فالكذب سهل عليهم • أما أنا فأنى أحاول أن أكتب الحقيقة كلها : وفى هذا صعوبة هائلة •

في ذلك اليوم ١٩ ، قمت بعمل آخر أيضاً .

لأول مرة منذ وصولي ، كان في جيبي مال ، لأن الستين روبلاً التي كنتها خلال سنتين ، كنت قد أعطيتها أُمِّي ، كما سبق أن ذكرت ذلك . ولقد قررت منذ بضعة أيام أن أقوم ، متى قبضت راتبي ، بتجربة حلمت بها زمناً طويلاً . وكنت في اليوم السابق قد قصصت من إحدى الجرائد اعلناً صادراً عن « المأمور الوزاري لدى مجلس محاكم الصلح في بطرسبرج ، النخ الخ » يقول انه في ذلك اليوم ١٩ ، عند الظهر ، في تازان ، مديرية رقم كذا ، النخ الخ ، في العمارة رقم كذا ، ستباع بالمزاد العلني اثاثات السيدة لبرخت ، وأن « الجرد » وتقدير الأسعار والأشياء المعروضة للبيع ، يمكن الاطلاع عليها يوم البيع نفسه ، النخ الخ . »

لم تكن الساعة قد تجاوزت الثانية ، فمضيت الى المكان المعين سيراً على الأقدام . انني منذ ثلاث سنين لا أنتقل بعربات ( ولولا ذلك ما استطعت أن أدخر ستين روبلاً ) . ولم أكن أذهب الى المزادات ، لم أكن قد أبحث لنفسي هذا بعد ؛ واذا كانت الخطوة التي أقوم بها الآن هي من قبيل التجريب ، فانني كنت قد قررت أن لا أقوم بها الا بعد التخرج من الليسيه ، وبعد أن أقطع صلتي بالعالم كله ، فأعود الى قوقعتي وأملك حريتي كاملة . غير أنني كنت قد قررت أن لا أقوم بمثل هذه الخطوة الا على سبيل التجربة ، من أجل أن أرى ، أو من أجل أن أحلم قليلاً ، ثم قد لا أعود الى مثل ذلك زمناً طويلاً بعدئذ ، الى أن يأتي اليوم الذي قد أعود فيه الى هذا العمل جاداً . كان ذلك المزاد ، عند غيري ، مزاداً صغيراً لا قيمة له . أما عندي أنا فكان أول خشبة في المركب الذي سافر

عليه كريستوف كولومب يستكشف أمريكا • تلكم هي العواطف التي كانت تملأ نفسي حينذاك •

فلما بلغت المكان نفذت في مدخل من فناء العمارة التي حدها الإعلان ، ودخلت شقة السيدة لبرخت • ان الشقة تتألف من فسحة وأربع غرف صغيرة واطئة السقف • فأما في الغرفة الأولى بعد الباب فكان يزدحم جمهور يبلغ نحواً من ثلاثين شخصاً ، نصفهم من الذين سيشترون في المزاد ، والآخرون لا يخفى على الناظر اليهم من أول وهلة أن بعضهم 'طلعة' أو هواة أو أناس يشاركون في المزاد لمصلحة أسرة لبرخت ؛ وكان هنالك تجار ، وكان هناك يهود يترقبون أن يقعوا على أشياء مذهبة ، وكان هنالك أشخاص « مهندمون » ، انطبعت وجوه بعضهم في ذاكرتي انطباعاً عميقاً • وعند الباب المفتوح من الغرفة الواقعة في الجهة اليمنى ، وضعت بين المصراعين منضدة تحول بين المرء وبين أن يستطيع الدخول الى تلك الغرفة : فهناك كانت توجد الأشياء التي تضمها القائمة والتي ستعرض للبيع • وعلى اليسار غرفة أخرى ، لكن بابها مغلق ينشق من حين الى حين فيرى وراءه شخص ينظر : لاشك أن هذا الشخص هو أحد أفراد أسرة لبرخت الكثيرين ، ولاشك أنه كان يشعر بغير قليل من الحجل طبعاً • ووراء المنضدة ، في مواجهة الجمهور تماماً ، كان يجلس « مأمور الوزارة » متريناً بوسامه ، يتولى عمل البيع • وحين وصلت كان قد انتهى من المزاد نصفه تقريباً • فأسرعت أشق لنفسي طريفاً حتى بلغت المنضدة • كانت تعرض عندئذ شمعدانات من البرونز • ونظرت •

نظرت ثم ما لبثت أن قلت لنفسي : ما عساي اشترى هنا ؟ وأين أدس هذه الشمعدانات من البرونز ؟ هل، يتحقق هدفي ؟ أهكذا تتم الأمور ؟ هل يصدق حسابي ؟ ترى ألم يكن حساب صبية صغار ؟ كنت أدير هذه المعاني في نفسي وأنتظر • وذلك هو على وجه التقريب الشعور الذي يحسه امرؤ أمام مائدة مقامرة قبيل « الحط » حينما يقترب بورقته • انه يتساءل :

« ان فى وسعى أن « أخط » ، وفى وسعى أن أهضى ، وكل شىء رهن  
 بى . » . ان قلبه لا يكون قد أخذ يدق دقاً شديداً بعد ، ولكنه يكون قد  
 أخذ يتهالك ويخفق خفقاناً خفيفاً - وذلك احساس لا يخلو من لذة .  
 ولكن التردد ما يلبث أن يثقل عليك ، فأنت كالأعمى : تمد يدك ، تتاول  
 ورقة ، ولكن على غير ارادة منك ، وربما على رغم ارادتك ، كأن شخصاً  
 آخر هو الذى يحرك يدك . وها أنت ذا تقرر أخيراً ، « فتحط » ان  
 احساسك يختلف عندئذ اختلافاً كبيراً ، انه احساس آخر تماماً ، احساس  
 كبير واسع . لست أتكلم الآن على المزاد ، وانما اتكلم عن نفسى : من ذا  
 الذى لعله يشعر بخفقان القلب أثناء بيع المزاد ؟

كان هنالك من يتحمسون ، وكان هنالك من يصمتون ويترقبون .  
 وكان هنالك من يشيرون ثم يندمون . وما شعرت بشفقة قط على ذلك  
 الرجل الذى أخطأ السمع حين المناداة على ابريق من معدن المخور ،  
 فحسبه من فضة فاشتراه بخمسة روبلات بدلاً من روبلين اثنين ، حتى  
 لقد أفرحنى ذلك كثيراً . وكان المنادى ينوع الأشياء التى يعرضها للبيع .  
 فبعد الشمعدانات ، عرض قرطين مما تزين به النساء آذانهن ، ثم مخدة  
 من جلد مطرز ، ثم صندوقاً صغيراً . ولعله كان ينوع هذا التنوع اما  
 للتنوع ذاته ، واما استجابةً لمطالب الجمهور . لم أستطع أن أنتظر أكثر  
 من دقيقتين ، فاقتربت من المخدة أولاً ، ثم من الصندوق الصغير ، لكننى  
 كنت فى كل مرة أتوقف فى اللحظة الحاسمة : مستحيل أن اشترى أشياء  
 كهذه . وأخيراً ظهر بين يدي المنادى « ألبوم » .

« ألبوم ، مجلد بجلد أحمر ، يستعمل ، عليه رسوم بالتلوين المائى  
 والحبر الصينى ، فى غمد من عاج محفور ، مع مغاليق من فضة :  
 روبلان » .

تقدمت : كان الألبوم يبدو رائعاً ، الا أن فى شغل عاجه عيباً .

كنت الشخص الوحيد الذي مضى ينظر في « الألبوم » • صمت الجميع •  
 ما من منافس • كان في امكاني أن أسأل الألبوم من غمده لأدقق النظر  
 فيه ، لكنني لم أستعمل هذا الحق ، وأشرت الى النادي بيد ترتعش :  
 - روبلان وخمسة كوبيكات •

كذلك قلت وأسنانتي تصطك فيما أظن •

وقع المزاد على • فسرعان ما سحبت الثمن من جيبي ، فدفعته ،  
 وأخذت الألبوم ، ومضيت الى ركن من الغرفة ، فأخرجته من غمده ،  
 وأخذت أتأمله محموماً مسرعاً : اذا صرفنا النظر عن الغمد فان « الألبوم »  
 أبأس « ألبوم » في الدنيا بأسرها • • هو ألبوم صغير ليس أكبر من ورقة  
 صغيرة من أوراق الرسائل ، نحيل شديد النحول ، قد حال تذهيب غلافه  
 أو كاد ، يشبه تماماً تلك « الألبومات » التي كنا نراها لدى الفتيات عند  
 انتهائهن من المدرسة الابتدائية • وقد رسمت عليه بالتلوين المائي والحبر  
 الصيني رسوم معابد فوق جبال ، ومشاهد غرام ، وغدير تسبح في مائه  
 بجعات ؟ وكتبت كذلك أبيات شعر :

انا ذاهب مسافر بعيدا  
 أنا تارك موسكو ولن أعودا  
 تحية الوداع يا احبتي  
 ففي بلاد الكرم صارت مهنتي

لقد بقيت هذه الأبيات في ذاكرتي ( • وخلصت من ذلك الى أنني  
 أخفقت اخفاقاً ذريعاً • اذا كان هناك شيء لا حاجة بأحد اليه في العالم كله ،  
 فهو هذا الشيء عينه • قلت لنفسى : « لا ضير •• ان أول رهان خاسر  
 دائماً • حتى لقد يكون خسراتي هذا بشير خير » • لقد كنت فرحاً حقاً •  
 وبينما كنت أقول هذا الكلام لنفسى اذ دوى صوت في أذني قائلاً :  
 - آ ••• وصلت متأخراً • هو معك ؟ هل اشتريته ؟



هو صوت سيد يرتدى معطفاً أزرق ، حسن القامة ، جميل الھندام •  
لقد جاء متأخراً • وأضاف يقول :

- نعم ، وصلت متأخراً • يالها من مصيبة ! بكم اشتريته ؟

- بروبلين وخمسة كوبكات •

- خسارة ! ألا تنازل لى عنه ؟

فهمست فى أذنه قائلاً وقد أخذ قلبى يخفق :

- لنخرج !

• وخرجنا الى الفسحة أمام باب المنزل •

- اتنازل لك عنه بعشرة روبلات •

قلت له ذلك بينما كانت تسرى فى ظهري قشعريرة برد •

- عشرة روبلات • اسمح لى ! ما هذا الذى تقول ؟

- انت حر •

نظر الى الرجل ملياً • كنت حسن الملبس ، فما أشبه أن أكون

يهودياً أو متاجراً • قال :

- ولكن ، أرجوك ، هذا ألبوم عتيق لا قيمة له ! فيم عساه ينفلك ؟

ان الغمد نفسه لا يساوى شيئاً • ولن تجد من يشتريه منك •

- ومع ذلك فأنت تريد أن تشتريه •

- لسبب خاص ، عرفته أمس فقط • أنا انسان فريد فى نوعه •

- كان يجب أن أطلب خمسة وعشرين روبلاً ، ولكن لما كان

يمكن أن تعدل عندئذ عن شرائه فقد اكتفيت بطلب عشرة روبلات ،

زيادةً فى الضمان • ولن أخفض الثمن كوبكاً واحداً •

قلت ذلك ثم أدت ظهري وانصرفت •

فأدركني في فناء الدار ، وقال :

- خذ أربعة روبلات ، بل اليك خمسة ! فطلت أسير دون أن

أجيب •

- طيب • خذ •

قال ذلك وهو يمدُّ اليَّ عشرة روبلات ، فأعطيته « الألبوم » •

قال :

- اعترف أن هذا ليس من الشرف في شيء • شيء تشتريه بروبيلين

ثم تبعه بعشرة !

- ولماذا لا يكون من الشرف في شيء ؟ هذا سوق •

- أي سوق ؟ ( وأخذ يفضب ) •

- حيث يكون طلب يكون سوق • لولا أنك طلبته لما قدّر لي أن

أبيعه بأربعين كوبكًا •

جهدت أن لا أنفجر ضاحكاً ، وأن أحتفظ بمظهر الجد ، فضحكت

في داخل نفسي - ضحكت لا عن حماسة ، ولكن دون أن أعرف لماذا !

وكنت كمن تخنق أنفاسه قليلاً •

جمجمت أقول له ، رغم ارادتي تماماً ، ولكن بلهجة الصديق ،

وعلى شعور بالموودة له :

- اسمع ما سأقوله لك • ان المرحوم جيمس روتشيلد الباريسي ،

الذي خلف تركة تقدر بمليار وسبعمائة مليون فرنك ( هز الرجل رأسه

موافقاً ) ، حين علم ، في شبابه ، مصادفةً ، قبل غيره بضع ساعات ،

بمقتل دون بيرى ، أسرع يبلغ من يجب ابلاغه ، فكسب بذلك عدة ملايين

في طرفة عين • هكذا يعمل !

- أنت اذن روتشيلد ؟

كذلك صاح مستاءً كأنه يوجه كلامه الى غبي أبله • خرجت من البيت نشطاً • مسعى واحد بربيع سبعة روبلات وخمسة وتسعين كوبيكا ! لقد كانت مجازفتي حمقاء ، كانت لعبة طفل • اننى أسلم بذلك • ولكنها كانت تتفق مع فكرتى ولا يمكن الا أن تملأ نفسى انفعالاً عميقاً • • ولا داعى الى وصف عاطفتى • ان الورقة النقدية فى جيب صدرتى ، وأنا أفس أصبى فى الجيب أتلمسها وأجسها ، وأسير هكذا لا أستل يدي من جيبي • حتى اذا صرت على مسافة مائة متر من الدار ، تناولت الورقة النقدية أنظر فيها ، وأنفحصها ، حتى لقد اشتفيت أن أقبلها • وفجأة توقف أمام أحد المنازل ركب • ففتح الجندى الباب ، وصعدت الى العربة سيدة باذخة المظهر ، فى ريعان الصبا ، بارعة الجمال ، واسعة الثراء ، ترفل فى حرير ومخمل ، ويبلغ ذيل ثوبها متراً ونصف متر • وفجأة افلتت من يديها محفظة جميلة صغيرة فسقطت على الأرض • واستقرت السيدة فى موضعها من العربة ، فمال الخادم على الأرض يريد أن يتناول المحفظة ، ولكننى أسرعت فالتقطتها بوثبة سريعة ، ومدتها الى السيدة رافعاً قبعتى ( وهى قبعة عالية • لقد كنت ارتدى ملابس شباب يعنى بهندامه ) • فقالت لى السيدة فى وقار وتحفظ ، مع ابتسامة لطيفة غاية اللطف : « شكراً يا سيدى » • ومضت العربة • وقبّلت ورقة العشرة روبلات •

في ذلك اليوم نفسه كان عليّ أن ألقى ايفيم زفيريف ، وهو واحد من رفاقي في الليسيه تركها ليدخل مدرسة خاصةً ببطرسبرج . انه لا يستحق أن أصفه لك الآن ، ولم تكن لي به أية صداقة . ولكنني أخذت أبحث عنه . ان في وسعه ( وذلك بسبب ظروف لا تستحق أن تذكر أيضاً ) أن يدلني على عنوان رجل اسمه كرافت كنت في حاجة ماسة اليه متى رجع من فلنو . وكان زفيريف ينتظر وصوله في ذلك اليوم نفسه ، أو في الغداة ، وأعلمني بذلك أول أمس . كان يجب عليّ أن أذهب الى بطرسبرج جسكايا ستورونا ، لكنني لم أكن أشعر بتعب .

وجدت زفيريف ( وهو في التاسعة عشرة من عمره أيضاً ) ، في فناء منزل عمته التي كان يقيم عندها مؤقتاً . كان قد تناول غداءه ، فهو يتنزّه الآن في الفناء فوق عكازين طويلين . فأسرع ينبتني أن كرافت وصل أمس ، وأنه نزل شقته القديمة في بطرسبرجسكايا ستورونا ، وانه يريد هو أيضاً أن يراني في أقرب وقت ممكن ، لأنه يحمل نبأً مستعجلاً يريد أن ينقله اليّ وختم ايفيم كلامه بقوله :

– وسيسافر غداً ، لا أدري الى أين !

ولما كان لقايتي كرافت على جانب عظيم من خطورة الشأن عندي ، في الظروف الراهنة ، فقد رجوت ايفيم أن يقودني اليه فوراً ، مادام يقيم في شارع صغير مجاور ، على بعد خطوتين من هناك . ولكن زفيريف قال انه صادفه منذ ساعة ذاهباً عند درجاشيف . وأردف يقول :

– فلنذهب الى درجاشيف ! ما لك تتصل دائماً ؟ أ أنت خائف ؟

لقد يتأخر كرافت عند درجاشيف ، فأين عسى أجده بعدئذ ؟ ولم أكن أخاف درجاشيف ، لكننى لا أحب أن أذهب إليه ، رغم أن ايفيم حاول أن يأخذنى إليه غير مرة . هذه هى المرة الثالثة على الأقل . وكان يطرح علىّ دائماً هذا السؤال : « أنت خائف ؟ » ، مبتسماً ابتسامة خبيثة . ولم يكن الأمر أمر خوف مع ذلك ، أقول هذا سلفاً ؟ وإذا كنت أشعر بشيء من خشية ، فذلك شأن آخر . وقررت هذه المرة أن أذهب الى درجاشيف وكان المكان على مسافة خطوتين أيضاً . سألت ايفيم أثناء الطريق أما يزال عازماً على الهروب الى أمريكا . فأجاب يقول ضاحكاً ضحكة يسيرة :

– قد أتريث ♦

لم أكن أحبه كثيراً ، بل لم أكن أحبه البتة : ان شعره يشبه من شدة شقرته أن يكون أبيض وان وجهه مدور مسرف فى بياضه الى حد غير لائق . . . . يكاد يكون وجهه حبي صغير . ورغم أنه أطول منى ، فلقد كان من المستحيل أن يحسبه المرء فوق السابعة عشرة من العمر . أما أن يقوم بينك وبينه حديث فذلك مستحيل .

سألته لأقول شيئاً ما :

– وماذا يجرى هنالك ؟ أما تزال تجتمع عنده جمهرة غفيرة ؟

فقال مرة أخرى ضاحكاً :

– ولكن لماذا لا تزال خائفاً ؟

أجبت غاضباً

– كفاك سخفاً !

– لا جمهرة ولا شيء من ذلك . ليس يجيء الا أصحاب . ما من

غريب واحد . اطمئن بالاً !

- وفيم يعينى أن يكونوا غرباء أو أن لا يكونوا غرباء؟ ثم ، ألسنت  
أنا غربياً هناك؟ كيف تريد أن يثقوا بى؟

- يكفى أنتى أقودك أنا اليهم . لقد سمعوا عنك . ومن الجائز  
أيضاً أن يقول كرافت رأيه فيك .

- اسمع ، هل سيكون فاسين هناك؟

- لا أدرى .

- اذا كان هناك فالكزنى بكوعك متى دخلنا ودلنى عليه . متى  
دخلنا . سمعت؟

كنت قد سمعت كثيراً عن فاسين ، وكنت أهتم به منذ زمن طويل .

كان درجاتشيف يسكن مع زوجته وأختها واحدى قريباتهما فى  
جناح صغير بفناء المنزل الخشبي الذى تملكه امرأة أحد التجار . ولكنه  
كان يحتل الجناح كله . وكان الجناح يضم ثلاث غرف جميلة . ان ستائر  
النوافذ الأربعة مسدلة . والرجل شبه مهندس ، له وظيفة فى بطرسبرج .  
وقد علمت مصادفةً أنهم يعرضون عليه منصباً هاماً فى الريف ، وأنه كان  
يستعد للالتحاق بمنصبه هناك .

فما كدنا ندخل حجرة المدخل حتى سمعت أصواتاً تملع . لكأنهم  
فى مناقشة حادة . وكان يصبح قائلاً باللاتينية : « ما لا تشفيه الأدوية  
يشفيه الحديد ، وما لا يشفيه الحديد تشفيه النار ، » .

شعرت بقلق حقاً . لم أكن قد تعودت صحبة المجتمع ، أياً كان  
هذا المجتمع . صحيح أننا كنا فى اللسيه تتخاطب جميعاً بصيغة المفرد ،  
ولكن يمكننى أن أقول انه لم يكن لى أى رفيق ، فلقد جعلت لى نفسى ركناً  
أنزوى فيه . على أن هذا ليس هو ما أفلقنى يومئذ . وكنت قد وعدت

نفسى ، على كل حال ، بأن لا أشارك فى أية مناقشة ، وأن لا أقول من الكلام الا ما لا بد من قوله ، حتى لا يستطيع أحد أن يخرج برأى عنى •  
 كنت قد قررت خاصة أن لا أناقش ... خاصة أن لا أناقش •  
 كان فى الغرفة سبعة أشخاص ، فاذا عدت النساء صاروا عشرة •  
 ان درجاتشيف فى الخامسة والعشرين من عمره ، وهو متزوج ، ولزوجته  
 أخت وقريبة أخرى كانتا تقيمان عنده كما قلت • أذات الغرفة بسيط ،  
 كاف ، بل ونظيف • وعلى الجدران ترى صورة مطبوعة بطريقة  
 الليتوغرافيا ، ولكنها لا قيمة لها ؛ وفى الزاوية أيقونة لا يزينها معدن ،  
 لكن عليها قنديلاً مشتعلًا • تقدم درجاتشيف يستقبلنى ، فصافحنى ،  
 وقدم الى مقعداً •

- اجلس • أنت هنا فى بيتك !

وسرعان ما أضافت سيدة شابة ، لطيفة الوجه متواضعة الملبس ،  
 تقول :

- تفضل !

ثم خرجت فوراً بعد أن حيتنى تحية خفيفة • انها امرأته • ويظهر  
 أنها كانت تشارك فى المناقشة • وقد مضت الآن تطعم ابنها • ولكن بقيت  
 سيدتان ، احدهما قصيرة القامة جداً ، فى نحو العشرين من عمرها ،  
 ترتدى ثوباً أسود ، لا بأس به ؛ والثانية فى نحو الثلاثين ، جافة المظهر  
 ناقبة العينين • وكانت السيدتان جالستين ، تصغيان اصغاء شديداً ، لكنهما  
 لا تشاركان فى الحديث •

أما الرجال فقد كانوا جميعاً واقفين ، الا كرافت وفاسين وأنا •  
 وسرعان ما سَمَّاهم لى ايفيم ، لأننى أرى كرافت أول مرة أيضاً ،  
 فنهضت مقرباً منهم للتعارف • لن أنسى أبداً وجه كرافت : ما من جمال  
 خاص يلفت النظر ، غير أن فى وجهه رهافة خالية من أى خبث أو مكر ،

الى وقار شخص يتجلى واضحاً في كل شيء . هو في السادسة والعشرين من العمر ، نحيل بعض التحول ، أطول من متوسط طول الرجال ، أشقر ، توحى اليك سعخته بالجد على رقة وعدوية . ان نوعاً من هدوء يشع في شخصه كله . ومع ذلك أقول لك ، اذا شئت أن تعرف هذا ، اننى لا أرضى أبداً أن استبدل بوجهى الكابى وجهه ذلك الذى بدا لى على هذا الجانب العظيم من الفتنة والاعراء . لقد كان فى هيئته شيء لا أتمنى أن يكون فى هيئتى ، شيء لا أدرى ما هو ؛ شيء من هدوء مفرط ، بالمعنى الأخلاقى لهذه الكلمة ، شيء من كبر خفى مستتر يجهل نفسه . وعلى كل حال فانى لم أكن قادراً على أن أحكم فى الأمر على هذا النحو تماماً حينذاك . والآن انما يبدو لى أن حكمى قد قام على هذا الأساس حين حكمت ذلك الحكم .

قال كرافت :

— أنا سعيد بمعرفتك . وان معى رسالة تهتمك . سنلث هنا لحظة ، ثم نمضى الى بيتى .

كان درجاشيف متوسط القامة ، قوى الجسم ، أسمر اللون ، عريض المنكبين ، ذا لحية كبيرة . انك ترى فى نظرتة الذكاء العملى ، والرزانة فى كل شيء ، وشيئاً من تروى لا يخطئه قط . ومع أنه صامت أكثر الوقت ، فقد كان واضحاً أنه هو الذى يدير دفة الحديث . أما فاسين فلم يلفت وجهه نظرى كثيراً ، رغم كل ما كنت قد سمعته عن ذكائه النادر : شاب أشقر اللون ، واسع العينين ، لونهما أشهب ، شديد انبساط الوجه ، ولكن على شيء من صلابة مفرطة . يشعر المرء أنه ليس بالرجل الاجتماعى كثيراً ، لكن نظرتة ذكية حقاً ، أذكى من نظرة درجاشيف ، وأعمق وأنفذ من نظرات سائر الحضور . وأما الآخرون جميعاً من هؤلاء الشباب فانى لا أتذكر من بينهم الا اثنين : واحداً طويل



القامة ، برونزى اللون ، له « شامات » سود ، كثير الكلام ، فى نحو السابعة والعشرين من العمر ، هو أستاذ أو ما يشبه ذلك ؛ وفى فى مثل سنى ، يرتدى عباءة قصيرة واسعة مما يلبسه الفلاحون ، مخدد الوجه ، شديد الصمت لا يتكلم ، ولكنه يصغى اصغافاً قوياً • وقد اتضح فعلاً أن أصله من الفلاحين •

– لا •• ما هكذا يجب أن تطرح المسألة ! فيما يتعلق بالبراهين الرياضية ، ليس لى ما اعترض عليه • ولكننى ، فيما يتصل بهذه الفكرة ، مستعد لقبولها بغير براهين رياضية •

كذلك بدأ يتكلم الأستاذ ذو « الشامات » السود ، يستأنف الحديث الذى كانوا آخذين فيه منذ قليل متحمساً أكثر من سائر الحضور •  
فقاطعه درجاشيف صاحباً يقول :

– اسمع يا تيخوميروف ، ان الحضور الجدد لا يعرفون الموضوع ( وهنا التفت فجأة نحوى وحدى – وانى لأعترف أنه اذا كان ينوى أن يمتحن الشخص « الجديد » ، أو كان يريد أن يجبرنى على الكلام ، فقد أحسن اختيار الوسيلة البارة ؛ لقد شعرت بذلك رأساً وتأهبت ) •  
الموضوع هو أن السيد كرافت – السيد كرافت مثلاً – وهو معروف لدينا جميعاً بصلابه وطبعه وقوة اقتناعاته – قد انتهى من النظر فى أمر عادى جداً الى استخلاص نتيجة خارقة أذهلتنا جميعاً • لقد انتهى الى أن الشعب الروسى شعب من الدرجة الثانية •

صاح أحدهم :

– بل من الدرجة الثالثة !

– •• من الدرجة الثانية ، شعب خلق أداة لعرق أسمى وأنبى ، فليس له أى دور مستقل فى مصائر الانسانية • وعلى أساس هذه

النتيجة - التي ربما كانت صادقة - وصل السيد كرافت الى أن نشاط  
أى روسى ، أياً كان ، لا بد أن يعطّله الشعور بهذا التقصير عن غيره ،  
فما علينا جميعاً الا أن نسبل أذرعنا ان صح التعبير •

قال تيخومиров نافد الصبر :

- اسمح لى يا درجاشيف • ما هكذا يجب أن تطرح المسألة •

فأذعن درجاشيف وترك له أن يتم كلامه • قال تيخومиров :

- لما كان كرافت قد قام بدراسات جدية ، واستخرج من علم  
الفزيولوجيا استنتاجات يعدها رياضية ، ولعله وقف سنتين من وقته على  
فكرته ( التي لا أرفض أن أقبلها هادئاً كل الهدوء ) أى لما كان كرافت  
يعانى مخاوف كبيرة وكان كلامه يشتمل على جدٍ خطير ، فإن الأمر  
يبدو لى ظاهرة غريبة • ان كل شيء يدعونا الى التساؤل عما عجز كرافت  
عن فهمه ، وبهذا انما يجب أن نغنى الآن ، أقصد ان علينا ان نعرف  
السبب الذى يجعل كرافت عاجزاً عن فهم المسألة • هذه ظاهرة يجب ان  
ننظر فيها ، ففى أهى حالة مفردة من اختصاص الطب ، أم هى خاصة  
يمكن أن تتكرر تكرراً طبيعياً فى حالات أخرى • تلكم مسألة تهمة القضية  
المشتركة • أما فيما يتعلق بروسيا فأنا أصدق كرافت ، بل أقول ان ذلك  
يسرنى ؟ فاذا سلّم جميع الناس بهذه الفكرة فكّنت هذه الفكرة الوثاق  
الذى يقيد أيدينا ، وحررت كثيراً من الناس من وهم الوطنية •

قال كرافت بشيء من جهد :

- لا شأن لهذا بالوطنية !

وكان يبدو عليه أن هذه المناقشات كلها تضايقه وتزعجه •

قال فاسين الذى ظل صامتاً مدة طويلة :

- وطنية ، لا وطنية ، دعوا هذا جانباً !

صاح الأستاذ ( كان وحده يصيح ، أما الآخرون فكانوا يتكلمون بصوت خافت ) :

- ولكن قولوا لى :. هل يمكن للنتيجة التى وصل اليها كرافت أن تضعف التطلع الى العمل المشترك الذى يجب أن تحققه الانسانية ؟ لنسلم جدلاً بأن روسيا تأتى فى المرتبة الثانية ، أفلا يمكن العمل من أجل غيرها . ثم كيف يمكن أن يظل كرافت وطنياً اذا فقد الايمان بروسيا ؟

قال صوت من الأصوات :

- ان كرافت ليس روسياً !

- أنا روسى !

- تلك مسألة لا تتعلق بصميم المسألة .

كذلك قال درجاشيف للذى قاطع الأستاذ .

قال تيخومиров متابعاً كلامه كأنه لا يريد أن يسمع شيئاً :

- اخرجوا اخرجوا من فكرتكم الضيقة . اذا لم تكن روسيا الا أداة لعروق أسمى وأنبى ، فلماذا لا تقبل روسيا هذا الدور ! انه دور لامع على كل حال . لماذا لا نعتمد على هذه الفكرة من أجل أن نوسع نظراتنا بعد ذلك . ان الانسانية على أبواب انبعاثها ، وقد بدأ هذا الانبعاث فعلاً . لابد أن يكون المرء أعمى حتى لا يرى المهمات التى سيكون علينا أن ننهض بها . دعوا روسيا وشأنها اذا كنتم قد أصبحتم لا تؤمنون بها ، واعملوا من أجل المستقبل ، مستقبل شعب لماً يزل مجهولاً ، ولكنه سيتألف من الانسانية كلها ، دون تفريق بين عروق . ستموت روسيا فى يوم من الأيام على كل حال . ان الشعوب ، مهما تكن موهوبة ، تعيش ألفاً وخمسمائة سنة ، تعيش ألفى سنة فى أقصى تقدير . وما من فرق تقريباً بين ألفى سنة ومائتى سنة ؟ ان الرومانيين لم يبقوا

ألفاً وخمسمائة سنة على حالة الحياة ، وانما تحولوا هم أيضاً الى أداة •  
 انقضى زمان طويل لم يعودوا فيه شيئاً مذكوراً • لكنهم أورثوا الانسانية  
 فكرة ، وكانت هذه الفكرة عنصر تقدم للانسانية • كيف يمكن أن نقول  
 لانسان انه لم يبق هنالك شيء يُعمل ؟ اعملوا من أجل الانسانية ، وانسوا  
 كل ما عدا ذلك ! ثمة أعمال لا يكفيها العمر اذا أتمت أنعمتم النظر !

– يجب على المرء أن يعيش على ما يريد . قانون الطبيعة والحقيقة •

كذلك قالت السيدة درجاشيف من وراء الباب • كان الباب  
 مشقوقاً ، فهي ترى واقفةً أمام شق الباب ، حاضنةً طفلها ، مغطاة الصدر  
 نصف تغطية ، مصيخةً بسمعها في حماسة •

أصغى اليها كرافت وهو يتسم ابتسامة خفيفة • وأخيراً ، قال وقد  
 بدا في وجهه الاعياء ، ولكن في صدق قوى :

– أنا لا أفهم كيف يستطيع المرء ، اذا هو كان خاضعاً لتأثير فكرة  
 مسيطرة يرتبط بها عقله وقلبه ارتباطاً تاماً ، أن يعيش أية حياة خارج  
 هذه الفكرة •

– ولكن اذا قبل لك بالحجج المنطقية والرياضية ان النتيجة التي  
 انتهت اليها خطأ ، وان فكرتك ضلال ، وانه لا يحق لك البتة أن  
 تبعد نفسك عن العمل المشترك المفيد لمجرد أن روسيا محكومة في رأيك  
 حكماً لا راد له على أن تأتي قيمتها في المرتبة الثانية ، واذا أمكن أن نريك  
 أفقاً لا نهاية له ولا حدود ، بدلا من الأفق الضيق الذي يحجب نظرك ،  
 واذا أمكن بدلا من فكرتك الضيقة هذه عن الوطنية •••

قال كرافت وهو يحرك يده متمللاً :

– سبق أن قلت لكم ان الأمر ليس أمر وطنية •

فتدخل فاسين فجأة يقول :

- هاهنا سوء تفاهم • الخطأ هو أننا لا نجد لدى كرافت مجرد استنتاج منطقي ، وإنما نجد لديه استنتاجاً انحدر فصار الى عاطفة ان صح التعبير • طبائع البشر ليست واحدة : كثير من البشر يتحول الاستدلال المنطقي عندهم أحياناً الى عاطفة قوية تستولى على وجودهم كله ، فيصعب جداً طردها أو تعديلها • فلكى نشفى انساناً أصيب بهذا الداء يجب علينا أن نغير هذه العاطفة ، وهذا لا يكون ممكناً الا بأن نحل محل هذه العاطفة قوة أخرى تساويها • وذلك صعب دائماً ، حتى لقد يكون فى بعض الأحيان مستحيلًا •

### صاح المشاجر :

- خطأ • ان النتيجة المنطقية تبدد بذاتها الأحكام السابقة والأوهام المستقرة • والافتناع العقلي يولد عاطفة تناسبه • ان الفكر ينبع من العاطفة، حتى اذا استقر فينا قام يوّلد بدوره عاطفة جديدة !

- الناس متفاوتون ، فبعضهم يسهل أن تتغير عاطفته ، وبعضهم يصعب أن تتغير عاطفته •

كذلك قال فاسين وقد بدا عليه أنه لا يريد أن يطيل المناقشة • أما أنا فقد راقنتى فكرته وأعجبتنى أيما اعجاب •

فقلت على حين بغتة أحطم الجليد وأبدأ الكلام :

- صحيح تماماً ما قلت • فالحق أنك لا تستطيع أن تزيل عاطفة الا باحلال عاطفة أخرى يمكن أن تقوم مقامها • أذكر أنه منذ أربع سنوات •• وكان ذلك فى موسكو •• وقع لجنرال من الجنرالات •• أنا لم أكن أعرفه •• ولكن يمكن أن لا يكون ممن يوحون بالاحترام •• أضيفوا الى ذلك أن الواقعة نفسها يمكن أن تبدو غير معقولة •• المهم أن هذا الجنرال قد فقد ابنة له •• بل فقد ابنتين ، واحدة بعد أخرى •• بمرض واحد ••

ان هذا الرجل قد بلغ فيجأة من الارهاق ما جعله لا ينسى مصيبيته لحظة واحدة ••• كان في حداد دائم لا يملك المرء حين يراه الا أن يتألم ••• ثم لم تمض ستة أشهر حتى مات • أما أنه مات حزنا وألما فذلك واقعة لا ريب فيها • فكيف كان يمكن أن نشفيه قبل أن يموت ؟ بعاطفة تساوى قوة عاطفته؟ كيف ؟ ينبغي عندئذ اخراج ابنتيه من القبر وردهما اليه ! أقصد ••• شيئاً من هذا القليل ! لقد مات الرجل ! ولكن كان يمكن أن تقدم له براهين رائعة : أن يقال له ان الحياة قصيرة ، وان كل انسان الى فناء ؟ كان يمكن أن تؤخذ له أرقام من سجلات الوفيات عن عدد الأطفال الذين ماتوا بهذا المرض ••• لقد كان الجنرال محالاً على التقاعد •••

• هنا توقفت عن الكلام مختقاً ، ونظرت حولى •

قال أحدهم :

– الأمر مختلف !

قال فاسين ملتفتاً نحوى :

– ان الواقعة التي ذكرتها ، على كونها من طبيعة أخرى غير ما نحن

بصدده ، تشبهه بعض الشبه وتلقى عليه ضوءاً •

يجب أن اعترف هنا لماذا افتتت بالحجة التي أدلى بها فاسين عن « الفكرة العاطفة » ؛ ويجب على أن أعترف في الوقت نفسه أنني شعرت بعار جهنمي . نعم لقد كنت أخاف أن أذهب الى منزل درجاشيف ، ولكن لسبب آخر غير السبب الذي كان يظنه ايفيم . كنت أخاف ، لأنني كنت أخشى هؤلاء الناس منذ كنت بموسكو . كنت أعرف أنهم (هم أو أضرابهم) أناس مجادلون ، وأن من الجائز جداً أن يمزقوا « فكرتي » ارباً ارباً . كنت على ثقة تامة بأنني لن أبوح لهم بها . ولكن كان يمكن (هم أو أضرابهم ، أقولها مرة أخرى ) أن يقولوا أشياء قد تفقدني ثقتي بفكرتي حتى دون أن يشيروا اليها . لقد كان في « فكرتي » مشكلات لم تحل ، ولكنني لا أريد لهذه المشكلات أن يجعلها أحد عني . حتى لقد انقطعت في هاتين السنتين الأخيرتين عن القراءة ، مخافة أن أقع على فقرة من الفقرات لا تؤيد « فكرتي » حتى لقد تزعزعتني . وهذا فاسين يحل المسألة من أول وهلة ، ويهدى روعي الى أقصى حد . ما الذي كان يخيفني فعلاً ، وماذا كان في وسعهم أن يفعلوه لي بكل ما يملكون من جدل ؟ لعلمي الشخص الوحيد الذي فهم ما أراد أن يقوله فاسين حين تحدث عن « الفكرة - العاطفة » . ليس يكفي أن تدحض فكرة جميلة ، وإنما ينبغي لك أن تحل محلها فكرة تضارعها جمالاً . وبدون ذلك فأنني اذ أرفض التخلي عن عاطفتي بحال من الأحوال ، أستطيع أن أدحض دحضك في قرارة قلبي ، ولو اكرهاً واجباراً مهما يكن رأيك أنت . وما الذي كان في وسعهم ، أن يعطوني بديلاً عن فكرتي ؟ أما كان ينبغي اذن أن أكون أكثر شجاعة . كان عليّ أن أملك مزيداً من البسالة . ولذا فأنني حين

تحمست لرأى فاسين شعرت بعار ، وأحسست أننى طفل لا يستحق  
 الاحترام •

وثمة أمر آخر أشعرنى بالعار • ان تلك العاطفة المحترقة التى  
 تدفع المرء الى تغليب رأيه ليست هى التى حملتنى على تحطيم الجليد  
 والأخذ بالكلام ؛ وانما حملتنى على ذلك رغبة فى الوثوب الى « معانقة »  
 الناس ، من أجل أن يجدوا أننى رجل طيب ، من أجل أن يأخذوا  
 بتقبيلى ، أو شئ من هذا القبيل ( شئ دميم فيصح على كل حال ) • وأعتقد  
 أن هذه الرغبة هى أشجع الرغبات التى تثير الشعور بالعار فى نفسى • لقد  
 لاحظت وجود هذه الرغبة فى نفسى منذ زمن طويل ؛ لاحظتها وأنا قابع  
 فى ذلك الركن الذى قبعت فيه ذلك العدد كله من السنين ، دون أن أشعر  
 بندامة على ذلك • كنت أعرف أن علىّ أن أكون بين الناس أشد جهامة •  
 على أن الشئ الوحيد الذى كان يعزىنى ، بعد كل مرة من مرات شعورى  
 بالعار هذا ، هو أن « فكرتى » لا تزال رغم كل شئ ملكى ، لا تزال رغم  
 كل شئ كامنة فى مخبئها ، وأننى ما أفضيت بها الى أحد • كان ينقبض  
 صدرى حين أتصور أحيانا أننى فى اليوم الذى سأبوح بفكرتى لأحد فلن  
 يبقى لى بعدئذ شئ ، وسأكون بعدئذ شبيهاً بسائر الناس ، وأننى قد أترك  
 فكرتى نفسها حينذاك • لذلك كنت أحافظ عليها ، وأصونها ، وأخشى  
 الثثرات • وهأنذا فقدت تحفظى عند درجاتشيف منذ أول لقاء تقريباً :  
 صحيح أننى لم أبح بشئ ، لكننى لغوت لغواً كثيراً لا يفتقر • شعرت  
 بالعار • ذكرى أليمة ! لا ، لن أستطيع أن أعيش مع البشر • مازلت  
 مقتنماً بهذا الى اليوم • انى لأتحدث عن أربعين سنة سلفاً • ان فكرتى هى  
 ملاذى ومأواى •



ما ان أيد فاسين كلامى حتى تملكنتى رغبة فى الكلام لا سبيل الى  
مقاومتها •

- فى رأى أن من حق كل انسان أن يكون له مشاعر وعواطف •  
شريطة أن يكون ذلك عن اقتناع • وليس لأحد أن يأخذ عليه ذلك •  
قلت هذا متجها بالكلام الى فاسين • وقد نطقت بالعبارة حارة سريعة ،  
ولكن خيّل الى أننى لم أفعل ذلك من تلقاء نفسى ، حتى لكأن انساناً آخر  
كان يحرك لسانى فى فمى •

- يا ••• سلا ••• م •••

بذلك نطق الصوت نفسه الذى قاطع درجاتشيف منذ هنيهة ، والذى  
صاح يصف كرافت بأنه ألمانى • نطق بذلك هازئاً ساخرآ • واذ عدده  
انسانا تافها لا قيمة له البتة ، التفت نحو الأستاذ ، كأنه هو الذى صاح •  
وقلت :

- يقينى أنه ليس لى حق فى أن أحكم على أحد •

وكنت قد أخذت أرتجف لعلمى سلفاً بأننى لن أتوقف عن الكلام •  
وقلت وأنا أحقق فى الأستاذ الذى لزم الصمت وراح ينظر الى مبتسماً :

- لكل انسان فكرته !

صاح التافه يسال :

- وأنت ما فكرتك ؟

- يطول شرحها كثيراً • فاذا أردت أن أذكر لك جزءاً منها ، فإليك

هو : ليدعنى الناس وشأنى ! ما بقى معنى روبلان ، فاتنى أريد أن أعيش وحيداً ، أن لا أكون رهناً بأحد ( هدىء روعك ، اننى أعرف الاعتراضات ) ، وأن لا أعمل حتى ولا من أجل الانسانية الكبيرة المقبلة التى تريدون أن تقحموا كرافت فى خدمتها . ان الحرية الفردية ، أعنى حرىتى أنا ، هى قبل كل شىء . ولا أريد أن أعرف شيئاً عداها .

وكان خطئى أننى غضبت ♦

– معنى ذلك أنك تدعو الى هدوء البقرة الشبعانة !

– أسلم بذلك . ليس فى البقرة ما يؤذى . لست مديناً لأحد بشىء : اننى أدفع للمجتمع ما علىّ فى صورة ضرائب ، حتى لا أسرق ، حتى لا أضايق ، حتى لا أقتل ، وليس لأحد أن يطالبنى بأكثر من ذلك . قد تكون لى ، شخصياً ، أفكار أخرى ، وربما كنت أريد أن أخدم الانسانية ، ولسوف أخدمها ، ولعلنى سأخدمها أكثر من جميع الواعظين عشر مرات . ولكننى لا أريد أن يفرض علىّ هذه الخدمة أحد ، لا أريد أن يكرهنى عليها أحد اكرهاً ، كما تريدون اكرهه كرافت ♦ أريد لحرىتى أن تبقى كاملة ، حتى ولو لم أحرك اصبعى . أما أن أركض وأمضى أتشبث بأعناق الناس حياً بالانسانية ، وأن أذرف الدموع رقة وحناناً ، فما ذلك الا « موضة » ! ثم لماذا يجب علىّ أن أحب جارى ، أو أن أحب الانسانية المقبلة التى تتحدثون عنها ، الانسانية التى لن أراها يوماً ، التى لن تعرفنى يوماً ، التى ستزول هى أيضاً من غير أن تخلف لا أثراً ولا ذكرى حين تستحيل الأرض بدورها الى كتلة من نلج وتطير فى الفضاء بلا هواء مع طائفة لا حصر لها من كتل أخرى مثلها . ألا ان هذا أسخف ما يمكن أن يتخيله خيال ! هذه عقيدتكم ، فانظروا ما هى ! قل لى : لماذا يجب علىّ حتماً أن أكون كريماً ، خاصة اذا كان كل شىء لا يدوم الا لحظة !

صاح صوت :

— باه ••• باه •••

كنت قد أطلقت هذه العبارات القليلة في غضب وخبث ، محرقاً جميع سفتى • كنت أعلم أنني أطير الى الهاوية ، ولكنني كنت أسرع خشية الاعتراض • كنت أحس انني أسوق كلامي فوضى على غير هدى ، بلا تسلسل ولا نظام ، ولكنني كنت أتعجل اقناعهم وسحقهم ! كان هذا على جانب عظيم من خطورة الشأن في نظري ! لقد تأهبت ثلاث سنين • والأمر العجيب الذي يلفت النظر أنهم صمتوا دفعة واحدة ، كأنهم لم يقولوا شيئاً ، واكتفوا بالاصغاء • وأردفت أقول موجهاً كلامي الى الأستاذ :

— تماماً • ان هناك رجلاً عظيماً الذكاء قال يوماً فيما قال انه لا شيء أصعب من الاجابة عن هذا السؤال : « لماذا يجب على المرء أن يتمسك بالفضيلة ؟ » • ان في هذه الحياة الدنيا ثلاثة أنواع من الأرزال : أرذال سذج مقتنعين بأن رذالتهم هي الفضيلة المثلى ، وأرذال خجلين هم أولئك الذين يحمرون حياءً من رذالتهم مع اصرارهم على أن يمضوا فيها الى النهاية ، وأرذال أرذال ، أرذال محض • واسمحوا لي أن أضرب بكم هذا المثال : لي رفيق اسمه لامبير ، كان يقول لي ، ولماً تتجاوز السادسة عشرة من العمر ، انه حين سيصير غنياً ستكون أعظم لذة يتمتع بها هي أن يغذى كلاباً ببخبز ولحم بينما يموت أولاد الفقراء جوعاً ، وانه اذا رأى هؤلاء الأطفال يرتعدون من شدة البرد ولا يملكون ما يستدفئون به ، فسيشتري أكواماً كبيرة من الحطب فيمضى بها الى العراء يحرقها هنالك ليدفئ بها الهواء دون أن يعطيهم منها عوداً واحداً • انظروا الى عواطف هذا الفتى ثم قولوا بماذا عساي أجيب هذا الوبش المحض اذا هو سألتني : « لماذا يجب على قطعاً أن أتمسك بالفضيلة » ، ولاسيما في هذا العصر الذي جعلتموه على هذه الصورة ! ان الأمور لم تكن في يوم من الأيام أسوأ منها الآن أيها السادة ! ان الوضع في مجتمعنا خال من أي وضوح • انكم تتجددون وجود الله ، وتجددون القداسة ، فما عسى أن تكون

القاعدة الصماء العمياء البهيمة التي يمكن أن تجبرني على أن أسلك سلوكاً ما اذا كان من الأنفع لي أن أسلك سلوكاً آخر؟ تقولون: « ان تصرفي الحكيم تجاه الانسانية هو من مصلحتي أنا أيضاً » • ولكن اذا كنت أرى كل هذه الأشياء المجنونة ، كل هذه الثكنات ، كل هذه الكتاب ، فماذا أصنع بهذا كله ، وماذا أصنع بمستقبلكم وليس لي الا حياة واحدة أعيشها ! دعوني أعرف مصلحتي بنفسى : فسأستخرج من ذلك لذة أكبر • كيف يمكن أن أهتم بما سيجرى في انسايتكم بعد ألف عام ، اذا كان قانونكم لا يهب لي جزاء ذلك لا حياً ولا حياة آخرة ولا شهادة بأني امرؤ فاضل؟ لا يا سادتي ، اذا كان الأمر كذلك ، فسأحيا لنفسي كأوقع ما تكون حياة امرئ لنفسه • والى الجحيم فليذهب الآخرون •

- ألا انك لتتمنى للناس تمنيات لطيفة كريمة !

- وأنا مستعد مع ذلك لأن أتبعهم •

- أحسن ( ذلك الصوت نفسه قال هذا ) •

وظل الآخرون صامتين جميعاً ، ينظرون الىّ ويلاحظوننى • ولكن سرعان ما أخذت تظهر شيئاً فشيئاً في أركان شتى من الغرفة ، ضحكات بدأت متخفية ثم سفرت فراحوا يهزأون منى جميعاً وجهاً لوجه ، الا فاسين وكرافت • وكان ذو « الشامات » السود يتسم أيضاً : يحدق الىّ ويصغى •

قلت وأنا أرتعش من قمة رأسى الى أخمص قدمى :

- أيها السادة ، لن أقول لكم فكرتى مهما كلف الأمر • ولكننى ، بالعكس ، أسألكم ، من وجهة نظركم أنتم ، لا من وجهة نظرى أنا ، لأننى ربما كنت أحب الانسانية ألف مرة أكثر منكم مجتمعين ، أسألكم أن تقولوا لي ، وأنتم مضطرون أن تجيئوني فوراً ، مضطرون أن تجيئوني لأنكم تضحكون : ماذا تملكون أن تقدموا لي اذا أنا اتبعتمكم ؟ كيف

تبرهنون لى على أن الأمور ستكون أفضل فى ظل نظامكم ؟ ماذا أتم فاعلون باحتجاجى فى نكنتكم على المساكن المشتركة ، وعلى الاكتفاء بالضرورى الذى لا بد منه (١) ، والاحاد ، والنساء المشاع بغير أولاد . - ذلك هو اتفاقكم النهائى ، أنا أعرفه . وفى وسيل هذا الجزء اليسير الزهيد من المصلحة المتوسطة التى سيكفلها تنظيمكم العقلى ، فى سبيل قطعة خبز وقليل من دفاء ، وشيء من ملابس تريدون أن تأخذوا كل شخصى فى مقابل ذلك . انتظروا قليلاً ! لنفرض أن أحداً اتترع منى امرأتى . فهل تقيدوننى تقييداً كافياً يمنعنى من قتل غريمى ؟ رب قائل منكم يقول لى : ولكنك ستصبح أنت نفسك أعدل من ذلك يومئذ . ولكن امرأتى ، ما عساها تقول عن بعل متعل كل هذا التعقل ، اذا كانت تحترم نفسها أقل احترام ؟ اعترفوا أن هذا مخالف للطبيعة . ألا تشعرون بحياء ؟

هتف صوت الرجل التافه قائلاً فى سخريه :

- أأنت اختصاصى . . فى شئون المرأة ؟

فمرت بى لحظة تمنيت فيها أن أنهض له مسرعاً فإوسعه ضرباً مبرحاً . انه رجل قصير أحمر مغطى الوجه ببقع حمراء . على كل حال ، ليس مظهره بالأمر الذى يهمنى .

- طمئن بالك . اننى ما عرفت النساء بعد .

أطلقت هذه الجملة ملتفتاً إليه أول مرة .

- اعتراف غريب كان يمكن أن يقال بلغة أقرب الى التهذيب

والأدب فى حضور سيدات .

ولكن جميع المجتمعين أخذوا يتحركون ؛ فهم يتناولون قبعاتهم

(١) بالفرنسية فى الاصل .

ويلوح عليهم أنهم منصرفون - لا بسببي ، بل لأنه آن الأوان • غير  
أن هذه الطريقة في معاملتي بالصمت ملأتني شعوراً بالعار • ونهضت  
أنا أيضاً •

- هل تريد أن تذكر لي اسمك رغم كل شيء؟ انك لم تكف  
عن النظر اليّ •

كذلك سألتني الأستاذ وهو يتقدم نحوي خطوة ، مبتسماً ابتسامة  
غير لائقة •

- دولجوروكي

- الأمير دولجوروكي

- بل دولجوروكي فحسب ، ابن قنٍ قديم اسمه ماكار دولجوروكي ،  
وابن زنا لمولاي السابق السيد فرسيلوف • طمن بالك يا سيدي ، فلست  
أقول هذا من أجل أن ترتمي على عنقي وأن تذرف الدمع كالعجول •  
فانفجرت عاصفة من الضحك تدوي بلا تخرج حتى اسيقظ من  
شدة أصواتها الطفل الذي كان نائماً في الجهة الأخرى وأخذ يبكي •  
كنت أرتعش غيظاً • وصافح الجميع درجاتشيف وانصرفوا دون أن  
يولوني أي التفات •

قال كرافت وهو يلكنزني بكوعه :

- هيا بنا !

فتقدمت نحو درجاتشيف فصافحته بكل قواي وهزرت يده مرات ،  
بكل قواي أيضاً •

قال لي كرافت :

- معذرة اذا كان كودريوموف قد آذاك • ( ان كودريوموف هو  
الرجل القصير الأحمر ) •

وتبعت كرافت ، لا أشعر بخجل من شيء •

## ٦

بديهي أن بينى اليوم وبينى يومئذ مسافةً لا نهاية لها •

ظللت أمضى « غيرَ خجل من شيء » حتى أدركت فاسين على السلم ، تاركاً كرافت ، وهو شخص من الدرجة الثانية ، فسألته بلهجة طبيعية وهيئة عادية كأن شيئاً لم يحدث :

– أعتقد أنك تعرف أبى ، أقصد فرسيلوف ؟

فأجاب على الفور ( دون اصطناع ذرة من تلك اللباقة الرقيقة ، ولكن الجارحة ، التى يعمد إليها أولئك الأشخاص اللطاف مع أناس كانوا منذ لحظة يشعرون بعار ) ، أجاب قائلاً :

– لا أعرفه معرفة خاصة •

قلت :

– اذا كنت قد سمعته فقد عرفته ، لأنك أنت ما أنت ! فما رأيك اذن فيه ؟ اغفر لى هذا السؤال المبالغ ، ولكننى فى حاجة الى جوابك ؟ فى حاجة الى أن أعرف رأيك أنت فيه • فما هو رأيك أنت ؟

– سؤال صعب • يخيل الىّ أن هذا الانسان قادر على أن يطالب لنفسه بأشياء كثيرة ، وربما كان قادراً على أن ينفذها ، ولكنه يأبى أن يحاسبه أحد •

– هذا صحيح • هذا صحيح كل الصحة • انه شديد الكبرياء ؟ ولكن أهو واضح تماماً ؟ اسمع • ما رأيك فى كاثوايكته ؟ ولكننى نسيت أنك ربما كنت لا تعلم أنه ...

لولا أنني كنت مضطرباً هذا الاضطراب كله فلا شك أنني ما كنت لألقى مثل هذه الأسئلة مباغته على انسان لم أكلمه قبل ذلك في حياتي قط ، ولا كنت أعرفه الا من السمعة • وأدهشني أن فاسين لم يد عليه أنه يلاحظ جنوني هذا •

– لقد سمعت كلاماً من هذا القيل ، ولكنني لا أدري الى أي حد يمكن أن يكون ذلك صدقاً •

كذلك أجب بلهجة لا تزال متساوية هادئة • قلت :

– ليس في ذلك أي صدق • ليس ذلك الا كذباً • هل تتصور أن من الممكن أن يؤمن بالله ؟

– انه انسان شديد الكبرياء والعجب بنفسه ، كما قلت أنت ذلك منذ هنيهة ، وكثير من المتكبرين جداً يحبون أن يؤمنوا بالله ، وخاصة أولئك الذين يحتقرون الناس بعض الاحتقار • كثير من الناس الأقوياء يشعرون بنوع من حاجة طبيعية الى أحد أو الى شيء يعبدونه • ان الانسان القوي يشق عليه كثيراً في بعض الأحيان أن يحتمل قوته •  
صحت أقول :

– اسمع اذن ! ذلك ما لا بد أنه الحقيقة الصادقة صدقاً رهيباً • ولكنني أريد أن أفهم ••

– السبب في هذا واضح : انهم يختارون الله ، حتى لا يعبدوا البشر ، طبعاً دون أن يدركوا هم أنفسهم ما يجري في قرارة أنفسهم • أولئك هم أشد المؤمنين حماسة للايمان ، أو قل أولئك هم أشد المؤمنين رغبة في الايمان ، غير أنهم يحسبون رغبتهم هذه ايماناً • وهؤلاء أنفسهم هم أيضاً أولئك الذين يفقدون آخر الأمر أو هامهم في أكثر الأحيان • أما السيد فرسيلوف ، فأحسب أن في طبعه صفات صادقة كل الصدق • وهو على كل حال انسان يلفت نظري •



### هتفت أقول :

- فاسين ، ان كلامك يسرنى • ليس ذكاؤك هو ما يدهشنى ، وانما يدهشنى أن انساناً له هذا الصفاء كله ، ويتفوق على هذا التفوق الذى لا حدود له ، يرضى أن يسير الى جانبى وأن يكلمنى بمثل هذه الساطة وبمثل هذا اللطف حتى لكأن شيئاً لم يحدث •

### ابتسم فاسين :

- أنت تمتدخنى فوق ما استحق • ان ما حدث هنالك لا يدل الا على أنك مسرف فى حب المناقشات المجردة • صحيح أنك كنت قد صمتت حتى ذلك الحين زمناً طويلاً •

- صمتت ثلاث سنين ؛ ثلاث سنين تأهب للكلام •• هذا واضح • ولئن لم أظهر لك غيباً فلأنك أنت ذكى الى أقصى حدود الذكاء ، أما سلوكى أنا فكان يستحيل أن يكون أشد حماقة وأكثر غباءً مما كان • ولكنى بدوت لك امرأ ردىء الطبع •

### - ردىء الطبع ؟

- نعم ، بدون شك • قل لى بصراحة : ألا تحتقرنى فى داخل نفسك لأننى ذكرت أننى ابن زنا لفرسيلوف •• ولأننى تفاخرت بأننى ابن قن ؟

- أنت تسرف فى تعذيب نفسك وارهاقها • اذا كنت ترى أنه ما كان لك أن تقول ذلك ، فليس عليك الا أن تمتنع عن قوله مرة أخرى • ان أمامك خمسين سنة •

- أنا أعلم أن على أن أكون صامتا مع الناس • أسوأ مساوىء المرء أن يرتقى على أعناق الآخرين • لقد قلت لهم ذلك منذ قليل • وهأنذا مع ذلك أرتقى على عنقك ! الا أن هناك فرقا بين الأمرين ، أليس هذا

صحيحاً؟ فإذا كنت قد أدركت هذا الفرق ، اذا كنت قد استطعت أن تدركه ،  
فانتى أبارك هذه الدقيقة ...

ابتسم فاسين مرة أخرى :

- زرنى ان شئت • أما الآن فأنا مشغول ينتظرني عمل من الأعمال •  
لكنك ستسرنى اذا زرتنى •

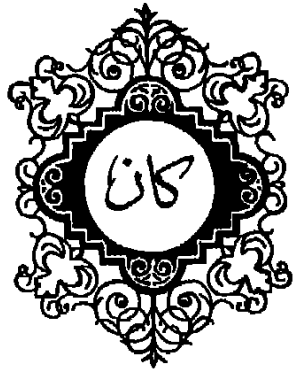
- أستنتج من النظر فى وجهك أنك امرؤ مغلق جداً ، وأنتك قليل  
الرغبة فى الافصاح عن ذات نفسك •

- ربما كان هذا صحيحاً • لقد عرفت أختك اليزابيث ماكاروفنا ،  
العام الماضى ، فى لوجا • • هاقد وقف كرافت ، وهو ينتظر ك فيما أظن •  
سيكون عليه أن يرجع القهقرى •

صافحت يد فاسين مصافحة قوية ، ولحقت بكرافت الذى كان قد  
تقدم فى الطريق أثناء حديثى مع فاسين • ومضينا صامتين الى أن بلغنا  
منزله • كنت لا أريد ولا أستطيع ، بعد ، أن أكلمه • ان من أبرز صفات  
طبع كرافت أنه رقيق الحاشية •

## الفصل الرابع

١



لكرافت في الماضي وظيفة رسمية ، وكان عدا ذلك يساعد المرحوم آندرونيكوف ( بأجر يتقاضاه منه ) في معالجة بعض الشؤون الخاصة التي كان كرافت يقوم بها اضافة الى أعمال وظيفته . والأمر الذي كان يهمني أنا أنه لما كان بينه وبين آندرونيكوف من صلة صميمية ، كان يمكن أن يعرف بعض الأمور التي تعينني . لكنني كنت أعلم من ماريا ايفانوفنا ، زوجة نيقولا سيمينوفتش ، التي عشت لديها سنين طويلة أيام كنت في اللسيه - والتي كانت بنت أخت آندرونيكوف وكانت أثيرة قلبه وبؤبؤ عينه - ان كرافت كان قد « كلف تكليفا » بأن يسلمني شيئاً ما . فكنت انتظره منذ شهر كامل .

كان كرافت يسكن شقة صغيرة من غرفتين ، منعزلة كل الانعزال ؛ واذ كان عائداً منذ برهة وجيزة ، فانه لم يكن لديه خادم . كانت حقيبته مفتوحة ، غير أن أشياءه التي لم يرتبها بعد لا تزال مبعثرة على الكراسي . وعلى منضدة أمام الكنبه كان كيس سفر ، وصندوق صغير ، ومسدس ، النخ . كان كرافت غارقاً في أفكاره حين دخلنا ، كأنه نسي تماماً

بل لعله لم يلاحظ أنني لم أخاطبه بكلمة واحدة اثناء الطريق • ولم يلبث أن أخذ يبحث عن شيء ما ، ولكنه لمح مرآة على حين فجأة فتوقف وراح ينظر الى وجهه فيها محدقاً خلال دقيقة بكاملها • لاحظت هذا ( وما أكثر ما تذكرته بعد ذلك ! ) ولكنني كنت حزينا مضطرباً • لم أكن أملك قدرة على تركيز فكري • حتى لقد راودتني ، في لحظة من اللحظات ، رغبة مفاجئة في الانصراف ، في أن أدع كل شيء حيث هو ، الى الأبد • ما الذي كان يعينني في حقيقة الأمر ؟ ألسنت أصدع رأسي بهموم مصطنعة؟ ألم أكن ابدد ، في ترهات سخيفة حقيرة ، بداعي الحساسية وحدها ، طاقة كنت محتاجاً اليها لتحقيق هدف معين رسمته لنفسي • ولكن أنني الى من جهة أخرى أن أصل الى تحقيق هذا الهدف أنا الذي أصبح عاجزاً عن القيام بأي عمل جدي واضح البدهة بعد الذي حدث عند درجاشسف !

سألت كرافت فجأة :

- كرافت ، هل ستذهب اليهم بعد الآن ؟

فالتفت نحوي ببطء ، كأنه لم يفهم سؤالى • وجلست •

قال كرافت فجأة :

- سامحهم !

خيل الى بطبيعة الحال أنه يسخر مني • ولكنني حدثت اليه فرأيت في وجهه طيبة تبلغ من الغرابة بل تبلغ من الادهاش أنني ذهلت أنا نفسي من الجذ الظاهر في رجائه أن « سامحهم » • وتناول كرسيًا وجلس قربي •

- أعرف أنني قد لا أكون الا خليطاً من جميع أنواع حب الذات ، ولكنني لا أسأل أجدا أن يسامحني •

- وممن عساك تطلب أن يسامحك !

قال ذلك هادئاً جداً • وكان يتكلم في رفق لطيف وبطء شديد •

قلت :

- هبنى مذنباً في حق نفسي .. اننى أحب أن أكون مذنباً في حق نفسي .. سامحنى ، ياكرافت ، اذا أنت سمعتنى أقول هراءً سخيفاً في هذه اللحظة . قل لى : أنت عضو في هذه الحلقة ، أنت أيضاً ؟ ذلك ما أردت أن أسألك عنه .

- ليسوا أشد حماقة ولا أرجح عقلا من الآخرين . انهم مجانين . كسائر الناس .

- هل سائر الناس مجانين ؟

سألته هذا السؤال وأنا التفت اليه مستطعماً على غير ارادة منى .

- جميع الطيبين في هذه الأيام مجانين . الأغنياء والعجزة وحدهم مستخفون ... ولكن فيم هذا كله ؟

كان وهو يقول هذا الكلام ينظر في الهواء ، يبدأ جملة ثم يقطعها . وقد لفت نظرى شيء من ضجر في صوته بوجه خاص .

صحت أقول :

- وفاسين ، أهو منهم أيضاً ؟ ان فاسين يملك الذكاء ويملك فكرة أخلاقية .

- ليس هناك أفكار أخلاقية في هذه الأيام . لقد اختفت الأفكار الأخلاقية بقتة ، اختفت جميعها بغير استثناء . حتى كأنه لم يكن ثمة أفكار أخلاقية في يوم من الأيام .

- لم يكن هناك أفكار أخلاقية في الماضى ؟

قال بملك واضح وسأم ظاهر :

- دعنا من هذا الموضوع !

تأثرت من هذا الجد المر الأليم • وخجلت من نفسى فجاريته •  
استأنف يقول من تلقاء نفسه بعد دقيقتين من صمت وهو لا يزال  
ينظر فى الهواء :

- ان العصر الراهن هو عصر فقدان التسامى وفقدان الحساسية : هو  
عصر الجهل ، والكسل ، والعجز عن العمل ، والحاجة الى كل ما هو جاهز  
بها • ما من أحد يفكر اليوم قط • قليلون أولئك الذين يقدرّون أن يصنعوا  
لأنفسهم فكرة •

وانقطع عن الكلام مرةً أخرى وصمت لحظة • ولبثت أصغى •

- انهم الآن يقطعون أشجار الغابات فى روسيا ، ويستنفدون أرضها،  
ويحيلونها مراعى وسهوباً • اذا قام رجل يملأ نفسه الأمل ويعمرها  
الرجاء فغرس شجرة ، انفجر الناس من حوله ضاحكين : « أنت واثق  
أنك ستراها تكبر وتثمر ؟ » • ومن جهة أخرى فان الذين يريدون الخير  
يتناقشون فيما سيحدث بعد ألف سنة • ان الفكرة التى تولد الثبات  
والاستقرار قد زالت • نحن جميعا كمن يقيم فى فندق ، متهيئاً للرحيل  
عن روسيا فى الغد • كل فرد يعيش كمن يريد أن يتخلص ••

- عفوك يا كرافت ! لقد قلت ان الناس يهتمون الآن بما سيحدث  
بعد ألف سنة •• ولكن أليس بأسك •• من مستقبل روسيا •• همأ من  
هذا النوع نفسه ؟

قال حائقاً وهو ينهض بسرعة :

- ذلك ••• ذلك أهم سؤال يمكن أن يخطر بالبال !

ثم قال فجأة بصوت آخر وهو ينظر الى مرتبكا :

– ها ... كدت أنسى • لقد جئت بك لأمر من الأمور ... فلا  
تؤاخذنى ، أرجوك ...

لكأنه يخرج من حلم • لقد كان كالحجلان • قال ذلك ثم تناول  
رسالة من حقيبة موضوعة على المنضدة ومدّها الىّ •

– اليك ما كنت أريد أن أسلمك اياه • هي وثيقة على جانب من  
خطورة الشأن •

قال ذلك مهتماً وقد بدا في وجهه الاحتفال بالأمر • لشد ما تعجبت ،  
بعد ذلك بزمن طويل ، حين فكرت في الموضوع ، من هذه القدرة التي  
كان يملكها ( في ساعات كهذه الساعات الخطيرة عنده ) على معالجة أمور  
الآخرين بمثل هذا القدر من روح المودة ، وعلى الكلام فيها بمثل هذا  
القدر من الهدوء والحزم •

– هي رسالة من ذلك الرجل ستوليف نفسه الذي أثارته وصيته ،  
بعد موته ، الدعوى بين فرسيلوف والأمراء سوكولسكى • ان هذه الدعوى  
يُنظر فيها الآن ، وأغلب الظن أن الغلبة فيها ستكون لفرسيلوف : فالقانون  
يؤيده • ولكن في هذه الرسالة الخاصة ، التي كتبت منذ سنتين ، يعلن  
الموصى نفسه ارادته الصادقة أو قل رغبته ، وهي تدعم الأمراء سوكولسكى  
أكثر مما تدعم فرسيلوف • ويمكن القول في أقل تقدير ان النقاط التي  
يستند اليها الأمراء سوكولسكى لانكار الوصية تجد في هذه الرسالة  
ما يأتى مصداقاً لها ومؤيداً • لاشك في أن خصوم فرسيلوف مستعدون لأن  
يعطوا كل شيء في سبيل الحصول على هذه الوثيقة ، رغم أن قيمتها القانونية  
ليست قيمة مطلقة • ان الكسى فيكانوروفتش ( أندرونيكوف ) الذي اهتم  
بقضية فرسيلوف كان يحتفظ بهذه الرسالة لديه ؛ ثم أعطانيها قبل موته  
وأوصاني أن « أحافظ عليها أشد المحافظة » • لعله كان يخشى على أوراقه  
وهو يرى دنو أجله • لا أريد أن أقطع برأى في نيات الكسى فيكانوروفتش

بصدد هذا الأمر • وأنا أعتزف أنني أصبحت بعد وفاته متردداً تردداً شاقاً أليماً : ماذا أصنع بهذه الوثيقة ؟ خاصةً والحكم فى القضية يوشك أن يصدر ؟ غير أن ماريا ايفانوفنا التى يظهر أن الكسى فيكانوروفتش كان يولياها فى حياته ثقة كبرى قد أخرجتنى من الارتباك : فكتبت الى منذ ثلاثة أسابيع تطلب منى جازمةً قاطعة أن أسلمك هذه الرسالة ، لأنها تعتقد ( ذلك هو تعبيرها ) أن ذلك يتفق ونية آندرونيكوف • فاليك الرسالة اذن ، وانه ليسعدنى أن أستطيع أخيراً أن أنقلها اليك •

قلت وقد أربكنى هذا النبأ الذى لم يكن فى الحسبان قط :

– وما عساي اصنع بهذه الرسالة ؟ ما هو السلوك الذى يجب أن أسلكه ؟

– هذا متوقف عليك وحدك •

– مستحيل • لست حراً قط • • لا بد أنك تقرنى على ذلك • ان فرسيلوف ينتظر هذا الميراث على أحر من الجمر • وانك لتعلم أنه بدونه ضائع لا محالة • • • ثم اذا بوثيقة كهذه الوثيقة توجد على حين فجأة فتغير الموقف !

– انها لا توجد الا هنا ، فى هذه الغرفة •

– فهل • • • ؟

ألقيت عليه هذا السؤال وأنا أنظر اليه بانتباه شديد •

– اذا لم تهتد بنفسك الى السلوك الذى ينبغى لك أن تسلكه ، فبماذا عساي أنصحك ؟

– اننى لا أستطيع أن أسلم الوثيقة الى الأمير سوكولسكى : والا قضيت على جميع آمال فرسيلوف ؟ ثم ما عسى أن يكون موقفى منه عندئذ؟ سيكون موقف الحائن • • • ذلك من جهة ، ومن جهة أخرى فاننى اذا



سلمت الوثيقة الى فرسيلوف كنت أغرق في البؤس والشقاء أناساً أبرياء ؛  
كما أن فرسيلوف سيجد نفسه عندئذ في مأزق لا مخرج منه : فاما أن  
يتنازل عن الميراث ، واما أن يصبح لصاً .

- انك تضخم خطورة الأمر .

- قل لى أيضا : هل هذه الوثيقة حاسمة قاطعة ؟

- لا . لست من رجال القانون . ان محامى الخصم سيجد بطبيعة  
الحال وسيلة لاستغلال الوثيقة وللاستفادة منها . ولكن الكسى نيكانوروفتش  
يقدر حقا أن هذه الرسالة لن يكون لها قيمة قانونية كبيرة ، وأن فرسيلوف  
يمكن أن يربح الدعوى رغم كل شيء . المسألة أقرب الى أن تكون مسألة  
ضمير ان صح التعبير .

فقاطعه أقول :

- هذا هو الأمر الهام خاصة . لهذا قلت ان فرسيلوف سيجد نفسه  
في مأزق لا مخرج منه .

- قد يتلف فرسيلوف الوثيقة ، فيكون عندئذ في منجى من أى  
خطر .

- أتملك من الأدلة الخاصة ما يجعلك ترى فيه هذا الرأى ،  
ياكرافت ؟ ذلك ما كنت أريد أن أعرفه ، ومن أجل هذا انما ترانى  
عندك الآن .

- أعتقد أن كل انسان يفعل ذلك .

- وأنت أيضا يمكن أن تفعله .

- أنا لست انتظر ميراثاً أرته ، لهذا لا أدري ما الذى قد أفعله .

قلت وأنا أدرس الرسالة فى جيبي :

- طيب . اتسهدنا . اسمع ياكرافت ! ان ماريا ايفانوفنا التى أوكد لك

أنها كشفت لي عن أشياء كثيرة ، قالت لي انك تستطيع ، وحدك ، أن تبثني بحقيقة ما حدث في مدينة « امس » منذ ثمانية عشر شهراً بين فرسيلوف وأسرة آخماكوف . لقد كنت أنتظر كمن ينتظر الشمس تضيء له ما حوله . انك لا تعرف وضعي يا كرافت . أتوسل اليك أن تذكر لي الحقيقة كاملة . أريد أن أعرف حقيقة هذا الانسان ؛ أريد أن أعرف ذلك الآن ؛ أنا الآن في حاجة الى ذلك أكثر من أي وقت آخر .

- يدهشني أن ماريا ايفانوفنا لم تقصص عليك كل شيء . فلا بد أن المرحوم آندرونيكوف قد أظهرها على الأمر كله ، ولا شك في أنها قد سمعت منه ما لم أسمع ، وأنها تعرف ما لا أعرف .

- ان آندرونيكوف نفسه قد اختلط عليه الأمر : ذلك ما تقوله ماريا ايفانوفيا . تلك قضية ما أظن أن أحدا قادر على أن يفهمها . الشيطان نفسه لن يستطيع ذلك . وأنا أعلم أنك كنت يومئذ في « امس » .

- لم أشهد كل شيء ، وسأقص عليك ما أعرف . ولكن ترى هل يكفيك ذلك ويرضيك ؟

لن أعيد قصته نصاً ، بل سوف أوجز جوهرها .

منذ ثمانية عشر شهراً ، استطاع فرسيلوف ، الذى أصبح بواسطة الأمير العجوز سوكولسكى صديق أسرة أخماكوف ( وكانوا أيامئذ جميعا فى الخارج ، فى مدينة « امس » ) أن يؤثر تأثيراً قوياً ، أول الأمر ، فى أخماكوف الجنرال ، الذى لم يكن قد طعن فى السن كثيراً بعد ، لكنه كان قد بدد فى القمار المهر الكبير الذى مهرته اياه زوجته ، كاترين نيقولاييفا ، بدده خلال ثلاث سنين من الزواج ، أصيب بعدها بنوبة قلبية نتيجة لاسرافه وافراده . وقد شفى من هذه النوبة القلبية فسافر الى الخارج يقيم فى مدينة « امس » من أجل ابنة له من زواج أول . كانت ابنته هذه فتاة ممراساً فى نحو السابعة عشرة من عمرها ، مصابة بالسل ، فاتت الجمال فيما يقال ، وكذلك جامحة الحيال . ولم تكن تملك مهراً . وكانوا يعولون فى هذا الأمر على الأمير العجوز ، كالعادة . ويقال ان كاترين نيقولاييفا كانت لابنة زوجها نعم الأم حناناً . ولكن الفتاة شغفت بفرسيلوف شغفاً خاصاً . وكان أيامئذ ينادى « بمالا أدري من الحماسة » ( على حد تعبير كرافت ) ، ويدعو الى «مالا أدري من حياة جديدة» ؛ وكان «مأخوذاً بحمية دينية قوية الى أبعد حدود القوة » ، على حد ذلك التعبير الغريب ، وربما الساخر ، الذى نقل الى أن أندرونيكوف وصفه به . ويجب أن نذكر أن فرسيلوف سرعان ما أصبح يكرهه جميع الناس . حتى ان الجنرال نفسه أخذ يحاذره ويخشاه . ولم يكذب كرافت الاشاعة التى راجت تقول ان فرسيلوف قد استطاع أن يدخل فى روع زوج كاترين نيقولاييفا المريض أنها لا تخلو من عاطفة نحو الأمير سوكولسكى ( الذى

كان قد ترك مدينة « امس » الى باريس ) • فعل ذلك لا بكلام مباشر بل بتلميحات وايحاءات وبأنواع من اللف والدوران ( وهو في هذه الأساليب أستاذ بارع ، كما قال كرافت ) • يجب أن أقول ان كرافت لم يكن يعدّه ولا كان يريد أن يعدّه انساناً نصاباً أو مراوغاً مختالاً بفطرته ، بل رجلاً تملكته حقا فكرة عليا أو استولت عليه فكرة شاذة لا أكثر • وكنت أعرف ، على كل حال ، من مصدر آخر غير كرافت ، أن فرسيلوف الذى أثر ، أو الأمر ، تأثيراً كبيراً فى كاترين نيقولايفنا ، انتهى شيئاً فشيئاً الى قطع صلته بها ، أما حقيقة هذه اللعبة كلها ، فذلك مالم أستطع أبداً أن أحصل من كرافت على تفسير له ، غير أن جميع من كانوا على بعض العلم بالأمر أكدوا أن الكره وقع بينهما • وحدث بعد ذلك حادث غريب • ان الفتاة الممرض ، ابنة زوج نيقولايفنا ، افتتت بفرسيلوف ، أو أعجبت بصفة من صفاته ، أو ألهمت حماستها أحاديثه ، لا أدري ••• ولكن المعروف أن فرسيلوف أصبح ، خلال فترة من الزمن ، يقضى كل أيامه تقريباً حول هذه الفتاة • ثم اذا بالفتاة تصرح لأبيها ذات يوم على حين فجأة أنها تريد فرسيلوف زوجاً لها • وقع هذا فعلاً ، فقد أكده الجميع : أكده كرافت ، وآنديرونكوف ، وماريا ايفانوفنا ؛ حتى ان تاتيانا بافلونا ألمحت اليه ذات يوم بحضورى • وقيل أيضاً ان فرسيلوف لم يتمنّ هذا الزواج فحسب ، بل أصرّ عليه أيضاً ، وان الاتفاق بين هذين الانسانين اللذين يختلف كل منهما الآخر ، فأحدهما كهل متقدم فى السن والآخر فتاة فى ريعان الصبا ، كان اتفاقاً متبادلاً • لكن هذه الفكرة قد ذعر لها الأب ، فعلى قدر ما كان ينفر من كاترين نيقولايفنا يوماً بعد يوم ( وكان يحبها قبل ذلك حباً كبيراً ) أصبح يزداد ولهاً بابنته وعبادةً لها ، وخاصة بعد النوبة التى أصيب بها • غير أن الخصم الأكبر الذى كان يعارض مثل هذا الزواج معارضةً عنيفةً انما هو كاترين نيقولايفنا • فقامت فى البيت صراعات

هائلة خفية لكنها مزعجة الى أبعد الحدود ، ونشبت فيه مشاجرات ومشاحنات وآلام وأحزان ، وشاعت فيه على وجه العموم أنواع لا نهاية لها من القذارات . . . . وأخذ الأب ينصاع آخر الأمر ، لما رأى من عناد وإصرار لدى ابنته المقتونة بفرسيلوف ، « المتحمسة » له على حد تعبير كرافت . ولكن كاترين نيقولايفنا ظلت نائرة متمردة يملأ نفسها كره لا يوصف . وهنا انما بدأ ذلك الاشكال الذى لا يفهم منه أحد شيئاً . واليكم مع ذلك ، الافتراض الذى بناه كرافت على بعض الوقائع ، وما هو الا افتراض على كل حال :

الافتراض هو أن يكون فرسيلوف قد استطاع أن يدخل فى روع الفتاة ، بأسلوبه الرقيق المرهف الذى لا سبيل الى مقاومته أن كاترين نيقولايفنا انما ترفض الموافقة على هذا الزواج ، لأنها تحبه هو ، فالغيرة تعذبها منذ زمن طويل : انها تلاحقه ، وتدبر له المكائد ، حتى لقد صرحت له بحبها ، وانها الآن مستعدة لأن تحرقه حياً لأنه يحب امرأة غيرها . الخلاصة : شئ من هذا القليل . والأنكى من ذلك أنه لعله قد « أسمع » الأب ، زوج المرأة « الخائنة » أن الأمير لم يكن أكثر من تسلية . وفى روايات أخرى أن كاترين نيقولايفنا كانت تحب ابنة زوجها حب العباداة ، وأنها أصبحت الآن ، بعد أن قيل لها عنها ما قيل ، فى حالة يرثى لها من الألم والعذاب ، ناهيك عن علاقاتها بزوجها المريض .

وهناك رواية أخرى أيضاً ألمنى كثيراً أن كرافت كان يصدقها تصديقاً كاملاً ، وكنت أصدقها أنا نفسى أيضاً ( لأننى سمعت بها أيضاً ) ، وهى أن فرسيلوف ( ويقال ان آندرونيكوف قد علم هذا من كاترين نيقولايفنا نفسها ) كان ، على خلاف ما تقوله الروايات السابقة ، قد عرض حبه على كاترين نيقولايفنا قبل ذلك ، أى قبل أن تنشأ هذه العواطف فى قلب الفتاة ؛ وأن كاترين نيقولايفنا التى كانت صديقه حتى لقد تحمست له زمناً ما ، ولكنها لم تكن تصدقه أبداً ، وكانت تعارضه دائماً ، قد

استقبلت منه هذا التصريح ببغض شديد ، وأثقلته سـخـرية مـريرة  
وهزءاً لا ذعاً ؛ ثم طردته من بيتها طرداً حاسماً ، لأنه اقترح عليها صراحة  
أن يتزوجها متنبئاً بأن زوجها سيموت وشيكاً بنوبة جديدة . لذلك شعرت  
كاترين نيقولايفنا فرسيلوف بكره خاص حين رأته بعد ذلك يسعى بمثل  
هذا الوضوح الظاهر الى خطبة ابنة زوجها . حين قصت على ماريـا  
ايفانوفنا هذا كله في موسكو ، كانت تصدق الروايتين كليهما اي كانت  
تصدق كل شيء ، قائلة ان ذلك كله يمكن ألا يتعارض ، وأن الأمر  
كان « حياً في كره » ، كان نوعاً من كبرياء غرامية جريحة لدى الطرفين ،  
النخ النخ ، أي كان ضرباً من اشكال عاطفي 'يحتقر صدوره عن رجل  
جاد ، ولكن له تفسيره ، عدا أنه ممتزج بنميمة معيبة . ولكن ماريـا  
ايفانوفنا كانت ممثلة النفس بالروايات منذ طفولتها ، فهي تقرأ القصص  
ليلاً ونهاراً ، رغم ما تملكه من قوة الطبع وروعة الخلق . ومهما يكن من  
أمر فانه يخرج من هذا كله أن فرسيلوف رجل واضح الذكاء والكذب  
والكيد ، أنه انسان أسود النفس يبعث على الاشمئزاز ، لاسيما وأن  
الحاتمة كانت مأساة أليمة : فان الفتاة المسكينة التي ألهبها الحب قد سمت  
نفسها ، فيما يقال ، بفوسفور أعواد ثقاب . على أنني لا أدري حتى الآن  
أكانت هذه الاشاعة صادقة أم لا ، ولكن ما حدث على كل حال هو أن  
جميع الوسائل التي استعملت في انقاذ الفتاة لم تنفع ، فلم يدم مرضها  
الا خمسة عشر يوماً ، ثم لفظت أنفاسها . هكذا ظلت قصة الثقاب أمرا  
مشكوكاً فيه ، ولكن كرافت يعتقد بصحة الاشاعة لا يراوده في صدقها  
أي شك . وما لبث أن مات والد الفتاة بعد ذلك ، من فرط حزنه عليها  
فيما قيل ، اذ وافته نوبة قلبية جديدة ، بعد ثلاثة أشهر . غير أن  
الأمير الفتى سوكولسكى الذي عاد من باريس الى امس بعد دفن الفتاة صفع  
فرسيلوف على مرأى من الناس في حديقة عامة ، فلم يرد فرسيلوف على  
الصفعة بأى تحد ، كأن شيئاً لم يحدث . وعندئذ انما أدار جميع الناس

له ظهورهم وأشاحوا عنه أبصارهم ، حتى فى بطرسبرج • ولئن احتفظ فرسيلوف بعد ذلك ببعض المعارف ، فلقد كان معارفه هؤلاء ينتمون الى بيئة أخرى غير تلك البيئة • أما أصدقاؤه من أبناء المجتمع الراقى فقد أصبحوا جميعاً يتهمونهم ، مع أن قلة قليلة منهم قد اطلعت على جميع التفاصيل ، فى حين أن الآخرين لا يعرفون الا قصة موت الفتاة وحكاية الصفةة • شخصان أو ثلاثة أشخاص فقط كانوا يملكون معلومات وافية على قدر الامكان • وكان المرحوم آندرونيكوف أوسعهم علماً بالأمر ، اذ كان بينه وبين أخماكوف علاقات أعمال منذ زمن طويل ، ولأنه كان على صلة بكاترين نيقولايفنا خاصةً بسبب مناسبة من المناسبات • لكنه كتم السر حتى عن أسرته ، ولم يفتح نفسه قليلاً الا لكرافت وماريا ايفانوفنا ، وذلك لضرورة أيضاً •

قال كرافت يختم كلامه :

– المهم أن ههنا الآن وثيقة تخشاها السيدة أخماكوف خشيّة هائلة •  
واليكم ما أبلغنيه فى هذا الصدد :

ان كاترين نيقولايفنا قد ارتكبت بعض الطيش ، حينما كان أبوها الأمير العجوز يستشفى من نوبته فى الخارج ، فكتبت الى آندرونيكوف ، سراً ، ( وكانت تمحضه ثقةً كاملة ) رسالةً تسيء اليها كثيراً • وكان الأمير الذى يقضى فترة النقاهة قد أظهر ، فيما قيل ، ميلاً الى تبديد ماله ، حتى لكأنه يرميه فى البحر رميةً : لقد أخذ يشتري فى الخارج أشياء لا فائدة منها البتة ، ولكنها غالية الثمن ، من لوحات وآنيات وما أشبه ذلك ؛ وأخذ يقدم الهدايا والهبات مبالغ طائلة حتى لمؤسسات شتى من تلك البلاد • وأوشك أن يشتري من نييل روسى ذهب ماله عقاراً مهجوراً تقوم حوله دعاوى كثيرة ، وذلك بشمن باهظ ، دون أن يرى العقار • وكان فوق هذا كله يفكر فى الزواج فعلاً •

فلهذه الأسباب كلها ، عمدت كاترين نيقولايفنا التي لم تترك أباهما خطوة واحدة أثناء مرضه ، الى كتابة رسالة الى أندرونيكوف ، من حيث هو رجل من رجال القانون ، ومن حيث هو صديق قديم ، تسأله هذا السؤال : « هل يجوز ، بحكم القانون ، أن يتم الحجر على أبيها ، أو أن يعطى نصحا قانونياً ؟ فاذا كان هذا في الامكان ، فما هي الوسيلة المثلى لتحقيقه دون فضيحة ، حتى لا يجد أحد مايقوله ، وحتى تراعى عواطف أبيها في الوقت نفسه ، الخ الخ . » . يقال ان أندرونيكوف قد ردّها الى الصواب فنصحها بالعدول عن المشروع في مثل هذا الأمر . حتى اذا شفى الأمير شفاءً كاملاً ، لم يثر هذا الموضوع بعد ذلك قط ، ولكن الرسالة ظلت محفوظة لدى أندرونيكوف . وقد مات الآن أندرونيكوف .

فما لبثت كاترين نيقولايفنا أن فكرت في الرسالة : فلو اتفق أن عُثر على الرسالة بين أوراق المتوفى ، فوَقعت الرسالة بين يدي الأمير العجوز ، فلا شك في أنه سيطردها الى الأبد ، وسيحرمها من الميراث ، وأنه لن يعطيها قرشاً واحداً ما ظل حياً . انه اذا عرف أن ابنته كانت لا تثق بسلامة عقله ، حتى أنها أرادت في ذات يوم أن تعلن أنه مجنون ، فقد ينقلب هذا الحمل الوديع الى وحش كاسر . وهي بعد ترملها قد أصبحت بسبب زوجها المقامر لا تملك أية ثروة ، ولا تعوّل الا على أبيها ؛ وكان أملها كبيراً في أن تحصل منه على مهر جديد لا يقل عن مهرها الأول .

كان كرافت لا يعرف عن مصير هذه الرسالة شيئاً كثيراً . لكنه كان قد لاحظ أن أندرونيكوف كان « لا يمزق أبداً الأوراق التي قد تكون ذات فائدة في يوم من الأيام ، وأنه كان بالاضافة الى ذلك واسع الفكر ، لكنه واسع « الذمة » أيضاً . ( لقد استغربت عندئذ هذا الاستقلال الحارق لدى كرافت الذي كان يحب أندرونيكوف ويحترمه ) . ولكن كرافت كان مقتنعاً مع ذلك بأن الوثيقة التي قد تؤذى كاتبها لا بد أنها وقعت بين يدي فرسيلوف ، وذلك لما بينه وبين أرملة أندرونيكوف وبناته من صلة



حميمة : حتى لقد عرف منذ ذلك الحين أنهم وضعن تحت تصرفه ، فى كثير من المودة ، جميع أوراق المرحوم . وكان كرافت يعلم أيضاً أن كاترين يقولان لا تجهل أن الرسالة موجودة عند فرسيلوف ، وذلك ما كانت تخشاه ، لتقديرها أن فرسيلوف سيمضى فوراً الى الأمير العجوز ليظهره على الرسالة ، وأنها حين عادت من الخارج قد بحثت عن الرسالة فى بطرسبرج ، فذهبت الى عائلة أندرونيكوف ، وأنها لا تزال تبحث عنها لأنها لا تزال تأمل رغم كل شيء ألا تكون الرسالة قد وصلت الى فرسيلوف ؛ وأنها لم تسافر الى موسكو الا لهذا الغرض ، وأنها تضرعت هنالك الى ماريا ايفانوفنا أن تنبش الأوراق التى لا تزال عندها . أما وجود ماريا ايفانوفنا ، وما كان بينها وبين المرحوم أندرونيكوف من صلوات ، فقد علمته فى الآونة الأخيرة حين عادت الى بطرسبرج .

سأله وفى ذهنى فكرتى :

— وهل تعتقد أنها لم تجد شيئاً عند ماريا ايفانوفنا ؟

— اذا كانت ماريا ايفانوفنا لم تكشف لك عن شيء ، فمعنى ذلك أنها لم تجد شيئاً .

— أنت تقدّر اذن أن الرسالة عند فرسيلوف ؟

— هذا هو الأرجح . على كل حال ، لا أدري .

قال ذلك بضجر ظاهر .

فكففت عن سؤاله . وفيم السؤال ؟ ان الأمر الأساسى واضح ، رغم ذلك الاشكال الكريه . ان كل ما كنت أخشاه قد ثبت . قلت بحزن عميق وأنا أتناول قبعتى :

— لكأن ذلك كله حلم أو هذيان !

فسألنى كرافت بعطف كبير واضح قرأته فى وجهه :

- هل هذا الرجل عزيز جداً فى نفسك ؟

قلت :

- هذا ما كنت أوجسه : كنت أحس أنني لن أعرف لديك كل شيء • بقى أمل واحد هو أخماكوف • لقد كنت أعول عليها كثيراً • قد أذهب إليها • وقد لا أذهب •••

فنظر الى كرافت حائراً مضطرباً •

- وداعاً يا كرافت ! فيم يتعلق المرء بأناش لا يريدونه ؟ أليس الأفضل أن يقطع بهم صلته ؟

فسألنى وقد أظلم وجهه وأطرق الى الأرض :

- وبعد ذلك ؟

- يعود المرء الى بيته ! يقطع كل صلة ، ويرجع الى بيته !

- الى أمريكا ؟

قلت مهتاجاً :

- الى أمريكا ؟ بل الى بيته ، الى بيته وحده • تلك هي « فكرتى »

كلها •

فنظر الى كرافت نظرة استطلاع غريبة •

- وهل لك ملاذ كهذا الملاذ ، هل لك « هذا البيت » ؟

- نعم • الى اللقاء يا كرافت • أشكرك • ويؤسفنى أنني أزعجتك •

لو كنت أتصور روسيا على نحو ما تتصورها أنت ، لما حفلت بشيء ولما همنى من الأمر شيء ولكان لسان حالى يقول : الى الشيطان فليذهب جميع الناس : امضوا فى سبيلكم ، كيدوا بعضكم لبعض ، كلوا بعضكم بعضاً ، فما عسى أن يعينى أنا هذا كله ؟

قال كرافت فجأة بعد أن شيعنى حتى الباب :

- ابق قليلاً أيضاً !

فدهشت بعض الدهشة ، وعدت أدراجى فجلست وجلس كرافت  
أمامى • تبادلنا بضع نظرات : ما زلت أرى هذا كله كأننى ما زلت فيه •  
وأذكر أنتى كنت على شىء من دهشة •

قلت فجأة :

- ما يعجبنى فىك يا كرافت هو أنك انسان مهذب !

- غير معقول ! •••

- يندر أن أستطيع أن أكون مهذباً ، رغم ما أبذل فى ذلك  
من جهد ••• ولكن ربما كان من الأفضل للمرء أن يجرح شعور الآخرين ،  
فانه على الأقل يتخلص عندئذ من عذاب محبتهم •

- أية ساعة من ساعات اليوم تفضل ؟

واضح أنه سألنى هذا السؤال وكان قد أصبح لا يصغى الى ما أقول

- أية ساعة من ساعات اليوم أفضل ؟ لا أدرى ••• ولكننى

لا أحب ساعة غروب الشمس •

- حقاً ؟

قال ذلك متعجباً تعجباً خاصاً • ثم ما لبث أن عاد الى شرود فكره •

- أنت مسافر الى مكان ما ؟

- نعم •

- قريباً ؟

- قريباً •

- هل لابد للمرء من مسدس ليذهب الى « فيلنا » ؟

سألته هذا السؤال دون أن يكون فى ذهنى أية فكرة مبيتة ، بل دون

أن يكون في ذهني أية فكرة البتة ؟ وانما راودني هذا السؤال لأنني لمحت  
مسدساً ، وكنت لا أعرف ماذا أقول ! ... فالتفت يخذقني الى المسدس ،  
وقال :

- لا .. الأمر .. هكذا .. عادة ..

- لو كان عندي مسدس لدبسته في مكان ما ، واقفلت عليه  
بمفتاح . ان منظر المسدس يغري . أنا لا أومن بوباء الانتحارات . ولكن  
المرء قد يمر بلحظات يستبد به فيها الاغراء اذا هو رأى هذا الشيء أمام  
عينيه دائماً .

- لا تقل هذا الكلام !

قال ذلك وهو ينهض فجأة .

أضفت أقول وأنا أنهض أيضاً :

- ما حديثي عن نفسي . فلو وهبت لي ثلاثة أعصار اذا شئت ،

ما اكتفيت بها .

- عش طويلاً !

وكان هاتين الكلمتين قد افلتتا من لسانه افلاتاً .

وابتسم ابتسامة ذاهلة ، واتجه رأساً نحو مخرج الغرفة اتجهاً يدعو

الى الاستغراب كأنما هو يرغمني على الانصراف ، دون أن يلاحظ طبعاً

ماذا كان يفعل . قلت وانا أضع قدمي على الفسحة أمام الباب :

- أتمنى لك كل أنواع السعادة يا كرافت .

فقال حازماً :

- هذا ما سوف نعرفه ..

- الى اللقاء .

- وهذا أيضاً ، سوف نعرفه .

انني أتذكر النظرة الأخيرة التي رمقني بها .

ذلكم هو اذن الرجل الذى خفق قلبى له ذلك العدد كله من  
السنين ! وماذا كنت أنتظر من كرافت ؟ أية اكتشافات ؟

حين خرجت من منزل كرافت كان بى جوع رهيب • ان المساء  
يهبط ، ولم أكن قد تناولت غدائي بعد •

وما هى الا لحظات حتى صرت فى « شارع بطرسبرجسكايا » ،  
فدخلت مطعماً صغيراً على نية انفاق عشرين كوبكا أو خمسة وعشرين  
على أكثر تقدير ، فما كان لى أن أبيع لنفسى انفاق أكثر من ذلك المبلغ فى  
تلك اللحظة • طلبت حساءً ، ومازلت أذكر أنني بعد أن احتسيت  
الحساء نظرت من النافذة • كان المطعم فى الداخل حافلاً بجمهور من  
الطاعمين • رائحة شحم يحترق ، ومنشفات وسخة ، ودخان تبغ • جو  
فاسد • وفوق رأسى ، هزار لايفنى ، قاتم واجم ، يضرب بمنقاره  
قاع قفصه • وفى صالة البلياردو ضجة وصخب • ولكنى بقيت جالساً  
فى مكاني أفكر • ان غروب الشمس ( لا أدرى لماذا أدهش كرافت أن  
يعرف أنني لا أحب ساعات غروب الشمس ) يولد فى نفسى احساسات  
جديدة لا أتوقعها ولا أرى لها مسوغاً • لقد كنت دائماً أتمثل النظرة  
الحنون التى تلقيها على أمى ، وأتمثل عينيها الجميلتين ، وأتمثل كيف  
أصبحت منذ شهر كامل ترنو الى خجلى • لقد كنت شديد الفظاظه فى  
المنزل ، وخاصةً معها • كان حقدى منصباً على فرسيلوف ، ولكنى لجبى  
عن مخاطبته بفظاظه ، على عادتي اللئيمة ، كنت أعذبتها هى • حتى لقد  
كانت تخافنى : وما أكثر ما كانت ترنو الى بنظرة متوسلة ضارعة حين كان

يدخل آندره بتروفتش ، مخافة أن تصدر عني حماقة ما . . . شىء  
 اننى الآن ، فى هذا المطعم ، انما يخطر ببالي لأول مرة أن فرسيلو  
 يخاطبني بصيغة المفرد ، وأنها كانت تخاطبني هى بصيغة الجمع  
 سبق أن أدهشنى هذا قليلاً من قبل ، دون أن تشتمل هذه الده  
 شىء من الاكبنار لها ، ولكننى أتبه هنا للأمر تنبهاً خاصاً ، وها  
 خواطر غريبة تتلاحق فى ذهنى تلاحقاً سريعاً . لبثت ساكناً زمنًا ط  
 الى أن انقضت فترة الفسق . وفكرت أيضاً فى أختى . . .

لحظة حاسمة ! يجب على أن اتخذ قراراً مهما كلف الأمر  
 اذن عاجز عن اتخاذ قرار ؟ أية صعوبة فى القطيعة ، ولاسيما  
 الآخرون لا يريدوننى ؟ أمى وأختى ؟ ولكننى لن أتركهما بأى  
 الأحوال مهما يحدث .

نعم . . . ان ظهور هذا الرجل فى وجودى ومضة من ال  
 فى طفولتى الأولى ، قد كان صدمة حاسمة هزت ضميرى . فلوا  
 التقيت به عندئذ ، لكان عقلى غير ما هو الآن ، ولكانت طريقتى فى  
 غير ما هى الآن ، ولكان مصيرى غير ما هو الآن ، رغم طبعى الذى  
 القدر ولم يكن فى وسعى أن أتجنبه .

وهأنذا أدرك أن هذا الرجل لم يكن الا حلمًا ، حلمًا من  
 أولى سنى حياتى . أنا الذى تخيلته على هذه الصورة : ولكنه فى  
 مختلف عن هذه الصورة كل الاختلاف ، انه أخطأ كثيرًا مما تص  
 خيالى . لقد جئت فى سبيل أن أجد انساناً شريفًا ، لا هذا الانس  
 ولكن لماذا فنتت به الى الأبد أثناء تلك اللحظة القصيرة التى رأيت  
 طفلاً ؟ يجب أن تزول كلمة « الى الأبد » هذه . فى يوم من الأيام  
 أتيت مناسبة ما ، سأقص عليك قصة ذلك اللقاء الأول : انه حكاية  
 لا استخرج منها أية نتيجة . ولكننى استخرجت منها يومئذ  
 ضخماً . بدأت بناء ذلك الأهرام تحت غطائي الذى كنت أتدثر به ط

لحظة كنت أستطيع ، قبل أن يغمض النوم عيني ، أن أبكى وأن أحلم .  
 بماذا كنت أحلم ؟ أنا نفسي أجهل ذلك . أكنت أفكر في تركهم اياي ؟  
 أكنت أفكر في ألوان العذاب التي كنت عرضة لها ؟ ولكنني لم أعذب كثيرا  
 خلال قرابة سنتين قضيتهما في المدرسة الداخلية ، مدرسة توشار التي  
 حشرني فيها قبل أن يذهب الى غير رجعة . وبعد ذلك لم يعذبني أحد  
 قط . بالعكس ، كنت أنا الذي أنظر الى رفاقي نظرة استعلاء ! ثم انني  
 لا أطيق أولئك اليتامى الذين يشكون حالهم ويصفون عذابهم . ليس في  
 الدنيا منظر أشجع من منظر هؤلاء اليتامى أو أبناء الزنا وسائر أولئك  
 الذين نبذهم المجتمع ، وجميع أولئك الأوغاد الذين لا أشعر نحوهم بأية  
 شفقة حين يهبون فجأة أمام الناس ويأخذون يصيحون ملء أفواههم  
 استدراراً للشفقة قائلين : « أنظروا كيف نعامل ! » . لو استطعت لجلدتهم  
 جلداً ، هؤلاء اليتامى ! \* \* ما من أحد من هذه الجمهرة المنحطة يدرك أن  
 الصمت أنبل عشر مرات من الشكوى والاستعطاف . اذا كنت تحترم  
 نفسك ، يا من جئت الى هذه الحياة ثمرة حب ، فقد نلت ما تستحق . ذلك  
 رأيي أنا .

غير أن الأمر المضحك ليس تلك الأحلام التي كنت استرسل فيها  
 أيام طفولتي « تحت غطائي » ، بل مجيئي الى هنا من أجله ، من أجل  
 ذلك الامسان الخيالي ، ناسياً جميع أهدافي الأساسية تقريبا . لقد جئت  
 أساعده في التغلب على الأراجيف ، وأساعده في سحق أعدائه . ان  
 الوثيقة التي كان يتكلم عنها كرافت ، أعني الرسالة التي كتبها تلك المرأة  
 الى آندرونيكوف ، وتخشاها تلك الحشية كلها ، لأنها قد تحطم سعادتها  
 وتغرقها في البؤس ، والتي تظن تلك المرأة أنها بين يدي فرسيلوف ، أقول  
 ان تلك الرسالة ليست لدى فرسيلوف ، بل هي معي أنا ، خطتها في جيبي  
 بنفسى ، وليس في الدنيا أحد يعرف ذلك . ولئن رأيت ماريا ايفانوفنا  
 ذات الطبع الخيالي ، وهي التي كانت « تحفظ » الوثيقة ، أن تعهد بها

الىّ أنا ، لا الى أحد آخر ، فذلك ثمرة أفكارها وارادتها ، وليس علىّ أن أجد له تعليلاً . قد يتاح لى يوماً أن أقص عليك هذا الأمر . لكننى وقد تسلحت على هذا النحو ارتجالاً ، لم يكن فى وسعى الا أن أشعر بحاجة المجرى الى بطرسبرج . وكنت أعول بطبيعة الحال أن أساعد هذا الرجل سرّاً ، دون أن أتفاخر ودون أن أتحمس ، ودون أن أنتظر منه لا أماديح ولا قبلاّت . وما كان ليخطر على بالى يوماً أن أوجّه إليه أى لوم ! أكان هو المذنب حين افتنت به ، وحين صنع منه خيالى مثلاً أعلى ؟ ولعلنى لم أكن أحبه . ان فكره الشاذ ، وطبعه الغريب ، ومكائده ومغامراته ، ووجود أمى بقربه ، كل ذلك أصبح فيما يبدو غير قادر على الوقوف فى طريقى . يكفى أن دمتى الخيالية قد تحطمت ، ولعلنى أصبحت عاجزاً عن حبه بعد الآن . فما الذى لا يزال يوقفنى ، ما الذى لا يزال يمسكنى ؟ ذلكم هو السؤال . ومهما يكن من أمر ، فالأحقق أنا ، ولا أحد غيرى .

ولكن لما كنت أحب فى غيرى الصراحة ، فسأكون صريحاً أنا أيضاً . يجب أن اعترف أن الوثيقة المخططة فى جيبى لا توقظ فى نفسى رغبةً جامحة فى أن أخفّ الى نجدته فحسب ؛ لقد أصبح هذا واضحاً أشدّ الوضوح فى ذهنى الآن، رغم أننى أحمر خجلًا حين أتصوره . ان خيال امرأة يتخاطر الآن فى رأسى ، امرأة متكبرة من المجتمع الراقى ، سأقابلها وجهاً لوجه . ان هذه المرأة ستحتقرنى ، وستضحك منى ضحكها من فأر ، دون أن يدور فى خلدنا أننى سيد مصيرها . كانت هذه الفكرة تسكرنى حين كنت فى موسكو ، وكانت تسكرنى مزيداً من السكر حين كنت بالقطار فى طريقى الى هنا . لقد سبق أن اعترفت بهذا من قبل . نعم ، لقد كنت أكره هذه المرأة ، ولكننى أحبها منذ الآن كما يجب امرؤ ضحيته . هذا كله صحيح . هذا كله واقع . ولكن فيه صيانة ما كنت لأتوقعها أبداً حتى من مخلوق مثلى . اننى أصف عواطفى فى ذلك



الوقت ، أعنى العواطف التى دارت فى رأسى حين كنت جالساً فى المطعم الصغير تحت الهزار ، فقررت أن أقطع صلتى بهم ، فى ذلك المساء نفسه ، قراراً لا رجعة عنه . أن صورة لقائى الأخير بتلك المرأة قد جعل دم الشعور بالعار يصعد الى وجهى فجأة . ياله من لقاء مخجل ! يا له من شعور مخزٍ وغبى ، يبرهن خاصةً على اتنى امرؤ عاجز عن الفعل عجزاً ليس كمثل عجز ! قلت لنفسى ان هذا اللقاء يبرهن على اتنى عاجز عن الصمود حتى أمام أسخف المغريات ، مع أتنى كنت قد صرحت لكرافت منذ قليل أن لى مكاناً فى الشمس ، وأن لى مهمة خاصةً بى ، وأتنى لو وهبت ثلاثة أعمار لكنت قليلة على . قلت ذلك باعتزاز وفخار . ولأن أكون قد هجرت فكرتى لأتدخل فى شئون فرسيلوف ، فذلك ما قد يعتفر . أما أن أقفز يمنةً ويسرة كأرنب مبهور وأن أقحم نفسى فى جميع أنواع الحماقات ، فذلك منى بلاهة محضة ما فى ذلك شك . هل كانت بى حاجة الى الذهاب الى درجاشيف فأروح أطنب فى الكلام وأطنب ، بينما كنت مقتنعاً منذ زمان طويل بأننى عاجز عن أن أتحدث فى أى أمر من الأمور حديثاً متسقاً معقولاً ، وأن الخير كل الخير لى أن أصمت فما أقول شيئاً ؟ وهذا انسان مثل فاسين يلقننى درساً فيقول لى انه لا يزال أمامى « خمسون عاما من الحياة ، فما علىّ اذن أن أقلق ، . اعتراض رائع ، أقر بذلك ، اعتراض يشرف صاحبه هذا الذى يملك ذكاءً لا يمارى فيه . . . رائع لأنه بين الاعتراضات أبسطها ، ولأن الأشياء البسيطة لاتفهم أبداً الا فى النهاية ، بعد أن يكون المرء قد جرب جميع التعقيدات وجميع الحماقات . ولكننى كنت أعرف هذا الاعتراض من قبل أن يقوله لى فاسين ؟ كنت قد عانيت هذه الفكرة منذ ما يزيد على ثلاث سنين . أكثر من ذلك أنها بعض « فكرتى » أنا . ذلكم ما كنت أقوله . ذلكم ما كنت أقوله لنفسى وأنا فى المطعم الصغير .

كنت أشعر باعياء شديد حين وصلت فى المساء ، بعد الساعة السابعة،

الى سيمينوفسكى ، مكدوداً من السير والتفكير • كان الظلام كاملاً • ولقد تغير الجو ، فهو الآن جاف ، غير أن ريحاً شديدة كانت قد هبت • هى ريح بطرسبرج القاسية الثاقبة • كنت أشعر بهذا فى ظهري ، وكانت تثير من حولي رملاً وغباراً • كم من وجوه متعبة بين وجوه هؤلاء الناس المساكين الذين كانوا يسارغون عائدين الى بيوتهم من العمل أو من المكتب ••• كل الى ركنه ! كان كل منهم يحمل همه القاسى فى وجهه ••• وما من فكرة مشتركة واحدة تجمع هذا الجمهور بعضه الى بعض • ان كرافت على حق : كل انسان يسير فى جهة • والتقيت بصبي صغير ، هو من الصغر بحيث يستغرب المرء أن يراه فى مثل هذه الساعة وحيداً فى الشارع • لا بد أنه ضل طريقه • وهذه امرأة تقف لحظة لتسأله ، ولكنها لم تفهم • فأومأت بيدها بما يدل على أنها لا تستطيع له نفعاً ، ثم تابعت طريقها تاركة اياه فى الظلام • واقتربت من الصبي ، ولكنه خاف منى ، وهرب • حتى اذا وصلت الى الدار ، قررت ألا أذهب بعد اليوم الى فاسين قط • وشعرت ، وأنا أصعد السلم ، برغبة محمومة فى أن أجد أهلى وحدهم فى البيت ، من دون فرسيلوف ، حتى يكون لى من الوقت ما يتسع لأن أقول لأمى قبل وصوله بضع كلمات طيبة ، أو أن أقول بضع كلمات طيبة لأختى العزيزة التى أستطيع أن أزعم أنني لم أوجه اليها كلمة واحدة طوال هذا الشهر • وذلك ما كان : لم يكن فرسيلوف فى المنزل •

بالمناسبة : ان عليّ وأنا أدخل في « مذكراتي » هذه « الشخصية الجديدة » ( أعني فرسيلوف ) أن أتكلم موجزاً عن خدماته في الدولة ، وهي خدمات تافهة علي كل حال . لكنني أتكلم عنها ليفهم عنى القارىء فهماً أكمل ، ولأننى أنا نفسى لا أعرف أين يمكننى أن أتحدث عنها فى تمة هذه القصة .

لقد كان فرسيلوف فى الجامعة ، لكنه دخل بعد ذلك سلاح « الحرس » فى فرقة من فرق الفرسان . وتزوج امرأة اسمها فاناريوتوفا ، وأحيل على التقاعد . وقام بعدة أسفار الى الخارج . وكان فى الفترات التى تتخلل هذه الأسفار يعيش بموسكو متمتعا بمباهج الحياة فى المجتمع الراقى . حتى اذا ماتت زوجته مضى يعترزل فى الريف . وهناك انما حدثت له قصته مع أمى . ثم أقام مدةً طويلةً فى مكان ما بالجنوب . فلما نشبت الحرب مع أوروبا عاد الى الخدمة فى الجيش ، ولكنه لم يرسل الى القرم ولم يشارك فى أن عمل . فلما انتهت الحرب أُحيل على التقاعد ، وسافر الى الخارج ، حتى لقد سافر مصطحباً أمى ثم تركها فى كونسبرج . وقد حكى لى المسكينة مراراً ، بنوع من الرعب ، وهى تهز رأسها ، كيف أنها مكنت وحيدة وحدهً تامةً مدة ستة أشهر ، مع ابنتها الصغيرة ، دون أن تعرف لغة البلاد ، حتى لكأنها تعيش فى غابة ، عدا أنها كانت بغير مال . وقد جاءت تايانا بافلوفنا عندئذ ، فأخذتها الى مكان فى اقليم « ينجنى -

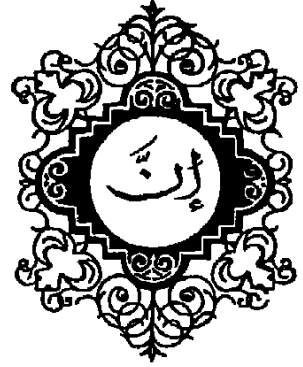
نوفجورود» • ثم كان فرسيلوف فى اعداد أول جماعة من «وسطاء الصلح»، فقام بالمهام الموكولة اليه خير قيام فيما قيل • ولكنه لم يلبث أن ترك هذه المهام ، وراح يتعاطى فى بطرسبرج أعمالاً مدنية شتى خاصة • وقد قدر آندرونيكوف كفاءته قدراً عظيماً على الدوام • فكان يحترمه كثيراً، ولكنه كان يضيف الى ذلك قوله انه لا يفهم طبعه • ثم هجر فرسيلوف هذا النوع من الأعمال أيضاً ، ورجع الى الخارج ، فأقام هذه المرة مدةً طويلة استمرت عدة سنين • وبعد ذلك بدأت علاقاته الوثيقة جداً بالأمير العجوز سوكولسكى • وقد تقلبت أحواله المالية فى أثناء ذلك الوقت مرتين أو ثلاثاً : فتارةً يهبط الى الدرك الأسفل من الفقر والبؤس ، وتارةً يصعد الى ذروة الغنى والثراء •

آن الأوان ، وقد وصلت الى هذا الموضع من مذكراتى ، أن أتكلم عن « فكرتى » لأول مرة منذ أن نبتت هذه الفكرة فى نفسى • هأنا ذا أقرر أن أكشف للقارىء عن فكرتى تلك التى ستضفى على قصتى مزيداً من الوضوح • ان القارىء والكتاب كليهما يكون عرضةً للارتباك والتشوش اذا أنا حاولت أن أشرح سلوكى دون أن أبدأ بتوضيح الأسباب التى قادتنى اليه وحضتنى عليه • ولكننى بهذا « الأسلوب من الاغفال » أقع من خرافتى فى عيوب « الحيل » التى يعمد اليها الروائى ، والتى سخرت منها من قبل • اننى اذ بادرت الى سرد قصتى ببطرسبرج مع كل ما فيها من أحداث مخزية لى ، أجد أن هذه المقدمة كانت ضرورة لا غنى عنها • فليست « الحيل » هى التى جعلتنى ألتزم الصمت حتى الآن، وانما ألتزمتنى به طبيعة الأشياء ، أى صعوبة القصة • اننى حتى فى هذا اليوم ، بعد كل ما جرى ، لا أزال أشعر بصعوبة لا سبيل الى تذليلها وأنا

أريد أن أحكى تلك « الفكرة » • ثم ان علىّ طبعاً أن أعرضها في صورتها التي كانت عليها حينذاك ، أي كما نشأت في نفسي وتصورها عقلي ، لا في الصورة التي آلت اليها الآن ، وهذه صعوبة جديدة • هناك أمور يكاد يستحيل على المرء أن يرويها • وان أبسط الأفكار وأوضح الأفكار هي بعينها أعسرها على الفهم • لو أن كريستوف كولومب أراد قبل اكتشاف أمريكا أن يروي فكرته للآخرين لظلوا مدةً طويلة لا يفهمونه فيما أعتقد • وهم لم يفهموه فعلاً • اننى اذ أقول هذا الكلام لا أدعى مقارنة نفسي بكريستوف كولومب • وما على الذى يستخلص هذه النتيجة الا أن يشعر بخزى وعار ، لا أكثر !

## الفصل الخامس

١



فكرتى هي أن أكون مثل روتشيلد • واننى أدعو  
القارىء الى الهدوء والجد •

أكرر : ان فكرتى هي أن أكون مثل روتشيلد ،  
هي أن أكون فى مثل غنى روتشيلد • لا أن أكون  
غنياً فحسب ؛ وانما أن أكون مثل روتشيلد • أما غرضى من ذلك ودافعى  
اليه والأهداف التى أسعى اليها ، فذلك كله ما سأعجله فيما بعد •  
وحسبى أن أبرهن الآن على أن تحقيق هدفى هذا مضمون ضمانته  
رياضية •

المسألة بسيطة غاية البساطة ، يكمن سرها كله فى كلمتين : «العناد»  
و « الثابرة » •

قد يقال لى : « نحن نعرف هذا ، فما هو علينا بجديد • فى ألمانيا  
يردده كل « أب » على مسامع أبنائه • ومع ذلك بقى صاحبك روتشيلد  
( المرحوم جيمس روتشيلد ، الباريسى ، الذى أتكلم عنه ) فرداً واحداً ،  
مع أن هناك ملايين من « الآباء » •

فاجيب :

- تزعمون أنكم تعرفون هذا • والحق أنكم لا تعرفون شيئاً البتة •  
 ثمة نقطة أتم فيها على صواب مع ذلك : لئن قلت ان الأمر « بسيط غاية  
 البساطة » ، فقد نسيت أن أضيف الى ذلك أنه أيضاً أصعب أمر • ان  
 جميع الأديان وجميع المذاهب الاخلاقية في العالم ترتد الى ما يلي : « على  
 المرء أن يحب الفضيلة وأن يتجنب الرذيلة » • هل هناك ما هو أبسط  
 من هذا ؟ ألا فحاولوا اذن أن تحققوا فضيلة من الفضائل ، وأن تجتنبوا  
 رذيلة واحدة من رذائلكم ! هيا حاولوا قليلاً ! ان الأمر كله يكمن هنا!  
 لذلك كان أولئك « الآباء » الذين لا حصر لهم ، والذين تعاقبوا  
 دهوراً لا نهاية لها، يمكنهم أن يرددوا على مسامع أولادهم هاتين الكلمتين  
 اللتين يكمن فيهما السر كله ، ثم يبقى روتشيلد فرداً واحداً لا ثاني له •  
 اذن : ليس الأمر كذلك تماماً ، و « الآباء » لا يرددون الفكرة اللازمة  
 بعينها •

أما العناد والمثابرة فلا شك أبداً في أنهم سمعوا عنها أيضاً • ولكن  
 ما أنا في حاجة اليه ليس هو العناد الذي يتكلم عنه « الآباء » ولا هو المثابرة  
 التي يتكلم عنها « الآباء » •

ان كلمة « الأب » هذه وحدها - ولست أتكلم عن الألمان وحدهم -  
 أعني أن يكون للفرد أسرة ، وأن ينفق كما ينفق الآخرون ، وأن تكون  
 عليه التزامات كاللزاماتهم ، فذلك كله يحول بينك وبين أن تصبح روتشيلد،  
 ويضطرك أن تبقى انساناً معتدلاً • أما أنا فأفهم أنني متى أصبحت روتشيلد  
 أو متى رغبت في أن أصبح روتشيلد ، لا بطريقة « الآباء » الألمان ، بل  
 على نحو جاد ، فأننى بذلك أخرج من المجتمع فوراً •

منذ بضع سنين قرأت في الجرائد أنه مات على ظهر مركب بخارى  
 في نهر الفولجا شحاذ يرتدى أسملاً بالية وخرقاً ممزقة كان يطلب

الصدقات من الناس وكانت المنطقة كلها تعرفه . فبعد موته و جدت ثلاثة آلاف روبل مخيطة في أطماره القذرة . وفي هذه الأيام الأخيرة قرأت قصة جديدة عن شحاذ هو رجل من طبقة النبلاء كان يمضي من نزل الى نزل يمد يده مستعطياً . وقد اعتقل الرجل فوجد حاملاً قرابة خمسة آلاف روبل . من هنا نخرج بنتيجتين : الأولى هي أن « العناد » في الكنز، ولو كان كنز قروش ، يؤدي في النهاية الى ثمرات ضخمة ( ولا شأن للزمن في هذا ) . والثانية هي أن أبسط شكل من أشكال تحصيل الغنى مضمون النجاح بالبرهان الرياضي متى توفر شرط « المثابرة » .

ربما كان هناك رجال محترمون أذكيا متواضعون ثم هم لا يملكون ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف روبل ( مهما يبذلوا من جهد ويتحملوا من عناء ) ، رغم حرصهم الشديد على أن يملكوا مبلغاً كهذا المبلغ . فلماذا ؟ الجواب واضح : هو أنه لا أحد من هؤلاء يقبل أن يصبح شحاذاً اذا كان ذلك هو السيل الوحيد الى الاثراء ، مهما تكن رغبته في الاثراء قوية . ولا أحد منهم يبلغ من العناد أنه اذا أصبح شحاذاً لا ينفق القروش الأولى التي يستعطيها للحصول على لقمة زائدة له أو لأسرته . في حين أن على المرء اذا هو استعمل هذا الأسلوب في جمع المال ، أعنى الاستجداء ، أن يتغذى بخبز وملح لا أكثر . أو هذا ما أتصوره أنا على الأقل . ولا شك في أن هذا ما فعله ذاك الشحاذان اللذان ذكرتهما منذ قليل . فقد كانا يأكلان خبزاً يابساً وينامان في العراء ومن المؤكد جداً انهما كانا لا ينويان أن يصبحا مثل روتشيلد : فانهما لم يكونا الا بخيلين من نوع هرباجون أو بليوشكين لا أكثر . ولا كذلك الادخار الواعي أو الكنز المقصود الذي يتخذ صورة أخرى هي أن يصبح صاحبه مثل روتشيلد . ان هذا الادخار لا يقتضى رغبة أقل أو ارادة أضعف مما يملكه ذاك الشحاذان من رغبة عنيفة و ارادة قوية . بل ما من « أب » يملك مثل تلك القوة . ان القوى متنوعة تنوعاً كبيراً في هذا العالم ، ولاسيما قوى الارادة والرغبة .



شتان بين درجة الحرارة اللازمة لغليان الماء ، وبين درجة الحرارة اللازمة  
لاحمرار الحديد •

هذا منسك حقاً • هذه مآثر قديسين فعلاً • هذه عاطفة لا فكرة •  
لماذا ؟ في سبيل ماذا ؟ أهو عمل أخلاقي أم هو شنوذ عجيب أن يرتدى  
المرء خرقاً ممزقة وأطماراً بالية ، وأن يظل حياته كلها يأكل خبزاً أسود ،  
بينما هو يحمل ثروة طائلة ؟ هذه مسائل سترد فيما بعد ، أما الآن فانما  
المهم أنه يمكن الوصول الى الهدف •

حين تخيلت « فكرتى » ( وقوامها حرارة احمرار الحديد ) أردت  
أن أمتحن نفسى : أأنا خلقت للدير وللقداسة ؟ ومن أجل هذا الامتحان  
لبث شهراً بكامله لا أطعم الا خبزاً مع ماء • كنت لا أحتاج الى أكثر  
من رطلين ونصف رطل من الخبز الأسود كل يوم • ولكى أستطيع  
تحقيق هذا التقشف اضطررت أن أخدع نيقولا سيميونوفتش الماكر  
وماريا ايفانوفنا التى كانت تريد لى الخير • ما كان أبلغ حزن ماريا ايفانوفنا  
وما كان أشد حيرة نيقولا سيميونوفتش المرهف حين أصررت على أن  
يحمل طعامى الى غرفتى فأكل هناك ! لقد صعق نيقولا سيميونوفتش  
حينذاك صعقا فكنت أصب الحساء من النافذة على نباتات القراص أو أرميها  
فى المراحيض ؛ وكنت أبعث اللحم الى الكلب من النافذة أو أصره بورقة  
فأضعها فى جيبى وأمضى بها الى خارج المنزل وأتخلص منها فى الشارع •  
واذ كانوا يعطوننى أقل من رطلين ونصف رطل من الخبز ، فقد كنت  
أشترى خبزاً فى السر • وصمدت على ذلك الشهر كله ، وان أكن قد  
أفسدت معدتى قليلاً فى أغلب الظن ، لكننى أخذت فى الشهر التالى أضيف  
الى الخبز حساءً ، وأشرب فى الصباح والمساء كأساً من الشاي • وأؤكد  
لكم أننى قضيت على هذا سنةً بأسرها فى صحة تامة واكتفاء كامل ، وكنت  
من الناحية النفسية فى أثناء ذلك مفتتاً أشد الافتتان ، وكنت فى حماسة  
مستمرة • فلما انقضت السنة وصرت على يقين من أننى أستطيع

احتمال أى صيام ، عدت آكل كما يأكل سائر الناس ، وأمضى أتعشى معهم • ثم لم تكفى تلك التجربة فكررتها مرة أخرى : كان يحق لى أن أتقاضى مصروفاً قدره خمسة روبلات فى الشهر ، عدا نفقات الإقامة الداخلية فى المدرسة ، وهى النفقات التى كان يدفعها نيقولا سيميونوفتش • فقررت ألا أنفق من هذا المبلغ الا نصفه • ان هذا امتحان صعب جداً • ولكنى بعد سنتين أو أكثر قليلاً كان فى جيبى حين وصلت الى بطرسبرج سبعون روبلاً عدا غيرها من المال ، ادخرتها من تلك التقطيرات • ان النتيجة التى خرجت بها من هذين الامتحانين تجربة فخمة هائلة : لقد علمت علم اليقين أنتى أملك « الارادة » اللازمة للوصول الى هدفى • تلكم هى « فكرتى » كلها • أما كل ما عدا ذلك فأمر نافية •

مع ذلك فلننظر أيضاً في هذه الأمور التافهة !

لقد وصفت التجريبتين اللتين قمت بهما • وأتم تعلمون أنني في بطرسبرج قد قمت بتجربة ثالثة : مضيت الى بيع بالزاد العلني ، فربحت سبعة روبلات وخمسة وتسعين كوبكاً دفعة واحدة • ولم تكن هذه تجربة بمعنى التجربة طبعاً ، وإنما كانت نوعاً من اللعب وضرباً من الرياضة والتسلية والراحة : لقد خطر ببالي أن أختلس من المستقبل دقيقة قصيرة لأرى كيف عساني أتصرف • والحق أنني منذ البداية بموسكو ، كنت قد أرجأت الشروع الحق في تنفيذ فكرتي الى اللحظة التي أصبح فيها حراً حرية تامة • كنت أدرك ادراكاً واضحاً أن عليّ قبل كل شيء ، مثلاً ، أن أفرغ من الليسيه ( أما الجامعة فكنت قد ضحيت بها كما تعلمون ) • ومما لا شك فيه أنني سافرت الى بطرسبرج شاعراً بغضب خفي شديد : فأننى ما ان خرجت من الليسيه وغدوت حراً أول مرة حتى رأيت فجأة أن أمور فرسيلوف ستلهيني عن مشروعى الى أجل غير معلوم ! ولكننى رغم الغضب سافرت مطمئناً الى هدفى أكبر الاطمئنان •

ولا شك أنني كنت أجهل الحياة العملية ، لكننى كنت قد فكرت في المسألة ثلاث سنين متتالية ، فلم يساورنى أى ريب • قلبت الأمور على ألف وجه وأنا أتصور كيف أتصرف • تصورتى فى إحدى عاصمتينا على حين غرة كأننى هابط من السحب ( لقد اخترت العواصم بدايةً لمشروعى ، ولا سيما بطرسبرج التي آثرتها بعد حساب ) ، ورأيتنى - رغم هبوطى من السحب - حراً حريةً كاملة ، فما أنا رهن بأحد ، ورأيتنى موفور الصحة ، مع مائة روبل دستتها فى جيبي زاداً

أول ، اذ يستحيل على المرء أن يبدأ بأقل من مائة روبل ، والا كان يرجى  
 مرحلة النجاح الأولى مدةً طويلة جداً . وأنا كما تعلمون أملك ، عدا  
 المائة روبل ، الشجاعة والعناد والثابرة ، والعزلة التامة ، والسر المكتوم .  
 ولا سيما العزلة : لشدّ ما كرهت العلاقات بالناس والارتباط بهم والاشتراك  
 معهم كرهاً فطبعاً الى آخر لحظة .

لقد عزمت أمرى على أن أنفذ فكرتى وحيداً ، والا فلا ! ان الناس  
 عبء ثقيل علىّ ، فلو أشركتهم فى فكرتى لاضرب ذهني ولأضر ذلك  
 بهدفى . ثم اننى حتى هذا اليوم ، خلال حياتى كلها ، فى جميع أحلامي  
 عن علاقاتى بالناس كنت أدبر أمورى تديراً ذكياً . ولكننى لا أكاد أتترك  
 أفق الحلم وأشرع فى العمل حتى أتصرف تصرفاً أحمق . اننى أعترف  
 بهذا مستاءً صادقاً . لظالما فضحت نفسى بأقوالى ، ولظالما أسرفت فى  
 التسرع . ومن أجل ذلك قررت أن ألغى البشر من مشروعى . الفائدة  
 التى أجنيتها من ذلك : الاستقلال ، هدوء البال ، وضوح الهدف .

رغم أن الأسعار ببطرسبرج فاحشة فقد اتخذت قراراً حاسماً بالأنا  
 أنفق أكثر من خمسة عشر روبلاً لطعامى ، وكنت أعلم أننى سأنفق  
 قرارى لا أحيد عنه . لقد درست مسألة الطعام هذه دراسة طويلة  
 مفصلة . قررت مثلاً أن آكل خبزاً وملحاً فى يومين متتالين ثم أنفق  
 فى اليوم الثالث ما آكون قد حققته من وفر . كان يبدو لى أن هذا أنفع  
 لصحتى من صيام متساو متصل لا أنفق خلاله الا خمسة عشر كوبكاً فى  
 اليوم . أما عن المسكن فقد كنت فى حاجة الى ركن ، الى ركن لا أكثر ،  
 ركن أبيت فيه ليلاً ، أو آوى إليه أيام يكون الجو رديئاً . وقد قررت أن  
 أعيش فى الشارع ، وكنت مستعداً اذا اقتضى الأمر ذلك أن أبيت فى ملاجئ  
 الليل التى يعطى النائم فيها ، عدا الغطاء ، قطعة خبز وكأس شاي . . .  
 لسوف أعرف كيف أخبئ مالى فى ركنى أو فى الملاجئ فلا يسرقه أحد .  
 حتى انهم لن يحزروا شيئاً ، أنا أضمن لكم ذلك ! « أأسرق أنا ، أنا الذى

أمسك عن سرقة الآخرين ؟ » : لقد سمعت هذه الكلمة الظريفة مرة في الشوارع من فم مكارٍ مرح • وأنا لا أحتفظ منها طبعاً إلا بروح الحذر والمكر ، فليس في نيتي أن أسرق أبداً • بل أكثر من ذلك أنني منذ كنت بموسكو ، وربما منذ اليوم الذي شهد ولادة « فكرتي » قد قررت أنني لن أكون دائماً برهون ، ولا مرابياً : فذلك له اليهود وله الروس الذين لا يملكون ذكاء ولا أوتوا خلقاً • ان الاقراض والربا حطة •

وأما الملابس فقد قررت أن يكون لي رداءان ، واحد لكل الأوقات ، وواحد لائق • وكنت واثقا أنني متى ملكت هذا الرداء فسيديم زمناً طويلاً • لقد قضيت سنتين ونصف سنة أتعلم كيف ألبس ثيابي ، حتى لقد كشفت عن هذا السر : من أجل أن يبقى رداؤك جديداً على الدوام ، وألا يبلى ، فعليك أن تنظفه بالفرشاة كلما استطعت الى ذلك سبيلاً ، خمس مرات أو ستاً في اليوم • فلا خوف على الصوف من الفرشاة ، أقول لك هذا عن علم مؤكد محقق • اذا نظرت الى ذرات الغبار بالمجهر وجدتها حصى صغيرة ، أما الفرشاة فمهما تكن قاسية ليست تختلف كثيراً عن الصوف • وقد تعلمت كذلك اتعال الحذاءين • اليك السر : يجب عليك أن تضع قدمك في حذر ، وأن تضع النعل كله دفعةً واحدة ، وألا تضغط على احدي الجهتين الا أقل ضغط ممكن • ذلك علم يمكن تحصيله في خمسة عشر يوماً ، ثم يجري كل شيء من تلقاء نفسه • بهذه الوسيلة تستطيع أن تطيل عمر الحذاءين ما يساوي ثلثه في الوسط • تلك تجربتي خلال سنتين •

بعد ذلك يأتي العمل نفسه •

اليك وسيلتي : انني أملك مائة روبل • وفي بطرسبرج مزادات كثيرة ، وتصفيات ، وحوائيت ، ومعوزون ، فيستحيل ألا يقع المرء على شيء من الأشياء يشتريه بثمان بخس ثم يستطيع أن يبيعه بسعر أعلى • لقد ربحت من بيع « ألجوم » سبعة روبلات وخمسة وتسعين كوبكاً ، وكان

رأس المال الذي دفعته روبلين وخمسة كوبكات • وقد حققت هذا الربح الضخم بدون مجازفة : قرأت في عيني المشتري أنه لن يتراجع • صحيح أن هذه كانت مصادفة • لكنني انما أبحث عن مصادفات ، ومن أجل ذلك انما قررت أن أعيش في الشارع • قد تكون هذه المصادفات نادرة جداً ، انني أسلم بذلك • لكن هذا لا يغير قاعدتي الأساسية وهي ألا أجازف • وأما قاعدتي الثانية فهي أن أربح كل يوم أكثر من الحد الأدنى الذي أنفقه على تأمين معيشتي ، حتى لا ينقطع الادخار يوماً واحداً •

رب قائل يقول : لكن هذه أحلام • فأنت لا تعرف الشارع ، وقد تسرق منذ اليوم الأول • لقد فات القائل أنني أملك الارادة وقوة العزيمة ، وأن علم الشارع علم كسائر العلوم ، وأن تحصيل هذا العلم يكون بالاصرار والعناد ، والانتباه واليقظة ، والمقدرة والكفاءة • لقد كنت في الليسه بين الأوائل دائماً حتى في الفلسفة ، وكنت قديراً في الرياضيات • هل يجوز أن تظنوا علم الشارع تميمة من التماث ، فتنبأوا لي بالاخفاق حتماً ؟ ان الذين يقولون هذا الكلام هم دائماً أولئك الذين لم يعانون تجربة ولا قاموا بعمل ولا شرعوا في حياة ، وانما هم عاشوا في عفونة الكسبل • لسان حالهم يقول : « ان فلانا قد كسر أنفه ، فلا بد ان يكسر فلان الآخر أنفه حتماً » • لا لن أكسر أنفي • ان لي عزيمة قوية ، ولأتعلمنّ بقليل من الانتباه أي شيء • هل يمكنكم أن تتخيلوا أن المرء يعجز بالاصرار المستمر والعناد المتصل والتفكير الدائب والتأمل الصبور والحساب الدقيق عن أن يحصل العلم اللازم لكسب عشرين كوبكاً زيادةً في كل يوم ؟ لاسيما وأنني قررت ألا أسعى أبداً الى الحد الأقصى من الربح ، وأن أحتفظ دائماً بهدوء أعصابي وبرودة دمي • وفي المستقبل ، حين أملك ألف روبل أو ألفين سأترك السمسرة والبيع بطبيعة الحال • ولئن كنت لا أزال قليل العلم بأمور البورصة والأسهم والبنوك ، فانتى في مقابل ذلك كنت أعلم ، كعلمي بأن  $2 + 2 = 4$  ،

أنتى سأعرف جميع هذه البورصات وهذه البنوك وسأدرسها فى حينها كأتى انسان آخر ، وأن هذا العلم سيسعى الى سعيأ متى آن الأوان • هل يحتاج المرء من أجل هذا الى كثير من الذكاء ؟ هل عليه أن يكون فى ذكاء سليمان الحكيم ؟ يكفى المرء أن يكون قوى العزيمة • أما العلم والحذق والمعرفة فذلك كله يأتى من تلقاء نفسه • وانما المهم ألا يكف المرء عن « أن يريد » •

ويجب خاصةً ألا يجازف ، وذلك لا يتيسر الا بقوة العزيمة • منذ مدة قصيرة ، بعد وصولى بقليل ، كان فى بطرسبرج اكتباب بأسهم سكة حديدية • فالذين أمكنهم أن يكتبوا جنوا ربحاً كبيراً ، اذ ارتفعت أسعار الأسهم فى وقت من الأوقات •

وهذا شخص متأخر أو بخيل يرى أسهماً بين يديّ على حين فجأة ، فيعرض على أن أبيعها اياها بربح يساوى نسبةً مئوية من ثمنها • لسوف أبيعها الأسهم ، بل سوف أبيعها اياها حالاً • ولسوف يتهمك الناس على طبعاً ، اذ لو تريت لنت ربحاً يقدر بعشرة أضعاف هذا الربح ! صحيح ! ولكن ربحى الآن أضمن ، لأننى أملكه فى جيبي ، أما ربحكم أتم فانه لا يزال فى علم الغيب ! فان قلت ان هذا ليس هو السبيل الى جنى ربح كبير قلت : عفوكم ، ذلكم هو خطؤكم ، ذلكم هو خطأ جميع أمثال كوكوريف و بولياكوف و جوبونين • تعلموا هذه الحقيقة : ان الاستمرار والعناد فى الربح ، ولاسيما فى الجمع والكنز ، أقوى من أرباح مباحة ولو بلغت مائة ضعف !

قبل الثورة الفرنسية بقليل كان بباريس رجل اسمه « لاو » تخيل مشروعاً يستحق أن يعد عبقرىاً من ناحية المبدأ حقاً ، لكنه انتهى فى التطبيق الى فشل ذريع • لقد اهتزت باريس كلها حينذاك ، فكان الناس يتنافسون على شراء الأسهم متشاجرين بل متقاتلين • كان الفندق الذى يجرى فيه بيع الأسهم يبتلع أموال باريس كلها • ثم ضاق الفندق عن

استيعاب الوافدين للاكتاب ، فكان الناس يحتشدون في الشارع من جميع  
المهن وجميع الطبقات وجميع الأعمار، من البورجوازيين والنبلاء وأولادهم،  
ومن كوتيسات ومركيزات ومومسات . فكان هؤلاء جميعاً كتلة واحدة  
حائقة تشبه أن تكون مجنونة كأنما عضها كلب مسعور . ان جميع المشاعر  
التي يحملها كثير من الناس عن نبالة دمائهم وعلو مراكزهم وسمو ألقابهم  
وحتى رفعة الشرف وحسن السمعة ، ان ذلك كله قد ديس بالأقدام .  
كان الناس يضحون بكل شيء ( وحتى النساء ) في سبيل الحصول على عدد  
من الأسهم . وانتقل الاكتاب أخيراً الى الشارع ، ولكن لم يكن ثمة مائدة  
يكتب عليها . وعندئذ انما عرضوا على رجل أحذب أن تتخذ حديثه طاولة  
للكتابة برهة . فقبل الأحذب العرض ، وفي وسعكم أن تتخلوا الأجر  
الذي طلبه ! وبعد قليل ( بل بعد قليل جداً ) أفلس المشروع : تهدم  
كل شيء ، ارسلت الفكرة كلها الى الجحيم ، وفقدت الأسهم كل قيمة !  
فمن ذا الذي جنى ربحاً في هذه القضية كلها؟ الأحذب ، الأحذب وحده ،  
لأنه لم يؤجر حديثه بأسهم بل بدنانير ذهبية ! أنا ذلك الأحذب ! أملك  
القدرة على ألا آكل ، وأن أجمع من توفير الكوبكات اثنين وسبعين روبلاً .  
وعلى أيضاً أن أصمد حين تعصف حمى بسائر الناس ، وأن أوتر مبلغاً  
مضموناً على مبلغ آخر أضخم منه لكنه غير مضمون ! أنا لست ضعيفاً الا في  
الأشياء الصغيرة ، أما الأمور الكبيرة فلا ! كثيراً ما فاتتني قوة العزيمة في  
الشئون الصغيرة ، حتى بعد ولادة « فكرتي » ، بسبب نفاذ الصبر . أما اذا  
كان الأمر خطيراً فلا تعوزني قوة العزيمة أبداً . حين كانت أمي تقدم لي  
قبل الذهاب الى العمل قهوة فترت سخونتها ، فقد كنت أغضب ، وأقول لها  
كلاماً فظاً ، ومع ذلك فانتى ذلك الشخص نفسه الذي عاش شهراً كاملاً  
لا يأكل الا خبزاً ولا يشرب الا ماء .

الخلاصة أنه ليس طبعياً ألا يعرف المرء كيف يربح ، وألا يفلح  
في تعلم الربح . لا وليس طبعياً ألا يصبح المرء مليونيراً اذا هو واطب



على الادخار والجمع والكنز بغير انقطاع ، واذا ملك انتباهاً مستمراً وهدوءاً متصلاً ، واذا بذل جهداً دائماً للتوفير ، وطاقةً ما تنفك تزداد وتتسع • كيف ربح الشحاذ ثروته ان لم يكن قد ربحها بقوة العزيمة ، وشدة الحماسة ، واستمرار المثابرة • أنا لا أساويه ؟ « على كل حال ، قد لا أجنى شيئاً ، وقد لا يكون حسابي صحيحاً ، وقد أفلس وأنهار ••• فلا ضير •• سأظل أسير الى أمام • أسير لأننى أريد أن أسير » • كذلك كنت أقول لنفسي بموسكو •

فان قلت ان هذا ليس فيه شيء من فكرة ، وليس فيه شيء جديد ، قلت لكم آخر مرة : بل ان فيه أفكاراً لا نهاية لها ، وان فيه جودة لا نهاية لها •

آ ••• لقد أوجست جميع هذه الاعتراضات البتذلة ، ولشد ما أكون انا نفسي مبتذلاً اذا عرضت فكرتى ! ما الذى قلته أنا فى حقيقة الأمر ؟ اننى لم أشرح عشر معشار فكرتى • اننى أشعر أن كل ما قلته تافه ، فظ ، سطحى ، وربما كان أصغر من سنى ، ولكن هل يفسد عجز الكاتب قيمة الفكرة التى يعرضها ؟

## ٣

بقي أن أجيب عن الأسئلة التالية : « لماذا ؟ ما الهدف ؟ أهذا أمر طبيعي سليم أم لا ؟ » ، الخ الخ . وهي أسئلة وعدت بالاجابة عنها .  
وهأذا أبدو أوهام القارىء دفعة واحدة فأقول :

ان نفسى لا تضم أية رغبة فى الانتقام ، وأنا معافى من كل نزعة بيرونيه ، وليس لحقد اليتيم ولا لشعور ابن الزنا أى شأن فى هذا . ان السيدة البرومانطيقية التى قد يخطر ببالها أن تتصفح مذكراتى هذه سوف تخفض أنفها خائبة الأمل . ان الهدف الذى أسعى اليه بفكرتى انما هو :  
العزلة .

– ولكن ما حاجتك الى أن تكون صاحب مليارات حتى تعيش حياة عزلة . . . ما شأن روتشيلد فى هذه القصة ؟

– ان له مكانه فيها . لأننى ، عدا العزلة ، فى حاجة الى القدرة .

اسمحوا لى بتمهيد : قد يدهش القارىء حتى من صراحتى فى الاعتراف ، فيتساءل بغير قليل من السذاجة كيف لم يحمرّ كاتب هذا الكلام خجلاً ؟ فأجيب بأننى لا أكتب للنشر ، وأنتى قد لا أقرأ الا بعد عشر سنين ، وذلك حين تكون الأمور قد تمت على الوجه الأكمل ، فلا يكون على أن أحمر خجلاً من شىء . فاذا كنت فى هذه المذكرات أخاطب قارئاً ، فواضح أن ذلك ليس الا أسلوباً فى الكتابة لا أكثر . ان قارئى شخص من صنع خيالى .

لا ، لا ولادتى غير الشرعية التى كانوا يغيظوننى بها كثيراً فى مدرسة

توشار ، ولا الحزن الذى عشته فى سنى طفولتى ، ولا أية رغبة فى الانتقام أو الاحتجاج ، لا شىء من ذلك كله كان له شأن فى ولادة فكرتى : لقد ولدت فكرتى من طبعى ولادة عادية . لم أكن قد بلغت الثانية عشرة من عمري حين كان حضور الناس بل وجودهم يثقل على صدرى وتضيق به نفسى . وقد شق علىّ أحياناً فى لحظات صفائى ، أن لا أستطيع البوح للقريين منى بما يزخر به قلبى ، بل قل اننى كنت أستطيع ذلك ولكن لا أريده . كان شىء ما يصدنى . كنت شكاكاً ، نافرأ من صحة الناس ، متجهم النفس . ذلك ما كنت . وكنت عدا ذلك شديد الميل الى اتهام الآخرين . ولكننى سرعان ما أرتد الى نفسى أسأئلهما : « ألسنت أنا المخطئ ؟ » . وكثيراً ما كنت أدين نفسى ظلماً . فمن أجل أن أتقى أزمات الضمير هذه ، كنت أجهد أن اعتزل الناس . ثم ما الذى كان يمكن أن أجنيه من صحة رفاقى ؟ لقد كانوا جميعاً أقل ذكاءً منى ، لا أستنى منهم أحداً .

نعم ، كنت قائم المزاج ، فلا أكف عن الانغلاق على نفسى ، ولا أكف عن الرغبة فى الانسحاب من المجتمع . ولعلنى كنت أستطيع أن أنفع الناس ، ولكننى كنت فى كثير من الأحيان لا أرى ما يدعونى الى أن أصنع لهم خيراً . ليس الناس أخياراً فأهتم بهم . لماذا لا يأتون هم الىّ ؟ لماذا يكون علىّ أنا أن أقوم بالخطوة الأولى ؟ ذلك ما كنت أقوله لنفسى . اننى قادر على الاعتراف بالجميل ، وقد برهنت على ذلك بألف حماسة ارتكبتها . اننى أرد على البادرة الحسنة ببادرة أحسن . الصراحة أقابلها بالمودة . وقد سبب لى ذلك مذلات كثيرة . الشخص الوحيد الذى كان يفتح لى نفسه هو لامبير الذى طالما ضربنى ضرباً مبرحاً فى سنى طفولتى الأولى . ولكن الفضل فى صراحته انما كان يرجع الى غبائه .

هأتم ترون تقريباً كيف كانت حالتى النفسية حين وصلت الى

بطرسبرج .

حين خرجت من عند درجاتشيف ( أى شيطان دفننى الى بيته ؟ ) ،  
 ذهبت الى فاسين • وباندفاعه مودة ، أزجيت له المديح • ولكن تلك المودة  
 قد نقصت منذ ذلك المساء نفسه • لماذا ؟ لا شيء الا لأننى مدحته • فبدا لى  
 اننى بذلك قد خفضت قدرى • مع ذلك ألا يرتفع قدر المرء حين يطرى  
 من تلقاء نفسه أحد يستحق هذا الاطراء ؟ ذلك كان رأى ومع ذلك نقص  
 حبى لفاسين • هذا مثال تعمدت أن أسوقه والقارىء يعرفه • وأصبحت  
 لا أفكر فى كرافت أيضاً الا وأشعر بمرارة • أما ذنبه فهو أنه شيعنى  
 متلفظاً حتى الباب • وهذا الشعور بالمرارة لم يتبدد حتى فى الغد حين  
 اتضح كل شيء ولم يبق هناك ما يمكن أن أوأخذه عليه • اننى منذ  
 أيام دراستى فى اللسيه كنت غضوباً • اذا تفوق على أحد رفاقى فى  
 امتحان ، أو بزنى فى تمارين الرياضة البدنية ، قاطعته فأصبحت لا أكلمه •  
 لا لأننى أكرهه أو أغار من نجاحه ، بل لأن هذا طبعى •

نعم ، لقد استولى على حلم القوة والعزلة طوال حياتى ، حتى فى  
 سن لو أتيح لأحد أثناءها أن يرى ما كان يدور فى رأسى من خواطر  
 لضحك ضحكاً شديداً • لذلك أحب السرّ كثيراً • وكنت استرسل فى  
 الأحلام استرسالاً لا يبقى لى وقتاً للحديث مع الناس • وقد استتج الناس  
 من ذلك أننى متوحش ، وكان ذهولى يبعثهم على تأويلات أشد اغتالاً  
 فى الخطأ أيضاً • ولكن خدى المتوردين كاتنا تبرهنان على نقيض ذلك •

وما كان أشد فرحى حين كنت أطمر نفسى تحت أغطيتى فى المساء ،  
 فتهدأ من حولى ضجة الحياة المشتركة ، وتأخذ أحلامى فى بناء العالم على  
 ما يشاء لى هواى فى وحدة الليل ! ان حالة الاسترسال فى الحلم هذه قد  
 لازمتنى الى أن اكتشفت « فكرتى » : فاذا بأحلامى تصبح معقولة بعد أن  
 كانت فى صورة خيالية روائية •

انصهر كل شيء فى هدف واحد • الواقع أن تلك الأحلام لم تكن

حمقاء حتى قبل ذلك ، وان كانت كثيرة لا حصر لها ! ... وكان بينها  
أحلام أفضلها على ما عداها • ولكن لا داعي الى الكلام عنها هنا •

القدرة ! قد يضحك بعض الناس حين يرون شخصاً مثلي « لاقيمة  
له » يتطلع الى القدرة ، الى القوة • ولسوف يدهشون أكثر من ذلك أيضاً  
اذا أنا قلت لهم اننى منذ طفولتى - أو نحو ذلك - لم أستطع فى يوم من  
الأيام أن أتخيل نفسى الا فى المنزلة الأولى فى كل مكان وفى كل ظرف •  
هذه سمة أخرى : ما زلت أتصف بهذه الصفة ، ولا أستغفر عنها أحداً •

هذه « فكرتى » - وهذه قوتها - : ان المال وحده يستطيع أن يقود  
امرءاً الى المنزلة « الأولى » ، ولو كان تافهاً « لاقيمة له » • قد لا أكون  
تافهاً • لكننى أعلم مثلاً ، من النظر فى المرأة ، أن مظهرى الخارجى يضر  
بى ، لأن وجهى عادى لا يتميز بشيء • أما لو كنت غنياً مثل روتشيلد ،  
فمن ذا الذى كان يمكن أن يهتم بوجهى ؟ لو كنت غنياً مثل روتشيلد لكان  
يكفى أن أصفر صفرة واحدة حتى تهرع الى ألوف النساء تعرض على  
محاسنها • بل انى لمقتنع بأنها ستظننى فى النهاية جميلاً ، صادقات كل  
الصدق • وقد أكون ذكياً • ولكن يكفى أن يكون جينى سبع بوصات  
حتى يغلبنى جارى اذا كان له من البوصات ثمانيا • أما اذا كنت غنياً مثل  
روتشيلد ، فان ذلك الحكيم الذى يبلغ جينه ثمانى بوصات سيكون شخصاً  
هزيباً جداً ، حتى لقد لا يتيحون له أن يفتح فمه ! ... وقد أكون فكهاً  
خفيف الظل • ولكن هذا تاليران ، وهذا بيرون • • • فاذا أنا أمحى أمامهما  
فلا يبقى لى وجود • أما اذا كنت غنياً مثل روتشيلد ، فأين يكون بيرون ؟  
بل أين يكون تاليران ؟ يختفيان • ان المال قوة طاغية ، ولكنها بمعنى من  
المعانى تحقق نوعاً من المساواة : فهى تشوش السيطرة المتغترسة التى  
للذكاء والجمال • ذلك ما خلصت اليه وقررتة وأنا بموسكو •

قد لا يبدو لك هذا كله الا وقاحة واستهتاراً ، وقد تظن أنه يهدف  
الى تغليب التفاهة على الموهبة • صحيح • ولكن هذه الفكرة جسورة (وهى

بهذا نفسه لذيذة ) • أما اذا اعتقدت اننى أرغب فى القوة بهدف الانتقام أو الاضطهاد ، كنت تنسب الىّ - بغير حق - أن نفسى هى نفس أن انسان من الناس • اننى لمقتنع بأن أبرز الأفراد شأنًا فى جميع فئات النشاط الانسانى لابد أن يتصرفوا هذا التصرف الذى تنسبه الىّ ظلمًا اذا هم أوتوا ما أوتى روتشيلد من ثراء • أما أنا ففكرتى مختلفة عن هذا كل الاختلاف • اننى لا أخشى المال : ان المال لن يضطهدنى ولن يحملنى على اضطهاد أحد •

ما أنا فى حاجة الى مال ، أو قل ليس المال هو ما أنا فى حاجة اليه - حتى ولا القدرة • وانما أنا فى حاجة الى ما تتيح القوة للمرء أن يحصل عليه ، ولا يمكنه أن يحصل عليه الا بها : أغنى الشعور المعتزل الهادىء بالقوة ! ها قد تم اكتشاف التعبير عن الحرية التى يبحث عنها المفكرون • الحرية ! أخيراً كتبت هذه الكلمة الكبيرة ••• نعم ، ان الشعور المعتزل بالقوة جميلٌ فى ذاته ومسكر • اننى أملك القوة ، واننى هادىء البال • أن الرعود بين يدي جوبيتر ، ولكن جوبيتر هادىء • هل تسمع جوبيتر يردد أحياناً كثيرة ؟ رب أحمق يظن أن جوبيتر نائم • أحلّ محل جوبيتر رجلا من هؤلاء الأدباء أو امرأة من تلك القرويات ! لتسمعنّ الرعد عندئذ لا ينقطع قصفه ، ولتسدن أذنيك من هول الصواعق !

اننى أفكر فأقول لنفسي : متى ملكت القوة فلن أحتاج اليها • واننى لعلى ثقة باننى ، من تلقاء نفسي ، وبكامل رضاي ، سأحتل المنزلة الأخيرة عندئذ فى كل مكان • لو كنت روتشيلد ، لتجولت مرتدياً معطفاً مرقعاً ، حاملاً بيدي مظلة • ولن يؤذيني عندئذ أن يصدمنى أحد فى الشارع أو أن أركض فى الوحل حتى لا تدوسنى العربات • حسبى شعورى بأننى أنا روتشيلد حتى أكون فرحاً فى تلك اللحظة • أعرف أن فى امكاني أن أصيب وجبة من طعام لا يصيب أحد مثلها ، وجبة يهيشها لى أحسن طباخ فى العالم : يكفينى أن أعرف هذا • وسوف آكل قطعة من خبز وشريحة

من الجمبون ، فأكون راضياً كل الرضى • وما زال هذا هو تفكيري الى الآن •

لست أنا من يسعى عندئذ الى معايشة الارستقراطية ، بل الارستقراطيون هم الذين سيسعون عندئذ الى " ينشدون صحبتي • لست أنا من سيجرى وراء النساء ، بل النساء هن اللواتي سيتهاقن على تهافت الذباب ، ويقدمن الى كل ما تستطيع امرأة أن تقدمه • فأما « العاميات » منهن فسيجذبهن المال ، وأما من كان لهن فكر فسيجذبهن الى حب التعرف الى انسان غريب الأطوار متكبر مغلق على نفسه غير مكترث بشيء • وسوف الأطف هؤلاء وأولئك على السواء • ولقد أعطيهن مالا ، لكنني لن أقبل منهن شيئاً • وحب الاطلاع يولد الهوى : فلقد أوقظ في نفوسهن الهوى أيضاً • وأؤكد لكم أنهن لن يظفرن مني بشيء اللهم الا بعض الهدايا • ولن يورثنى هذا الا مزيداً من الدهشة والاستغراب :

« حسبى هذا الشعور • • »

ان الشيء الغريب هو أن هذه الصورة ( وهي صحيحة على كل حال ) قد أغرقتني وفتنتني منذ كنت في السابعة عشرة من عمري • لا أتوى أن أضطهد أحداً ولا أن أعذب أحداً • ولكنني أعلم أنني اذا أردت أن أضيع أحداً من الناس فلن يستطيع شيء أن يمنعني من ذلك ، وأن الجميع سوف يعاونوني في هذا جاهدين • وهنا أيضاً حسبى ذلك • بل انني لن أتقم من أحد • لطلما أدهشني أن جيمس روتشيلد قد قبل أن يحمل لقب « بارون » ! علام ؟ لماذا ؟ ما حاجته الى اللقب وهو بدونه تفوق على جميع الناس في هذه الحياة الدنيا ؟ « أوه ! في وسع ذلك الجنرال الوقح أن يهينني في محطة تبديل الأحصنة التي كنا فيها معاً تنتظر الخيول • فلو عرف من أنا لرخص يتولى بنفسه قرن خيول عربتي ، ولساعدني على الصعود الى مركبتي المتواضعة ! لقد كتب أحدهم يقول ان رجلاً أجنبياً يحمل لقب كونت أو بارون كان في قطار فيينا مع رجل من أصحاب البنوك في تلك

المدينة فألبس قدميه بابوجيهما، وكان صاحب البنك من العامية بحيث ارتضى منه ذلك ! أوه ! وفى وسع تلك الحسنة الرهية ( أقول الرهية لأن بين الحسنات من هنّ رهيات ! ) فى وسع تلك الفتاة التى تنتمى الى الارستقراطية الفخمة الجليلة وتحمل لقباً من ألقاب الشرف ، اذا هى لقيتني عرضاً فى سفينة أو غير ذلك ، أن تنظر الىّ شزراً وأن تشمخ بأنفها وأن تدهش باحتقار من هذا الرجل الصغير الوضع الهزيل الذى يحمل يده كتاباً ويتجراً أن يجلس بجانبها فى الدرجة الأولى ! ولكنها لو علمت من ذاك الذى كانت تجلس الى جانبه ! ولسوف تعلم ذلك ، سوف تعلمه فتأتى تجلس الى جانبى من تلقاء نفسها ، خاضعة خجلى ملاطفة ، ساعة الى نظرة ألقياها اليها ، فرحة بابتسامة أنعم بها عليها . « . اننى أتعمد ادخال هذه المشاهد قبل الأوان ، لأعبر عن فكرتى تعبيراً أوضح . ولكنها مشاهد شاحبة ، ولعلها مبتذلة . ان الواقع وحده يبرر كل شىء . »

رب قائل يقول ان حياة المرء على هذا النحو سخيفة : فلماذا لا يكون له قصر ، لماذا لا يكون له منزل مفتوح للناس ، لماذا لا يضم مجتمعات عدة ، ويكون له تأثير ونفوذ ، ولماذا لا يتزوج ؟ ولكن ما الذى سيصير اليه روتشيلد عندئذ ؟ سوف يكون كسائر الناس . سوف يزول كل ما فى « الفكرة » من فتنة وسحر . وسوف يزول كل ما تشمل عليه من قوة روحية أخلاقية . لقد حفظت على ظهر القلب فى طفولتى ، الحوار الداخلى الذى دار بين « الفارس البخيل » الذى صوره بوشكين وبين نفسه . ان بوشكين لم ينتج ما هو أعلى من هذا الكلام بمقياس « الفكرة » . وأنا ما زلت أحرص على هذه المعانى الى اليوم .

وقد يقال لى باحتقار :

- ولكن مثلك الأعلى منحط جداً : المال ! الثراء ! فأين مصلحة

المجتمع ، وأين الأعمال الانسانية ؟

ولكن هل تعرفون فى أى وجه من الوجوه سأستعمل ثرائى ؟ أين

النأى عن الأخلاق وأين الحطة فى أن تنزل هذه الملايين من برائن يهودية



قدرة ضارة الى يدي انسان معتزل ثابت عاقل يلقي على العالم نظرة ناقبة ؟  
على أن أحلام المستقبل هذه ليست بوجه الاجمال الا نوعاً من حكاية ،  
ولعلني أخطأت اذ دوتها ، ولعله كان يجدر أن تبقى في رأسي لا تخرج  
منه . وأنا أعلم أيضاً أن أحداً قد لا يقرأ هذه الأسطر . ولكن اذا قرأها  
أحد ، فهل يقدر أنني قد لا أحتمل ملايين روتشيلد ؟ نعم ، قد لا أستطيع  
أن أحتملها ، لا لأنها يمكن أن تسحقني ، بل بمعنى آخر هو نقيض هذا  
المعنى تماماً . لطالما عانقت مراراً ، في أحلامي ، اللحظة المستقبلية التي  
سيكون فيها شعوري قد ارتوى ارتواء تاماً ، وأصبحت أرى أن القوة  
لا تكفيني . لسوف أرد جميع تلك الملايين الى الناس حينذاك ، لا عن ضجر  
ولا عن سأم بغير هدف ، بل لأن مطلبي تفوق هذا كثيراً : ألا فلتقتسم  
الانسانية ثروتي عندئذ كما تشاء ، ثم أرتد أنا الى العدم ! لقد أستحيل  
يومذاك الى ذلك الشحاذ الذي مات في السفينة ، مع فارق واحد هو  
أنهم لن يجدوا شيئاً من مال خيط في أسمالي البالية . شعوري وحده  
بأنني كان بين يدي ملايين فرميتها في الوحل ، سيكفيني غداءً في صحرائي .  
انتي ما زلت مستعداً لأن أفكر هذا التفكير نفسه حتى اليوم . نعم ، ان  
« فكرتي » هي « القلعة » التي يمكنني في كل وقت وفي كل ظرف أن  
أهرب اليها من جميع الناس ، ولو كذلك الشحاذ الذي مات في المركب .  
تلكم هي قصيدتي ! واعلموا انني في حاجة الى ارادتي السيئة « كاملة » ،  
لا لشيء الا أن أبرهن « لنفسي » أنني أملك القدرة على العدول عنها .

ولابد من معترض يقول ان هذا الكلام شعر ، وانني لن أتخلي عن  
ملاييني أبداً متى ملكتها ، وانني لن أستحيل يوماً الى الشحاذ ساراتوف .  
والحق أنني قد لا أتخلي عن ملاييني فعلاً . وأنا لم أزد هنا على أن رسمت  
لكم الخطوط العريضة من المثل الأعلى الذي يتصوره فكري . ولكنني  
أضيف الآن الى كلامي جاداً أنني اذا بلغت من كثر المال الى الرقم الذي  
بلغته ثروة روتشيلد ، فلقد أستطيع فعلاً أن أرمي هذه الثروة في وجه

المجتمع ( أما قبل الوصول الى هذا الرقم فقد يكون من الصعب أن أفعل ) •  
 وليس نصف الثروة هو ما سأهبه ، والا كان عملي عملاً مبتدلاً ، وكنت  
 أفقر نفسي الى النصف لا أكثر • وانما سأهب ثروتي كلها ، الى آخر  
 كوبك منها ، فبذلك أعني نفسي الى الضعف ، أى أصبح أغنى من  
 روتشيلد ضعفين ! اذا لم تفهمونى فليس الذنب ذنبى • ولن أدخل هنا  
 فى شروح •

سوف يقول الناس جازمين : « هذا من الدروشة ، هذا شعر التفاهة  
 والعجز ، هذا انتصار الضعف والحطة ! » نعم ، أعترف لكم بأن هذا انتصار  
 الضعف والحطة ، ولكنه ليس انتصار العجز • لقد شعرت بفرح جنونى  
 حين تصورت نفسي ضعيفاً وتافهاً ، أقف أمام الناس فأقول لهم مبتسماً : أتم  
 أمثال جاليلو وكوبرنيك ، وشارلمان ونابوليون ، وبوشكين وشكسبير ،  
 ومارشالات القتال والبلاط ، أما أنا فرجل بلا موهبة ولا نسب كما ترون ،  
 ولكننى مع هذا فوقكم ، لأنكم خاضعون لهذه الحقيقة من تلقاء أنفسكم •  
 اننى أعترف بأننى مضيت فى هذا التخيل الى أقصاه ، حتى تصورتنى بغير  
 تعليم • فبدا لى أن الأمر يكون أجمل اذا كان هذا الرجل جاهلاً جهلاً  
 بشعاً • وقد كان لهذا الحلم الذى يشتمل على مبالغة وغلو أثر فى نفسى منذ  
 سنتى الأخيرة فى الليسيه • فانقطعت عن الدرس تعصباً فكان المثل الأعلى  
 يزداد جماله بانتقضى الثقافة • وقد تغير رأى الآن فى هذه النقطة • فصرت  
 أعتقد أن التعليم لن يكون فيه ضرر •

يا سادتى ، هل يعقل أن يكون استقلال الفكر ، مهما يكن استقلالاً  
 محدوداً ، شاقاً على أنفسكم الى هذا الحد ؟ سعيدٌ مَنْ كان له مثل أعلى  
 للجمال ولو على خطأ • ولكننى مؤمن بصحة مثلى الأعلى • كل ما هنالك أننى  
 عرضته عرضاً أخرق ، ولم أحسن الافصاح عنه • ولاشك فى أننى  
 سأستطيع بعد عشر سنين أن أعرضه عرضاً أفضل • وبانتظار ذلك  
 سأحتفظ بهذا كله المذكرى •

## ٤

ها قد انتهيت من « فكرتى » • واذا كنت قد وضعتها وضماً عاماً سطحياً فهذا ذنبى أنا لا ذنبها هى • ولقد سبق أن نبّهت الى أن أبسط الأفكار هى أعسرها فهماً • وأضيف الآن الى ذلك أنها أعسرها عرضاً • لاسيما وأنتى حكيت « فكرتى » فى صورتها الأولى •

وعكس هذا صحيح أيضاً : ان الأفكار المسطحة السريعة يفهمها الناس بسرعة خارقة ، ولا سيما الجمهور ، الشارع • وأكثر من ذلك أنها تعد أعظم الأفكار وأكثرها عبقرية ، ولكنها لا تعد كذلك الا فى يوم ظهورها • فالبضاعة الرخيصة الثمن لا تدوم طويلاً • ان الفهم السريع دليل على عامية الشيء الذى فهم • ان فكرة بسمارك قد أصبحت عبقرية على الفور ، وبسمارك نفسه رجل عبقرى ، ولكن هذه سرعة تدعو الى الاشتباه : اننى انتظر بسمارك عشر سنين ، فأرى عندئذ ماذا يبقى من فكرته ، بل ربما ماذا يبقى من السيد المستشار نفسه أيضاً • هذه ملاحظة عرضية تماماً ، ولا شأن لها بالموضوع ، ومن الواضح أننى لم أدخلها على سبيل المقارنة ، وانما للذكرى أيضاً ( هذا شرح أخص به القارىء الكثيف ذهنه ) •

والآن سأقص حكايتين لأتهدى من فكرتى كيفما اتفق ، حتى لا تتركنا بعد الآن فى المستقبل •

فى الصيف ، فى شهر تموز ( يوليه ) ، قبل سفرى الى بطرسبرج بشهرين ، وكنت خالياً خلواً تماماً ، طلبت منى ماريا ايفانوفنا أن أذهب الى بلدة ترويتسكى بوساد لأقوم بمهمة لها لدى عانس كانت تقيم هناك ، والمهمة أتفه من أن أعرض لها هنا بالتفصيل • فأثناء عودتى فى ذلك اليوم نفسه

لاحظت في حافلة القطار شاباً نحيفاً ، في وجهه بثور ، يلبس ثياباً حسنة ، لكنه غير نظيف ، هو واحد من أولئك السمر الذي يضرب لونها إلى البرونز المتسخ . وكان الشاب يلفت النظر بأنه في كل محطة أو موقف كان ينزل من القطار ختماً ليشرب شيئاً من الفودكا . وفي خاتمة المسير كانت قد تحلقت حوله عصابة فرحة وان تكن عامية جداً . وكان أكثر أفراد هذه العصابة حماسةً رجلٌ من التجار كان هو أيضاً ثملاً بعض الشيء ، وقد أعجب بما يملكه الشاب من قدرة على أن يشرب بغير انقطاع دون أن يسكر . وكان لا يقل عنه رصاً وارتياحاً فتي غبيٌ غباء رهيباً ، كثير الكلام ، يرتدى ثياباً على الزى الأوروبي ، وتفوح منه رائحة كريهة فظيعة : انه خادم كما عرفت ذلك فيما بعد .

وقد انعقدت بينه وبين عاشق الفودكا الشاب صداقة ، فكان هو الذي يدعوه إلى النزول عند كل موقف قائلاً : « أن الأوان ، هيا بنا ! » ، ثم ينزلان متماسكين متعاقبين . وقد أصبح الشاب بعد الشراب صامتاً لا يكاد يقول كلمة واحدة ، ولكن عدد المتحاذين الذين يتحلقون حوله ما ينفك يزداد . فكان يكتفى بالاصغاء اليهم ، ولكنه لا يني يفهمه ويريل ، ويرسل من حين إلى حين أصواتاً من هذا النوع : « تور - تور - لو - لو ! » ، يرسلها فجأة بغير توقع ، ويجري حركة كاريكاتورية فيحمل اصبعه إلى أنفه . وكان ذلك هو ما يبهج البائع والخدم وسائر الناس بهجة كبيرة ، فكانوا يضحكون ضحكاً مجلجلاً جلجلة خارقة بغير تخرج . انه ليستحيل عليك أحياناً أن تدرك لماذا يضحك الناس . واقربت أنا أيضاً . فلا أدري لماذا أعجبنى هذا الشاب . لعل ما أعجبنى فيه هو هذا الخروج الواضح على المواضع الرسمية المألوفة المقبولة . والمهم على كل حال انني لم ألاحظ حماقته . لذلك سرعان ما أخذنا نتخاطب بصيغة المفرد من غير كلفة . فلما غادرت القطار علمت منه أنه سيأتي في المساء

بعد الساعة الثامنة الى شارع تفرسكوى • ان الشاب طالب ترك الجامعة •  
 وذهبت الى الموعد المضروب ، فاليكم اللعبة التي علمنى اياها :

تتجول معاً فى الشوارع ، وبعد قليل ، متى رأينا امرأة حسنة ليس  
 حولها أحد ، أسرعنا نلتصق بها ؛ وبدون أن نقول لها كلمة واحدة ، نحقق  
 بها أنا من طرف وهو من طرف آخر ، ونأخذ نجري بيننا حديثاً بذيئاً الى  
 أبعد حدود البذاءة ، محتفظين بمظهر هادىء كل الهدوء ، كأننا لا نراها  
 البتة • نسمى الأشياء بأسمائها ، جادين جدا لا يعكره معكر ، كأن الأمر  
 طبيعى الى أقصى درجة ؛ ومن أجل أن نأتى على أشجع الحفارات والدناعات  
 ندخل فى تفاصيل لا يستطيع أقدر خيال فاسق أن يتخيلها ( وكنت قد  
 تعلمت هذه التفاصيل كلها فى المدارس طبعا ، حتى قبل الليسيه ، ولكننى  
 تعلمتها قولاً لا فعلاً ) • فكانت المرأة تخاف ، وتغذ الخطى ، ولكننا تغذ الخطى  
 مثلها ونستمر فى الحديث موعلين فيه مزيداً من الايغال • ولم يكن فى  
 وسع ضحيتنا أن تفعل شيئاً بطبيعة الحال ، ولا يمكنها حتى أن تصرخ ،  
 ولا شهود علينا ، ثم انها لو شكتنا لكان ذلك منها امراً مستهجناً غريباً •  
 سلخنا فى هذه التسلية ثمانية أيام • ولست أفهم كيف أمكننى أن  
 أستطيعها • وما كنت أستطيعها فى الواقع •• وانما حدث هذا ••  
 هكذا ! •• بدا لى الأمر فى البداية طريفاً خارجاً على المألوف وعلى  
 المواضع المقررة المقبولة • وكنت عدا ذلك لا أطيق النساء • وقد  
 أسررت فى ذات مرة الى الطالب أن جان جاك روسو ، فى كتابه  
 « الاعترافات » ، قد روى أنه فى شبابه كان يحب أن يكشف عوراته  
 عارية كل العرى ويلبث على هذا الوضع الى أن تمر نساءً فتراها • فلم  
 يجينى الطالب الا بأصواته « تور - لور - لو » • فلاحظت أنه جاهل  
 جهلاً مطبقاً رهيباً ، وأنه لا يهتم بشيء ذى بال • ولم أكتشف عنده فكرة  
 واحدة من تلك الفكر الأصيلة التى كنت أتوقع ان أجدها عنده • لم أقع  
 لديه على أصالة بل على تكرر رتيب مرهق • فاصبح تعلقى به يقل • ثم

انتهى كل شيء على نحو لم يكن في الحسبان : ففي ليلة تكاثفت فيها  
الظلمات لاصقنا فتاة في ريعان الصبا كانت تسير في الشارع بسرعة  
وجلة • لعل عمرها ستة عشر عاماً أو يقل • ثيابها نظيفة جدا على بساطة •  
أغلب الظن أنها تعيش من عملها ، وربما كانت في تلك الساعة عائدة  
الى البيت حيث تنتظرها أم عجوز هي أرملة فقيرة مثقلة بأعباء أسرة •  
ولكن لا داعي الى الانقياد للعواطف • ظلت الفتاة تسمع حديثنا بعض  
الوقت ، ثم غدت الخطي ، ثم مالت برأسها وغطت وجهها بحجابها خائفة  
مرتعشة • ثم اذا بها تتوقف على حين فجأة ، فتكشف عن وجهها الذي  
كان حلواً اذا صدقت ذاكرتي ، لكنه كان نحيلاً هزيلاً ، وصرخت  
تقول لنا وقد قدحت عيناها شرراً :

- حقيران !

ولعلها كانت تهم أن تبكى ، ولكن حدث شيء آخر • فهامى ذى  
ترفع يدها الصغيرة الهزيلة مهتاجة ، وتهوى على وجه الطالب بصفحة  
سمع صوتها ، ولعلها لا تضارعها في احكامها صفحة ! فقذفها الطالب  
بشتيمة وهم أن يهجم عليها ، لكننى أمسكته فاستطاعت الفتاة أن تهرب !  
فلما صرنا وحيدين تشاجرنا ، ونددت به مخرجاً كل ما كان قد تراكم  
فى نفسى أثناء ذلك الوقت ، وقلت له انه ليس الا امرأً عاجزاً تافهاً ، وانه  
لم تساور ذهنه فى يوم من الأيام فكرة • فأجابنى بشتائم ••• ( وكنت  
قد ذكرت له مرة اننى ابن زنا ) ، ثم افترقنا وقد بصق كل منا احتقاراً ،  
ولم أره بعد ذلك قط • وقد شعرت فى تلك الليلة بغضب شديد • وكان  
غضبى فى الغد أقل • أما فى غداة غد فكنت قد نسيت كل شيء • وبعد  
ذلك كنت أتذكر تلك الفتاة من حين الى حين ، ولكننى أتذكرها  
مصادفةً ، وأتذكرها عرضاً • حتى اذا وصلت الى بطرسبرج بعد خمسة  
عشر يوماً تذكرت المشهد على حين بغتة • تذكرته فسرعان ما استولى  
على شعور بالعار بلغ من الشدة أن الدموع سالت على خدى فعلاً •

وظللت أعانى عذاباً شديداً طوال المساء ، وطوال الليل ، ومازلت أعانى شيئاً من هذا العذاب الى الآن . ولقد عجزت فى أول الأمر أن أفهم كيف أمكنتى أن أسقط الى ذلك الدرك الأسفل ، وأن أنسى الحادث خاصةً ، وأن لا أحمر منه خجلاً ، وأن لا تلتهمنى الندامة التهاماً . والآن فقط انما أدرك حقيقة الأمر . لقد كان الذنب ذنب « الفكرة » . ان النتيجة التى أخلص اليها هى أنه متى استقر فى ذهن المرء شىء ثابت ، دائم ، مستمر ، قوى ، يملأ عليه نفسه ، فان هذا المرء ينفصل فى الوقت ذاته عن العالم معتصماً بالعزلة ، وكل ما يحدث لا يزيد على أن ينزلق بعدئذ على صفحة نفسه انزلاقاً فلا يحدث فيها أثراً . حتى ادراكاته الحسية قد تصبح غير صحيحة . وهو عدا ذلك ، وخاصةً ، لا يعدم أن يجد لنفسه عذراً فى كل وقت . لشد ما عذبت أمتى فى ذلك الأوان ! ما أكثر ما كنت أهجر أختى هجراً مخجلاً ! « ولكن لا ! ان لى « فكرتى » ، وكل ما عداها لا قيمة له ! » ذلك ما كنت أقوله لى نفسى . وكان يحدث أن 'أهان ، بل أن أهان بقسوة : فكنت أمضى لا ألوى على نبيء ، قائلاً لى نفسى بعد ذلك : « هه ! ان لى « فكرتى » وهم لا يعرفون عنها شيئاً » . كانت « الفكرة » تعزىنى عن العار وعن التفاهة . ولكن جميع دناءاتى كانت كأنها تحتوى تحت « الفكرة » أيضاً . كانت « الفكرة » تسهل على كل شىء ، ولكنها كانت تحجب عنى كل شىء كذلك . على أن فهم الظروف والأشياء فهماً يبلغ هذا المبلغ من الاضطراب والابهام لا يمكن الا أن يضر بالفكرة نفسها ، ناهيك عما عدا ذلك .

والآن ، اليكم القصة الثانية :

فى أول نيسان ( أبريل ) من السنة الماضية كانت ماريا ايفانوفنا تختفل بعيدها . وجاء فى المساء عدد من المدعوين ، عدد ليس بالكبير . وهذه آجرافينا تدخل على حين فجأة لاهثة لاهتاً شديداً ، فتعلن أن فى الدهليز أمام المطبخ وليداً متروكاً يصيح . . وأنها لا تدري ماذا تفعل .

فأهاج هذا النبا جميع الحضور ، وهرعنا الى هناك فرأينا قفةً من قش ، ورأينا في القفة بنتاً عمرها ثلاثة أسابيع أو أربعة كانت تبكى معولة . فتناولت القفة وحملتها الى المطبخ ، ورأيت فيها ورقة مطوية نصفين قد كتب عليها ما يلي : « أيها المحسنون الأعزاء ، أنعموا بعطفكم الجميل على هذه البنت التي عمدت باسم آرينا . انا ، نحن وهى ، سوف نظل نرفع دموعنا الى السماء أبد الأبدين ، داعين لكم بالخير . و تتمنى لكم عيداً سعيداً : أناس لا تعرفونهم » . وعندئذ انما أحزنتى نقولا سيمينوفتش أشد الحزن ، وكنت أحترمه كثيراً . فلقد توجهت وجهه ، وقرر ارسال الطفلة الى « الاسعاف العام » فوراً . فتألمت أشد الألم . لقد كانت الأسرة تعيش عيشة ضيقة . ولكن لم يكن لها أولاد ، وكان نقولا سيمينوفتش يغبط نفسه على هذا دائماً . أخرجت الصغيرة آرينا من القفة بحذر ، وأنهضتها من كنفها . ففاحت منها رائحة حامضة قوية كالتي تفوح من مواليد أهملوا مدةً طويلة . وبعد أن ناقشت نقولا سيمينوفتش برهة ، أعلنت له على حين فجأة أنني سوف أتكفل بالطفلة . فأخذ يعترض اعتراضات كثيرة ، بل أخذ يعترض اعتراضات فيها شيء من القسوة ، رغم رقة طبعه ، ثم ختم كلامه بمزاحة ، ولكنه أصر على رأيه بضرورة ارسال الطفلة الى « الاسعاف العام » . ومع ذلك جرى كل شيء كما أردت . كان يسكن فى العمارة نفسها ، ولكن فى جناح آخر ، نجار فقير جداً ، مسنٌ وسكّير . وكانت زوجته ، وهى امرأة شابة قوية ، قد فقدت منذ مدة قصيرة ولداً لها رضيعاً ، وكان الولد وحيدها الذى لم تتجب غيره بعد ثمانى سنين من زواج عقيم ، وكان الولد بنتاً كذلك ، بل كان من المصادفات الغريبة ومن حسن الحظ أن اسم البنت المتوفاة كان آرينا أيضاً . أقول من حسن الحظ ، لأن هذه المرأة وقد عرفت بالنبا بينما كنا نتناقش فى المطبخ ، أسرعت تجيء الينا لترى ، فما ان عرفت أن الصغيرة اسمها آرينا حتى رق لها قلبها . وكان ثدياها لا يزالان يدران ،

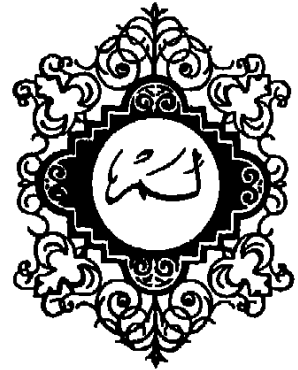


فكشفت. عن صدرها وأخذت ترضع الطفلة • فبحثوت عند قدميها وابتهلت إليها أن تأخذ البنت متعهداً بأن أدفع نفقات معيشتها كل شهر • فتساءلت هل يسمح لها زوجها بذلك • ولكنها أخذتها لتؤويها هذه الليلة على كل حال • حتى إذا كان الصبح سمح زوجها بحضانة الطفلة على أن يتقاضى ثمانية روبلات في الشهر • فقصدته على الفور نفقات شهر سلفاً • فمضى يشرب بها خمراً • وقد رضى نيقولا سيمينوفتش الذي كان لا يزال يتسم ابتسامة غريبة ، أن يكفلني لدى الرجل متعهداً بأن لا أتخلف عن دفع المبلغ - وهو ثمانية روبلات - كل شهر • حتى لقد رفض أن أرهن لديه الستين روبلاً التي كانت معي • وكان يعرف على كل حال أن معي مالاً وكان يثق بي • فكان من شأن هذه البادرة اللطيفة منه أن محت ما حدث بيننا من فتور لحظة • ولم تقل ماريا ايفانوفنا شيئاً ، لكنها استغربت مني أن ارضى تحمّل هذا الهم • واني لأشكر لهما كثيراً ما أظهراه كلاهما من رقة الذوق إذ لم يسمح أحد منهما لنفسه بأية مزحة في حقى ، حتى لقد نظرا الى الأمر نظرة فيها كل ما يليق ويحسن من جد • وأصبحت أتب الى عند داريا روديفونوفنا كل يوم ثلاث مرات ؛ وبعد أسبوع نفتحها ثلاثة روبلات زيادة ، على أن يكون هذا المبلغ لها هي ، بغير علم زوجها • وبثلاثة روبلات أخرى اشترت للطفلة غطاء وأقمطة • ولكن لم تمض عشرة أيام حتى مرضت الصغيرة آرينا • فاستدعيت لها الطبيب فوراً ، فوصف لها لا أدري أى دواء ، وقضينا الليلة كلها نعذب الطفلة المسكينة بهذا الدواء اللعين • وجاء الطبيب فى الغد فقال ان الأوان قد فات ، فلما أخذت أتضرع إليه ، وربما أخذت ألومه أيضاً قال مترفعاً : « أنا لست الرب » • كان اللسان الصغير والشفقان الصغيرتان والهم كله قد غطاها طفح أبيض دقيق • وما أن جاء المساء حتى ماتت آرينا وهي تحدق الى بعينيها الواسعتين السوداوين كأنما كانت تدرك وهي فى تلك السن • لا أدري لماذا لم يخطر ببالى أن التقط للميتة

الصغيرة صورة فوتوغرافية • على كل حال • هل تصدقون أنني ما بكيت في ذلك المساء بكاءً ، وإنما طفقت أعول عويلاً ، وذلك أمر لم أسمع به لنفسي من قبل في يوم من الأيام قط ! حتى لقد اضطرت ماريا ايفانوفنا أن تعزيني • ومرةً أخرى لم يشتمل موقفها ولا موقف زوجها على أي شيء من سخرية • وقد تولى التجار بنفسه صنع التابوت الصغير • وزينته ماريا ايفانوفنا ببعض الداتيل ، ووضعت فيه وسادة صغيرة لطيفة • واشترت أنا أزهاراً فشرتها على الطفلة • وهكذا أخذت زهرتي الصغيرة المسكينة ، زهرة الحقول ، التي لا أستطيع الى اليوم أن أنساها ، أصدقتم هذا أم لم تصدقوه • ولكن هذا الحادث الذي يكاد يكون مفاجئاً قد حملني بعد مدة قصيرة على التفكير ، بل حملني على التفكير جاداً كل الجد • صحيح أن آرينا لم تكلفني مالاً كثيراً : فنفقات التابوت ، والدفن ، والطبيب ، والأزهار ، وأجر داريا روديفونوفنا ، لم تزيد على ثلاثين روبلاً • وحين سافرت الى بطرسبرج استعدت هذا المبلغ توفيراً من الأربعين روبلاً التي أرسلها الى فرسيلوف للرحلة ، وربحاً من بيع عدد من الأشياء الصغيرة ، فبقي « رأسمالي » سليماً كأنه لم يمس • ولكنني قلت لنفسي : « اذا انحرفت انحرافات أخرى من هذا النوع ، فلن أمضي الى بعيد » • ان حكاية الطالب قد برهنت على أن « الفكرة » يمكن أن تشوش الادراكات الحسية وأن تذهل المرء عن النشاط الواقعي • أما حكاية آرينا فانها تبرهن على نقيض ذلك : تبرهن على أنه ما من « فكرة » تستطيع أن تبلغ من فتن المرء ( من فتني أنا على الأقل ) حدّاً منعه من التوقف فجأةً أمام حادث محزن ، والتضحية بكل ما قام به خلال سنين من عمل في سبيل « الفكرة » • ان النتيجةين كليهما صحيحة •

## الفصل السادس

١



تتحقق آمالي تحققاً كاملاً • كان فرسيلوف غائباً • ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت عند أمي ، وهي رغم كل شيء غريبة • فسرعان ما تبدد نصف ما كان يملأ نفسي من استعدادات حسنة كريمة • غريب أمرى : ما أسرعني الى التغير والتبدل في مثل هذه الظروف : تكفي ذرة غبار أو شعرة حتى يزول صفاء مزاجي ويحل محله الكدر • ومن سوء الحظ أن مشاعري السيئة أقل سرعة الى التبدد ، رغم أنني لست بالحقود • حين دخلت لاحظت أن أمي كانت قد أسرعت تقطع الحديث الذي يجري بينها وبين تاتيانا بافلوفنا والذي كان واضحاً أنه حديث حام • وكانت أختي قد رجعت من عملها قبل وصولي بدقة واحدة ، ولما تمد الى الخروج من غرفتها بعد •

ان الشقة تضم ثلاث حجرات : الحجرة التي يلثم فيها شمل الجميع كما جرت العادة ؟ والحجرة الوسطى أو الصالون وهي حجرة واسعة سعة كافية وتكاد تكون لائقة ، ففيها دواوين حمراء طرية - لكنها مهترئة بعض الاهتراء - ( كان فرسيلوف لا يطبق الأغذية الواقية ) ، وفيها بضع سجادات وعدة طاولات واسكملات لا فائدة منها ؛ ثم غرفة

فرسيلوف التي تقع على اليمين ، وهي غرفة صغيرة ضيقة ذات نافذة واحدة ، فيها مكتب حقير أقيت عليه عدة كتب مهجورة وأوراق منسية ، وأمام الطاولة مقعد رخو لا يقل عنها حقارة قد نفذ نابضه المكسور فانتصب في الهواء ، وذلك ما كان يحمل فرسيلوف على التشكي والأنين والتجديف . وفي تلك الغرفة نفسها انما جعل له سرير على ديوان رخو مهترىء أيضاً . ولقد كان فرسيلوف يكره هذا المكتب ، وأظن أنه كان لا يستعمله أبداً ، وانما يؤثر أن يبقى في الصالون ساعات كاملةً بغير عمل . وعلى يسار الصالون توجد غرفة صغيرة مماثلة تماماً كانت تام فيها أمي وأختي . وسبيل الوصول الى الصالون دهليز يؤدي الى المطبخ الذي تسكن فيه الطباخة لوكيريا . فإذا كانت لوكيريا تعمل انتشرت رائحة فضلات طعام في الشقة كلها . فكان يتفق لفرسيلوف في بعض اللحظات أن يلعن حظه وحياته كلها بصوت عال بسبب روائح المطبخ هذه ، وكنت أنا من هذه الناحية على الأقل أوافقه كل الموافقة . انني أكره هذه الروائح أنا أيضاً ، رغم أنها كانت لا تصل الى حينذاك ، فلقد كنت أسكن في أعلى ، في حجرة تحت السقف أصعد اليها على سلم شديد الصرير ، وعر وعورة فظيعة . وكان من طرائف هذه الحجرة التي أسكنها أن لها كوة صغيرة بيضوية الشكل ، وسقفاً واطناً الى حد رهيب ، وأن فيها ديواناً مغطى بقماش مشمع كانت لوكيريا تغطيه في المساء بشرشف وتضع عليه مخدة . أما باقي الأثاث فهو شيان : طاولة من ألواح خشبية لا أكثر ، وكرسی خاسف من خيزران .

الحق أن الشقة كانت لا تزال تضم رغم ذلك بقايا شيء من رخاء زال الآن : ففي الصالون مثلاً يوجد مصباح جميل من الخزف ، وقد علقت بالحائط صورة رائعة لـ « مادونا » درسدن ؛ وأمام الصورة ، على الحائط الآخر ، صورة فوتوغرافية كبيرة جداً ، تمثل الأبواب البرونزية لكاتدرائية فلورنسة . وفي هذه الغرفة نفسها علقت في ركن من

الأركان خزانة أرفف عليها أيقونات قديمة تملكها الأسرة : فاحدى هذه الأيقونات ( وهى أيقونة جميع القديسين ) كانت مكسوة بفضة مذهبة - وهذه هى الأيقونة التى كان يراد رهنها - والأيقونة الثانية ( أيقونة العذراء ) كانت مكسوة بمخمل مطرز بلألىء • وأمام هذه الصور كان يوجد مصباح يشعل فى عشيات الأعياد • ولقد كان واضحاً أن فرسيلوف لا يحفل بهذه الأيقونات من حيث دلالتها : فهو يكتفى بتقطيب حاجبيه محاولاً ضبط نفسه حين يرى نور المصباح تعكسه الزخرفات المذهبة ، متشكياً فى رفق من أن ذلك يضر بنظره ، لكنه كان لا يمنع أمى من اشعال المصباح •

ولقد كنت أدخل فى العادة متجههم الوجه ، موجهاً بصرى الى ركن من الأركان ، حتى دون أن أحيى • وكنت أعود الى البيت دائماً قبل هذه الساعة وكانوا يأتوننى بطعامى الى فوق • أما هذه المرة فأننى حين دخلت قلت لأمى فجأة : « يومك سعيد يا ماما ! » ، وذلك ما لم يكن يحدث أبداً من قبل • ولكننى بنوع من الحجل الزائف لم أستطع حتى فى هذه المرة أن أنظر اليها ، وجلست فى الزاوية المقابلة من الغرفة • كنت متعباً جداً ، ولكننى كنت لا أفكر فى ذلك •

قالت تاتيانا بافلوفنا هامسة :  
 - هذا القليل الأدب لا يزال يدخل عليك دخولاً وقحاً كما كان يفعل من قبل •

وكانت تاتيانا بافلوفنا تبيح لنفسها أن تقول كلمات جارحة من هذا القبيل ، حتى لقد أصبح ذلك نوعاً من العادة بينى وبينها •

أجابت أمى تقول وكأنها قد طاش صوابها من تحيتى لها :  
 - يومك سعيد ! •••  
 وأضافت بما يشبه اضطراب الحجل :  
 -

• العشاء مهياً منذ مدة طويلة • آمل أن لا يكون الحساء قد برد •  
• أما الكستليات فسأمر بها فوراً •

وهمت أن تنهض مسرعة لتذهب الى المطبخ • فشعرت • ربما لأول  
مرة منذ شهر • بخجل مفاجيء من رؤيتها تسارع الى خدمتي هذه  
المسارعة كلها ، على حين أنني كنت الى ذلك اليوم أطلبها بذلك بنفسى  
• مطالبة •

قلت لها :

• أشكرك يا ماما ، لقد تعشيت • فلا تزعجى نفسك • وسأبقى  
• هنا •

• آ • • طبعاً • • ابقى !

• ولا تقلقى يا ماما ، فلن أقول لآندره بتروفتش بعد الآن كلمات  
• فظة •

• كذلك أعلنت لها فجأة •

فهمت تاتيانا بافلوفنا تقول :

• الله الله • • • بالنبل والشهامة ! عزيزتى صونيا ، هل يعقل أن  
تظلى تخاطبينه بصيغة الجمع ؟ من هو حتى يستحق هذا التكريم • • • من  
أمه ؟ ثم ما هذا ؟ ما لى أراك مضطربة أمامه ؟ هذا مخجل !

قلت :

• سيسرنى أنا نفسى أن تخاطبينى بصيغة المفرد يا ماما !

فأسرعت أسمى تقول :

• آ • • طيب • • اتفقنا • • ذلك أن • ولكن لافى جميع المرات •  
• ابتداءً من اليوم ، اتفقنا •

واحمرت احمراراً شديداً • ان وجهها فى بعض الأحيان

فتان •• وجه طيب •• لكنه ليس ساذجاً البتة •• وجه شاحب قليلاً •  
هو وجه انسان مصاب بفقر الدم • خداهما نحيلتان جداً ، بل خاسفتان ؛  
وقد أخذت تتراكم على وجهها غضون كثيرة ، ولكن الغضون لم تظهر  
حول عينيها بعد • وهاتان العينان ، الواسعتان المنفتحتان ، تلتمعان دائماً ببريق  
ناعم هادىء جذبنى منذ أول يوم • والشئ الذى كنت أحبه أيضاً هو أن  
وجهها ليس فيه شئ من حزن أو مذلة • بالعكس : كان تعبير وجهها يمكن  
أن يعد جذلاً لولا أنه متخوف غالباً بدون أى سبب على الاطلاق فى بعض  
الأحيان • انها ترتاع حتى لقد ترتجف أحياناً لآمر تافه كل التفاهة ،  
وإذا أصغت الى حديث جديد كانت تصغى مذعورة ، الى أن تقتنع اقتناعاً  
تاماً بأن الأمور لا تزال تجرى مجرى حسناً كالعادة • وكانت جملة « كل  
شئ •• يجرى مجرى حسناً » ترادف فى ذهنها أن « كل شئ لا يزال يجرى  
كما كان » • كل ما يهمها هو أن لا يحدث تغير ، كل ما يهمها هو أن  
لا يقع جديد ، وان يكن هذا الجديد سعيداً ! ••• فى وسع المرء أن يتصور  
أنها قد خوفت فى طفولتها تخويماً رهيباً • وعدا العينين كنت أحب فيها  
بيضوية وجهها أيضاً ، حتى لأظن أنها لو كانت وجنتها أقل عرضاً بقليل ،  
لكان يمكن أن تعد جميلة ، لا فى شبابها فقط ، بل اليوم أيضاً • ان  
عمرها لا يزيد على تسعة وثلاثين عاماً ، ولكن شعرها الكستناوى قد غالطه  
بياض كثير منذ الآن •

نظرت الى تاتيانا بافلوفنا باستياء قاطع وقالت لأمى :

— أترتعدين هذا الارتعاد أمام ولد تافه من هذا النوع ؟ انك مضحكة

يا صوفيا ! لسوف تثيرين غضبى وحقنى !

— آه ••• تاتيانا بافلوفنا ، ماذا تقسين عليه هذه القسوة ؟ ولكنك

تمزحين ، أليس كذلك ؟

أضافت أمى هذا السؤال الأخير اذ لاحظت فى وجه تاتيانا بافلوفنا

نوعاً من التبسم • صحيح أن تقريمات تاتيانا لا يمكن أن يعبا بها كثيراً ،

ولكنها كانت تبسم هذه المرة لأمي وحدها ( ان كانت قد تبسمت ) ، لأنها كانت تحب طيبة أمي جداً شديداً ، ولأنها لاحظت حتما ما بعثه خضوعي في نفس أمي من سعادة كبيرة في تلك اللحظة .

قلت مخاطباً تاتيانا بأفلوفنا :

- انك تهجمين على الناس هجوما فيه شيء من الخشونة ، وكان هجوميك علىّ أنا اليوم في غير محله يا تاتيانا بأفلوفنا . هجمت على وأنا أقول حين دخولي : « يومك سعيد يا ماما ! » . حظى سيء حقاً .

فسرعان ما انفجرت تقول :

- اسمعوا هذا الكلام ! انه يعد ذلك مأثرة منه ! هل يجب علينا اذن أن نركع أمامك لأنك كنت مهذباً مرة في حياتك ؟ بل هل كنت مهذباً بالفعل ؟ لماذا تنظر الى ركن الغرفة حين تدخل ؟ أتظن أنني لا أعرف مدى ما تشعر به من غيظ تجاهها ؟ وكان في وسعك أن تحينني أنا أيضاً . لقد كنت أتولى تقيطك ، وأنا عرابتك !

ولم أتنازل فأرد عليها طبعاً . ودخلت أختي في تلك اللحظة ، فقلت لها فوراً :

- رأيت اليوم فاسين يا ليزا . وقد سألتني عنك ؟ هل تعرفينه ؟ فأجابتنى ببساطة كبيرة وهي تجلس الى جانبي وتلقى علىّ نظرة لطيفة :

- نعم ، منذ لوغا ، في السنة الماضية .

لا أدري لماذا كان يبدو لي أنها ستنفجر حين أكلمها عن فاسين .

ان أختي شقراء ، شقراء شقرة زاهية . شعرها ليس كشعر أبي ولا كشعر أمي . ولكن عينيها تكادان تكونان عيني أمي ، وكذلك وجهها



البيضوى • أنفها مستقيم صغير متسق • وهناك خاصة أخرى : ان فى وجهها بقع حمرة ، وذلك ما لا تجده فى وجه أمى • من فرسيلوف ليس فيها شىء ، ربما باستثناء القامة المشوقة الحلوة ، وشىء من فتنة فى المشية لا أدرى ما هى ! أما أنا فليس بينى وبينها أى شبه : بل نحن نقيضان •

أضافت ليزا تقول :

- عرفتهم ثلاثة أشهر .•

- هل عن فاسين تقولين عرفتهم ؟ يجب أن تقولى عرفته لا عرفتهم؟ اغفرى لى أننى أصحح لك خطأك ، ولكن يؤلمنى أن يكون أمر تعليمك قد أهمل كل هذا الإهمال •

فاتفجرت تاتيانا بافلوفنا قائلة :

- عيب عليك أن تبدى هذه الملاحظة بحضور أمك • ثم ان هذا غير صحيح • ان ليزا لم يهمل أمر تعليمها أبداً •

فقلت بلهجة جازمة :

- أنا ما عنيت بهذا أمى • اعلمى يا ماما أن رأى فى ليزا كرايى فيك • لقد جعلت منها رائعة من روائح الطيبة والنبيل ، فهى تذكر حتما بما كنت عليه أنت فى الماضى ، وبما لا تزالين عليه ، وبما سبتظلين عليه الى الأبد .••• وانما أنا عنيت بكلامى ذلك الطلاء الخارجى الاجتماعى الذى أعرف أنه تافه ولكنه ضرورى •

وتابمت كلامى مخاطباً أختى :

- اننى ليسوءنى أن يسمعك فرسيلوف قائلة عن فاسين « هم » بدلاً من « هو » ، ثم لا يصحح لك خطأك من شدة تعاليه علينا وقلة أكرائه بنا • ذلك هو ما يحقنى •

فانبرت تاتيانا بافلوفنا تقول وهى ترشقنى بنظرة صاعقة :

- انظروا الى هذا الدب يتصدى لتعليم غيره الآداب ! حذار ياسيد  
 أن تقول بعد اليوم « فرسيلوف » بحضورى أنا • فلن أطبق ذلك !  
 - ماما ، قبضت اليوم أجرى خمسين روبلاً • فيخذيها ، أرجوك •  
 هى ذى !

قلت هذا لأمى وتقدمت منها ماداً إليها المال ، فسرعان ما ظهر عليها  
 الارتياح ، ثم قالت وكأنها تخشى حتى أن تمسه بيدها :  
 - ولكن ... ولكنى لا أدرى كيف آخذ هذا المال !  
 فلم أفهم • وقلت :

- ولكن يا ماما اذا كنتما تعدانى ابناً وأخاً ، فعندئذ ...  
 - آه ... اننى مذنبه فى حقك يا آر كادى • هناك أشياء يجب أن  
 أعترف لك بها ، ولكننى شديدة الخوف منك ...  
 قالت ذلك وهى تبسم ابتسامة خجلى ضارعة • فلم أفهم أيضاً  
 وقاطعتها قائلاً :

- بالمناسبة ، هل تعلمين يا أمى أن القضاء قد فصل اليوم فى قضية  
 أندره بتروفتش وآل سو كولسكى ؟  
 فهتفت من الذعر تقول وهى تعقد ذراعيها على صدرها ، وتلك حركة  
 مألوفة فيها :

- نعم أعلم •

وارتعشت تاتيانا بأفلوفنا ارتعاشاً شديداً ، وقالت تسأل :  
 - اليوم ؟ مستحيل • لو أن الحكم قد صدر لأعلمنى بذلك •  
 ثم أضافت وهى تلتفت الى أمى :  
 - هل أبلغك أنت ؟

- لا ، لم يكلمنى اليوم • ولكننى خائفة خوفاً شديداً منذ أسبوع كامل ••• ألا فليخسر القضية على شرط أن تتخلص من هذا الأمر ويجرى كل شيء كما كان يجرى •

فهتفت أسأل أمى :

- اذن لم يبلغك أنت أيضاً ؟ يا له من رجل عجيب ! هذا مثال على شدة تعاليه وقلة اكترائه • ألم أقل لكم ذلك منذ قليل ؟

وانبرت تاتيانا بافلوفنا تسأل :

- ولكن ماذا كان الحكم ؟ ماذا كان الحكم ؟ هلا قلت أخيراً !

- ولكن ها هو ذا بنفسه قد وصل ، فلعله يطلعنا على ما حدث •

كذلك أعلنتُ اذ سمعت وقع خطاه فى الدهليز ، وأسرعت أجلس بقرب ليزا من جديد ، فقالت لى ليزا هامسة :

- أخى ، ناشدتك الله •• ارحم ماما ••• اصبر على آندره

بتروفتش •

- سأصبر • على هذه النية انما عدت •

وشددت على يدها • فرشقتى ليزا بنظرة ليس فيها اطمئنان • وكانت

على حق •

دخل فرسيلوف راضياً عن نفسه مسروراً بها ، حتى انه لم يجد أن من الضروري أن يخفى ذلك • وقد اعتاد في الآونة الأخيرة على كل حال أن يكشف عن نفسه وأن يظهر على حقيقته بدون أى كلفة أو تحرج لا في لحظات اعتكار مزاجه فحسب ، بل في نوبات مرحة أيضاً ، وذلك أمر يتهيبه كل انسان أكثر ما يتهيب • وكان يعلم مع ذلك حق العلم أننا نستطيع في مثل هذه الحالات أن نفهم كل شيء حتى أدق التفاصيل • لقد أصبح يهمل هندامه اهمالاً شديداً في هذه السنة الأخيرة ، كما لاحظت ذلك تاتيانا بافلوفنا : صحيح أنه يرتدى دائماً ملابس لائقة، ولكنها ملابس عتيقة بغير أناقة • أصبح مستعداً لأن يلبس قميصاً واحداً مدة عشرة أيام ، وكان هذا يحزن أمي حزناً شديداً ، ولكنه يُعدُّ في المنزل تضحية منه وبطولة ، وكانت تلك الجمهرة كلها من النساء المخلصات يرين فيه مائزة ومكرمة • ان قبعاته رخوة سوداء عريضة الحافات دائماً • وكان اذا خلع قبعته نزلت على جبينه خصلة من شعره الذي كان شديد الكثافة والغزارة وانما يخالطه بياض كثير • وكنت أنا أحب أن أنظر الى شعره حين يخلع قبعته •

- يومكم سعيد • أرى الشمل ملتئماً فليس أحد غائباً • وحتى هذا أراد معكم • لقد سمعت صوته وأنا في المدخل • لا شك أنه كان يقول فيّ سوءاً ، أليس كذلك ؟

كان اذا مزح في حقى يدل بذلك على أنه رائق المزاج • ولم أجب طبعاً • وعادت لوكيريا وهي تحمل كيساً ممتلئاً بمشروبات ووضعت على الطاولة •

- انتصرت يا تاتيانا بافلوفنا ! ربحت الدعوى ولن يجرؤ الأمراء  
سوكولاسكى أن يلجئوا الى محكمة النقض والابرام . أصبحت القضية فى  
الجيب ! ولقد وجدت من يقرضنى ألف روبل حالاً . صوفيا ، اتركى  
شغلك هذا ، لا تتعبى عينيك . ليزا ، أنت عائدة من العمل ؟

فأجابت ليزا وقد لاح فى وجهها الحنان :

- نعم يا بابا .

لقد كانت ليزا تسميه بابا . أما أنا فلم أستطع أن أذعن لهذا فى يوم  
من الأيام .

- أنت تعبانة ؟

- نعم .

- اتركى هذا العمل ، لا تذهبى اليه غداً ، اهجره هجرأ تاماً .

- ولكن ترك العمل سيضايقنى مضايقة أكبر .

- أرجوك . . . اننى أكره النساء اللواتى يعملن يا تاتيانا بافلوفنا .

- وكيف تعيش بغير عمل ؟ امرأة لا تعمل ! . . .

- أعرف ، أعرف . . . هذا الكلام كله حسن ، وأنا موافق عليه

سلفاً . ولكن ما أعنيه انما ينصرف خاصة الى أشغال الحياطة والتطريز

وما الى ذلك مما تقوم به السيدات . . . وهذا يرجع الى احساس من

أحاسيس الطفولة هو من ألمها فى نفسى ، بل قولوا هو من أكثرها ايغالا

فى الخطأ . ففى ذكرياتى الغامضة عن العهد الذى كانت سنى فيه خمسة

أعوام أو ستة ما أزال أرى فى أكثر الأحيان ، بشىء من الاشمئزاز طبعاً ،

مجمعاً من النساء أشبه بمجمع كرادكة قد جلسن الى مائدة مستديرة عابسات

الوجه متجهات الهيئة ، وأرى مقصات وأقمشة و « بترونات » وصور

موضة ، وأرى هذه النساء كلها تناقش وتجادل ، هازةً رعوسها بوقار

وبطء وهى تقيس وتحسب وتتهيا للقص . ان جميع تلك الوجوه الأنيسة

التي تجنى كثيرا قد أصبحت لا أستطيع الاقتراب منها على حين فجأة • واذا ارتكبت أى عمل من أعمال العفرتة التي يقوم بها الأطفال ، طردت على القور • حتى أمى المسكينة تمسكنى من يدي وتكف عن الاستجابة لصراخي وتبرمى لكنها كلها أعين وآذان أمام الشغل الذي هي منصرفه اليه ، فكأنها تتأمل طائراً من الجنة • فتلك القسوة في الوجوه الذكية ، وتلك الرصانة في الهيئة قبل القصد ، لا تزال تؤلنى الى الآن حين أفكر فيها • تاتيانا بافلوفنا ، انك تحيين الحياطة حباً شديداً ! أما أنا فأنتى أوثر للمرأة أن لا تعمل شيئاً البتة ، مهما يكن هذا ارسطراطياً • لا يذهبن بك الظن الى أنتى أعنيك أنت يا صوفيا ••• ولكن علام العمل ؟ ليست المرأة فى حاجة الى العمل من أجل أن تكون قوة كبرى • ثم انك يا صوفيا تعرفين هذا أيضاً • ما رأيك يا آركادى ماكاروفتش ؟ لا شك فى أنك ستعرض ، أليس كذلك ؟

أجبت قائلاً :

— لا ، أبداً • هذا تعبير رائع : المرأة قوة كبرى • ولكننى لا أرى لماذا تربط بين هذا الأمر وبين الأشنال التي تقوم بها السيدات ! ثم انك تعرف بنفسك أنه يستحيل على المرء أن يعيش بدون عمل اذا كان لا يملك مالاً •

— كفى الآن !

قل هذا والتفت الى أمى التي كانت مشرقة الوجه أيما اشراق ، على حين أنها ارتعدت حين اتجه الى بالكلام •

واصل كلامه فقال :

— فى الآونة الأولى على الأقل ، لا أريد أن أرى شغلاً هنا ! لنفسى انما أطلب منكم هذا • أما أنت يا آركادى ، فلا بد أن تكون اشتراكياً بعض الشيء ، من حيث أنك شاب من هذا العصر • ولكن هل تصدق

يا صديقى أن الذين يحبون الفراغ أكثر من سائر الناس انما هم أبناء الشعب هؤلاء ، أبناء هذا الشعب الذى لا يكف عن العمل •

– لعلهم يحبون الراحة ، لا الفراغ

– بل الفراغ ، الكسل المطلق ، ذلك هو مثلهم الأعلى ! لقد عرفت واحداً من هؤلاء الذين لا يكفون عن العمل ، ولم يكن من أبناء الشعب على كل حال ، وكان رجلاً مثقفاً يحسن التفكير • فصدقنى اذا قلت لك انه كان يحلم بالفراغ الكامل والبطالة التامة كل يوم تقريباً ، ويجد فى هذا الحلم لذة عظيمة ومتعة كبيرة • حتى لقد كان يمضى بهذا المشل الأعلى الى تخوم المطلق ان صح التعبير ، الى الاستقلال الذى لا حدود له ، الى الحرية المستمرة فى الانقياد للحلم والتأمل خالياً من كل عمل • وقد لازمه هذا الى اليوم الذى تحطم فيه تحطماً من العمل ، حتى صار يستحيل على أحد أن يقفه ثانية على قدميه ، ومات فى المستشفى • فاستخلصت من ذلك جاداً كل الجد أن فكرة مباحج العمل انما اخترعها أناس عاطلون عن العمل ، أناس فضلاء طبعاً • هذه فكرة من « افكار جنيف » فى نهاية القرن الماضى • آ • • • تاتيانا ايفانوفنا ، لقد قصصت من الجريدة أمس الأول اعلاناً • اليك الاعلان • •

قال ذلك مخاطباً تاتيانا بافلوفنا وأخرج من جيب صديرتة قطعة من

ورق • وتابع كلامه فقال :

– هذا واحد من أولئك « الطلبة » الأبديين الذين يعرفون اللغات القديمة والرياضيات ويعلنون عن استعدادهم للسفر الى الأرياف ، للذهاب الى شونة ، للرحيل الى أى مكان • اسمعوا هذا الكلام : « معلمة تحضر التلاميذ لدخول جميع مؤسسات التعليم ( هل تسمعون ؟ جميع مؤسسات التعليم ) ، وتعطى دروساً فى الحساب » • هو سطر واحد ، لكنه كلاسيكى • انها تحضر لجميع مؤسسات التعليم : يبدو للمرء أن الحساب داخل فى هذا • ولكن لا • انها تذكر الحساب على حدة • ذلك هو الجوع

حقاً ، تلك هي آخر درجة من درجات البؤس . ان هذه الخرافة هي التي تؤثر في نفسى : طبعاً ، هي لم تكن معلمة في يوم من الأيام ، وهي عاجزة عن تعليم أى شيء . ولكن لا سبيل : يجب أن تحمل الى الجريدة آخر روبل تملكه ، وأن تعلن أنها تحضر لجميع مؤسسات التعليم ، وأنها عدا ذلك تعطى دروساً في الحساب . « في العالم كله وفي أماكن أخرى » ( بالايطالية ) .

هتفت تاتيانا بافلوفنا تقول :

– آندره بتروفتش ، يجب أن نساعدنا . أين تقيم ؟

– هوه ! ما أكثرهم !

ودس العنوان ثانية في جيبه . ثم استأنف كلامه فقال :

– في هذه الصرة هدايا لك يا ليزا ، ولك أنت يا تاتيانا بافلوفنا . أنا وصوفيا لا نحب الحلويات . ولك أنت أيضاً يا فتى ! اخترت كل شيء بنفسى من عند ايلسياف و باليه . لقد طالما «متنا جوعاً» ، كما تقول لوكيريا ( ملاحظة : لم يمت أحد من الجوع عندنا في يوم من الأيام ) . ههنا غنبل وسكاكر و تفاح وفطيرة بالفراولة . بل لقد اشتريت خمرة رائعة . واشتريت بندقاً كذلك . غريب بقاء ولعى بالبندق من الطفولة حتى الآن يا تاتيانا بافلوفنا . و ليزا مثلى . هي أيضاً تحب قضم البندق حباً شديداً كسنجاب صغير . ذكريات لذيذة يا تاتيانا بافلوفنا : اننى أرى نفسى في بعض الأحيان طفلاً أتجول في الغابة وأقطف بندقاً . الفصل يوشك أن يكون خريفاً ، ولكن الأيام مضيئة ، والجو بارد أحياناً ، وأوغل في أعماق الغابة ، وأطوف في أبعاد أرجائها ، وأتشم رائحة أوراق الشجر العطرة . اننى أرى في نظرتك شيئاً لطيفاً محبباً يا أركادى ماكاروفتش !

– أنا أيضاً قضيت في الريف أولى سننى طفولتى .



– كيف؟ يخيل الى عكس ذلك...••• يخيل الى أنك عشت بموسكو،  
اللهم الا أن أكون مخطئاً •

فقلت تاتيانا بافلوفنا مؤيدة :

– عند آل أندرونيكوف ، كان يعيش بموسكو ، حين وصلت  
أنت اليها • لكنه قبل ذلك كان عند المرحومة عمته بربارا ستيبانوفنا  
في الريف •

– خذى يا صوفيا ، اليك هذا المال ، أمسكه ! لقد وعدت بخمسة  
آلاف في غضون بضعة أيام •  
– ألم يبق للأمرء أى أمل ؟  
– اطلاقاً يا تاتيانا بافلوفنا •

– لقد أحبيتك دائماً يا أندره بتروفتش ، وأحبيت جميع ذويك ؛  
كنت صديقة الأسرة دائماً • ولكنى مهما أكن غريبة عن الأمرء ومهما  
يكونوا غرباء عنى ، أظل أشفق عليهم • أحلف لك • لا تزعل يا أندره  
بتروفتش !

– لا أتوى أن أقاسمهم يا تاتيانا بافلوفنا •

– أنت تعرف رأيى يا أندره بتروفتش • لقد كان يمكن أن يتنازلوا  
عن الدعوى لو أنك عرضت عليك الاقسام منذ البداية • أما الآن فقد  
فات الأوان طبعاً • وما أقوله أنا انما أبنيه على اعتقادي بأن المتوفى ما كان  
يمكن أن يساهم فى وصيته •

– ما كان يمكن أن يساهم طبعاً ، بل أذهب الى أبعد من ذلك  
فأقول ما كان يمكن الا أن يورثهم كل شيء • ما كان يمكن أن ينسى  
أحداً الا أنا لو أنه طبق القواعد وحرر الوصية كما يجب • ولكن القانون  
معى الآن • انتهى الأمر • فلا أستطيع أن أقاسم ، ولا أريد أن أقاسم يا تاتيانا  
بافلوفنا • لقد بُتَّ فى القضية •

قال هذه الكلمات في غضب وضيق ، وذلك شيء كان يندر أن يسيحه  
 لنفسه • فصمتت تاتيانا بأفلوفنا • وخفضت أُمي عينها على شيء من الحزن:  
 كان فرسيلوف يعلم أنها تؤيد كلام تاتيانا بأفلوفنا •

حدثت نفسي قائلاً لها : « هذه صفقة مدنية امس » • وفكرت أيضاً في  
 الوثيقة التي أسلمني اياها كرافت والتي كانت معي في جيبي ، وفكرت  
 في المصير القاسي الذي ستؤول اليه لو وقعت في يديه • وأحسست فجأة  
 بأنني ما زلت أحمل هذه القضية كلها على ظهري • فكان من شأن هذا  
 الاحساس ، بالاضافة الى سائر ما عداه ، أن أشعل نيران غضبي •

– آر كادي ، أريد أن تكون ملابسك أحسن مما هي الآن يا صديقي •  
 ما هي الآن رديئة طبعاً • ولكن لعلك ستسمح لي في المستقبل أن أوصي  
 بك خياطاً فرنسياً حاذقاً صاحب ذوق رفيع •  
 فانبريت أقول بخشونة :

– أطلب منك أن لا تعرض عليّ عرضاً كهذا في يوم من الأيام •  
 – لماذا ؟

– لست أرى في هذا شيئاً من المذلة طبعاً ، ولكننا لسنا على وفاق  
 تام ، بل لعلنا على خلاف شديد • وفي الأيام القريبة ••• بل غداً •••  
 سأقطع عن الذهاب الى الأمير ، لأنني لا أرى أن لي عنده عملاً أقوم به •  
 – ولكن ••• أليس عملاً أن ترافقه في نزهة أو أن تمكث الى  
 جانبه ؟

– هذه أفكار فيها اذلال •

– لست أفهم • ثم ، اذا كنت حساساً الى هذا الحد ، فما عليك الا  
 أن لا تأخذ منه مالاً ، مع استمرارك في البقاء معه • لسوف تحزنه حزناً  
 شديداً اذا انقطعت عنه • انه متعلق بك تعلقاً قويا منذ الآن • صدقني! •••  
 على كل حال ، لك ما تشاء •••

كان واضحاً أنه مستاء •

تقول ان فى امكانى أن لا آخذ منه مالا • ولكننى فى هذا اليوم ارتكبت بسببك عملاً دنيئاً : لم تكن قد نبهتني فطالبتك اليوم بمرتب الشهر •

– معنى هذا أنك أردت ذلك • أعترف لك بأننى لم أكن أظن أنك ستفعل • آ • ما أحذقكم جميعاً فى هذا الزمان رغم كل شيء • لم يبق شباب يا تاتيانا بافلوفنا •

كان شديد المرارة ، وكنت أنا كذلك • قلت :

– كان على أن أصفى حسابى معك ••• أنت الذى اضطررتنى •  
والآن لا أدرى ماذا أعمل •

– بالمناسبة يا صوفيا : ردى الستين روبلاً الى آر كادى على الفور •  
وأنت يا صديقى لا تغضب من هذا السداد السريع • اننى أحزر من النظر فى وجهك أن فى رأسك مشروعاً ما ، وأنت فى حاجة الى رأس مال ••• أو شيء من هذا القليل •

– لا أدرى عمَّ يعبر وجهى ، ولكننى لم أكن أتوقع أن تحدثك أمى عن ذلك المبلغ بعد أن رجوتها أن لا تفعل •

ونظرت الى أمى ، وكانت عيناى تقدحان شرراً • لا أستطيع أن أصف مدى ما كان يضطرم فى نفسى من غضب •

– آر كاشا ، بنى ، سامحنى ، ناشدتك الله • لم أستطع أن أمنع نفسى من أن أحكى له •••

وقال فرسيلوف متجهاً الى :

– لا تؤاخذها يا صديقى على أنها كشفت لى عن أسرارك • ثم ان نيتها كانت حسنة : لقد أرادت الأم أن تباهى بعواطف ابنها • ولكن

صدقنى اذا قلت لك اننى كنت أستطيع أن أحزر أنك رأسالى بدون أن  
تحكى لى أمك شيئاً • ان جميع أسرارك مكتوبة على وجهك النزيه •  
ان له « فكرته » يا تاتيانا بافلوفنا ، كما سبق أن قلت لك ذلك •  
أتممت كلامى ساخطاً أقول :

– دع وجهى النزيه • اننى أعرف أنك تقرأ أفكار الناس فى كثير  
من الأحيان ، رغم أنك فى حالات أخرى لاترى ما هو أبعد من طرف  
أنفك • لقد أدهشنى نفاذ بصيرتك دائماً • طيب ، ليكن • ان لى  
« فكرتى » • واضح أنك انما استعملت هذا التعبير مصادفة ، ولكنى  
لا أخشى من الاعتراف بأن لى « فكرتى » • نعم ، لى « فكرتى » • لست  
أشعر من ذلك لا بخوف ولا بخجل •  
– لا تشعر بخجل خاصة !

– ومع ذلك لن أكشف لك عن « فكرتى » هذه فى يوم  
من الأيام •

– معنى هذا أنك لا تعدنى جديراً بأن تكشف لى عنها • ولكن  
لا جدوى يا صديقى ! اننى أعرف جوهر فكرتك منذ الآن • هى على  
كل حال :

### (( انسحب الى الصحراء ))

يا تاتيانا بافلوفنا ، ان رأى أنا هو أنه يريد أن يصبح روتشيلد ،  
أو شيئاً من هذا القبيل ، وأن يمضى معتصماً بعظمته • ولسوف يمن علينا  
أنا وأنت بمرتب يكفل لنا معيشتنا • قد لا يهب لى أنا شيئاً ، ولكن من  
المحقق أنه سيمر بنا كما يمر شهاب • سيكون كالقمر الطالع : ما ان  
يظهر حتى يختفى •

ارتعشت فى قرارة نفسى • لاشك أن هذا مصادفة • انه لا يعرف  
شيئاً ، وهو يتكلم عن شىء آخر تماماً ، رغم أنه ذكر اسم روتشيلد •

ولكن كيف استطاع أن يحدد عواطفى هذا التحديد الدقيق كله : أنفصل عنهم ، وأنزوى ؟ لقد حزر كل شيء • وهو يريد أن يُلطخ بسخريته ما فى الأمر من عنصر المأساة • لقد كان غاضباً غضباً شديداً • ليس فى ذلك شك •

قلت وأنا أحاول أن أضحك وأن أقلب كل شيء الى مزاح :

- اغفرى لى ما أظهرت من اندفاع وغضب منذ قليل يا ماما • واضح أن آندره بتروفتش قد أوتى موهبة النفاذ الى أسرار الناس ، فلا حيلة لنا فى الأمر ، ولا نستطيع أن نخفى عنه أنفسنا •

- أحسن شيء يا عزيزى أنك ضحكت • لا تستطيع أن تتصور مدى ما تسبغه ضحكة جميلة على المرء من سحر وفتنة ، حتى من الناحية الجسمية • أقول هذا جاداً كل الجد يا تاتيانا بافلوفنا ، ان هيئته تم دائماً عن أن فى رأسه أمراً يبلغ من الخطورة أنه يشعر هو نفسه بخجل منه • - أرجوك جاداً يا آندره بتروفتش أن تكون أكثر تحفظاً •

- انك على حق يا صديقى • ولكن كان لابد لى أن أقول هذا مرة حتى انتهى منه ولا أعود اليه • انك لم ترجع من موسكو الا لتور • ذلك ما نعلمه حتى الآن عن سبب مجيئك • وأما أنك جئت متويماً أن تدهشنا بعمل يبهز الأبصار ، فذلك أمتنع حتى عن الاشارة اليه ، لأنه أمر طبيعى جداً • ثم انك منذ أن وصلت قبل شهر لا تكف عن الاستهزاء بنا والسخرية منا • وأنت مع ذلك رجل ذكى ، ففى وسعك أن تدع هذا الضحك وهذا التهكم لأولئك الذين لا يملكون الا هذه الوسيلة انتقاماً لتفاهتهم • انك مغلق دائماً ، مع أن مظهرك لائق وخدك المتوردتين تشهدان بأن فى وسعك أن تنظر الى جميع الناس وجهاً لوجه براءة تامة • انه سوادوى يا تاتيانا بافلوفنا • لا أستطيع أن أفهم لماذا هم جميعاً سوداويون فى هذا الزمان !

— اذا كنت تجهل حتى أين نشأت وربيت ، فأنتى لك أن تعرف  
لماذا أنا سوداوى ؟

— ذلك هو السر كله : أنت غاضب لأننى نسيت أين نشأت  
وربيت !

— لا ، أبداً • لا تنسب الى حماقة كهذه الحماقة • يا ماما ، ان  
آندره بتروفتش قد هنأنى منذ لحظة بأننى ضحكت • فلنضحك اذن •  
علام نبقى متجهمين هذا التجهم ؟ هل تحبون أن أقص عليكم حكايات  
مضحكة عنى ؟ لاسيما وأن آندره بتروفتش لا يعرف شيئاً عن مغامرات  
حياتى ؟

كنت أغلى وأفور • كنت أعلم أننا لن نلتقى بعد الآن جميعاً كما  
نلتقى اليوم ، وأنتى متى خرجت من هذا المنزل فلن أعود اليه أبداً •  
لذلك لم أستطع فى عشية ذلك كله أن أضبط نفسى • وقد حرص هو  
نفسه على الوصول الى هذه النتيجة • قال وهو يلقي على نظرة ثاقبة :

— هذا لطيف ممتع ، بشرط أن يكون مضحكاً حقاً ! لقد توحشت  
قليلاً يا صديقى فى ذلك المكان الذى نشأت وربيت فيه • على أنك  
ما تزال لائقاً رغم كل شيء • انه اليوم فاتن يا تاتيانا بافلوفنا ، ولقد أحسنت  
جداً اذ فضضت هذه الصرة •

ولكن تاتيانا بافلوفنا قطبت حاجبيها ، حتى انها لم تلتفت واستمرت  
تفض الصرة وترتب الهدايا فى أطباق • وبقيت أمى حائرة مضطربة ،  
وكانت تدرك وتوجس أن الأمور تجرى مجرى سيئاً • ومرة أخرى  
لكزتى أختى بكوعها •

بدأت أتكلّم بهيئة طليقة فقلت :

- أريد أن أحكى لكم ببساطة كيف لقي أب ابنه العزيز أول مرة •  
وقد حدث هذا في ذلك المكان نفسه « الذي نشأت وربيت فيه » •  
- ولكن ألا ترى يا صاحبي أن هذا سيكون مملاًّ باعشاً على  
الضجر؟ أنت تعلم أن « جميع فنون القصص ... » ( بالفرنسية ) •  
فقاطعتة قائلاً :

- لا تقطب حاجيك يا آندره بتروفتش • ليس ما سأحكيه هو  
ما تظن ... أبداً ! ان غاييتي هي أن أضحككم جميعاً •  
فقال بصوت اصطنع له طلاقة كاذبة :

- سسمع الله منك يا عزيزي • أنا أعرف أنك تحبنا جميعاً ،  
وأنتك ... لا تريد أن تعكر علينا صفو سهرتنا •  
- لاشك أنك من وجهي انما حذرت أنني أجبكم ؟  
- نعم ، من وجهك قليلاً ...

- وأنا حذرت من وجه تاتيانا بافلوفنا ، منذ مدة طويلة ، أنها  
مغرمة بي • لاترشقيني بنظرات قاسية هذه القسوة كلها يا تاتيانا بافلوفنا !  
الضحك أفضل ! الضحك أفضل !

فالتفت تاتيانا بافلوفنا الىّ بحركة مباغته ، وتأمّلتني ببصر نافذ مدة  
نصف دقيقة ، ثم قالت وهي تهددني باصبعها :  
- حذار !

وكانت تبلغ من الجد في تهديدها أن ذلك لا يمكن أن يكون  
مرده الى مزحتي الحمقاء ، وانما هو نوع من الانذار فكأنها تقول :  
« أتراك تريد أن تبدأ ؟ » \*

- آندره بتروفتش ، أنت لا تتذكر اذن كيف التقينا في الحياة  
أول مرة ؟

- أحلف لك اننى نسيت ، واستغفرك عن هذا صادقاً \* كل  
ما أتذكره أن ذلك حدث في زمان بعيد جداً \* \* . ولست أدري الآن أين  
تم اللقاء \* \* .

- وأنت يا ماما ، هل تتذكرين متى كنت في الريف ، في القرية  
التي ربيت فيها حتى السنة السادسة أو السابعة من عمري ؟ أأقمت في  
تلك القرية فعلاً ، أم أننى في الحلم انما بدا لى أننى رأيتك هناك أول  
مرة ؟ اننى منذ مدة طويلة أحب أن ألقى عليك هذا السؤال ، ولكننى  
كنت أتراجع دائماً \* . وقد حان الوقت الآن \* .

- كيف لا أتذكر يا صغيرى آر كادى ! طبعاً أتذكر ! لقد جئت  
أزور بربارا ستيانوفنا ثلاث مرات ؛ مرة حين كانت سنك لا تكاد تبلغ  
عاماً واحداً ؛ ومرة حين كنت فى نحو السنة الرابعة من العمر ؛ ومرة  
حين كنت قد تجاوزت العاشرة \* .

- ها \* \* . نعم ! لقد ظلمت أريد أن ألقى عليك هذا السؤال طول  
هذه المدة !

احمرت أسمى احمراراً شديداً من سيل الذكريات المبالغت هذا ،  
وسألتنى بعاطفة حنون :

- هل يمكن حقاً يا صغيرى آر كادى أن تتذكر زيارات أمك بعد  
انقضاء هذه المدة كلها ؟



- لا أتذكر شيئاً ، ولا أعرف شيئاً ، غير أنني قد بقي لي من وجهك شيء في قرارة قلبي طول حياتي ، وبقي لي عدا ذلك أنني عرفت أنك أمي ، تلك القرية كلها إنما أراها اليوم كحلم من الأحلام . بربارا ستيبانوفنا ، أتذكرها قليلاً لأن خديها كانت دائماً معصوبتين . وحول المنزل ما زلت أرى أشجاراً كبيرة أظن أنها كانت أشجار زيزفون ، وأرى في بعض الأيام شمساً قوية تدخل من النوافذ المفتوحة ، وأرى مساكب أزهار وممر أشجار ، وأراك أنت يا ماما ، لكنني لا أراك رؤية واضحة إلا في لحظة واحدة هي لحظة تناولي في كنيسة القرية التي حملتني فيها بين ذراعيك لأتناول القربان وأقبل الكأس . كان ذلك في الصيف ، واجتازت القبة حملة من نافذة الى أخرى . .

قالت أمي :

- رياه ! ما أصدق هذه الذكريات ! وعقدت أمي ذراعيها على صدرها . وتابعت تقول :

- انني أتذكرها ، تلك الحمامة . وقد تحركت أنت في لحظة التناول نفسها وصحت تقول : « الحمامة ، الحمامة ! » .

- ان وجهك ، أو شيئاً منه هو تعبير فيه ، قد بلغ من عمق الرسوخ في ذاكرتي أنني منذ خمس سنين عرفتك بموسكو فوراً وعرفت أنك أمي ، رغم أن أحداً لم يذكر لي ذلك . ثم سُحبت من منزل آل أندرونيكوف بعد لقائي الأول بأندره بتروفتش . كنت قد مكثت عندهم زمناً طويلاً في هدوء ومرح ، خمس سنين . انني أتذكر أدق التفاصيل من بيتهم الذي يقع في أحد مباني الدولة ، وأتذكر جميع تلك السيدات والأنسات اللواتي هرمن اليوم هرماً شديداً ، أتذكر البيت زاخراً ، وأتذكر أندرونيكوف نفسه الذي كان يتولى بنفسه شراء المثونة من المدينة ، وجلب الدواجن والأسماك والخنازير الرضيعة ، وكان ينوب على المائدة مناب زوجته التي تصطنع الكبرياء فيسكب لنا الحساء

بنفسه • وكنا نتندر على هذا دائماً ، وكان هو بيننا أول المتدربين • هناك  
انما علمتى الفتيات اللغة الفرنسية ، ولكننى كنت أحب حكايات كريلوف  
خاصة ، فحفظت منها عدداً كبيراً على ظهر القلب ، وكنت أشهد  
آندرونيكوف واحدةً فى كل يوم : كنت أدخل مكتبه الصغير رأساً ، سواء  
أكان منهمكاً فى عمل أم لا • وبسبب حكاية من تلك الحكايات انما  
تعارفنا يا آندره بتروفتش •• أرى أنك بدأت تتذكر •

- حقاً •• أتذكر بعض التذكر يا عزيزى •• ماذا أنشدتني  
حينذاك ؟ أحكايةً من حكايات كريلوف أم جزءاً من مسرحية « كثير  
من الفكر ضرر » ؟ ما أقوى ذاكرتك على كل حال ! ••

- لا فضل لى فى تذكر هذه الأشياء : لقد ظلت ماثلةً فى فكرى  
على الدوام •

- عظيم ، عظيم ، يا صديقى ! حديثك يشوقنى •

حتى لقد ابتسم • وبعده ابتسمت أمى وأختى • لقد عادت  
الطمأنينة ، الا الى تاتيانا بافلوفنا التى كانت جالسةً فى ركن بعد أن  
رتبت الهدايا على الطاولة ، فقد ظلت ترشقنى بنظرة شزراء • وتابعت  
كلامى فقلت :

- فاليكم القصة : فى ذات صباح ، جاءت صديقة طفولتى ،  
تاتيانا بافلوفنا ، التى كانت تنبجس فى حياتى على حين غرة دائماً ، جاءت  
تأخذنى من عند آل آندرونيكوف • أركبونى عربة ، وأودعونى فى  
منزل فخم من منازل الأسياد • كنت قد نزلت عند فاناريوتوفا يا آندره  
بتروفتش ، فى المنزل الذى كان خالياً حينذاك ، وكانت قد اشترته منك  
فى الماضى • كانت هى مسافرة فى الخارج • وكنت ما أزال ألبس  
بلوزات • فألبسونى هناك رداء لطيفاً أزرق وملابس داخلية ناعمة  
رقيقة ، دفعة واحدة • وقضت تاتيانا بافلوفنا النهار كله محتفيةً بى ،

واشترت لى أشياء كثيرة جداً • وأخذت أطوف فى الغرف الحالية ، وأنظر الى نفسى فى جميع المرايا • حتى اذا كان صباح الغد ، فى نحو الساعة العاشرة ، بينما كنت أتجول فى أرجاء البيت ، رأيتنى - لا أدرى كيف - أدخل مكتبك مصادفة • وكنت قد رأيتك بالأمس ، لحظة وصولى الى هذا المنزل ، ولكننى لم أرك الا عابراً ، وذلك على السلم • كنت أنت نازلاً لتركب العربة ذاهباً لا أدرى الى أين • كنت فى ذلك الوقت وحيداً بموسكو ، بعد غياب طويل جداً ، وكنت لا تريد أن تمكث الا وقتاً قصيراً ، فكنت 'تطلب فى كل مكان ، فلا تكاد تبقى فى البيت أبداً • فلما صادقتنا أنا و تاتيانا بافلوفنا ، لم تزد على أن قلت : « ها ! » ، حتى دون أن تتوقف •

قال فرسيلوف مخاطباً تاتيانا بافلوفنا :

- انه يصف الواقعة بحب •

فأشاحت تاتيانا بافلوفنا وجهها دون أن تجيب •

- انى لأنصورك الآن كما كنت فى ذلك الحين جميلاً مزدهراً • ما أكر ما دب اليك الهرم وما نالك من دمامة أثناء هذه السنين التسع ، اغفر لى صراحتى • ولقد كنت آنذاك فى السابعة والثلاثين على كل حال ، ولكننى كنت لا أتعب من النظر اليك • ما كان أجمل شعرك ! كان غزيراً ، أسود ، لامعاً ، لا يتخالطه شعرة واحدة بيضاء • أما شارباك وعارضاك فكأنها من حسن الاتقان قد صنعها صانع جواهر • لا أجد تعبيراً أفضل من هذا التعبير • وكان وجهك شاحباً كإيأ ، لا شحوب المرض كشحوبه الآن ، بل • • بل كشحوب وجه ابنتك آنا أندريفنا التى شرفت برؤيتها منذ قليل • وكان فى عينيك حدة وحرارة وحلقة • وكانت أسنانك لامعة ، خاصة حين تضحك • ذلك أنك انفجرت تضحك حين نظرت الى عند دخولى مكتبك • لم أكن أحسن تمييز الأشياء فى ذلك الأوان • فأبهجت ابتسامتك قلبى • كنت ترتدى فى ذلك الصباح سترة

من مخمل كحلي وتندثر بوشاح أخضر ، وتلبس قميصاً مزداناً بتخاريم  
من آلاسون ، و كنت واقفاً أمام المرأة ، ممسكاً بكتاب في يدك ، منهمكاً  
في استظهار وانشاد أقوال تشاتسكي ، ولا سيما صيخته الأخيرة :

عربتي ، عربتي

هتف فرسيلوف يقول :

- آ . آ . ما أصدق ما يذكر ! كنت قد رضيت ، رغم قصر اقامتي  
بموسكو ، أن أمثل دور تشاتسكي عند ألكسندرا بتروفنا فيتوفتوفا ، على  
مسرحها الخاص ، بسبب مرض ييلايكو .

هتف تاتيانا بافلوفنا تسأله :

- ماذا ؟ أنسيت اذن ؟

- لقد ذكّرني . الواقع أن تلك الاقامة القصيرة بموسكو لعلها  
كانت أجمل أيام حياتي ! كنا جميعاً في عز الشباب آنذاك . كنا نتنظر  
كل شيء بحرارة شديدة . وقد التقيت في موسكو عندئذ بعدد كبير  
من . . . ولكن أكمل يا عزيزي ، أكمل ، لقد أحسنت ايما احسان هذه  
المرّة اذ دخلت في التفاصيل . . .

- و كنت واقفاً أنظر اليك . فإذا أنا أصبح فجأة : « آ . آ . آ . رائع !  
هذا هو تشاتسكي الحقيقي » ، فسرعان ما التفتت وسألتني : « أنت تعرف  
تشاتسكي ؟ » ثم جلست على الديوان ، وأقبلت على قهوتك رائق المزاج  
جذلاً أشد الجذل . فذكرت لك حينذاك أن الجميع في منزل آل  
آندرونيكوف يقرأون كثيراً ، وأن الآسات يحفظن شعراً كثيراً على ظهر  
القلب ، وأنهن يمثلن فيما بينهن مشاهد من مسرحيات جزيبويدوف ، وأنا  
طوال الأسبوع الماضي كنا نقرأ معاً في المساء بصوت عال « أقاصيص  
صياد » ، وأنتى أحب خاصة حكايات كريلوف وأحفظها على ظهر القلب ،  
فدعوتني أن أنشدك شيئاً ، فأنشدتك على حكايته « الخطية الصعبة » :

## خطيبة تحلم فى خطيبها

فهمت فرسيلوف من جديد :

- نعم ، نعم ، الآن تذكرت كل شيء ! ولكنى أتذكرك أنت أيضاً يا صاحبي • كنت فى ذلك الحين فتى لطيفاً ظريفاً ، كنت فتى صغيراً لذيذاً • يميناً لقد فقدت كثيراً أثناء هذه السنين التسع •

عندئذ ضحكت تاتيانا بافلوفنا نفسها • لقد كان واضحاً أن أندره بتروفتش كان يمزح ويثأر لنفسه مما قلته له أنا • وابتهج الجميع • لقد أحسن الرد على الغمز بمثله • وتابعت أنا سرد ذكرياتي فقلت :

- وفيما كنت أنا أنشد كنت أنت تبسم • ولكن ان أشدت نصف الحكاية حتى استوقفتنى وقرعت الجرس وأمرت الخادم الذى دخل فى تلك اللحظة بأن يدعو تاتيانا بافلوفنا • فسرعان ما جاءت تاتيانا بافلوفنا وقد بلغت هيئتها من التعبير عن شدة الفرح أنى بعد أن كنت رأيتها بالأمس لم أكد أتعرفها اليوم • وبحضور تاتيانا بافلوفنا أعدت انشاد « الخطيبة الصعبة » ، ونجحت فى انشادها نجاحاً باهراً • فابتسمت لى تاتيانا بافلوفنا ، حتى انك انت يا أندره بتروفتش قد هتفت تقول لى : « مرحى ! » • وأضفت تقول بحرارة : « ان انشاد حكاية « الزيز والنملة » انشاداً حسناً أمر يستطيعه كل فتى ذكى فى سنى • فلا يستغرب المرء حسن انشاده ، أما انشاد حكاية « الخطيبة الصعبة » فشأنه شأن آخر : خطيبة تحلم فى خطيبها ••• لا اثم فى هذا ولا تثريب ••• اسمعى كيف ينشد هذا الشطر : « لا اثم فى هذا ولا تثريب ! » • الخلاصة أنك تحمست كثيراً • وقد أخذت تكلم تاتيانا بافلوفنا عندئذ باللغة الفرنسية • فسرعان ما قطبت حاجبيها وأخذت تواجهك باعتراضات ، حتى لقد كانت تبدى اعتراضاتها بحرارة شديدة • ولكن لما كان يستحيل على أحد أن يعارض أندره بتروفتش اذا هو أراد شيئاً ، فقد أسرع تاتيانا بافلوفنا تقادنى الى بيتها • وهناك غسل وجهى ويدي مرة أخرى ، وغيرت ملابسى الداخلية

ودُهنتُ بالعطر ، حتى لقد جَعَدَ لي شعري • حتى اذا جاء المساء ارتدت تاتيانا بافلوفنا هي نفسها ثياباً فخمة ، ثياباً أفخم مما كان يمكن أن أظن ، وركبنا عربة ، وأخذت لأول مرة في حياتي الى المسرح ، فشهدت عرضاً قام به هواة عند فيتوفتوفا : شموع ، تماثيل ، سيدات ، عسكريون ، جنرالات ، أنسات ، الستارة ، صفوف الكراسي ، الخ ••• تلك كلها أشياء لم يسبق أن رأيت مثلها في حياتي • وقد اختارت تاتيانا بافلوفنا مكاناً متواضعاً في صف من الصفوف الأخيرة وأجلستني بقربها • وكان هناك أطفال غيري طبعاً ، ولكنني كنت لا أنظر الى شيء ، وانما انتظر بدء التمثيل خافق القلب • حتى اذا ظهرت انت على المسرح يا آندره بتروفتش ، بلغت أنا من الحماسة حداً سألت معه دموعي • لا أدري لماذا يا آندره بتروفتش • لماذا دموع الحماسة تلك ؟ ذلك أمر ظل يبدو لي غريباً كلما تذكرته خلال هذه السنين التسع ! وأخذت أتابع المسرحية منهار القلب • كل ما فهمته طبعاً هو « أنها » خاتمه ، وأن أناساً أغبياء لا يستحقون حتى أن يلمسوا أصبعاً في قدمها كانوا يسخرون منه • وحين كان يخطف في حفلة الرقص كنت ادرك أنه رجلٌ أذل وأهين ، وأنه يقترع جميع أولئك الأفراد ، ولكنه رجل كبير ، كبير جداً • لا شك أن ما كنت قد تعلمته عند آل آندرونيكوف ساعدني على الفهم ، ولكن تمثيلك ساعدني أيضاً يا آندره بتروفتش • كنت أرى مسرحاً لأول مرة ! وفي لحظة الانصراف ، حين صرخ تشاتسكي نادياً : « عربتي ، عربتي ! » ( ولقد صرخت صرخة مدهشة ! ) وثبتت عن كرسيي وطفقت أصفق مع كل من كانوا في الصالة ، وصحت أقول بكل ما أملك من قوة : مرحي !

أتذكر أيضاً أنني أحسست في تلك اللحظة نفسها بما يشبه أن يكون وخزة دبوس « تجت الظهر قليلاً » • ان تاتيانا بافلوفنا هي التي فرصتني غاضبة غضباً شديداً ، ولكنني لم أول ذلك انتباهاً ! حتى اذا انتهى التمثيل قادتني تاتيانا بافلوفنا الى البيت ، قائلة لي : « لا يمكن أن تبقى

فتحضر حفلة الرقص ، رغم اننى سأحرم بسبيك من حضورها ، وقد  
 ظلت تؤنيسنى طول الطريق يا تاتيانا بافلوفنا ونحن فى العربة • وهذيت  
 أنا الى آخر الليل • وفى الساعة العاشرة من الغد وجدتني أقف أمام  
 مكتبك • ولكن الباب كان مغلقا : كنت تستقبل بعض الناس ، و تعالج  
 بعض الأعمال • ثم غبت فجأة طول النهار ولم تعد الا فى الليل ، فلم  
 أرك بعد ذلك أبداً ! أما ما الذى كنت أريد أن أقوله لك ، فقد نسيته ،  
 بل كنت لا أعرفه حتى فى ذلك الوقت ، ولكننى كنت احترق شوقاً الى  
 رؤيتك فى اسرع وقت • لقد سافرت فى صباح غد منذ الساعة الثامنة الى  
 سربوخوف : كنت قد بعث أرضك فى تولا منذ مدة قصيرة لترد الى دائيتك  
 ديونهم ، أو لترضيهم بدفع جزء منها على الأقل ، ولكن كانت قد بقيت  
 لك من أرضك قطعة لا بأس بها ، ومن أجل ذلك انما جئت عندئذ الى  
 موسكو التى كنت لا تستطيع أن تظهر فيها حتى ذلك الحين خوفاً من أولئك  
 الدائنين وكان ذلك الرجل الفظ الغليظ سربو خوف هو الوحيد بين سائر  
 الدائنين الذى لم يرض أن يقبض نصف الدين بديلاً عن تمامه • ولم  
 ترض تاتيانا بافلوفنا حتى أن تجيب عن أسئلتى ، وكانت لا تزيد على أن  
 تقول لى : « اطمئن • سأذهب بك بعد غد الى مدرسة داخلية • حضر  
 نفسك • خذ دفاترك • رتب كتبك • وتعلم كيف ترتب حقيقتك بنفسك •  
 انك لم تخلق لتعيش عيشة أمير يا سيد ، الخ الخ • أكثر ما صدعت  
 أذنى بهذا الكلام فى تلك الأيام الثلاثة يا تاتيانا بافلوفنا ! واقتدتنى فعلاً  
 الى مدرسة توشار الداخلية ، أنا الغر البريء ، أنا المغرم بك يا أندره  
 بتروفتش • صحيح أن ذلك اللقاء لم يكن الا مصادفة شاذة ، ولكن  
 صدقتنى اذا قلت لك اننى بعد ستة أشهر كنت ما أزال أريد أن أهرب من  
 عند توشار وأن أذهب اليك •

قال فرسيلوف موقماً كلامه :

— لقد قصصت فأبدعت ، فأيقظت جميع ذكرياتى ! غير أن ما يخطف

اتباهي خاصة فيما قصصته انما هو غناء ببعض التفاصيل الغريبة ، فيما يتعلق بديونى مثلاً . فمن أين عرفت هذه التفاصيل ، ناهيك عن انها غير لائقة ؟

- هذه التفاصيل ؟ من أين عرفتھا ؟ اننى أعود فأكرر لك اننى خلال هذه السنين التسع لم يشغلنى شيء كما شغلنى الاهتمام بجمع تفاصيل عنك .

- اعتراف عجيب ، وشاغل عجيب !

وأدار لى ظهره ، مضطجماً على مقعده نصف اضطجاع ، وفتح فمه بتأؤب خفيف لا أدرى أهو تعمهه تعمداً أم لا .

- هل تريد أن أحكى لكم كيف أردت أن أهرب من عند توشار ؟

فانبرت تاتيانا بافلوفنا تقول :

- امنعه يا آندره بتروفشس ! اردعه ! اطرده من هنا !

فأجابها فرسيلوف بجد :

- لا يا تاتيانا بافلوفنا ! لا شك أن فى ذهن آركادى مشروعاً . فيجب أن تتيح له اكمال كلامه قطعاً . فليستمر ! ليقتصص ما يريد أن يقصه فتخلص ! وذلك هو كل ما يرغب فيه على كل حال . . . أن يتخلص الى الأبد . هيا يا عزيزى ، ابدأ قصتك الجديدة . وأنا انما أصفها بأنها جديدة من باب التجوز ، لأننى أعرف نهايتها منذ الآن ، ثق بهذا .



## ٤

- أردت أن أفر من المدرسة هارباً اليكم ، الأمر بسيط • تاتيانا بافلوفنا ، تذكرين أن توشار ، بعد دخولي المدرسة بخمسة عشر يوماً ، بعث اليك برسالة • لا ؟ لقد أطلعتني ماريا ايفانوفنا على هذه الرسالة فيما بعد ، وكانت بين أوراق آندرونكوف أيضاً • لقد ارتأى توشار فجأة أن المبلغ الذي كان قد طلبه ضئيل جداً ، فكتب يقول لك « بوقار » انه يربى في مدرسته الداخلية أمراء وأولاد أعضاء في مجلس الشيوخ ، ويرى أنه لا يليق بمؤسسته أن تحتفظ بتلميذ أصله كأصلي ، اللهم الا أن يدفع له أجر اضافي •

- « يا عزيزي » ، في وسعك أن ...

فقاطعها قاتلاً :

- ليس هذا بشيء ذي بال : لكنني أريد أن أقول كلمة عن توشار • لقد أحبته من الريف يا تاتيانا بافلوفنا ، بعد خمسة عشر يوماً ، بأنك ترفضين طلبه رفضاً قاطعاً • انني ما زلت أراه في خيالي داخلاً على الصف وقد احمر وجهه احمراراً شديداً • انه فرنسي قصير القامة مدور الجسم ، في نحو الخامسة والأربعين من العمر ، جاء من باريس رأساً في الواقع ، وكان من قبل اسكافياً ، ولكنه استقر بموسكو منذ زمن بعيد مدرّساً للغة الفرنسية يحمل لقب أستاذ ، بل يحمل كذلك رتباً كان يعتز بها أعظم الاعتزاز • هو رجل جاهل فظ حقاً • ولقد كنا في مدرسته الداخلية ستة لا أكثر • وكان بين هؤلاء التلاميذ واحد هو ابن اخت عضو في مجلس الشيوخ من موسكو • وكنا نعيش في مدرسته عيشة أسرة ، تحت اشراف زوجته في أكثر الأحيان ، وهي امرأة متكلفة متصنعة كانت

ابنة موظف روسي لا يُعرف من هو • وكنت في خلال تلك الأيام الخمس عشرة أتكبر على رفاقي تكبراً شديداً ، واتباهى بسترتي الزرقاء وأعتز بأبي آندره بتروفتش ، فاذا سألوني لماذا أسمى دولجوروكي ولا أسمى فرسيلوف ، لم اضطرب من السؤال البتة ، لأنني كنت أجهل أنا نفسي سبب ذلك •

صرخت تاتيانا بأفولونا تقول بلهجة فيها ما يشبه التهديد :

– آندره بتروفتش !

ولا كذلك أمي ، فكانت تصغي الى كلامي لا تعيب عنها منه كلمة واحدة ، وترغب رغبة واضحة في اتمامه •

قال فرسيلوف من بين أسنانه :

– انني ... أتذكر توشار « هذا » فعلاً • وكان قد زكّى لي

كثيراً ...

واصلت حديثي قائلاً :

– دخل توشار « هذا » حاملاً الرسالة بيده ، وتقدم من الطاولة المصنوعة من خشب السنديان ، التي كنا نحن الستة جالسين اليها منهمكين في تعلم درس نسيت الآن ما هو ، فأمسك كتفي امساکاً قوياً ، وأنهضني ، وأمرني بأن آخذ دفاتري ، قائلاً لي « مكانك ليس هنا » • ودلني على غريفة صغيرة تقع على يسار حجرة المدخل ، وتوجد فيها طاولة حقيرة مع كرسي من خيزران وديوان مغطي بقماش مشمع ، تماماً كالغريفة التي أعيش فيها الآن تحت السقف • فذهبت الى هناك مدهوشاً ومحمراً احمراراً شديداً • انني لم أعامل قبل اليوم بمثل هذه الغلظة والفظاظة • وبعد نصف ساعة ، حين غادر توشار الصف ، مضيت أبادل رفاقي النظرات والضحك • وكانوا هم يضحكون عليّ ساخرين ، ولكني أنا لم يخطر

ببالي شيء من ذلك ، وظنت أننا نضحك معاً لما يمسلاً نفوسنا من فرح وجذل . وفي تلك اللحظة انبجس توشار . فأمسك خصلة من شعري ، وجرني الى خارج الصف قائلاً لي : « اياك أن تخالط بعد اليوم هؤلاء الأولاد الذين ينتمون الى أسر كريمة . انك أنت حقير المنبت . ما أنت الا نوع من خادم ! » . ولطم خدي المدورة الحمراء لكمة آلمتني ايلاًماً شديداً . وأعجبته للكمة فكررها ثانية فثالثة . فلبثت ساعة كاملة أبكي بكاء شديداً وقد دفنت رأسي في يدي . لا بد أن شيئاً لا أتوصل الى ادراكه قد حدث . لم أفهم كيف يستطيع انسان غير شرير مثل توشار ، وهو رجل أجنبي ، حتى انه كان يتهج أعظم الابتهاج لتحرير الفلاحين الروس ، كيف يستطيع أن يضرب طفلاً ساذجاً مثلي . الحق انني في قرارة نفسي كنت مندهشاً لا أكثر . لم أشعر بأنني أهنت . كنت لا أحس بعد بأنني أهان . خيل الى أنني قد ارتكبت غلطة من الغلطات ، وأنني بعد هذا القصاص سؤفقر لي كل شيء ، فنغدو جميعاً مرحين من جديد ، ونمضي نلعب في فناء المدرسة ، ونستأنف حياة حلوة .

قال فرسيلوف وهو يتسم ابتسامة فيها اهمال انسان اعتراه السأم :

— ليتني عرفت هذه الأمور يا صاحبي . . . ان توشار هذا رجل وغد حقاً ! على كل حال ، أنا لم أفقد أمل في أن تسترد شجاعتك ، فتغفر لنا أخيراً جميع هذه الأشياء ونستأنف حياة سليمة .

وأتبع ذلك بتأوب قوي . فهتفت أقول محتاراً :

— ولكنني لا أتهم أحداً ، لا أتهم أحداً قط ، بل لا اشتكى حتى من توشار . ثم انه لم يضربني الا مدة شهرين . أذكر أنني كنت أريد دائماً أن أهديء غضبه ، فكنت ارتمي على يديه لأقبلهما ، وكنت أقبلهما ذارفاً كل ما في عيني من دموع . وكان رفاقي يسخرون مني ويحتقرونني لأن توشار كان يستعملني في بعض الأحيان خادماً ، فأمرني أن أجيئه

بملاسه حين كان يرتدى ثيابه • وهنا سُحذت صفات الخادم فى نفسى  
 بالغريزة ، فكنت أبذل كل ما أملك من طاقة لارضائه ، دون أن أشعر  
 بأى شىء من المهانة ، لأننى كنت لا أزال عاجزاً عن فهم الأمر ، بل اننى  
 ليدهشنى حتى هذا اليوم كيف لم أدرك أننى كنت دون كافة رفاقى  
 كثيراً ، فلا شك أن رفاقى قد شرحوا لى بعض الأمور ، لأننا فى مدرسة  
 راقية • على أن توشار قد أصبح فى النهاية لا يلطم خدى بل يضرب  
 اليتى • حتى انه بعد ستة أشهر أخذ يلاطفنى من حين الى حين • ولكننى  
 كنت واثقاً بأنه لا بد أن يضربنى مرة فى الشهر ، ليدكرنى بأن على أن  
 أبقى فى مكاني لا أتجاوزه • ولم ألبث أن أرجعت الى سائر الأولاد ،  
 وسُمح لى بأن ألعب معهم ، ولكن توشار لم يستطع مرة واحدة خلال  
 هذه المدة كلها - وهى سنتان ونصف سنة - أن ينسى ما بينى وبينهم من  
 فرق فى الظروف الاجتماعية • ويغلب على ظنى أنه ان كان لم يفقه أن  
 يستعملنى خادماً له على الدوام ، ولو بغير مبالغة ، فانما كان يفعل ذلك  
 ليدكرنى بما بينى وبين رفاقى من فرق فى الظروف الاجتماعية • ثم  
 هربت • أقصد فكرت فى الهروب بعد انقضاء خمسة أشهر على ذينك  
 الشهرين الأولين • لقد كنت بطيئاً فى عزم أمرى على اتخاذ قرار دائماً •  
 وكنت حين أرقد فى فراشى وأخفى نفسى تحت غطائى ، لا ألبث أن أحلم  
 بك فوراً يا أندره بتروفتش ، بك وحدك • لا أدرى لماذا كان يحدث  
 ذلك • حتى لقد كنت أراك فى المنام • وكنت أحلم خاصةً بأنك ستجىء  
 فجأة ذات يوم ، فاذا أنا ارتمى بين ذراعيك ، فتتشلنى من هذا المكان ،  
 وتأخذنى الى عندك ، الى مكتبك • وأحلم بأننا لا نزال نضحك فى المسرح ،  
 الخ ، وأننا - وهذا هو الشىء الأساسى - لن نفرق بعدئذ أبداً • فكانت  
 هذه الأحلام تلهب نفسى • وفى الغداة ، حين أستيقظ من النوم ، يستأنف  
 الصبية سخرياتهم ويعودون الى احتقارهم • وقد بدا لأحدهم يوماً أن  
 يضربنى وأن يجبرنى على الباسه حذاءيه ، ووصفنى بكل النوع ،

وحرص حرساً خاصاً على افهامى أصلى ، فأفرح ذلك السامعين فرحا عظيماً • حتى اذا وصل توشار أحسست فى داخل نفسى بشيء لا يطاق • أدركت أننى هنا لن 'يفغر لى أبداً فى يوم من الأيام • آه • • • بدأت شيئاً فشيئاً أفهم الأمر الذى لن يفغر لى ، وأعرف ما هى جريمتى ! وهكذا قررت أن أهرب • حلمت بالهروب مدة شهرين ، واتخذت قرارى أخيراً •

كان ذلك فى شهر أيلول ( سبتمبر ) • ان يوم السبت يناسبنى : فرفاقى ينصرفون لقضاء عطلة الأحد ولا يعودون الا فى صباح يوم الاثنين • حذمت من أمتعتى ما لا غنى لى عنه فى صرة • وكان كل ما معى من مال روبلين • كنت أريد أن أنتظر حلول الغسق • قلت لنفسى : « متى حل الغسق هبطت على السلم ، وخرجت ثم انصرفت قدماً • » • الى أين ؟ كنت أعرف أن أندرونيكوف قد سافر الى بطرسبرج ، فقررت أن أعرف منزل فاناريوتوفا فى شارع آربات • وحدثت نفسى قائلاً : « سوف أبقى الليل فى أى مكان ، متجولاً أو جالساً على دكة ، حتى اذا طلع الصبح سألت أحداً فى فناء الدار : أين هو أندره بتروفتش الآن ، واذا لم يكن بموسكو ففى أية مدينة هو أو فى أى بلد من البلاد ؟ وسيرضون أن يذكروا لى المكان فأمشى • ومن حين الى حين أسأل أحداً عن الاتجاه الذى يجب أن أسير فيه • فأمشى ، وأمشى • وأظل أمشى • وأبقى الليل فى أى مكان تحت الأدغال ، ولا آكل الا خبزاً ، فيكفينى الروبلان مدة طويلة • • ولكن استحال علىّ فى يوم السبت أن أهرب • فكان يجب أن أنتظر الى يوم الأحد • وشاءت المصادفة بما يشبه العمد أن يغيب توشار وامراته • ولم يبق فى البيت الا آجاتى وأنا • فانتظرت حلول الليل مضطرباً اضطراباً رهيباً • كنت جالساً - ما زلت أتذكر ذلك - أمام نافذة صفّنا ، انظر الى الشارع الأغبر ، وبيوته الخشبية الصغيرة ، والمارة القلائل • كان توشار يقيم فى آخر العالم • ومن نوافذنا كان يرى

باب المدينة • قلت لنفسي : « ليته هو الباب الذي يجب أن أخرج منه »  
وكانت الشمس تغرب محمرة احمراراً رائعاً ، وكان الهواء بارداً ، وكانت  
تهب ريح قارصة تثير الغبار ؛ كهذا اليوم تماماً • وعمّ الظلام أخيراً ؛  
فوقفت أمام الأيقونة ، وصليت ، لكنني صليت مسرعاً ، مسرعاً كل  
الاسراع ، لأنني كنت استعجل الهرب حالاً • وتناولت صرتي ، ونزلت  
سائراً على رءوس الأصابع ، فكانت درجاته تصير ، وكنت أشعر بخوف  
رهيب من أن تسمعني آجائي في المطبخ • وكان المفتاح على الباب ،  
ففتحت ، فسرعان ما أحرق بي الظلام الدامس كثيئاً مجهول خطر  
لا حدود له ، وأطارت الريح طاقتي • أصبحت في خارج الدار • ودوى  
على الرصيف الآخر صراخ أجش أبح هو صراخ سكير كان يطلق  
الشتائم تلو الشتائم • فتوقفت ، ونظرت ، ثم اذا بي أعود أدراجي على  
مهل ، ثم أصعد السلم في رفق ؛ وفي رفق أخذت أخلع ملابسى بعد  
أن وضعت صرتي على الأرض ، ثم رقدت على بطني بدون دموع أذرفها  
وبغير فكرة واحدة تخطر ببالي • ومنذ تلك اللحظة أنما أخذت أفكر  
يا آندره بتروفتش ! نعم ، منذ اللحظة التي أدركت فيها أنني لست خادماً  
فحسب ، بل جباناً رعديداً أيضاً ! عندئذ انما بدأ تطوري الحقيقي  
المطرد •

هنا ضاحت تاتيانا بإفلوفنا تقول وهي تذب عن مكها فجأة وثوباً لم  
يكن في حسابنى قط :

— وعندئذ انما بدأت أنا أعرف ما أنت في واقع الأمر ! انك لم تكن  
خادماً في ذلك الأوان فحسب ، بل مازلت خادماً الى الآن : ان نفسك  
نفس خادم ! ما الذي كان يمكن أن يمنع آندره بتروفتش من أن يعهد  
بك الى اسكافي يعلمك حرفة الاحذية ؟ كان سيحس اليك لو علمك  
حرفة ! من ذا الذي يمكن أن يطالبه بأكثر من هذا ؟ ان أباك ، ماكار  
ايفانوفتش كان يرجو ان لا نخرجك من ظرفك الاجتماعي حتى لقد كان

يطالب بهذا مطالبة ويكاد يصر عليه اصراراً • لا ، لا ، لا ، انك لا تحسن  
تقدير صنيع أندره بتروفتش اذ أوصلك الى الجامعة • انك بفضلها انما  
تتمتع الآن بحقوق الطبقات العليا • انظروا : كان الصبيان يسخرون منه  
ويناكذونه ، فحلف لينتقم من الانسانية بأسرها ••• ما أنت الا  
نذل ! •••

يجب أن أعترف أن غضبة تاتيانا بافلوفنا قد سحقتني • فهضت عن  
مكاني ونظرت لحظةً وأنا لا أجد ما أجيبها به •  
وقلت أخيراً وأنا التفت الى فرسيلوف عامداً بعد تفكير :

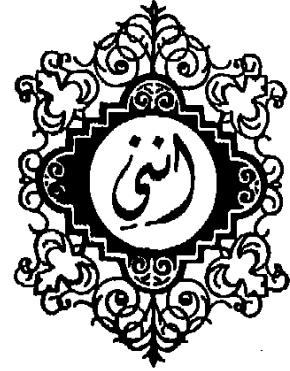
— ان ما قالته تاتيانا بافلوفنا الآن شيء جديد حقاً • ان فرسيلوف  
قد تفضل فلم يجعلني اسكافيا • فيا لي من خادم حقاً ، لأن هذا لم يرضني ،  
وانما طالبت ، فوق آلائه ونعمه ، طالبت به هو ، طالبت بفرسيلوف نفسه ،  
طالبت به كله كاملاً غير منقوص ! حتى حقوق الطبقات العليا لم ترق  
قلبي • ذلك أنني أردت أباً • فهل يمكن أن يكون امرؤ خادماً أكثر من  
هذا ؟ يا أمي ، ما تزال ماثلةً في ضميري ، منذ ثمانية أعوام حتى الآن ،  
تلك اللحظة التي جئتني فيها وحيدةً الى عند توشار ، وتلك الطريقة التي  
استقبلتك بها • ولكن ليس هذا أوان الحديث عن هذا الأمر • ان تاتيانا  
بافلوفنا لا تسمح به • فالى الغد يا أمي ، فلعلنا سنلتقي مرة أخرى •  
ويا تاتيانا بافلوفنا ، وما عساك قائلة لك انني مازلت خادماً فلا أستطيع  
أن أقبل أن يكون لرجل امرأة ، فاذا هو يتزوج امرأة أخرى ؟ تلك  
مغامرة كادت تقع لأندره بتروفتش في « امس » • يا أمي ، اذا كنت  
لا تريد البقاء مع زوج قد يتزوج امرأة أخرى في الغد ، فاذكرى أن  
لك ابناً يعد بأن يكون ابناً يحترم أمه الى الأبد ، اذكرى هذا ثم تنصرف ،  
ولكن يجب الاختيار « فاما أنا واما هو » فمن تختارين ؟ انني لا أطلب  
جواباً على الفور • فأنا أعرف أن هذه أسئلة لا يستطيع المرء أن يجيب  
عنها حالاً •••

لم أستطع أن أكمل كلامي ، لأنني اندفعت اندفاعاً شديداً وطاش صوابي • اصفرت أُمي اصفراراً قوياً ، وخانها صوتها فلم تستطع أن تنطق : عجزت عن أن تقول كلمة واحدة • وانبرت تاتيانا تلفظ صاخبةً ، حتى انني لم أستطع أن أميز ما كانت تقوله ، بل لقد لطمتني على كفتي بقبضة يدها مرتين • لكنني أتذكر أنها أعولت تقول « ان أقوالى مدروسة محسوبة ، قد هيأتها نفس وضيفة معقدة » • وكان فرسيلوف جالساً لا يتحرك ، وكان جاداً لا يتسم • وصعدت الى حجرتي تحت السقف • وكانت النظرة الوحيدة التي شيعتني هي نظرة الاستنكار من أختي التي كانت تهز رأسها وقد لاحت في وجهها القسوة •



## الفصل السابع

١



أصِف جميع هذه المشاهد دون مراعاة أو مداراة  
 لنفسى ، وذلك حتى يكون كل شيء واضحاً ،  
 ذكريات كان أو انطباعات • حين صعدت الى  
 حجرتى كنت أجهل جهلاً مطلقاً هل يجب على  
 أن أحمر خجلاً أو أن أشمخ انتظارا لأننى قمت بواجبى • ولو كنت  
 ذا تجربة أوسع لأدركت أن أى شك حول مثل هذا الأمر يجب أن يفسر  
 تفسيراً سيئاً • على أن هناك ظرفاً أخسر حيرتني : اننى لا أعرف  
 ما الذى كان يمكن أن يبهجنى ، ولكن واقع الحال هو أننى كنت أحس  
 بفرح جنونى ، رغم شكوكى ورغم شعورى بأننى قد أخفقت منذ قليل  
 اخفاقاً ذريعاً حين كنت تحت • حتى الشتائم المقدعة التى رمتنى بها تائبانا  
 بافلوفنا كانت تبدو لى باعثة على الضحك ، وكانت لا تحنقنى البتة • أغلب  
 الظن أن مرد ذلك الى أننى قد حطمت أغلالى على كل حال ، وشعرت  
 بحريتى أول مرة •

و كنت أحس أيضاً أننى أفسدت مصالحي : ما عساي أفعل الآن  
 بالوثيقة التى تتعلق بالميراث ؟ وكان فى هذا السؤال مزيد من الاضطراب •

لسوف يظنون حتماً أنني أردت الانتقام من فرسيلوف • ولكننى منذ أن كنت تحت ، كنت قررت - أثناء المناقشات - أن أرجع فى هذه المسألة حكمهم يفصل فيها ، وأن أختار فاسين حكماً ، أو أن أختار أحداً غيره اذا لم يمكن أن اختاره هو ، وكنت منذ ذلك الوقت أعرف من ذا الذى سأختاره • لقد حدثت نفسى قائلاً : سأذهب يوماً الى فاسين ، أذهب اليه الوحيدة ؛ ثم ، ثم أغيب عن أبصار الناس قاطبةً ، زمناً طويلاً ، أشهراً عدة ، أغيب حتى عن فاسين ، بل أغيب خاصةً عن فاسين ، وقد أرى أمى وأختى وحدهما من حين الى حين • ذلك كله كان مضطرباً مشوشاً • وكنت أحس أن شيئاً ما قد عمل ، ولكنه لم يعمل كما ينبغي أن يعمل •• وكنت مغتبطاً • أكرر : كنت رغم كل شيء سعيداً •

وقررت عندئذ أن أتم قبل أوان نومي فى العادة ، متوقفاً أن يكون على أن أسير فى الغد مسافات طويلة • لقد اتخذت قرارات عقدت النية على تنفيذها بطريقة أو بأخرى ، عدا استئجار مسكن والانتقال اليه • ولكن السهرة لم تختتم دون أن يحدث شيء لم يكن فى الحسبان ، فهذا هو فرسيلوف يفلح فى أن يدهشنى الى أبعد حدود الدهشة • كان لا يجيئ الى حجرتى أبداً ، أبداً • ولكن ما ان انقضت ساعة واحدة حتى سمعت وقع خطاه على السلم ، وسمعته ينادينى طالباً أن أنير له الطريق • فتناولت شمعة ، ومددت اليه احدى يدي فأمسكها ، وساعدته على التسلق الى •

- « شكراً » ( بالفرنسية ) يا صديقى • اننى لم أصعد الى هنا مرة واحدة ، حتى يوم استأجرت البيت • كنت أقدر ما عسى يكون هذا المكان • ومع ذلك لم أتوقع أبداً أن يكون حجرة كلب كهذه التى أرى •

ووقف فرسيلوف فى وسط حجرتى ينظر فيما حوله مستطلعاً مستغرباً ، وقال :

– هذا تابوت ، تابوت حقيقي !

والحق أن حجرتي كان بينها وبين جوف التابوت شبه ، حتى لقد أعجبت بدقة تشبيهه اياها بالتابوت • انها غريفة ضيقة طويلة • وفي مستوى كفي ، لا أعلى منه ، تبدأ الزاوية التي تتشكل من التقاء جدارها بسقفها الذي كنت أستطيع أن ألمسه براحة كفي • وقد وقف فرسيلوف في أول الأمر منحنيًا خشيبة أن يصطدم رأسه بالسقف • ولكن رأسه لم يصطدم بالسقف ؛ فجلس بهدوء على ديواني الذي كان قد أمسى سريراً • أما أنا فلم أجلس ، وانما كنت أنظر اليه مندهشاً أعمق الاندهاش • قال :

– ان أمك لا تدري هل يجب عليها أن تأخذ المال الذي عرضته عليها نفقات لاقامتك عندنا هذا الشهر • والحق أن هذا التابوت الذي تقيم فيه لا يستحق أن تدفع عنه أجراً ، بل لعلنا أن نكون نحن المدينين لك ! انني لم أجيء الى هنا مرة واحدة • • وانه ليصعب عليّ أن أتخيل أن يعيش انسان في هذا المكان •

– لقد تعودت هذه السكنى • ولكن الشيء الذي لا يمكنني أن أتعوده هو أن أراك عندي بعد الذي حدث تحت • •

– حقاً لقد كنت شديداً الفظاظة تحت ! • • ولكن لي ، أنا أيضاً ، غايات خاصة سأشرحها لك ، وان يكن وجودي هنا ، في حقيقة الأمر ، ليس بالشيء الخارق • وحتى ما حدث تحت ليس شاذاً في الواقع ، وانما هو من طبيعة الأشياء • ولكن هناك نقطة تفصيلية أرجوك أن توضحها لي: هل ما رويته تحت ، وما ألقيته على مسامعنا بذلك الاحتفال والاهتمام هو كل ما كان في نيتك أن تكشف لنا عنه أو أن تفضي الينا به ؟ أليس عندك شيء آخر ؟

– ذلك كل شيء • أو فلنفرض أنه كل شيء •

- هو اذن قليل يا صديقي • ان دخولك في الموضوع ، وأسلوبك في دعوتنا الى الضحك ، ورفبتك الشديدة في الكلام ، كل ذلك جعلني أتوقع أن يتمخض عن أكثر مما تمخض عنه •

- ولكن فيم يهكم هذا ؟

- يهمني لأنه يفتقد الاحساس بالاعتدال • علام كل هذا اللفظ والصخب ؟ أتقضى شهراً كاملاً في صمت وتحضير من أجل أن تتمخض فجأة عن •• لا شيء ؟! ••

- كان في نيتي أن أحكى أكثر مما حكيت ، ولكنني خجلت حتى مما قلته • ما كل شيء يمكن أن يحكى بكلام • هناك أمور يحسن بالمرء أن يسكت عنها فلا يجيء على ذكرها أبداً • لقد قلت ما فيه الكفاية • ثم انك قد فهمت •

- ويعذبك في بعض الأحيان أن تفكر لا تسعه قوالب الألفاظ ؟ يا صديقي ، هذا العذاب لم يوهب الا لصفوة مختارة من الناس • أما الغبي الأحمق فهو راض دائماً عما يقول ؛ وهو عدا ذلك يقول دائماً أكثر مما يجب أن يقول • أولئك أشخاص يحبون الزيادة •

- مثلما كنت أنا تحت ، أليس كذلك ؟ أنا أيضاً قلت أكثر مما كان يجب أن أقول • طالبت « بفرسيلوف كله » • هذا كثير جداً • لست في حاجة الى فرسيلوف •

- أرى يا صديقي أنك تريد أن تتدارك ما فاتك من وقت • انك نادم • ولما كان الندم يعني عندنا أن يتهجم المرء فوراً على أحد ، فقد عزمتم أمرك على أن لا تخطئني مرة أخرى • لقد جئت اليك قبل الأوان ، فما تزال نارك مستعرة لم تنطفئ • ثم انك لا تتحمل النقد • ولكن اجلس ، أرجوك • أريد أن أبلغك شيئاً • شكراً ، أحسنت ! ان ما قلته لأملك لحظة انصرفك يدل دلالة واضحة على أن من الأفضل أن نفترق على كل

حال • وقد جئت لأنصحك بأن تفارقنا في هدوء كامل وبغير فضيحة ، حتى لا تُحزن أمك مزيداً من الحزن وحتى لا تروّعها مزيداً من الترويع • ان مجرد صعودي اليك الآن قد خفف عنها وأحسن اليها : انها مقتنعة بأننا سنستطيع أن نتصالح ، وبأن كل شيء سيظل يجري كما كان يجري • وأعتقد أننا اذا استطعنا ، أنا وأنت ، أن نضحك ضحكاً صاخباً ، مرةً أو مرتين ، سوف نزرع الفرح في قلوبهما الوجلين ، كليهما • ان قلوبهما بـسـيـطان ، ولكنهما زاخران بالحب والصدق والبراءة • فلماذا لا نفرحهما قليلاً اذا استطعنا الى ذلك سبيلاً ؟ هذه هي النقطة الأولى • واليك النقطة الثانية : هل من المحتم أن نفرق ونحن نكز أسناننا ، ونحترق ظمأً الى الانتقام ، ونصب اللعنات ، وما الى ذلك ! صحيح أننا لن نتعاق ، ولكن من الممكن أن نفرق ونحن تبادل الاحترام ان صح التعبير ، أليس كذلك ؟

– هذا كله سخافات ! أعدك بأن أنصرف دونما فضيحة ؟ ويكفي ذلك ! أيقلقك أمر أمي ؟ يخيل اليّ مع ذلك أن طمأنينة أمي لا تهلك كثيراً • هذا منك كلام لا أكثر !  
– ألا تصدقني ؟

– انك تكلمني كما يكلم طفلاً حقاً •

– يا صديقي ، أنا مستعد لأن استغفرك عن هذا ألف مرة ، وأن استغفرك أيضاً عن كل ما تنسبه اليّ ، عن سني طفولتك ، وهلم جراً • ولكن ما عسى ينتج عن ذلك « يا ولدي العزيز » ؟ أظن أنك أذكى من أن تضع نفسك في مثل هذا الوضع الغبي ؟ دعك من أنني لا أفهم في الواقع طبيعة المآخذ التي تأخذها عليّ فهماً واضحاً ، ولكنني أسألك : ما الذي تهمني به ؟ بأنك لم تُسمَّ عند ولادتك باسم فرسيلوف ؟ ليس هذا ما تهمني به ؟ انك تضحك وقد لاح في وجهك اختقار ، ولوحت بيدك تحمي بها نفسك • أليس ذلك هو ما تهمني به ؟

– لا ، صدقنى • صدق أنتى لا أرى أى شرف فى أن يكون  
اسمى فرسيلوف •

– دعنا من الشرف • ثم ، ألا يجب أن يكون جوابك ديموقراطياً ؟  
ما الذى تتهمنى به اذن ؟

– لقد نطقت تاتيانا بافلوفنا منذ ساعة بكل ما كنت أريد أن أعرفه  
ولم أتوصل الى فهمه حتى ذلك الحين : أنك لم تشأ أن تجعلنى اسكافياً ،  
وأن علىّ اذن أن أشكر لك جميلك • اننى لا أدرك أين هو عقوبى  
ونكرانى الجميل ، حتى بعد أن ألقى على هذا الدرس • ألا يمكن أن  
يكون دمك المتعطرس هو الذى يتحدث فىّ الآن يا آندره بتروفتشس ؟

– لا أظن ذلك • يجب عليك أن تسلم ، عدا هذا ، أن جميع  
هجماتك التى أردت لها أن تسقط علىّ أنا منذ قليل ، لم تزد على أن  
آلتها وعذبتها ، هى • ويخيل الى مع ذلك أنك لست أنت من يحق له  
أن يدينها • وما هو ذنبها فى حقلك ؟ بالمناسبة : اشرح لى هذه النقطة  
أيضاً يا صديقى : لأى سبب وعلى أية نية أذعت فى المدرسة وفى اللسيه  
وطوال حياتك وحتى لأى انسان تلقاه ( لقد ذكر لى هذا ) أنك ابن زنا ؟  
لقد علمت أنك تتلذذ باذاعة هذا • وما ذلك منك فى الواقع الا غباوة  
ونميمة دنيئة : أنت دوجوروكى ، الابن الشرعى لماكار ايفافتشس  
دوجوروكى ، الشخص المحترم ، المتميز ذكاءً وخلقاً • واذا كنت قد  
أصبت خطأ من تعليم عال ، فانما يرجع الفضل فى ذلك الى فرسيلوف ،  
مولاك سابقاً • ولكن ما الذى نتج عن تصرفك ؟ انك بما أذعته من أنك  
ابن زنا – وتلك نميمة – انما فضحت أمك ، ولطختها بالوحل فى نظر  
كل انسان • وذلك يا صديقى ليس من النبل فى شىء ، لاسيما وأن أمك  
ليست. هى الأئمة : ان لأمك خلقاً هو الصفاء الكامل والطهارة التامة •  
واذا لم تُسَمَّ باسم فرسيلوف ، فلسبب وحيد هو أن زوجها ما يزال  
موجوداً •

- كفى ! اننى أوافقك كل الموافقة ، وأثق بذكائك ثقة تبلغ من القوة أننى آمل أن تكف عن هذه التقريرات التى ما أظن الا أنها طالت كثيراً . أنت رجل تهوى الاعتدال . . . وهناك اعتدال فى كل شىء ، حتى فى هذا الحب المفاجيء لأمى . فدعنا من هذا وقل لى : اذا كنت قد قررت أن تجيء الىّ وأن تقضى عندى ربع ساعة أو نصف ساعة ( وأنا ما زلت لا أعرف لماذا جئت ، ولكن لنسلم بانك جئت لادخال الطمأنينة والسكينة الى قلب أمى » ، واذا كنت عدا ذلك تجد لذة كبيرة فى الحديث معى رغم كل ما جرى تحت ، فحدثنى اذن عن أبى ، عن ماكارا ايفانوف ، حدثنى عن هذا الجواب . منك أنت انما أريد أن أسمع شيئاً عنه . اننى اتوى منذ مدة طويلة أن أطلب منك هذا . وأحب كذلك ، ونحن نفترق - ربما الى أمد طويل - أن أحصل منك على جواب عن هذا السؤال الآخر : هل يعقل أن لا تكون قد استطعت خلال هذه السنين العشرين أن تؤثر فى أوهام أمى ، وكذلك الآن فى أوهام أختى ، فتبدد الظلمات الأولى التى تخيم على بيتهن القديمة ؟ لست أتكلم عن طهارتها طبعاً ، فانها كانت دائماً أسمى منك كثيراً فى مجال الأخلاق ، معذرة . . . ولكن ما هى الاجثة سامية . أما الحياة فهى لفرسيلوف وحده . وكل ما عداه ممن حوله ، كل ما له ارتباط به ، انما هو أشبه بنبات . . . نبات يشرفه أن يغذيه بطاقاته وبما فيه من عصارة الحياة . غير أنها كانت هى أيضاً حية فى الماضى ، أليس كذلك ؟ فقل لى : هل وجدت فيها ما تجبه ؟ هل كانت امرأة ؟

- يا صديقى ، اذا أردت أن تعرف ذلك ، فاعلم أنها لم تكن امرأة فى يوم من الأيام . . .

قال ذلك وهو يجعد وجهه ذلك التجعيد القديم الذى احفظ ذكراه والذى كان يحقنى أشد الحق ، أقصد ذلك التجعيد الذى يوهم المرء أنه ازاء انسان يملك طيبة صادقة أشد الصدق ، مع أن نفسه لا تشتمل

في الواقع الا على سخريه واستهزاء ، حتى لقد كان يتفوق لى فى بعض الأحيان أن لا أفهم من هيئته شيئاً • وعاد يقول :

– لا ، لم تكن امرأة فى يوم من الأيام • ما من امرأة روسية  
بامرأة •

– هل البولندية أو الفرنسية هى المرأة ؟ أم أن الايطالية ،  
الايطالية المشبوبة ، هى التى تأسر لب روسى متحضر من الطبقة العليا  
مثل فرسيلوف ؟

– هذا ما كان ينقصنى ! كان ينقصنى أن ألقى هنا واحداً من  
المتعصين للسلافية !

وانفجر فرسيلوف ضاحكاً •

انتى أتذكر ما رواه كلمة كلمة • حتى لقد كان يتحدث راضياً  
مسروراً • وكان واضحاً لى أنه لم ينجىء الى ليثرثر معى أو ليطمئن أمى ،  
وانما جاء مبيتاً نيات أخرى •



بدأ فرسيلوف ترثرتة المصطنعة فقال :

- لقد عشنا أنا وأمك هذه السنين العشرين كلها فى صمت • وكل ما جرى بيننا انما جرى فى صمت أيضاً • فالسمة الرئيسية التى تتسم بها هذه العلاقة التى دامت عشرين عاماً هى الصمت • حتى أنتى أظن أننا لم نشاجر مرة واحدة • صحيح أنتى تغيبت كثيراً ، فكنت أتركها وحيدة ، لكننى كنت أعود فى النهاية دائماً • « انا نعود دائماً » ، هذه أبرز صفة يتصف بها الرجال ، وهى من عظمتهم • فلو كان الزواج رهناً بالنساء وحدهن لما استمر زواج • والسمة التى تتميز بها أمك انما هى الطواعية والمذلة ، الخضوع والاذعان ، التسليم والرضى ، ولكنها تتصف أيضاً بالصلابة والثبات والقوة ، القوة الحقيقية • أحب أن تلاحظ أنها بين النساء اللواتى لقيتهن خيرهن جميعاً • ان لها قوة ، أشهد بذلك : لقد رأيت كيف دعمتها هذه القوة • فمتى كان الأمر قناعات ( لا قناعات حقيقية فهذه ليس محل بحث ، بل ما يمكن أن يسمى عندها قناعات ) ومتى كان الأمر تبعاً لذلك أمر شيء تعده مقداساً ، كانت مستعدة لأن تواجه جميع الصعاب وأن تتحمل جميع أنواع العذاب كما يتحملها شهداء • فانظر بنفسك : أأنا أشبه جلاداً يعذب الناس ؟ ذلك هو السبب الذى حملنى على الصمت فى جميع الأحيان تقريباً ، وليس السبب هو أن الصمت أسهل • ولست نادماً على ذلك ، أعترف لك • فهذه الطريقة جرى كل شيء بيننا من تلقاء نفسه على نحو انسانى رجب • حتى اننى لا أنسب لى نفسى فى هذا أى فضل • يجب أن أقول لك فى هذه المناسبة اننى أميل قليلاً الى أن أظن أنها لم تؤمن بعواطفى الانسانية فى يوم من الأيام ، وأنها لذلك ارتعشت من الخوف دائماً • ولكنها رغم ارتعاشها من

الخوف لم تلزم نفسها بتحصيل أية ثقافة • هؤلاء أناس يحسنون تصريف أمورهم أكثر منا • انهم على وجه الاجمال يعرفون كيف يدبرون شئونهم الصغيرة خيراً مما نعرف ذلك نحن • انهم يستطيعون أن يواصلوا الحياة على ما يشاءون في أكثر الظروف مناقضة لطبيعتهم ، وأن يقوا في تلك الظروف ما هم فلا يتغيروا • أما نحن فلا نملك هذه البراعة التي يملكون •

- من هؤلاء الذين تعنيهم ؟ اننى لا أفهم عنك فهماً واضحاً •

- الشعب يا صديقى • الذين أعنيهم هم الشعب • لقد برهن الشعب على قوته الحية الكبيرة خلال التاريخ ، لا جسيمياً فحسب ، بل سياسياً كذلك • ولكن لنرجع الينا : أستطيع أن أقول ان أمك لم تكن دائمة الصمت • انها تتكلم أحياناً ، ولكنها تتكلم بطريقة تجعلك تدرك ادراكاً واضحاً أنك قد أضعت وقتك سدى فيما سقته اليها من أحاديث ولو كنت قد سلخت من عمرك خمس سنين في اعداد هذه الأحاديث شيئاً بعد شيء • وما أعجب الاعتراضات التي تواجهك بها ولم تخطر لك ببال ! لاحظ مرة أخرى أنتى لا أصفها بالغباء البتة • بالعكس : ان في هذا نوعاً من ذكاء ، بل ان فيه ذكاء فذآ • ولكن لعلك لن تعترف لها بهذا الذكاء !

- لم لا ؟ ان ما لا أصدقه هو أن تؤمن أنت حقاً بأنها ذكية ، وأن لا تكون في ذلك مراثياً •

- صحيح ؟ أنت تعدنى حرياء ؟ يا صديقى ، اننى أسرف في مداراتك ، كولدى المدلل • ولكن لنقف عند هذا الحد في هذه المرة !

- حدثنى عن أبى • قل لى الحقيقة ان استطعت •

- ماكار ايفانوفتشس ؟ نعم ، ان ماكار ايفانوفتشس هو كما تعلم قن خادم أحب فيما يقال أن يصبح ذا شهرة •••  
- أراهن على أنك في هذه اللحظة تغار منه !

- بالعكس يا صديقي ، بالعكس ، واذا شئت أن تعرف الحقيقة فاعلم اننى مرتاح أشد الارتياح الى أن لك مزاجاً معقداً هذا التعقيد كله . أحلف لك اننى أعانى الآن ندامة قوية عميقة ، وأننى فى هذا اليوم نفسه ، بل فى هذه اللحظة التى تمر ، أحس - ربما للمرة الألف - بالأسف فى غير طائل لما حدث منذ عشرين سنة ، شهد الله أن كل ما حدث قد حدث حدوداً انسانياً فيما يخصنى أنا ، على الأقل بحسب الفكرة التى كانت قائمة فى ذهنى عن فضيلة الاتصاف بالروح الانسانية . آه . . . لشد ما كنا نحترق فى ذلك الحين شوقاً الى فعل الخير وخدمة المجتمع والفكرة ، ولشد ما كنا ندين الألقاب والرتب ، وأميازاتنا الموروثة ، وتملك الأطيان ، وحتى بنك تسليف الفقراء ، فى رأى بعضنا على الأقل . أحلف لك . كان عددنا قليلاً ، ولكننا كنا نحسن الكلام ، بل كنا فى بعض الأحيان نحسن العمل أيضاً ، أوكد لك .

- أيام كنت تتحب على الكتف مثلاً ؟

- يا صديقي ، اننى أوافقك سلفاً على كل شيء . بالمناسبة : حكاية الكتف هذه ، أنا الذى رويتها لك ، فأنت اذن فى هذه اللحظة تسيء استغلال صدقى وثقتى . لاحظ أن الانتحاب على الكتف لا يضعنى فى وضع سيء الى الحد الذى يبدو لأول وهلة ، ولاسيما اذا رددته الى زمانه . لقد كنا عندئذ مبتدئين فى نزعتنا الانسانية . صحيح أن ذلك كان منى تصنعاً وتكلفاً . ولكننى كنت أجهل حينذاك أننى لم أكن صادقاً . انظر الى نفسك مثلاً : أنت طبيعى دائماً فى الحياة العملية ؟

- حين كنا تحت ، منذ قليل ، أسرفت فى العاطفية بعض الاسراف ، وما ان رجعت الى هنا حتى احمر وجهى خجلاً اذ تصورت أنك قد تظن أننى فعلت ذلك عامداً . صحيح أن المرء يمثل فى بعض الأحيان ، مهما يكن صادقاً . ولكننى أحلف لك أننى كنت اليوم ، تحت ، طبيعياً بغير تصنع البتة .

- حسن ما تقوله • لقد أجدت التعبير : « ان المرء يمثل في بعض الأحيان ، مهما يكن صادقاً » • فذلك بعينه هو ما جرى لي أنا : لقد انتحيت صادقاً رغم أنني كنت أمثل تمثيلاً • أوافك : كان في امكان ماكار ايفانوفتش أن يعد الانتحاب على كفه زيادة في السخرية ، لو كان أذكى قليلاً • ولكن استقامته أساءت عندئذ إلى نفاذ بصره • والشئ الذي أجمله هو : أخذته بي شفقة حينئذ أم لا • أذكر اني كنت أحترق شوقاً الى أن يرثني لخالى ...

قاطعته قائلاً :

- والآن اذ تقول هذا الكلام انما أنت تسخر • انك على وجه الاجمال ، في جميع ما قلته لي خلال هذه المدة كلها ، طوال هذا الشهر كله انما كنت تسخر • لماذا كنت تتصرف معي دائماً هذا التصرف حين تكلمني ؟

أجاب يقول بهدوء ورفق :

- أتظن ذلك ؟ انك شديد الحساسية سريع التأذى • اذا كنت أضحك فلست أضحك منك أو على الأقل لست أضحك منك وحدك ، فاطمئن • لكنني في هذه اللحظة لا أضحك • لنعد الى ما كنا فيه • لقد عملت حينذاك كل ما كان في وسعي أن أعمله ، وصدقني اذا قلت لك انني لم أعمل ما عملت في سبيل مصلحتي • لقد كنا نحن ، أعني معشر المتأخرين في ذلك الزمان ، عاجزين عن العمل لمنفعتنا بالقياس الى أبناء الشعب • بالعكس : كنا نسيء الى أنفسنا أكبر الاساءة ، وأظن أن هذا بعينه هو ما كنا نعدده « المصلحة العليا التي هي مصلحتنا » بأسمى معاني هذه الكلمة طبعاً • ان المتقف في هذا الزمان أشد تعلقاً بالمنفعة وسعياً اليها من جيلنا • لنعد الى حديثنا : شرحت لماكار ايفانوفتش كل شئ ، بصراحة خارقة ، حتى قبل ارتكاب الخطيئة • انني أسلم اليوم بأن كثيراً من تلك

الأشياء لم يكن فى حاجة الى شرح ، ولا سيما بمثل تلك الصراحة . فلو أقصرت فى الشرح لكان ذلك أقرب الى الأدب والتهديب ، ناهيك عن العاطفة الانسانية . ولكن أين للمرء أن يكبح جماح نفسه حين يريد أن يغامر فيقوم أثناء الرقص بخطوة جميلة بعد أن يكون سكر الرقص قد أخذ منه كل مأخذ ! لعل هذا ما كانت تقتضيه ضرورات الجمال والحير : اننى لم أجد جواباً عن هذا السؤال بعد . على كل حال ، هذه مشكلة أعمق من أن يتناولها حديث سطحي كالحديث الذى يدور بيننا الآن . لكننى أحلف لك اننى ما زلت أموت خجلاً من هذه الذكرى فى بعض الاحيان . عرضت عليه ثلاثة آلاف روبل . كان صامتاً . وكنت وحدى أتكلم . تصورت أنه خائف منى ، أى خائف مما للسيد من حقوق على العبد ، فبدلت أقصى جهدى لأشجعه . اننى أتذكر هذا . حضضته على أن يفصح عن جميع رغباته دون أن يخشى شيئاً ، بل حضضته على أن ينتقد ما شاء أن ينتقد . وعلى سبيل الضمان قطعت له عهداً على نفسه أنه اذا رفض شروطى ، أى الثلاثة آلاف روبل واعتاقه ( هو وامرأته طبعاً ) ورحيله ( بدون امرأته طبعاً ) ما عليه الا أن يعلن ذلك صراحةً حتى أعتقه فوراً ، وأرد اليه امرأته ، وأهديهما كليهما هذه الثلاثة آلاف روبل نفسها ، فلا يكون عليهما هما أن يرحلا عندئذ ، وانما أرحل أنا الى ايطاليا ليوحدث هذا فاننى ما كنت سأصطحب « الأنسة » سابويكوف الى ايطاليا ، ثق بهذا . كنت فى ذلك الحين أظهر من أن أفعل ذلك . وقد أدرك ماكار هذا حق الادراك اننى سأفعل ما أقول . ولكنه بقى صامتاً لا يتكلم ، ثم لم يتحرك الا حين أردت أن أرمى على كتفه مرة ثالثة ، فإذا هو يتقهقر ، ويجرى يده بشارة تتم عن قلة الاكتراث ، ويخرج حتى بغير تخرج ، فأدهشنى منه ذلك ، أوكد لك . ونظرت الى نفسه عندئذ فى مرآة عرضاً ، وهذه ذكرى لن أنساها فى يوم من الأيام . نستطيع أن

نقول عامةً انهم حين يصمتون فلا ينطقون ، يكون الأمر أرهب ما يكون .  
 ولقد كان ماكار قاتم المزاج ، فكان لا يوحى الىّ بالثقة ، حتى اننى كنت  
 اذا دخل علىّ أشعر بذعر هائل : ان فى هذه البيئة أفراداً ، أفراداً كثيرين ،  
 تتجسد فيهم الوقاحة ان صح التعبير . وهذا أحق أن يُخشى من الطعنات .  
 فما أكثر ما جازفت وعرضت نفسى للخطر ! فلو أن «أوريا» القروى هذا  
 قد أخذ يزرع ويقذف الشتائم ، فما عسى كان يحدث لى أنا «داود»  
 الصغير ، وما عسى كنت أستطيع أن أفعل ؟ ذلك هو السبب فى اننى  
 عرضت الثلاثة آلاف روبل منذ البداية مدفوعاً الى ذلك بغريزتى . ولكننى  
 أخطأت الظن لحسن الحظ : فلقد كان ماكار ايفانوفتش هذا شيئاً آخر  
 مختلفاً كل الاختلاف . . . .

- قل لى : هل كانت الخطيئة قد وقعت ؟ لكأنك قلت منذ لحظة انك  
 استدعيت الزوج قبل حدوث الخطيئة .  
 - أعنى . . . أقصد . . . .

- اذن كانت الخطيئة قد وقعت . وقلت منذ لحظة انك أخطأت الظن  
 فيه ، وانه كان مختلفاً كل الاختلاف عما صوّر لك خيالك . . . فماذا  
 كان ؟

- ماذا كان ؟ آه . . . اننى لا أزال أجهل ما هو . لكنه انسان  
 مختلف كل الاختلاف ، بل انسان لائق جداً ، هل تتصور ؟ اننى أخلص  
 الى هذه النتيجة لان احساسى بارتكاب ذنب فى حقه قد تضاعف مشى  
 وثلاث . لقد قبل الرحيل منذ الغداة ، بدون كلام طبعاً ، وبدون أن يغفل  
 شيئاً من التعويضات التى عرضتها عليه .  
 - أخذ المال ؟

- كيف لا ؟ حتى لقد أدهشنى فى هذه الناحية يا صديقى . لم  
 أكن أحمل ثلاثة آلاف روبل طبعاً . فأخرجت من جيبى سبعمائة وقدمتها  
 اليه دفعةً أولى . فهل تعرف ماذا فعل ؟ طلب منى سنداً قيمته ألفان

وثلاثمائة روبل ، واشترط أن يحرر السند لأمر تاجر . وبعد ذلك بستين تسليح بهذا السند وطالبنى بالمال مع فوائده عن طريق المحاكم ، فأدهشنى مرةً أخرى ، لا سيما وأنه كان يجول جامعاً صدقات لبساء كنيسة ، وما يزال يجول منذ عشرين سنة الى الآن . اننى لا أفهم : ما حاجة جوال مثله الى ذلك المبلغ كله لنفسه ؟ . . . ان المال شىء يرغب فيه من يعيش فى المجتمع . . . وأنا كنت قد عرضت عليه ذلك المبلغ صادقاً ، أو قل فى ابان الحرارة الأولى والاندفاع الملتهب ، أما بعد ذلك ، بعد تراكم جميع تلك الدقائق ، فقد كان طبيعياً أن أتوب الى رشدى . . . وكنت أظن أنه سيعفينى . . . أو قل سيعفينا أنا وهى ، أو أنه سيمهلنا بعض الوقت على الأقل . ولكنه لم يقبل حتى أن يمهلنا . . .

( يجب أن أسوق هنا ملاحظة لا غنى عنها : كان يكفى أن يموت فرسيلوف حتى تبقى أمى فى أواخر أيامها بغير قرش واحد . ولكن الثلاثة آلاف روبل التى بقيت كاملة غير منقوصة حتى لقد ضاعفتها الفوائد المتراكمة قد أوصى بها ماكار ايفانوف لأمى فى السنة الماضية . كان قد حقيقة فرسيلوف منذ ذلك الحين ) .

— قلت يوماً ان ماكار ايفانوفش أقام عندكم عدة مرات ، وانه كان ينزل دائماً الى شقة أمى . . .

— نعم يا صديقى ، وأعترف لك أننى كنت فى البداية أخشى تلك الزيارات كثيراً . ولقد جاء طوال هذه المدة ، أى خلال هذه العشرين سنة ، ست مرات أو سبعاً لا أكثر . فكنت فى الزيارات الأولى أخشىء اذا اتفق أن كنت بالمنزل . حتى اننى فى أول الأمر كنت لا أفهم : مامعنى هذا ؟ لماذا يجيىء ؟ ولكننى بعدئذ ، بدا لى من بعض العلام أن ذلك لم يكن منه غباءً الى الحد الذى صوّره لى خيالى . ثم نار حب الاطلاع فى نفسى عرضاً ، فمضيت أراه ، فخرجت من ذلك بانطباع طريف ، أوكد لك . كانت تلك زيارته الثالثة أو الرابعة ، وكنت قد عينت منذ برهة

وجيزة وسيط صلح ، وصرفت همى ، كما ينبغي أن أفعل ، الى دراسة روسيا . فعرفت منه أشياء لا حصر لها . وعدا ذلك وجدت فيه ما لم أكن أتوقع أن أجده البتة : وجدت نفساً طيبة ومزاجاً متساوياً ، حتى لقد وجدت فيه ما يشبه أن يكون جذلاً ، فكان هذا أدعى الى دهشتي من كل ما عداه . لم يشر الى « الأمر » أيسر اشارة ( « هل تفهم » ؟ ) . ورأيت يتقن فن الكلام بلغة واضحة وعبارات رائعة ، أى لم أقع فى أحاديثه على تلك الجمل المزوقة المشوشة التى يلاحظها المرء فى حديث الأقبان الخدم والتى أعترف لك بأننى لا أطيقها ولا أتحملها رغم جميع آرائى الديمقراطية ، ولم أقع فى أحاديثه على تلك الألفاظ التى يتعمد بعض كتاب المسرح الرواية أن يستعملوها فيما يكتبون بدعوى أنها « روسية ضميمة » ، وبدعوى أنهم « روس صادقون » . لا ولا رأيت يتكلم فى الدين الا قليلاً جداً ، ما لم تسأله ، حتى لقد رأيت يروى أقاصيص فكهة ظريفة عن الأديرة وحياة الرهبان اذا كنت تهتم بسماعها . ولكننى وجدت فيه خاصة ، ذلك الاحترام ، احترام المرء لنفسه على تواضع وبغير تبجح ، ذلك الاحترام الذى أرى أنه الشرط الذى لا بد منه للمساواة القصوى ، بل أرى أنه يستحيل على المرء بدونه أن يبلغ التفوق . فبهذه القدرة على عدم التأذى انما يستطيع المرء أن يتحكم بنفسه فيملك حسن اللهجة ، وبها انما يتجلى الانسان الذى يحترم نفسه حقاً أية كانت كاله ، وأياً كان قدره . ولسوف ترى اذا عشت أن ملكة احترام النفس هذه ، مهما تكن الظروف ، ملكة نادرة كندرة الكرامة الصادقة والوقار الحق . غير أن الشيء الذى خطف بصرى وأثار انتباهى أكثر من كل ما عداه بعد ذلك ، بعد ذلك لا فى البداية ، هو أن ماكار هذا على جانب عظيم جداً من المهابة ، وأؤكد أيضاً أنه على جانب عظيم جداً من الوسامة والجمال . صحيح أنه شيخ ، ولكنه .

« ملوح الوجه ، فارع الطول ، مشوق القوام »



بسيط المظهر ، جليل الطلعة • حتى لقد ادهشني أن صوفيا المسكينة  
 فضلتني عليه • كان عندئذ في الخمسين من عمره ، ولكن هذا لا ينفي أنه  
 كان رجلاً قوياً جسوراً ، وانني كنت بالقياس اليه شاباً قميئاً متحذلقاً • على  
 انني أتذكر أن شيب شعره كان شديداً ، فلا بد أنه كان شائباً حين تزوجها  
 فلعل هذا ان يكون قد أثر فيها •

ان هذا الرجل فرسيلوف يتصف بما يتصف به أبناء المجتمع الراقى  
 من تلك العادة الكريهة الباعثة على الاشمئزاز • فبعد أن قال أشياء فيها  
 كثير من الذكاء وكثير من الانصاف ( حين لم يستطع أن يفعل غير ذلك ) ،  
 اذا هو يسف هذا الاسفاف عامداً فيسوق ملاحظة حمقاء غبية من نوع  
 هذه الملاحظة عن بياض شعر ماكار ايفانوفتش وعن أثر ذلك في أمي •  
 لقد فعل ذلك عامداً ، ربما دون أن يدرك هو نفسه لماذا فعله • انها عادة  
 من عادات أبناء المجتمع الراقى • ولو سمعته لاعتقدت أنه يتكلم جاداً  
 كل الجد ، ولكنه في قرارة نفسه انما كان يسخر أو يضحك •

## ٣

لا أدري لماذا اعتراني حنق شديد رهيب على حين فجأة • اننى أمتعض  
الآن امتعاضاً كبيراً كلما تذكرت بعض ثورات غضبي أثناء ذلك الحديث •  
نهضت عن كرسيي بغتة وقلت له :

- اسمع • لقد زعمت أنك انما جئت الىّ خاصة من أجل أن تظن  
أمي أننا تصالحنا • وقد انقضى من الوقت ما يكفي لايهامها بذلك • فهلا  
تركتني وحيداً ؟

فاحمر قليلاً ونهض قائلاً :

- يا عزيزى ، انك تتصرف معي بغير كلفة ولا حرج • الى اللقاء •  
لا تُفرض الصداقة فرضاً • لكننى أبيع لنفسي أن ألقى عليك هذا  
السؤال : هل تريد أن تترك الأمير فعلاً ؟

- آه •• آه ••• كنت أعلم أنك تبيت نيات معينة •••

- أى تظن أننى جئت لأحضك على البقاء مع الأمير لأن لي في ذلك  
منفعة • ولكن ألا تعتقد أيضاً يا صديقى أننى استدعيتك من موسكو لأننى  
أجنى من ذلك فائدة ما ؟ ألا ما أشد حساسيتك وما أسرع تأذيك !  
بالعكس : هذا كله لخيرك أنت • اننى أتمنى ، حتى اليوم وقد تحسنت  
أحوالى المالية ، أن تتيح لنا ، أنا وأمك ، أن نمد اليك يد المعونة •••

- أنا لا أحبك يا فرسيلوف •••

- تنادينى باسم « فرسيلوف » أيضاً ؟ ••• بالمناسبة : يؤسفنى أشد  
الأسف أننى لم أستطع أن أترك لك هذا الاسم • وذلك هو كل ذنبى  
اجمالاتاً ، اذا كان ثمة ذنب ، أليس كذلك ؟ ولكننى أكرر لك اننى لم  
يكن في وسعى أن أتزوج امرأة متزوجة ، فكر في الأمر بنفسك !  
- لعل هذا هو السبب في أنك أردت أن تتزوج امرأة لا زوج لها ،

هه ؟

فطاف بوجهه تقبض خفيف قصير وقال :  
 - تقصد مدينة « امس » • اسمع يا آرКАДى ! لقد أبحث لنفسك  
 غضباً من هذا النوع منذ ساعة مشيراً الىّ باصبعك أمام أمك • فاعلم أن  
 هذا هو الأمر الذى تخطىء فيه أكبر الخطأ ؛ انك عن هذه الحكاية مع  
 المرحومة ليديا آخماكوفا لا تعرف شيئاً البتة • لا ولا تعرف أن أمك قد  
 ساهمت فيها مساهمة كبيرة ، رغم أنها لم تكن معى هناك • اذا كنت قد  
 رأيت فى حياتى امرأة تتحلى بالفضيلة ، فانما وقع لى هذا فى ذلك الوقت  
 حين نظرت الى وجه أمك • ولكن كفى • هذا كله لا يزال سرّاً ، وأنت  
 تتكلم عما تجهل ، وتعتمد فى كلامك على افويل •••  
 - لقد قال الأمير ، فى هذا اليوم ، انك من عشاق الفتيات الصغار  
 اللواتى لا خبرة لهن •

- الأمير قال هذا ؟

- نعم • اسمع : هل تريد أن أقول لك ، على وجه الدقة ، السبب  
 الذى حضك على المجيء الى ؟ لقد ظلمت أساءل طول الوقت عن سر  
 هذه الزيارة ، وهأنذا أكتشفه أخيراً •

كان فرسيلوف قد همّ أن ينصرف ، ولكنه وقف فجأة والتفت الى  
 منتبهاً • قلت :

- لقد أفلت من لسانى منذ ساعة أن الرسالة التى بعثها توشار الى  
 تاتيانا بافلوفنا ، والتى وقعت بين أوراق آندرونيكوف ، صارت بعد موته  
 الى يدي ماريا ايفانوفنا بموسكو • وقد رأيت حين قلت هذا الكلام ، رأيت  
 فى وجهك نوعاً من التقبض • فلما رأيت الآن ذلك التقبض نفسه يلم  
 بوجهك مرةً أخرى أدركت حقيقة الأمر : لقد راودتك هذه الفكرة حين  
 كنا تحت : اذا عثر عند ماريا ايفانوفنا على رسالة كانت بين أوراق  
 آندرونيكوف ، أفلا يمكن أن يعثر عندها على الرسالة الأخرى أيضاً ؟

لا شك أن آندرونيكوف قد ترك رسائل تبلغ مبلغاً كبيراً من خطورة الشآن وشدة الحاجة إليها ، أليس كذلك ؟

- ففي رأيك اذن أننى انما جئتك لاستدراجك الى الكلام ؟  
- نعم •

فاصفر وجهه اصفراراً شديداً •

هذه الفكرة ليست من عندك • اننى أشم رائحة المرأة وراء أقوالك الزاخرة بالكراهية وظنونك الملائى بالشر •

- المرأة ؟ هذه المرأة قد رأيتها أنا فى هذا اليوم نفسه • ولعلك من أجل أن تتجسس عليها انما تريد أن تبينى عند الأمير ؟

- أرى أنك ستوغل فى طريقك الجديد اينغالا بعيداً جداً • أتكون هذه هى « فكرتك » ؟ أكمل يا صديقى أكمل ، انك تملك من مواهب التجسس ما لا سبيل الى جحوده ! حين يؤتى المرء موهبة من المواهب فيجب عليه أن ينميها •

وتوقف فرسيلوف عن الكلام ليسترده أنفاسه •

- حذار يا فرسيلوف ! لا تجعلنى عدوك !

- يا صديقى ، لا أحد فى مثل هذه الحالة يفصح عن كل أفكاره ، وانما هو يحتفظ بها لنفسه • والآن هات ضوءاً ، أرجوك • مهما تكن عدوى ، فما أظن أنك تتمنى لى أن تقطع رقبتى على سلّمك •  
ثم أضاف يقول وهو ينزل :

- هه ! ما رأيك يا صديقى فى أننى ، طوال هذا الشهر ، كنت أحسبك فتى طيباً ؟ ألا انك تبلغ من شدة الرغبة فى الحياة ، والظماً الى الحياة أنك لو وهبت ثلاثة أعمار لما اكفيت بها ! هذا مكتوب على وجهك • وأمثالك أكثرهم طيبون • لقد أخطأ ظنى فيك •

## ٤

ليس في طاقتي أن أصف شدة انقباض صدرى حين خلوت الى  
نفسى : لكأنتى قد قطعت قطعة من لحمى • أما لماذا ثارت ثائرتى فجأة ،  
ولماذا أغلقت له الاهانة والابذاء الى هذا الحد عامداً ، فذلك سؤال لا أعرف  
له الآن جواباً ، ولا عرفت له جواباً في ذلك الحين • ولشدهما اصفر وجهه!  
ألم يكن ذلك الاصفرار تعبيراً عن العاطفة أصفها وأصدقها ، وعن الحزن  
أعمقه وأقواه ، لا تعبيراً عن الغضب والاساجة ؟ لقد بدا لى دائماً أنه فى  
كثير من اللحظات كان يحببى ، فلماذا ، لماذا لا أصدق اليوم هذا ، لاسيما  
وأن أموراً كثيرة قد اتضححت بعد ذلك ؟

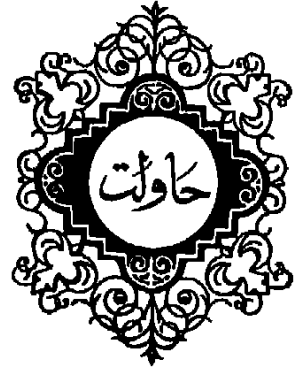
ولكننى قد ثارت ثائرتى فجأة ، فطرده ، ربما لاننى افترضت ذلك  
الافتراض الذى ساورنى بغته او هو أنه جاء الى آملأ أن يعرف ألا يزال  
عند ماريا ايفانوفنا رسائل أخرى من أوراق آندرونيكوف ؟ أما أنه كان  
مضطراً أن يبحث عن تلك الرسائل وأنه يبحث عنها فعلاً ، فذلك ما كنت  
أعرفه • ولكن لعلنى فى تلك الدقيقة بعينها قد أخطأت الظن كثيراً • ومن  
يدرى ؟ لعلنى أنا الذى جعلته ، بخطأ ظنى ، يفتن الى ماريا ايفانوفنا بعد  
ذلك ، وأوحيت اليه أنها قد يكون عندها رسائل !

واليكم فى النهاية هذا الشيء الغريب الآخر : مرة أخرى ردد  
ما يجول فى خاطرى كلمة كلمة ( عن الاعداد الثلاثة ) ، وذلك ما كنت  
قد عبرت عنه لكرافت بهذه الألفاظ نفسها • صحيح أن توارد الحواطر  
بالفاظها مصادفة • ولكن كيف عرف جوهر طبيعتى ؟ ما هذه البصيرة  
النافذة ؟ ما هذا الحدس الصدق ؟ ولكن اذا فهم شيئاً من الأشياء فهما يبلغ  
هذا المبلغ من القوة ، فلماذا لا يفهم الشيء الآخر ؟ هل يستطيع المرء أن

يصدق أنه كان لا يتظاهر تظاهراً ، بل كان عاجزاً بالفعل عن أن يدرك أن ما كنت في حاجة إليه ليس هو نبالة محتد فرسيلوف ، وأن ما كنت لا أستطيع أن أغفره له ليس هو مولدى من زنا ، وأنتى على مدى حياتى كلها انما كنت فى حاجة الى فرسيلوف ، فرسيلوف نفسه ، فرسيلوف كله ، فرسيلوف الأب ، وأن هذه الفكرة قد خالطت دى ؟ هل يمكن لرجل أوتى هذا الفكر المرهف أن يكون ضيق النظرة فاسد الرأى الى هذا الحد ؟ واذا لم يكن كذلك ، فعلا يغيظنى ، وعلام يتظاهر ؟

## الفصل الثامن

١



في الصباح التالي أن استيقظ في أبكر وقت ممكن • وكانت العادة في بيتنا أن ننهض في نحو الساعة الثامنة ، أقصد أمي وأختي ؛ أما فرسيلوف فقد كان نثوم الضحى فلا ينهض الا في التاسعة والنصف • وكانت أمي تأتيني بالقهوة في الثامنة والنصف تماماً • لكنني في هذه المرة لم أنتظر القهوة ، واختفيت من البيت في الساعة الثامنة • وكنت منذ العشية قد وضعت لنهارى خطة عمل عامة • ولكنني رغم عزمي المشبوب على وضع هذه الخطة موضع التنفيذ فوراً ، كنت أجس أن نفسي زاخرة بأنواع من التردد ازاء نقاط هامة من هذه الخطة • لذلك قضيت الليل كله نصف نائم ، حتى لا أكاد أهدى ، ووافقتي أحلام كثيرة ، فلا أستطيع أن أقول اني تمت حقاً • ومع ذلك نهضت متعشياً مرتاحاً كما لم أكن متعشياً ولا مرتاحاً في أى وقت مضى • وكانت أمي هي التي أحب أن أتحدثي لقاءها خاصة • فانتى معها لا أستطيع أن أتكلم الا في موضوع معين ، فكنت أخشى أن أتحول عن أهدافي بتأثير شعور جديد لا يكون في حساباني •

كان الصباح بارداً ، وكان يتموج على الطبيعة كلها ضباب رطب أبيض . لا أدري لماذا تعجبنى دائماً أصبح بطرسبرج التي تضج بالحركة رغم مظهرها الدميم ، ولماذا يفتنى كثيراً منظر هذه الجمهرة من الناس الأنانيين المهمومين المنصرفين الى أعمالهم مسرعين في الساعة السابعة من البكور . واني لأحب خاصةً أن أتجه الى أحد في الطريق فأسأله عن شيء متعجلاً ، أو أن يتجه الى أحد بسؤال : ان السؤال والجواب مقتضبان دائماً ، واضحان ، جليان ، ينطق بهما السائل والمجيب دون أن يقفا ، ويتبادلا بينهما بما يشبه الصداقة في جميع الأحيان . هذه لحظة من النهار يكون المرء فيها مستعداً للإجابة أحسن استعداد . ان ساكن بطرسبرج يكون في الظهر وفي المساء أقل استعداداً لتبادل الكلام . حتى انه يكون متأهباً للتأنيب والتقريع ، أو للسخرية والاستهزاء ، لأيسر الأسباب . ولا كذلك في البكور قبل العمل ، فهذا وقت الرصانة والجد . لاحظت ذلك .

اتجهت الى بطرسبرجسكاي ستورونا من جديد . واذ كان عليّ أن أعود حتماً الى فوتناكا ظهراً للقاء في بيته ( لأن فاسين انما يكون بالبيت ظهراً في أغلب الأحيان ) ، فقد حثت الخطى دون أن أتوقف في أى مكان ، رغم ما كنت أشعر به من رغبة قوية شديدة في ابتلاع فنجان من القهوة هنا أو هناك . ذلك أنني كان يجب عليّ أن أفاجيء ايفيم زيفارييف في بيته قطعاً قبل أن يخرج ؛ فاتجهت اليه ، وكدت أن أصل بعد قوات الأوان ، اذ كان قد فرغ من احتساء قهوته وتأهب للخروج .

– ما الذي يجيء بك الى كثيرآ ؟

بهذا استقبلني دون أن يتحرك من مكانه . قلت له :

– سأشرح لك .

ان بدايات النهار ، ومنها بدايات النهار في بطرسبرج ، تحدث في



الطبيعة الانسانية أثراً يشبه تبدد السكر . هناك أحلام ملتبهة تراود المرء في الليل ، حتى اذا طلع النور وهبَّ البُرد ، وتبخرت تبخراً كاملاً . وقد اتفق لى أن تذكرت في الصباح بعض أحلام الليل التي لم أكد أفرغ منها أو حتى بعض أفعاله ، فاذا أنا أنظر إليها نظرة فيها لوم واشمئزاز . ولكن يجب أن أذكر مع ذلك ، عابراً ، أن أصباح بطرسبرج ، حتى أكثرها خلواً من الشعر ، هي عندي بين أصباح سائر الكرة الأرضية ، أروعها وأشدها إثارةً للخيال . هذا رأيي أنا أو قل هو شعوري أنا ، ولكنني أصر عليه . وفي نظري أن الحلم الوحشي الذي يراه هرمان في قصة « البنت البستونية » ( وهو شخصية رائعة ، غير عادية ، تمثل نموذج الشخص البطرسبرجي ، ونموذج العهد البطرسبرجي ! ) ينبغي له ، في صباح من أصباح بطرسبرج هذه ، المتعفة الرطبة المضبة ، أن يقوى مزيداً من القوة . مائة مرة تراءت لي من خلال الضباب هذه الرؤيا العجيبة ، ولكن الثابتة : « حين سينقش هذا الضباب ويرتفع ، ألن يحمل معه كل هذه المدينة المتعفة الدبقة ؟ وهذه المدينة ، ألن تصعد مع هذا الضباب وتزول كالدخان ، ولا يبقى في مكانها الا المستنقع الفنلندي القديم ، ويبقى في وسط المستنقع - من أجل الجمال ان شئتم - هذا التمثال البرونزي ، تمثال الفارس المتطى صهوة حصانه المنهوك ؟ لست أستطيع على كل حال أن أعبر عن جميع مشاعري ، ما دام هذا كله خيلاً ، وما دام كله شعراً في آخر الأمر ، أي سخافات ! ومع ذلك فإني كثيراً ما ألقيت على نفسي ولا أزال ألقى على نفسي سؤالاً هو في هذه المرة سؤال جنون مطبق : « ها هم أولاء جميعاً يركضون ويسرعون . فمن يدري ؟ ألا يمكن أن لا يكون هذا كله إلا حلماً . أن يمكن أن لا يكون ههنا انسان واحد حقيقي ، وفعل واحد واقعي ، فيكفي أن يستيقظ شخص فجأة ، أعني الشخص الذي يرى هذا الحلم ، حتى يتبدد كل شيء ؟ » . ولكن هأنذا نأيت عن موضوعي .

أقولها سلفاً : ان في حياة كل نسان مشاريع وأحلاماً تبلغ من الشذوذ والغرابة ، فيما يبدو ، أن المرء يستطيع من أول نظرة ودون تعرض للخطأ أن يعدها جنوناً . وان جنوناً من هذا النوع هو ما كنت أحمله في ذلك الصباح الى زفياريف ، الى زفياريف لأنني ليس لي أحد غيره ببطرسبرج يمكن أن أتجه اليه في هذه المرة . والحق أنني لو كنت أملك حرية الاختيار لكان ايفيم آخر من أستطيع أن أعرض له اقتراحي .

وحين جلست أمامه أحسست أن الهديان والحلمى مجسدين قد جلسا أمام الاعتدال والاسفاف مشخصين . ولكن بينما كنت أنا مؤيداً بالفكرة والعاطفة الصحيحة ، كان هو لا يؤيده شيء الا هذه النتيجة العملية : ذلك لا يعمل ! الخلاصة : أوضحت له أنني ليس لي ببطرسبرج أحد أستطيع أن اتخذه شاهداً غيره ، في قضية شرف تبلغ مبلغاً كبيراً من الخطورة ، وأنه رفيق قديم وأنه ليس له حق في أن يرفض ، وأنتى أريد أن أدعو الى المبارزة ضابطاً من الحرس برتبة ليوتان هو الأمير سوكولسكى ، لأنه منذ أكثر من سنة قد صنع أبى فرسيلوف بمدينة « امس » . يجب أن أذكر أن ايفيم كان على علم بجميع تفاصيل حياتى العائلية ، وعلاقتى بفرسيلوف ، وكان يعرف كل ما أعرفه أنا نفسى عن حياة فرسيلوف . كنت قد أفضيت اليه بهذا كله مراراً ، باستثناء بعض الأسرار طبعاً . وقد أضغى الى كلامى جالساً على عادته ، مشعناً كمصفور في قفص ، صامتاً رصينا متعاضماً مع شعره الأشقر المنفوش . وكانت ابتسامة جامدة ساخرة قد ارتسمت على شفتيه لا تبارحهما . وكانت هذه الابتسامة مؤذية ، لا سيما وأنها ليست مقصودة ، وانما هي مرتسمة على شفتيه بغير ارادة منه . كان واضحاً أنه في تلك اللحظة كان يحس بأنه يتفوق على تفوقاً كبيراً في الذكاء والارادة على السواء ، تفوقاً حقيقياً واقعياً . حتى لقد تراءى لي أنه يحتقرنى بسبب ما حدث أمس عند درجاشيف . فلا بد أن يكون الأمر كذلك : ان ايفيم هو الجمهور ، ان

ايقيم هو الشارع ، والشارع لا ينحني الا للنجاح دائماً •  
قال يسألني :

– وفرسيلوف ، ألا يعرف عن الأمر شيئاً ؟

– طبعاً لا يعرف •

– فبأي حق تتدخل في شؤونه ؟ ثم ... ما الذي تريد أن تبرهن

عليه بهذا العمل ؟

كنت أعرف هذه الاعتراضات ، فأوضحت له فوراً أن الأمر ليس  
سخيفاً الى الحد الذي يتصوره • فأولاً : سأبرهن لذلك الوقح الذي هو  
أمير أنه لا يزال يوجد رجال يفهمون الشرف حتى بين أبناء طبقتنا •  
وثانياً : سأخزي فرسيلوف وألقنه درساً • وثالثاً – وذلك هو الشيء  
الأساسي : سوف يرى فرسيلوف ، ولو كان على حق في أنه – لاقتاعات  
قائمة في نفسه – لم يدعُ الأمير الى المبارزة بل تحمّل الصفة ، سوف  
يرى على الأقل أن هناك مخلوقاً قادراً على أن يشعر بالاهانة التي ألحقت  
بفرسيلوف كشموره باهانة ”ألحقت به هو ، ومستعداً لأن يضحى بحياته في  
سبيله ... مع أنه يفصل عنه الى الأبد •

– على مهلك ... لا تصرخ ... ان عمتي لا تحب هذا • قل لي من

فضلك : أليس بين فرسيلوف وبين هذا الأمير سوكولسكي نفسه دعوى  
ينظر فيها القضاء بشأن ميراث ؟ انها اذن لوسيلة طريفة جديدة من أجل  
كسب الدعوى بقتل الخصم في مبارزة •

فأوضحت له أنه ليس الا غيباً ووقحاً وأنه اذا كانت ابنته  
الساخرة تتسع لحظة بعد لحظة ، فما هذا الا دليل على صلف نفسه وقلة  
عقله ، وانه لا يستطيع أن يفترض أن هذه الاعتبارات الخاصة بالدعوى  
التي ينظر فيها القضاء لم تخطر ببالي منذ البداية ، وان هذه الاعتبارات  
لا يمكن أن تشرف بوجودها الا رأسه الخاوي • ثم عرضت له أن  
القضاء قد فصل في الدعوى ، وأن فرسيلوف قد كسبها ، وأن

الدعوى لا تستهدف الأمير سوكولسكى بل الأمراء سوكولسكى ، فاذا مات منهم واحد بقى الآخرون ، ولكن يحسن طبعاً تأجيل التحدى الى ما بعد انقضاء المهلة القانونية لرفع الدعوى الى محكمة النقض ( رغم أن الأمراء سوكولسكى لا يتوون رفعها الى محكمة النقض ) ، وانما يحسن ذلك من باب التقيد بالمواضعات المألوفة ، حتى اذا انقضت المهلة القانونية قامت المباراة ، ولقد جئت وأنا أعلم أن المباراة لن تتم اليوم ، ولكننى فى حاجة الى اتخاذ احتياطاتى ، لأننى ليس لى أحد أتخذه شاهداً لى ولا أعرف احداً ، فاذا رفض ايقيم أن يكون ذلك الشاهد ، كان لى من الوقت ما يتسع للبحث عن شخص غيره على الأقل . فلهذا السبب انما جئت .

— ما كان عليك الا أن تجيء بعد انقضاء المهلة القانونية ، بدلاً من أن تقطع عشرة فراسخ بدون طائل .

قال ذلك ونهض وتناول كسكيتته . فسأله :

— أتكون شاهدى اذن ؟

— لا ، طبعاً لا . . . .

— لماذا ؟

— أولاً للسبب التالى : اذا وافقت الآن على أن أكون شاهداً لك فى المستقبل ، فسوف تجيء الى هنا كل يوم طوال مدة المهلة القضائية . وثانياً لأن هذا كله سخافات لا أكثر . أتظن أننى أرضى أن أدمر مستقبلى من أجلك ؟ وماذا لو سألتى الأمير : « من أرسلك ؟ » فقلت له : — « دولجوروكى » ، فقال لى : — « وما شأن دولجوروكى بفرسيلوف ؟ » . قد يكون على عندئذ أن أشرح له أصلك ، أليس كذلك ؟ لسوف يفطس اذن من فرط الضحك !

— فما عليك عندئذ الا أن تلطمه على خطمه !

— سخف !

٥٥

٥ - أتخاف وأنت القوى ؟ لقد كنت أقوانا جميعاً في الليسيه .

٥ - أخاف . طبعاً أخاف . ثم ان الأمير سيرفض أن يبارزك .

ان المرء يبارز نداءً له .

٥ - أنا أيضاً بثقافتى سيد . ان لى امتيازات . انتى ند له . واذا كان

أحدنا لا يرقى الى مستوى الآخر فهو الذى ليس لا يرقى الى مستوى .

٥ - لا ، لا ، أنت صغير جداً !

٥ - صغير ؟ كيف ؟

٥ - هكذا ! نحن كلانا صغير ، وهو كبير .

٥ - غبى ! اننى بحكم القانون أستطيع أن أتزوج منذ سنة .

٥ - تزوج ما شئت أن تتزوج . ولكن هذا لا ينفى أنك فتى غر

لم يشب عن الطوق بعد .

أدركت أنه يريد أن يسخر منى . ولقد كان فى وسعى طبعاً أن

أستغنى عن رواية هذا الجزء الغبى من قصتى ، بل لعله كان يستحسن

أن يغيب هذا الجزء فى المجهول . أضف الى ذلك أنه منفر بما يتصف

به من تفاهة وقلة فائدة ، رغم أنه كانت له نتائج خطيرة .

ولكن من أجل أن أعاقب نفسى مزيداً من العقاب ، سأروى

الحاتمة . فبعد أن أدركت أن ايفيم يسخر منى ، أبحث لنفسى أن أضربه

على عظم كتفه الأيمن بقبضة يدي اليمنى . فأمسكنى عندئذ من

المنكين ، وأدارنى الى جهة الشارع ، وبرهن لى فعلاً على أنه كان

أقوانا جميعاً فى الليسيه .

لا شك أن القارىء سيتخيل أننى حين تركت ايفيم كنت معتكر المزاج غاضباً ، ولكن القارىء سيخطئ إذا هو تخيل ذلك . فلقد كنت أدرك أن الحادث هو مما يقع بين تلاميذ مدرسة ، بين تلاميذ ليسيه ، وأنه لا يمس جوهر القضية . وقد شربت قهوة فى جزيرة فاسيلي متعمداً أن أتجنب مطعم الأمس فى بطرسبرجسكايا ستورونا : فان هذا المطعم وهزاره يثيران الآن فى نفسى كرهاً مضاعفاً . ان بى صفة غريبة : هى أننى يمكن أن أكره الأماكن والأشياء ككرهى للأشخاص تماماً . كذلك أحب فى بطرسبرج أماكن معينة سعيدة ، أعنى أماكن سعدت فيها يوماً . ومن أعجب الأمور أننى أدخر تلك الأماكن السعيدة ، أى أتعمد أن أغيب عنها زمناً طويلاً ، لأذهب إليها فيما بعد ، حين أكون وحيداً وحدة تامة ، وحين أكون شقيماً شقاء شديداً ، فأمضى الى هناك نشداناً للعزاء واحياءً للذكرى . وفيما كنت أشرب القهوة ، أثبتت بينى وبين نفسى على ايفيم وقدرت فيه ما يتصف به من حسن الادراك . نعم ، انه يملك من الحس العملى أكثر مما أملك ، ولكن هل هو فى قلب الواقع أكثر منى ؟ ان الواقعية التى لا ترى ما هو أبعد من الأنف أشد خطراً من الخيال الجامح المجنون ، لأنها عمياء . ولكنى مع ثنائى على ايفيم ( الذى لا شك أنه كان فى تلك اللحظة مقتنعاً بأننى أغمره بالشتائم مطوفاً فى الشوارع ) ، لم أتخل عن شىء من اقتناعانى كما لم أتخل عن شىء منها الى هذا اليوم . لقد رأيت أناساً ما ان ينصب عليهم سطل من ماء بارد حتى يجحدوا لا أعمالهم فحسب ، بل أفكارهم أيضاً ، وحتى يضحكوا مما كانوا منذ ساعة واحدة يعدونه مقدساً ! ما أسهل ذلك عليهم ! لعل ايفيم كان على حق أكثر منى حتى فى جوهر الأمر ، ولعلنى أشد الأغبياء غباءً ، ولعلنى كنت غير صادق ، ولكن

هذا لا ينفي أن في قرارة المسألة نقطة كنت فيها أنا أيضاً على حق ، وأن  
عندي أنا أيضاً شيئاً صحيحاً عجز الناس عن فهمه خاصة فلم يدركوه في  
يوم من الأيام •

وصلت الى بيت فاسين في الزاوية التي يلتقى فيها فوتاكا وجسر  
سان سيمون عند تمام الظهر تقريباً ، ولكنه لم يكن في البيت • انه يعمل  
في جزيرة فاسيلي ، ولا يعود الا في مواقيت معينة ، ومن هذه المواقيت  
ساعة الظهر في جميع الأيام تقريباً • واذ كان ذلك اليوم عيداً نسيت  
الآن ما هو ، فقد كنت أقدر أن أجده حتماً • فلما لم أجده وطنت نفسي  
على انتظاره رغم أنني أجيئه أول مرة •

اليكم كيف فكرت في الأمر : ان الرسالة التي أملكها والتي تتعلق  
بالميراث تثير مسألة ضمير • فاذا احتكمت الى فاسين كنت أعلن له بذلك  
أننى أحترمه احتراماً عميقاً فلا بد أن يرضيه هذا ارضاء كبيراً •  
صحيح أن أمر هذه الرسالة كان يشغل بالى حقاً وأننى كنت مقتنعاً  
اقتناعاً شديداً بضرورة الاحتكام الى أحد • ولكن أظن أنني كنت  
أستطيع ، حتى منذ تلك اللحظة ، أن أخرج من هذه الصعوبة دون  
الاستعانة بشخص غريب • وكنت أعرف خاصة ، أنا نفسي ، أنه يكفي  
أن أسلم الرسالة الى فرسيلوف ، يداً بيد ، ثم فليفعل بها ما يشاء ! ذلك  
كان الحل • أما أن أنصب نفسي قاضياً أعلى في قضية من هذا النوع ، فذلك  
أمر غير لائق البتة • وحين أسلم الرسالة ، يداً بيد ، دون أن أقول  
شيئاً ، فأضع نفسي في خارج القضية ، فان كل ما يحدث عندئذ يكون لى  
كسباً وربحاً ، هذا عدا اننى اذ أفعل ذلك أعلو على فرسيلوف علواً  
واضحاً ، لأن تنازلى وحده ، من جهتى ، عن منافع الميراث ( لأن جزءاً  
من الميراث كان سيؤول الىّ ، بصفتى ابن فرسيلوف ، فى الحال أو فى  
المستقبل ، يهب لى حقاً معنوياً فى الحكم على سلوك فرسيلوف فى المستقبل •  
وما من أحد كان يستطيع أن يأخذ علىّ أنني دمرت الأمراء ، لأن

الوثيقة التي أملكها ليس لها أى قيمة قضائية حاسمة • هذا كله فكرت فيه وقتله لنفسي بوضوح في غرفة فاسين الحالية ، حتى لقد خطر ببالي فجأة اننى انما جئت الى فاسين راجياً فى أن أعرف منه السلوك الذى يجب علىّ أن أسلكه ، لشيء الا أن أبرهن له فى هذه المناسبة على أنني أتبل الناس وأزهدهم بالمنفعة ، فبذلك أتقم لنفسي من مذلة الأمس •

وشعرت باشمزاز كبير • ولكننى لم أنصرف بل بقيت ، رغم علمى بأن هذا الاشمزاز سيزداد دقيقة بعد دقيقة •

يجب أن أذكر أولاً أنني كرهت غرفة فاسين كرهاً شديداً • من حقهم أن يقولوا : « أرني غرفتك فأقول لك من أنت ! » كان فاسين يستأجر غرفة مفروشة عند مستأجرين فقراء يتخذون من التأجير مهنة ، وكان فى البيت مستأجرون آخرون • اننى أعرفها ••• هذه الحجرات الضيقة التى لا تكاد تكون مفروشة ، والتى تطمع مع ذلك فى أن تبدو مريحة مترفة • ان فيها - بالضرورة - ديواناً رخوياً مشترى من «سوق العتيق» ، ديواناً يخشى المرء تحريكه ، وحوضاً ، وسريراً من حديد وراء حاجز • لا بد أن فاسين كان أحسن المستأجرين وأكثرهم ضماناً : ان لكل مؤجرة مستأجراً مفضلاً تحمّل له الامتتان والشكر حتماً • فغرفته ترتب ترتيباً أفضل ، وتكنس كنساً أحسن ، وفوق ديوانه توضع صورة من الصور ، وتحت طاولته تفرش سجادة تحيلة • والناس الذين يحبون هذا النوع من النظافة التى تفوح منها رائحة العفن ويحبون - خاصة - هذا النوع من العناية والاحترام من جانب المؤجرين ، يكونون هم أنفسهم محل شبهة • ولقد كنت مقتنعاً بأن لقب « أحسن المستأجرين» كان يتملق فاسين • ولا أدري لماذا أخذ الحق يجتاح نفسى شيئاً فشيئاً من رؤية هاتين الطاولتين المزدهمتين بالكتب • كانت الكتب والأوراق والمجبرة ، كان ذلك كله مرتباً يبعث على أشد الاشمزاز والنفور • انه ذلك الترتيب الذى يوافق المثل الأعلى لفلسفة الجمال عند مؤجرة



ألمانية وخدمتها • ان الكتب كثيرة • وهى كتب حقاً ، لا جرائد ولا مجلات ، ولا بد أنه كان يقرأها • وأغلب الظن أنه حين يقرأ أو يكتب ، يصطنع هيئة تعبر عن أشد الوقار والجد ، وأعظم الاهتمام والانشغال • أما أنا فلا أدري لماذا أفضل أن تكون الكتب فوضى ، فهذا على الأقل ينسب • بأن المرء يعمل بدون اغترار وتبجح • صحيح أن فاسين هذا مهذب مع الزائرين الى أقصى حد ، ولكن كل حركة من حركاته كأنها تقول : « يسرنى أن أقضى معك ساعة من الزمن ، ولكنى ، متى انصرفت أنت ، سأعود أنا الى ما كنت فيه من أمور ذات شأن • » • وصحيح أن المرء يستطيع أن يجرى معه حديثاً شائقاً جداً ، وأن يتعلم منه شيئاً ، ولكن كل إشارة من اشاراته تكاد تنطق عنه قائلة : « سنتحدث معاً ، وسأسوقك كثيراً ، حتى اذا انصرفت أنت عدت أنا الى ما هو شائق حقاً • • • » • ومع ذلك لم أنصرف بل بقيت • وقد أصبحت الآن على يقين كامل من أنني لست فى حاجة الى نصائحه •

مكثت ساعة بل تزيد ، جالسا أمام النافذة ، على أحد الكرسيين المصنوعين من خيزران ، اللذين كانا هناك • وكان مما يزيد حنقى أن الوقت يمضى ، وأن على أن أجد مسكناً قبل المساء • وتمنيت أن أتناول كتاباً عسى أن أبدد الضجر ، ولكنى لم أفعل : فلقد كانت فكرة التسلى وحدها تضاعف اشمزازى • ان صمتاً مطقياً يخيم منذ أكثر من ساعة • ولكن ها! اذا أميز فجأة ، على مقربة منى ، وراء الباب الذى يسده ديوان ، بدون أن أريد ذلك ، وعلى نحو تدريجى ، همساً ما ينفك يقوى شيئاً بعد شيء • هما صوتا امرأتين ، يسمعها المرء واضحين ، ولكن يستحيل عليه أن يميز الكلام • ولكنى من فرط ضجرى حاولت أن أميز ما تقوله المرأتان • كان واضحاً أنهما تتكلمان بحرارة ، واندفاع ، وأن حديثهما لا يدور على ترهات • ان أحد الصوتين يتضرع ويتوسل ، وان الصوت الثانى يجيب نافذ الصبر رافضاً معارضاً • لا شك أن المرأتين مستأجرتان

أخريان • وسرعان ما تسرب الى الملل ، وألفت أذناى هذه الأصوات ، فكنت أصغى ، ولكننى أصغى كآلة بلا ارادة ، حتى لقد كنت فى بعض الأحيان أصى نسياناً تاماً أننى أصغى ، ثم اذا بحادث خارق يقع على حين بقتة : لكأن أحداً قد نط من على كرسيه بكلتا ساقيه ، أو اندفع فجأة وأخذ يقرع الأرض بقدميه • ثم سُمع أنين ، ثم سُمعت صرخة ، بل قل سمع زئير كزئير وحش غاضب لا يهمنه أن يسمعه غرباء أو أن لا يسموه • فوثبت الى الباب ففتحته ، وفتح فى الوقت نفسه باب آخر فى نهاية الممر ( وقد علمت فيما بعد أنه باب المؤجرة ) ، وخرج من الباب رأسان غريبان مستطلعان • فسرعان ما انقطع الصراخ ، ولكن الباب الذى يجاور بابى فتح فجأة ، وخرجت منه - فيما بدا لى - امرأة شابة وثت هاربة ونزلت السلم بسرعة • وقد أرادت امرأة أخرى مسنة أن تصدها عن الهرب ولكنها لم تفلح فى ذلك ، فلم تزد على أن أخذت تناديهما فى أنين وشكاة :

- أوليا ! أوليا ! الى أين تركضين ؟ آه ! ...

لكنها وقد أبصرت بابينا المفتوحين اسرعت ترد بابها دون أن تغلقه ، وانما تركته مشقوقاً لتسمع ما يحدث على السلم ، الى أن غاب وقع خطى أوليا الهاربة غيباً تاماً •

رجعت الى نافذتى • وعاد الهدوء يخيم • حادث لا قيمة له ، بل لعله سخيف ! وكففت عن التفكير فيه •

بعد ذلك بربع ساعة دوى فى الدهليز ، أمام باب فاسين ، صوت رنان طلق هو صوت رجل • وأمسكت يدي بقبضة الباب وشقته ، فاستطعت أن أبصر فى الدهليز رجلاً طويل القامة لا بد أنه لمحنى أيضاً ، بل لا بد أنه كان يتفرس فى ، ولكنه لم يدخل بعد ، وظل يكلم المؤجرة من آخر الدهليز ويده على قبضة الباب • فكانت المؤجرة ترد عليه بصوت نحيل منغم جنال ، وكان فى وسع المرء أن يدرك من هذا الصوت وحده أن

المرأة تعرف هذا الزائر معرفة قوية وأنها تحترمه وتقدره قدراً كبيراً ،  
سواء من حيث هو زائر يحظى بثقتها ، ومن حيث هو انسان مرح لطيف .  
وكان الرجل المرح يصيح ويمزح ، ولكن الكلام كله يدور على أن  
فاسين ليس في غرفته ، وأنه لن يعثر عليه أبداً ، وأن هذا لا يحدث  
لغيره قط ، وأنه سينتظر كما انتظر في المرة السابقة ، وكان هذا كله  
يبدو للمؤجرة أمراً يبلغ غاية الفكاهة . وأخيراً دخل الزائر فاتحاً الباب  
على سمته كلها .

انه رجل حسن الهندام ، يرتدى ثياب « سيد » كما يقال ، ولكن  
ليس في هيئته ما ينم عن أنه « سيد » ، رغم رغبته الواضحة في الظهور  
بهذا المظهر . وكان طلقاً غير متحرج ، بل قل كان وقحاً على السجية ،  
وهذا أقل كراهية الى النفس من رجل وقح درس نفسه مدة طويلة  
أمام مرآة . وكان شعره الكستأوى الذي وخطه الشيب قليلاً ، وحاجباه  
الأسودان ، ولحيته الكبيرة ، وعينه الواسعتان ، كان ذلك كله لا يهب  
له طابعاً خاصاً ، بل يسبغ عليه لا أدري أى نوع من الشبه بجميع الناس .  
ان رجلاً مثله يضحك ، ويهم أن يضحك في كل لحظة ، ولكنك لا تشعر  
في صحبته بشيء من المرح أبداً . ومن الهزل ينتقل بسرعة الى الوقار ،  
ومن الوقار الى المرح ، أو الى غمزات بالأعين ، ولكن هذا كله يتعاقب  
فوضى وبغير علة ظاهرة . على كل حال ، لا داعي الى وصفه منذ الآن .  
لقد عرفت هذا السيد مزيداً من المعرفة فيما بعد ، لذلك رسمت له هنا  
ملامح أدق كثيراً من الملامح التي كان يمكنني أن أرسمها له لحظة فتح  
الباب ودخل الغرفة . فعلت ذلك على غير ارادة مني . ومع هذا يصعب  
على حتى هذا اليوم أن أقول عنه أى شيء محدد دقيق معين ، لأن الطابع  
الرئيسي الذي يطبع أمثاله هو أنهم أناس غير مكتملين ، أناس مبغثون ،  
أناس غير محدددين .

ما ان جلس حتى خطر بيالى فجأة أنه لا بد أن يكون زوج أم

فاسين ، وهو رجل يقال له السيد ستيلكوف ، سبق أن سمعت عنه شيئاً ، ولكنني سمعت ما سمعته عرضاً فيستحيل عليّ أن أتذكر ما هو : كل ما أتذكره هو أن ما سمعته لم يكن خيراً • كنت أعلم أن فاسين اليتيم قد لبث مدة طويلة في كنفه ، ولكنه تحرر من سلطانه منذ سنين كثيرة ، وأن أهدافهما ومصالحهما متعارضة ، وأنهما يعيشان الآن منفصلين في كل أمر من الأمور • وقد تذكرت أيضاً أن ستيلكوف هذا يملك بعض الثراء ، بل أنه رجل نصاب ، أي انني لعلمي كنت قد عرفت عنه أشياء فيها مزيد من التفاصيل ، لكنني نسيتهما •

شملني بنظره دون أن يحينني • ووضع قبعته العالية على الطاولة أمام الديوان ، وأبعد الطاولة بقدمه بدفعة قوية ، وجلس على الديوان الذي لم أجرؤ أنا أن أجلس عليه ، بل قل تهاوى عليه تهاوياً بلغ من الثقل أنني سمعت الديوان يقرقع تحته ، وترك ساقيه تتدليان ، ثم رفع طرف قدمه اليمنى التي تتعل حذاء لناعاً وأخذ يتأمل الحذاء • ولكنه لم يلبث أن التفت الىّ وقاسني بعينه الواسعتين الجامدتين قليلاً • وقال وهو يهز لي رأسه هزاً خفيفاً :

– لن أراه اذن قط !

فلم أجب بكلمة •

– ليس سليماً • له آراء في كل أمر • قادم من بطرسبرجسكاييا

ستورونا !

سألته :

– أأنت قادم من بطرسبرجسكاييا ستورونا ؟

– بل أنا الذي أسألك هذا السؤال •

– أنا ••• أنا قادم من هناك فعلاً ، ولكن كيف عرفت ذلك ؟ •

– كيف ؟ هم •••

• وغمز بعينه • ولكنه لم يتنازل فيفضل بالاجابة •

قلت :

- أنا لا أقيم في بترسبرجسكاييا ستورونا ، ولكنني قادم منها ،  
فمنها انما جئت الى هنا •

وظل يتسهم صامتاً ، وكانت ابتسامته تصطنع طابع الخطورة ، فكرهتها  
كرهاً شديداً : ان فيه شيئاً مما في البلهاء •  
وقال أخيراً :

- عند السيد درجاشيف ؟

- ماذا عند السيد درجاشيف ؟

• وحملت

فنظر الى وقد لاح في هيئته معنى الانتصار • قلت :

- أنا لا أعرف درجاشيف !

- هم •••

قلت :

- كما تشاء •

وأصبح الآن كريهاً الى نفسي مقيتاً •

- هم •• نعم •• لا ! •• اسمح لي • هب أنك تشتري شيئاً من  
دكان وأن مشترياً ثانياً يشتري شيئاً آخر من دكان آخر مجاور ، فما هو  
هذا الشيء الآخر في رأيك ؟ هو مال عند بائع يسمونه مرايباً •• ذلك  
أن المال هو أيضاً شيء ، وأن المرابي هو أيضاً تاجر •• هل تتابع كلامي ؟  
- أظن •

- ويمر مشتر ثالث فيقول مشيراً الى أحد الدكانين « هذا حسن »

ويقول مشيراً الى الدكان الآخر « هذا غير حسن » ، فما عسى يكون رأيي  
في هذا المشتري ؟

– ما يدرينى أنا !

– لا ، اسمح لى • لقد ضربت مثلاً • لابد للانسان من أن يضرب  
أمثلة • هب أنتى أتجول فى شارع نفسكى ، فلاحظت على الرصيف المقابل  
فى الجهة الأخرى من الشارع رجلاً آخر أحب أن أعرف طبعه •  
ثم وصلنا كلانا الى شارع مورسكيا حيث « المخزن الانجليزى » ، فلاحظنا  
متجولاً ثالثاً داسته عربية • انتبه الآن انتباهاً قوياً : ان شخصاً رابعاً يمر  
فيريد أن يعرف طباعنا نحن الثلاثة جميعاً ومنا الرجل الذى داسته العربية •  
أقصد يريد أن يعرف طباعنا من حيث الروح العملية والميل الى الأمور  
الجدية • • هل تتابع كلامى ؟

– معذرة • اننى أتابع ، ولكن بصعوبة شديدة •

– نعم ، هذا ما قدرته • فسأغير الموضوع • هب أنتى فى مدينة من  
مدن المياه المعدنية بألمانيا ، كما سبق أن ذهبت الى هناك مراراً كثيرة •  
ليس مهماً أن أعين اسم المدينة • وأتجول فأرى انجليزاً • ولكن ها نحن  
أولاء جميعاً ، بعد شهرين ، وقد انتهى الموسم ، فلتقى فى الجبال ، ونمضى  
تسلق معاً ، متوكئين على عصى مدببة الأطراف ، فنصعد تارةً فى جبل  
وتارةً فى جبل آخر • لا قيمة لسؤالك عن الجبل أى جبل هو ؟ يستوى  
أن يكون هو هذا الجبل وأن يكون ذاك • ولكن هب أنتى عند المنعطف ،  
أى فى خاتمة الشوط ، هناك حيث يقطر الرهبان خمرتهم ، التقيت بواحد  
من سكان الجبل وقف جامداً معتزلاً ينظر فى صمت ، فأردت أن أعرف  
مدى ما يتصف به من روح الجد : فما رأيك ؟ هل أستطيع أن أتجه  
بالكلام الى الانجليز الذين أسير معهم بعد أن لم أستطع فى مدينة المياه أن  
أجرى أى حديث بينى وبينهم ؟

- ما يدرينى ! معذرة • اننى أجد فى متابعة كلامك عناءً كبيراً •

- كبيراً ؟

- نعم ، انك تعينى •

- هم ••

وطرف بعينه وحرك يده بإشارة لا شك أنها كانت تعبر عن معنى الانتصار والظفر • ثم استل من جيبه بوقار كبير وهدوء شديد ، جريدة لا بد أنه اشتراها منذ برهة قصيرة ، ففضها وأخذ يقرأ فى الصفحة الأخيرة منها ، كأنه يريد أن يدعى فى راحة تامة • ولبت خمس دقائق لا يرفع الى بصره •

- لم تنزل أسعار أسهم « برست جريف » ، هه ؟ انها لا تزال فى ارتفاع ! ما أكثر الأسهم التى تدهورت أسعارها •

قال ذلك وهو ينظر الى مهتماً أبلغ الاهتمام • قلت :

- مازلت لا أعرف عن شئون البورصة كثيراً •

- أأنت تستنكر ؟

- أستنكر ماذا ؟

- المال •

- لا أستنكر المال •• ولكننى أرى أن منزلة الفكرة قبل منزلة

المال •

- أى •• معذرة •• هب أن رجلاً هو رأسمالى كما يقال ••

- الفكرة أولاً ، والمال بعد ذلك • فبدون فكرة عليا ينهار المجتمع

رغم كل ما يملكه من مال •

لا أدرى حقاً لماذا تحمست • ونظر الى بشيء من الغباء ، كرجل

أصبح لا يعرف كيف يخرج من المأزق ، ثم تهلت أساريره فجأة ،  
وارتسمت على شفثيه ابتسامة جذلة ماكرة وقال :

– وفرسيلوف ، هه ؟ حظى بالغبيمة ، هه ؟ حكموا له أمس ،  
هه ؟

فرايت فجأة ، وعلى دهشة كبيرة منى ، أنه يعرف مَنْ أنا منذ  
مدة طويلة ، وأنه ربما كان يعرف أشياء كثيرة أيضاً . ولكننى لا أفهم  
لماذا احمر وجهى فوراً ، وشخصت ببصرى اليه شخصاً غيباً أبله فلا  
أشبح عنه لحظة . فكان واضحاً أنه انتصر ، وكان ينظر الىّ فرحاً كأنه  
قبض علىّ بحيلة ماكرة ، وأمسكنى متلبساً بالجرم . ثم رفع حاجبيه وقال :

– لا ! اسألنى أنا عن السيد فرسيلوف ! ماذا قلت لك منذ هنيهة عن  
الحد فى الأمور ؟ منذ سنة ونصف كان فى وسعه أن يتم صفقةً كبيرة  
بواسطة ذلك الطفل ، ولكن ضربته لم تصب هدفها ، ودق عنقه .

– بواسطة أى طفل ؟

– بواسطة طفل لا يزال رضيعاً ، وهو ينفق على حضائته سراً .  
ولكنه لن يجنى من ذلك شيئاً ، لأن . .

– أى طفل رضيع ؟ ما هو الموضوع ؟

– هو ولده طبعاً ، هو ولد له من « الأنسة » ليديا آخماكوف . .  
« فتاة فتاة كانت تلاقفنى » ، فوسفور أعود الثقاب ، هه ؟

– ما هذه السخافات ؟ انه لم يولد له ولد من آخماكوف أبداً !

– غريب أمرك ! أين كنت أنا اذن ؟ يخيل الىّ مع ذلك أننى  
طبيب ومولد . ان اسمى ستيلكوف . ألا تعرفنى ؟ صحيح أننى فى ذلك  
الحين كنت قد انقطعت عن ممارسة مهنة التوليد منذ مدة طويلة . ولكننى  
كنت أستطيع أن أسدى بنصيحة عملية فى حالة عملية .



– أنت مولد \* هل ولدت أخمأكوفا ؟

– لا ، لم أولدها أبداً \* وإنما كان هناك ، فى الضاحية ، طيب اسمه جراتس ، مثقل بأعباء أسرة ، أُعطي نصف دينار ، وهو المبلغ الذى 'يدفع هناك للأطباء ، ثم انه عدا ذلك لم يكن قد استدعاه أحد \* المهم أنه ذهب وناب منابى \* فأنا الذى أوصيت به لتزداد الظلمات كثافة \* هل تتابع كلامى ؟ أنا من جهتى لم أزد على أن أسديت بنصيحة جواباً عن سؤال من فرسيلوف ، من آندره پتروفتش فرسيلوف ، سؤال التمس فرسيلوف جوابه منى سرآ ، ولكن فرسيلوف فضّل أن يطارد أرنيين فى آن واحد \* كنت أصغى الى كلامه مندهشاً أعمق الاندهاش \*

– والمثل يقول عندنا ، بل عند الشعب : « من طارد أرنيين لم يستطع أن يصطاد أيّاً منهما » \* وأنا أقول : ان الاستثناءات اذا تكررت أصبحت هى القاعدة العامة \* لقد طارد أرنباً ثانياً ، أو قل بالروسية الفصيحة طارد سيدة ثانية ، فلم يظفر بأية نتيجة ! طير فى اليد خير من عشرة طيور على الشجرة \* انه يتردد حيث يجب الاسراع \* فرسيلوف ! ألا انه « نبي للنساء » ، كما وصفه أمامى الأمير الشاب سوكولسكى فأحسن الوصف أيما احسان \* لا ، انك لتعجبني حقاً ! اذا أردت أن تعرف أشياء كثيرة عن فرسيلوف ، فتعال اسألنى أنا !

كان واضحاً أنه معجب بسمى الذى تدور من فرط الدهشة ! اننى لم أسمع عن هذا الطفل الرضيع قبل ذلك أبداً \* وفى تلك اللحظة قرع باب غرفة الجارتين ، ودخل الى غرفتهما شخص مسرع \*

– فرسيلوف يسكن فى سيمينوفسكى بولك ، شارع موجايسك ، عمارة لتفينوفا ، رقم ١٧ ؛ أنا قادمة من مكتب العناوين !

بذلك صاح صوت امرأة غاضبة \* وكانت كل كلمة من كلماتها

مسموعة • فقطب ستيلكوف حاجيه ، ورفع أصبعه أعلى من رأسه  
وقال :

– نحن نتكلم عنه هنا ، وها هو ذا يظهر •• تلك هي الاستثناءات  
التي تتكرر ! صدق المثل : أذكر الديب وحضر القضيب ••  
ونفض عن مكانه بوثة فجلس على الديوان ووضع أذنه على الباب  
الذي كان يسده هذا الديوان •

دهشت دهشة شديدة • لقد أدركت أن تلك الصرخة لا بد أنها  
صادرة عن المرأة الشابة التي هربت منذ قليل مهتاجةً احتياجاً كبيراً •  
ولكن ما شأن فرسيلوف هنا؟ وعاد الصراخ الذي سمعته منذ قليل يدوى  
مسعوراً • انه صراخ انسان قد جن غضباً لأنه 'يمنع عنه شيء ما ، أو يصد  
عن فعل شيء ما • وكان الفرق الوحيد هو أن الصرخات أو الاعوات قد  
دامت الآن مدةً أطول • كان ثمة صراع ، وكلمات عجلى سريعة :  
« لا أريد ، لا أريد » ، « ردوه هذا ، ردوه هذا ، حالاً » ، أو شيئاً من  
هذا القبيل لا أستطيع أن أتذكره تذكراً دقيقاً • وكما حدث من قبل ،  
وثب أحد الى الباب فجأةً ففتحه ، واندفعت المرأتان في الدهليز تحاول  
احدهما أن تصد الأخرى عن الهروب ، كما وقع منذ قليل • فاذا بصاحبنا  
ستيلكوف الذي كان قد نزل الى أسفل الديوان وراح يصغى مثلنذاً ،  
إذا به يشب الى الباب دفعة واحدة ويخرج الى الدهليز متجهاً الى المرأتين •  
واقتربت أنا أيضاً من الباب بطبيعة الحال • ولكن ظهور ستيلكوف في  
الدهليز كان له أثر كأثر سطل من ماء بارد : فما ان رأته الجارتان حتى  
أسرعتا تغيان في غرفتهما ، وتغلقتان بابها فيقرقع • وقد هم ستيلكوف  
أن يركض وراءهما ، لكنه توقف رافعاً أصبعه مبتسماً مفكراً • فرأيت  
في ابتسامته هذه المرة شيئاً فيه أقصى الحُب والشر واللؤم • حتى اذا أبصر  
المؤجرة واقفة أمام بابها من جديد ، أسرع اليها سائراً على رءوس  
الأصابع ، ولبت يهامسها مدة دقيقتين ، فكان واضحاً أنه حصل منها على

بعض المعلومات ، ثم قفل راجعاً الى الغرفة بخطى فيها اختيال وثبات ، وتناول من على الطاولة قبعته العالية ونظر الى وجهه في المرآة ، ورتب شعره ، ومضى الى باب الجارتين حتى دون أن ينظر الى ، فظل يتنصت عليهما دقيقة ، وقد ألصق بالباب أذنه وراح يرسل الى المؤجرة عند الطرف الآخر من الدهليز غمزات تحمل معنى الانتصار ، فكانت المؤجرة تهدده باصبعها وتهز رأسها كأنها تقول : « آآآ يا للعفريت •• يا للعفريت ! » • ثم هاهو ذا ينقر على بابهما بسلاميات يده وقد لاح في وجهه عزم يخالطه ترقق وتلطف • وها هو ذا صوت من الداخل يسأل :

- من ؟

- هل يؤذن لى بالدخول ، لأمر بالغ الخطورة ؟

كذلك أجاب ستيلكوف بصوت عال فيه وقار وحرصانة • فلم يفتح الباب بسرعة ، ولكنه فتح مع ذلك ، فتح في أول الأمر قليلاً أو قل شق شقاً ، غير أن ستيلكوف أمسك قبضته امساکاً قوياً ، فلا يستطيع أخذ أن يعيد اغلاقه • وبدأت المحادثة ، فكان ستيلكوف يتكلم بصوت عال ، وما ينفك يحاول أن يدخل الغرفة • لا أتذكر الكلمات التي قالها ، ولكن حديثه كان يدور على فرسيلوف ، وكان يذكر أنه يستطيع أن يجيء بأخبار ، وأن يزود بايضاحات ، وكان يردد : « لا ، اسألانى أنا ، اسألانى أنا » وهلم جراً • ولم يلبث أن أُدخل بسرعة • فرجعت الى ديوانى ، وأخذت أنصت ، لكننى لم أستطع أن أميز كل شيء ، وانما كنت أسمع اسم فرسيلوف يتردد كثيراً • وحزرت من نبرة الصوت أن ستيلكوف قد سيطر على الحديث ، فهو الآن لا يتكلم مخاتلاً بلف ودوران ، بل يجرى كلامه طلقاً حاسم اللهجة ، كحديثه معى منذ قليل ، فتارة يسأل قائلاً : « هل تتابعان ما أقول ؟ » ، وتارة يقول آمراً : « دعانى أوغل مزيداً من الايغال الآن ! » وما الى ذلك • ولكن لا بد أنه كان لطيفاً غاية اللطافة مع

المرأتين • وقد جلجلت ضحكة منذ الآن مرتين ، وأغلب الظن أنه كان ضحكا في غير محله ، لأننى كنت أسمع ، عدا صوته وأعلى من صوته أحيانا ، صوتى المرأتين اللذين لا يعبران عن أى ابتهاج ، ولاسيما صوت المرأة الشابة الذى أطلق الصرخات قبل ذلك • كانت هذه المرأة الشابة تتكلم كثيرا ، بلهجة عصبية ، وسرعة ظاهرة ، من أجل أن تتهم وتشكى وتطالب بالعدل حتماً • ولكن ستيلكوف لا يبقى هادئاً : فيها هو ذا يرفع صوته أكثر فأكثر ، ويزداد ضحكه لحظة بعد لحظة • ان أشخاصاً من نوعه لا يحسنون الاصفاء الى الآخرين • ولم ألبث أن نزلت عن الديوان ، اذ بدا لى أن من العيب أن أتصت ، ورجعت الى مكانى السابق أمام النافذة على كرسى الخيزران • وكنت مقتنعا بأن فاسين لا يضرر لهذا السيد أى اعتبار ، ولكن لو أفصحت له عن رأى ، لهباً يدافع عنه برصانة ووقار ، ولأخذ يلقنى درساً فيقول : « هذا رجل عملى ، انه واحد من رجال الأعمال هؤلاء المحدثين الذين يستحيل أن نحكم عليهم من وجهة نظرنا العامة المجردة » • وانى لأتذكر من جهة أخرى أننى كنت فى تلك اللحظة محطم النفس وكان قلبى يخفق خفقاناً قويا وكنت أنتظر أن يقع حادث ما • وانقضت عشر دقائق ، فاذا أنا أسمع فجأة ، فى وسط ضحكة فظيعة ، وثوباً أحدي عن كرسيه ، كما حدث منذ برهة ، وأسمع المرأتين تصرخان ، وأسمع وثوب ستيلكوف أيضاً ، والأحظ أنه أصبح يتكلم بلهجة أخرى ، كأنه يحاول أن يبرر نفسه ، كأنه يضرع الى المرأتين أن تتكرما فتسمعا كلامه الى نهايته ••• ولكنهما لم تصغيا اليه • ودوت صرخات : « أخرج من هنا ! ما أنت الا وغد ! ما أنت الا وقع ! » • كان واضحا اذن أنه يُطرد • وقد فتحت باب غرفتى فى اللحظة التى خرج فيها ستيلكوف الى الدهليز من عند الجارتين مدفوعاً بأيديهما دفعا • فلما رآنى يصرخ مشيراً الى قائلاً لهما :

– هذا ابن فرسيلوف !

وأضاف :

- لم تريد أن تصدقاني ... فانظرا اذن ! هذا هو ابنه بنفسه ، هذا هو بعينه !

وقبض على يدي قبضاً قوياً ، دون أن يضيف الى ما قاله شيئاً .

كانت المرأة الشابة في الدهليز . وكانت المرأة المسنة في شق الباب على مسافة خطوة منها . أتذكر أن الفتاة المسكينة لم تكن دميمة : انها في نحو العشرين من العمر ، ولكنها نحيلة هزيلة مريضة الهيئة ، يضرب لونها الى الحمرة ، وتشبه أختي بعض الشبه وجهاً ، وتلك سمة خطفت بصرى ، ونقشت في ذاكرتي . ولكن ليزا ما اجتاحتها في يوم من الأيام - ولا أمكن أن تتجتاحها في يوم من الأم - نوبة غضب شبيهة بنوبة الغضب التي تهز الانسانية التي تقف أمامي الآن . كانت شفاتها بيضاوين ، وكانت عيناها الشهبوان تقدحان شرراً ، وكانت ترتعش من شدة الحق من قمة رأسها الى أخمص قدميها . أذكر أيضاً أنني أنا نفسي كنت في وضع يبلغ غاية الغباء والحزى ، فأننى لم أجد كلمة أقولها ، بجريرة هذا الرجل الفظ الوقح .

- هبه ابنه ! ما قيمة ذلك ؟ واذا كان في صحبتك فلا بد أن يكون وغداً حقيراً مثلك .

والتفتت الى فقالت لى :

- اذا كنت ابن فرسيلوف فأبلغ أباك عنى أنه سافل ، منحط ، وأنتى لست في حاجة الى ماله ... خذ . . . خذ . . . خذ . . . ردّ اليه هذا المال فوراً .

واستلت من جيبتها عدة أوراق نقدية . ولكن المرأة المسنة ( وهى أمها كما عرفت ذلك فيما بعد ) أمسكت ذراعها وقالت لها :  
- ولكن قد لا يكون كلامه صحيحاً يا أوليا ! قد لا يكون هذا ابنه !

فألقت عليها أوليا نظرة سريعة ، وفكرت ، وتفرست فيَّ باحتقار ،  
وعادت تدخل غرفتها ، ولكنها قبل أن تغلق الباب ، وقفت على العتبة ،  
وشملت ستيلكوف بنظرها مرة أخرى وقالت له :

- اخرج من هنا !

حتى لقد قرعت بقدمها الأرض ! ثم خبطت الباب فأغلقتة ، وسمع  
صوت أقفاله من الداخل بالفتاح . وكان ستيلكوف ما يزال قابضاً على  
كتفي ، فرفع أصبعه وقد تمدد فمه بابتسامة طويلة تتم عن تفكير ، ثم حذق  
إلى نظرة سائلة مستفهمة ، فجمجمت أقول له .

- أرى سلوكك معي سخيفاً ومعيباً .

ولكنه كان لا يصغى الى كلامي ، ورغم أنه لم يحول بصره عني .  
وتتمم يقول حاله الهيئة :

- هذا ما ينبغي أن يد . . . ر . . . س !

- ولكن كيف تجرأت أن تقحمي في هذه الأمور ؟ من هذه ؟  
من هذه المرأة ؟ لقد أمسكت كتفي وجررتني . ما هذا الفعل ؟

- أوه ! امرأة فقدت بكارتها « الاستثناء الذي يتكرر كثيراً » . هل  
تبع كلامي ؟

وغرز أصبعه في صدري . فقلت وأنا أدفع أصبعه :

- دعني ! شيطان يأخذك !

ولكنه أخذ يضحك فجأة ، أخذ يضحك ضحكاً هادئاً رفيعاً جذلاً .  
وأخيراً وضع قبعته على رأسه ، ثم قال وقد تغيرت سحته واربذ وجهه  
وتقطب حاجباه :

- يجب نصح المؤجرة • عليها أن تطردهما من الشقة، وأن تطردهما  
بأقصى سرعة ، والا ... سوف ترى ! احفظ ما أقوله لك ، سوف  
ترى ...

وظهر عليه الابتهاج ، وقال يسألنى :

- أنتتظر جريشا ؟

فأجبتة بجزم :

- لا ، لن انتظره •

- طيب • سيان !

وبدون أن يضيف حرفاً واحداً ، أدار ظهره وخرج ، وأخذ يهبط  
السلم حتى دون أن يلقي نظرة على المؤجرة التى كان يبدو عليها أنها  
تنتظر منه ايضاحات وأنباء • وتناولت قبعتى أنا أيضاً ، وأسرعت أنزل بعد  
أن رجوت المؤجرة أن تبلغ فاسين أن دولجوروكى جاء اليه •

أضعت وقتى • فهأنذا أبادر الى البحث عن مسكن منذ خرجت • كنت ذاهلاً • وظللت أطوف فى الشوارع عدة ساعات • ودخلت خمسة بيوت مفروشة أو ستة ، لكننى واثق بأننى مررت بنحو عشرين بيتاً دون أن ألاحظها • ما كنت لأتصور أن العثور على مسكن أمر يبلغ هذا المبلغ من الصعوبة • لذلك ضاق صدرى ضيقاً شديداً • ان جميع الغرف التى رأيتها تشبه غرفة فاسين ، بل هى أسوأ منها ، وكراؤها مع ذلك باهظ جداً ، أو هو فوق طاقتى المالية • ولم أكن فى حاجة الى أكثر من ركن أضطجع فيه • فكنت اذا أفصحت عن هذا أجاب فى احتقار بأن على اذن أن أتجه الى أناس ممن ، « يؤجرون أركاناً » • زد على ذلك أن جميع البيوت التى رأيتها كانت تزدهم بمستأجرين شاذين يكفى أن أنظر الى سحنهم حتى أحس أننى لا أستطيع أن أسأكنهم ، بل أننى مستعد لأن أدفع مالاً من أجل ألا أعيش بجوارهم • ففى أحد البيوت مثلاً رأيت أناساً بغير ردنجات ، يبلغ عددهم عشرة أشخاص ، يرتدون صديرة ، وقد تشعثت لحاهم ، وظهر عليهم الفضول ، وليس فى سلوكهم أى تخرج ، قد احتشدوا فى غرفة ضيقة شديدة الضيق وراحوا يلعبون بالورق ويشربون البيرة • وقد عرضت على فى ذلك البيت غرفة الى جانب تلك الغرفة • وفى بيت آخر انهمرت على أسئلة المؤجرين فكنت أنا الذى أجيب عن الأسئلة ، وبلغت اجاباتى من الغباء أنهم كانوا ينظرون الى دهشين • وفى بيت ثالث ثارت ثائرتى وغضبت • ولا داعى الى وصف هذه التفاصيل التفاهة على كل حال • وانما أردت أن أقول اننى وقد تعبت تعباً شديداً ، أصبت شيئاً من طعام فى نزل حين هبط المساء وكاد الظلام أن يخيم • وانتهيت الى اتخاذ قرار حاسم هو أن أذهب وحيدى وبنفسى الى



فرسيلوف ، فأسلمه الرسالة الخاصة بالميراث ( دون أى شرح أو تعليق ) ، ثم أصدد الى فوق فأخذ أمتعتى فأملأ بها حقيتى وصرّة ، وأمضى الى فندق آيت لىلى فيه . كنت أعلم أن فى آخر شارع أوبلوخوف ، بقرب « قوس النصر » فنادق يستطيع المرء أن يكترى فيها لنفسه غرفة مستقلة يتلاثين كوبكاً . فقررت أن أبذل هذه التضحية فى تلك الليلة حتى لا أبقى عند فرسيلوف مدة أطول . ولكننى حين مررت أمام « معهد التكنولوجيا » ، خطر ببالى فجأة أن أدخل على تاتيانا بافلوفنا التى تسكن فى شقة أمام المعهد . وكانت حجتي التى عللت بها نفسى للدخول على تاتيانا بافلوفنا هى هذه الرسالة نفسها التى تتعلق بالميراث ، ولكن رغبتى هذه التى لا تقاوم انما كانت لها أسباب أخرى الآن ، وهى أسباب أعجز اليوم عن وصفها : كان قد حدث فى فكرى خلط عجيب بين « الطفل الرضيع » و « الاستثناءات التى تصبح قاعدة عامة » ، وما الى ذلك . ترى أكنت أريد أن أروى شيئاً ، أم كنت أريد أن أصطنع أوضاعاً ، أم كنت أريد أن أشاجر تاتيانا بافلوفنا ، أم كنت أريد أن أبكى ؟ لست أدرى ، ولكننى سعدت سلم تاتيانا بافلوفنا . لم أكن قد زرتها الى مرة واحدة قبل اليوم ، فى بداية اقامتى بموسكو ، وذلك لأنقل اليها رسالة من أمى لا أذكر الآن ما هى ، ولكننى أذكر أننى دخلت على تاتيانا بافلوفنا ونقلت اليها الرسالة وانصرفت بعد دقيقة ، فلا أنا جلست ولا هى منعتنى من الانصراف .

قرعت الجرس . فسرعان ما فتحت لى الطباخة الباب ، وأدخلتنى صامتة لا تتكلم . ان هذه التفاصيل ضرورية جداً من أجل أن نفهم كيف أمكن وقوع ذلك الحادث الحارق الجنونى الذى كان له شأن خطير فى كل ماتبعه من أحداث . ولتبدأ بالكلام على الطباخة . انها فنلندية سيئة الطبع فطساء الأنف أظن أنها كانت تكره مولاتها تاتيانا بافلوفنا ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت لا تستطيع أن تنفصل منها ، وكانت تتعلق بها تعلقاً شديداً كتهلق العوانس بكلابها ذات الأنوف الرطبة ، أو بقططها الغافية

دائماً • كانت الفنلندية تتقلب بين حالتين : فهي اما متأففة مدمرة ،  
واما صامته في اثر شجار تظل خرساء لا تنطق بحرف واحد خلال  
أسابيع بكاملها عقاباً لمولاتها • ولا شك أن مجيئي قد صادف يوماً من  
أيام الصمت هذه ، لأننى حين سألتها : « هل السيدة فى البيت ؟ » -  
وقد ألقىت سؤالى واضحاً كل الوضوح فيما أتذكر - لم تجبني  
بكلمة ، ورجعت الى مطبخها دون أن تفتح فيها • واذا ظننت عندئذ  
أن السيدة فى البيت ، دخلت غرفة الاستقبال ، ولكننى لم أجد أحداً ،  
فانتظرت ، ظناً منى أن تاتيانا بافلوفنا لن تلبث أن تخرج من غرفتها ، والا  
فهل كان للطباخة أن تدخلنى ؟ ولبثت واقفاً مدة دقيقتين أو ثلاث • وكان  
الظلام يخيم ، وكانت شقة تاتيانا متجهمة فى ذاتها من كثرة ما يتبدل فيها  
من ستائر وقماش هنا وهناك • ولنقل الآن كلمتين عن هذه الشقة الكريهة  
من أجل أن يتصور القارىء هذا المكان الذى وقع فيه الحادث • ان تاتيانا  
بافلوفنا ، بسبب طبعها المستبد العنيد ، وبسبب ما تتصف به من حبه  
الظهور بمظهر السادة النبلاء ، لم تستطع أن تكتفى بغرفة مفروشة ،  
فاستأجرت هذا المسكن الذى يحاكي شقة ، لا لشيء الا أن تعيش فيه  
مستقلة وأن تكون سيدة بيتها • والحق أن الغرفتين اللتين تتألف منهما  
هذه الشقة أشبه بقفصين من أقفاص عصافير الكنارى ، قد التصق أحدهما  
بالآخر ، وكان كل منهما أصغر من أخيه • وهما تقعان فى الطابق الثانى ،  
وتطلان على فناء العمارة • انك حين تدخل هذه الشقة يطالعك فى أول  
الأمر ممر صغير ممطوط ، لا يزيد عرضه على متر ، ثم ترى قفصى  
عصافير الكنارى على يسارك ، فاذا نظرت الى أمام ، عند آخر الممر ،  
أبصرت مدخل مطبخ صغير • ان الأربعة عشر متراً مربعاً من الهواء ،  
التي لا بد منها للانسان حتى يعيش اثنتى عشرة ساعة ، قد تكون متوفرة  
فى هذا البيت ، ولكن لا شك أنه لا يتوفر فيه من الهواء أكثر من ذلك •  
الغرفتان واطناتان الى حد مخيف ، والأبشع من هذا أن النوافذ والأبواب

والسقف والجدران والأثاث ، أن كل ذلك كان مكسوّاً أو مغطى بقماش من قطن ، قماش فرنسي جميل مشجر ، لذلك تبدو الغرفة أضيق من واقعها مرتين ، حتى لكأنها جوف عربة . ولقد كان المرء يستطيع في الغرفة التي كنت أنتظر فيها أن يتحرك ملتفتاً إذا أراد ، رغم أن المكان مزدحم بالأثاث ، ولم يكن الأثاث رديشاً : ففي الغرفة أنواع شتى من الطاولات الصغيرة المصنوعة من خشب مرصع مزدان بالبرونز ، وفيها أنواع من العلب ، ومنضدة لأدوات الزينة رائعة الجمال بل واسعة التراء . أما الغرفة الصغيرة الأخرى التي كنت أتوقع أن تخرج منها تاتيانا بافلوفنا ، وهي غرفة النوم التي تفصلها عن الأولى ستارة ، فليس فيها الا سرير كما عرفت ذلك من بعد . ان هذه التفاصيل كلها ضرورية لفهم الحماقة التي ارتكبتها .

انتظرت لا يساورني أى شك . واني لذلك اذا بالجرس يرن . وسمعت الطباخة تجباز المر بغير تعجل ، وتدخل عدداً من الزواد صامتة ، كما فعلت معي منذ قليل . هما سيدتان تتكلمان كلتاهما بصوت عال . . ولكن ما كان أشد دهشتي حين تعرفت صوت احدهما فعرفت أنها تاتيانا بافلوفنا ، وتعرفت صوت الثانية فعرفت أنها المرأة التي لم أكن متهيئاً لأن ألقاها الآن أبداً ، ولا سيما في هذا المكان ! لا شك في أنها هي ، « امرأة الأمس » ! فما العمل ؟ اننى لا ألقى هذا السؤال على القارىء . وانما أنا أتخيل تلك الدقيقة لنفسي ، وما زلت الى اليوم عاجزاً عاجزاً مطلقاً عن أن أفسر لنفسي كيف ارتيمت فجأة وراء الستارة ، فصرت في غرفة نوم تاتيانا بافلوفنا ! المهم اننى اختبأت ، وما كدت أثب تلك الوثبة التي اخفتني عن الأنظار حتى دخلت السيدتان . لماذا لم أهبّ الى لقائهما بدلاً من أن أختبئ ! لا أدري . لقد حدث هذا كله مصادفة ، على غير وعى منى ، وعلى غير ارادة .

ولطوت عند السرير ، فلم ألبث أن لاحظت أن للغرفة باباً يفضي

الى المطبخ ، أى مخرجاً يمكن اللجوء اليه والهروب منه اذا وقع مكروه!  
ولكن يا للهول ! لقد كان الباب مقفلاً بالمفتاح ، ولم يكن المفتاح بالقفل •  
فتهاكت على السرير يائساً مكروباً • ولقد كان واضحاً لى أننى سأستسمع  
الآن الى حديثهما ، وأدركت منذ الجمل الأولى ، منذ الأصوات الأولى ، أن  
حديث المرأتين سرى جداً. وخرج جداً • أوه ! لا شك أن الرجل النيل  
الشريف المستقيم يجب عليه ، حتى فى مثل تلك اللحظة ، أن يخرج  
ويقول بصوت عال : « أنا هنا ، انتظرا ! » ، وأن يخرج مهما يكن وضعه  
عندئذ مضحكاً • ولكننى لم أنهض ولم أخرج • وخفت أحقر خوف •

قالت تاتيانا بافلوفنا متوسلة ضارعة :

– كاترين نيقولايفنا ، عزيزتى ، هدئى نفسك ، أرجوك ، ان هذا  
الاضطراب ليس من طبعك • حيثما تكونى يكن الفرح ، فما بالك فجأة...  
آمل أن تظلى واثقة بى ••• أنت تعرفين مدى اخلاصى لك ••• وتعرفين  
أن هذا الاخلاص لك يساوى على الأقل اخلاصى لأندره بتزوفتش الذى  
لا أكتمه وفائى له الى الأبد • صدقيني اذن ! أحلف لك بشرفى انه لا يملك  
هذه الوثيقة ، وربما كان لا يملكها أحد على الاطلاق • ثم انه لا يقدر  
على هذا النوع من المكائد ، فليس حسناً منك أن تضعيه فى موضع  
شبهة • أتما كلاكما تخيلتما هذه العداوة •••

– الوثيقة موجودة • وهو لا يتورع عن شىء • أمس دخلت ، فكان  
اول شخص لقيته هو « ذلك الجاسوس الصغير » الذى فرضه على الأمير !

– دعيك من هذا الكلام • « ذلك الجاسوس الصغير » أولاً ، ماهو  
جاسوس • أنا الذى ألححت على وضعه عند الأمير • ولولا ذلك لفقد  
عقله فى موسكو أو مات جوعاً • أو هذه هى على الأقل المعلومات التى  
تلقيناها من هناك • ثم ان هذا الصبى الفظ ليس أكثر من أبله • فكيف  
يمكن أن يتخذ جاسوساً ؟

- هو أبله ، نعم ، ولكن ذلك لا ينفى أن يصبح وغداً • لقد كنت معتكرة المزاج بالأمس ، ولولا ذلك لفطست من الضحك : اصفر وجهه ، وتقدم مسرعاً ، وراح يسلم متلطفاً ، وأخذ يرطن بالفرنسية • ومع ذلك كانت ماريا ايفانوفنا تحدثني عنه حديثها عن عبقرى ! ان تلك الرسالة لم 'تتلف' ، وهى بين أيدى خطرة ، استتجت ذلك من هيئة ماريا ايفانوفنا •

- عزيزتى الجميلة ! ألم تقولى أنت نفسك ان ماريا ايفانوفنا ليس عندها شيء ؟

- هى تزعم ذلك • ولكنها تكذب بل هى حاذقة فى الكذب ! قبل رحلتى الى موسكو كان لا يزال يساورنى أمل فى ألا تكون قد بقيت أية ورقة ؟ أما هنا ، هنا •••

- ولكن يقال يا عزيزتى انها انسانة طيبة جداً عاقلة جداً ، وان المرحوم كان يقدرها أكثر من سائر بنات اخوته وأخواته • أنا لا أعرفها طبعاً ، ولكن كان يجب عليك أن تغالبيها قليلاً يا عزيزتى الجميلة ! ليس صعباً عليك أن تفتنيها : انى - أنا العجوز - مغرمة بك ، مولهة بحبك ، حتى لأكاد أقبلك ••• فهل كان يعز عليك أن تغويها ؟

- غازلتها يا تاتيانا بافلوفنا • حاولت • حتى انها سرت بذلك سروراً كبيراً • لكنها ماكرة • انها هى أيضاً ماكرة • لا ، لا • هذه شخصية غريبة ، شخصية موسكوبية ! تصورى أنها نصحتنى بأن أتجىء هنا الى رجل اسمه كرافت ، كان مساعد أندرونيكوف ، فلعله يعرف شيئاً ! وأنا أعرف من هو كرافت هذا ، بل اننى أذكره قليلاً • ولكن ما ان كلمتني عن كرافت حتى أيقنت فوراً أنها لا تجهل شيئاً ، بل تعرف كل شيء ، وانما هى تكذب •••

- ولكن لماذا تكذب ؟ على كل حال ، يمكن التماس معلومات من

كرافت ! ان هذا الألماني ليس بالرجل الثرثار ، وهو شريف جداً فيما أذكر . ولكن لا بد من سؤاله ، وأظن أنه ترك بطرسبرج . . . .

- رجعت أمس . اننى قادمة من عنده . . . وهذا بعينه هو السبب فى أنك تريننى على هذه الحال من التخوف والارتعاش الشديد . كنت أريد أن أسألك يا ملاكى تاتيانا بافلوفنا ، ما دمت تعرفين جميع الناس ، أما من وسيلة الى البحث بين أوراقه ؟ لا بد أنه ترك أوراقاً . فمن الذى تؤول اليه هذه الأوراق ؟ ذلك أنها قد تقع بين أيدينا . لقد جئت أسألك أن تسدى الى بنصيحة .

- أى أوراق تعين ؟ ألم تقولى انك قادمة من عند كرافت ؟  
كذلك قالت تاتيانا بافلوفنا التى لم تفهم من سؤالها شيئاً . فأجابت كاترين بقولايضا :

- نعم نعم ، اننى قادمة من عنده . ولكنه انتحى ! مساء أمس .  
قفزت من على السرير . لقد استطعت أن أبقى لاطياً ساكناً حين سمعتها تصفنى بأننى جاسوس وبأننى أبله . وكنت كلما أوغلنا فى حديثهما مزيداً من الايغال ، أحس احساساً أقوى بأننى لا أستطيع أن أظهر لهما ، فليس ذلك لاثقاً . كنت قد عزمتم فى قرارة نفسى ، بعد أن كف قلبى عن خفقانه الشديد ، أن أنتظر الى اللحظة التى تشيع فيها تاتيانا زائرتها ( هذا اذا واتانى الحظ فلم تحتج الى دخول غرفتها قبل ذلك ) فمتى انصرفت أخمأكوفا كنت مستعداً لأن أظهر فأخوض معركة مع تاتيانا بافلوفنا ! . . . أما الآن وقد علمت بانتحار كرافت فقد قفزت واعترانى نوع من التشنج ، وأصبحت عاجزاً عن التفكير فى أى شىء ، عاجزاً عن التبصر بمواقب الأمور ، فاذا أنا أرفع الستارة وأجدنى واقفاً أمامهما . ولم تكن حلقة الظلام قد اشتدت بعد ، فكان يمكنهما أن تريانى شاحباً مرتعشاً .  
فهما تصرخان . وكيف لا تصرخان ؟

تمتتم أقول ملتفتاً الى آخماكوفنا :

- كرافت ؟ انتحر ؟ أمس ؟ عند غروب الشمس ؟

فأعولت تاتيانا بافلوفنا تسألنى وقد غرزت أصابعها فى كفى :

- أين كنت ؟ من أين خرجت ؟ كنت تتجسس علينا ؟ كنت

تتصت على حديثنا ؟

وقالت كاترين نيقولايفنا وهى تنهض عن الديوان وتشير الى

ياصبعها :

- ماذا قلت لك عنه ؟

فقاطعتها صارخاً وقد استبدى بى غضب مسعور :

- هذه كلها أكاذيب ! هذه كلها حماقات وسخافات ! لقد وصفتنى

من لحظة بأننى جاسوس • فاعلمى اذن أنه لا شىء يستحق من المرء عناء

أن يتجسس ، بل لا شىء يستحق منه عناء أن يعيش فى هذه الحياة الدنيا

مع أناس من أمثالكم ! ان الأختيار ينتهون الى الانتحار • لقد انتحر كرافت

فى سبيل الفكرة ، من أجل هيكوب • ولكن أنى لك أن تعرفى شيئاً

عن هيكوب ؟ ••• لقد حكم على الانسان هنا أن يحيا فى وسط مكائدكم ،

وأن يتخبط فى احوال أكاذيبكم وأخاديعكم ودسائسكم المستترة

الخفيه ••• كفى !

صرخت تاتيانا بافلوفنا قائلة :

- اصغيه ! اصغيه !

ولكن كاترين نيقولايفنا ظلت تنظر الى ( أذكر هذا كله بأدق

تفاصيله ) دون ان تحول بصرها عنى لحظة واحدة ، ودون أن تتحرك من

مكانها قيد شعرة ، فما كان من تاتيانا بافلوفنا الا أن هبت واقفة تريد ان

تولى تنفيذ النصيحة بنفسها •• فرأيتنى أرفع يدي بغير ارادة منى لأحمى

وجهي من صفتها • فاذا هي تصور من هذه الحركة التي قمت بها انني  
أهددها • فصرخت تقول لي :

- هيا ! اضرب ، اضرب ! فبهرن على أنك بمحتدك خادم • أنت  
الأقوى ، فلماذا تتخرج من نساء مسكينات ؟

فصرخت أقول :

- كفى تخرصاً ، كفى ! ما رفعت يدي على امرأة في يوم من  
الأيام ! لكنك سفينة يا تاتيانا بافلوفنا • ولقد كنت تحقريني دائماً • علام  
احترام الناس ؟ وأنت يا كاترين نيقولايفنا ، أراك تضحكين • فلا شك  
أنك تضحكين من هيتي : نعم ، ان الله لم يهب لي وجهاً كوجوه مرافيك •  
لكنني لا أشعر أمامك بهوان ومذلة • بل القيص هو الصحيح : فأنا  
أحس بأنني أعلى منك • ولا قيمة للتعابير على كل حال ، فانما المهم أنني  
لم أرتكب ذنباً • لقد جئت الى هنا عرضاً ياتيانا بافلوفنا • والمذنب الوحيد  
انما هو طباختك الفنلندية ، بل قولي ان الذنب انما يقع على تعلقك الشديد  
بها • لماذا لم تجيني حين سألتها عنك ، لماذا أدخلتني الى هنا رأساً ؟ ولعلكما  
تدر كان أنني ما كنت لأستطيع أن أخرج من غرفة امرأة على حين فجأة • •  
دفعه واحدة • • هكذا • • والا كان ذلك أمراً عجيبيماً شاذاً • • لذلك  
آثرت • • أن أسمع شتائمكما على أن أظهر لكما • أما تزالين تضحكين  
يا كاترين نيقولايفنا ؟

صاحت تاتيانا بافلوفنا قائلة وهي تكاد تدفني دفماً :

- اخرج من هنا ، اخرج من هنا ! لا تأبهي لأكاذيبه يا كاترين  
نيقولايفنا • سبق أن قلت لك انه وُصف لي من هناك بأنه مجنون •

- مجنون ؟ من هناك ؟ من وصفني بأنني منجون ؟ ولكن لا خير ،  
كفى هذا ! يا كاترين نيقولايفنا ، أحلف لك بكل ما أقدس ، أن هذا



الحديث الذي سمعته سيظل مكتوماً لا أبوح به لأحد • هل ذنبي أنني  
اكتشفت أسراركم؟ واعلمي خاصة أنني تارك أباك منذ الغد • فتستطيعين  
أن تطمئني وأن تهدئي بالآء فيما يتعلق بالوثيقة التي تبحثين عنها •

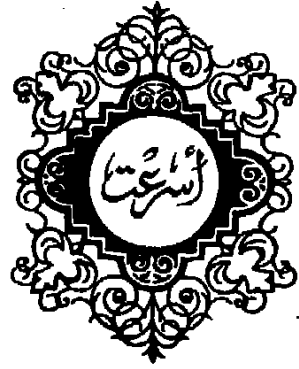
– ماذا؟ أي وثيقة تعنى؟

اضطربت كثيرين نيقولايفنا اضطراباً بلغ من القوة أن لونها شحب  
شحبواً شديداً • أو هذا ما بدا لي أنا • فأدركت أنني قلت أكثر مما كان  
ينبغي أن أقول •

وخرجت مسرعاً • وشيعتاني بنظراتهما صامتتين • وكنت أقرأ في  
وجهيهما دهشة قصوى • الخلاصة أنني ألقيت لغزاً •

## الفصل التاسع

١



أعود الى البيت • ومن أشد العجب أنني كنت  
راضياً عن نفسي مقتبلاً بها • صحيح أن المرء  
لا يكلم النساء بهذه اللهجة ، ولا سيما مثل هذه  
النساء ، بل قل مثل هذه المرأة ، ( ذلك أنني  
لا أدخل تاتيانا بافلوفنا في حسابي ) • اعلمه لا يجوز لرجل أن يقول لامرأة  
من هذا النوع : « أنا لا أعبا بمكائلك وديسائسك ! » • ولكنني قلت  
ذلك ، وهذا بعينه هو ما كان يجعلني راضياً مقتبلاً • كنت موقناً على  
الأقل أنني اذ خاطبتها بهذه اللهجة قد بددت كل ما كنت فيه من وضع  
مضحك ، ناهيك عما عدا ذلك • غير أن وقتي لم يتسع للتفكير في هذا  
كله زمناً طويلاً : ذلك أن كرافت كان يملأ جوانب نفسي كلها • لا أقصد  
أن اتحاره كان يؤلمني ويعذبني كثيراً ، وإنما أقصد أن نفسي قد اهتزت  
للنبا اهتزازاً قوياً واضطربت اضطراباً شديداً • وحتى اللذة العادية التي  
يشعر بها الناس حين يرون مصيبة تنزل بغيرهم ، كأن تكسر ساق أحد  
أو يقطع شرفه أو يموت له عزيز أو ما الى ذلك ، حتى هذه اللذة العادية  
لم أشعر بها ، وإنما اجتاحتني شعور آخر ، شعور قوى الى أقصى حدود  
القوة ، شعور بالحزن أو شعور بالحسرة •• لا أدري •• ولكنه شعور

يبلغ غاية القوة والحسن • وعن هذا أيضاً كنت راضياً وبهذا أيضاً كنت مقتبلاً • أمر عجيب : ما أكثر الأفكار الغريبة عما أنت فيه ، التي يمكن أن تندفق وتتلاحق في ذهنك حين يهزك نبأ ضخم كان ينبغي له في الظاهر أن يخفق سائر المشاعر وأن يعثر جميع الخواطر التي لا تمت إليه بصلة ، ولا سيما الخواطر التي لا قيمة لها ولا خطورة • ومع ذلك فإن هذه المشاعر والخواطر هي التي عرضت لي وملاّت نفسي • ما أزال أذكر أنني قد اجتاحتني هزة عصبية قوية ، شيئاً بعد شيء ، دامت عدة دقائق ، بل دامت طول الوقت الذي قضيته في البيت متحدثاً مع فرسيلوف •

وقد جرى هذا الحديث مع فرسيلوف في ظروف خاصة غير مألوفة • سبق أن قلت أننا نقيم في جناح بفناء عمارة وهذا المسكن رقمه ١٣ ؛ فقبل أن أصل إلى بوابة المبنى سمعت امرأة تسأل بصوت عال ، وقد نفذ صبرها واشتد ضيقها : « أين يقع المسكن رقم ١٣ ؟ » • انها سيدة فتحت باب دكان صغير مجاور • ولكن أحداً لم يجب عن سؤالها ، بل لعلهم طردوها ، لأنني رأيتها تهبط الدرجات غاضبةً مكروبةً يائسةً ، وصرخت تقول وهي تخطب الأرض بقدمها :

- فأين البواب اذن ؟

وكنت قد تعرفت هذا الصوت منذ مدة • فقلت وأنا أتقدم منها :

- أنا ذاهب إلى المسكن ١٣ ؛ عمن تسألين ؟

- انني أبحث عن البواب منذ ساعة • سألت جميع الناس ، وصعدت

جميع السلالم •

- ان المسكن الذي تسألين عنه يقع في فناء العمارة • ألم تعرفيني ؟

ولكنها كانت قد تعرفتني • وواصلت كلامي فقلت :

- تريدن أن ترى فرسيلوف ؟ لك معه شأن ، ولى أنا معه شأن

أيضاً • انني آت إليه لأودعه إلى الأبد • فهيا بنا •

- أأنت ابنه ؟

- لا قيمة لهذا • هينى ابنه ، رغم أن اسمى دوجوروكى أنا ولد غير شرعى • ان لهذا السيد عدداً كبيراً من الأولاد غير الشرعيين • ورب ابن شرعى يترك منزل أبيه اذا أوجب عليه الضمير والشرف ذلك • جاء هذا حتى فى التوراة • ثم انه قد نال ميراثاً فلا أريد أن أقاسمه هذا الميراث • أريد أن أكفى بكدمى يمينى • ومن كان كريم القلب ضحى حتى بحياته اذا لزم ذلك • لقد اتحر كرافت فى سبيل الفكرة ! تصورى ! كرافت الشباب الذى كانت تعقد عليه آمال كبار ! حتى فى التوراة جاء أن على الأولاد أن يتركوا آباءهم وأن يبنوا لأنفسهم أعشاشاً •• حين تجرفك الفكرة •• حين يكون له فكرة •• آه •• ان الفكرة هى الأمر الرئيسى •• كل شىء قائم فى الفكرة ••

واصلت هذه الثروة بعض الوقت الى أن بلغنا بيتنا • لاشك أن القارىء لاحظ أننى لا أراعى نفسى ولا أدارى نفسى ، وانما أصفها بما هى • اننى أريد أن أتعلم قول الحق •

كان فرسيلوف بالبيت • دخلت دون أن أترك معطفى • وكذلك فعلت هى • كانت ثيابها خفيفة جداً : فستان قائم اللون تتحرك فى أعلام قطعة من قماش لا أدرى ما هى ، ولكنها وضعت هنالك لتكون بمثابة ياقة أو خمار ؟ وطاوية عتيقة مجرودة تغطى الرأس وهيهات أن تجمله •

حين دخلنا الصالة كانت أمى فى مكانها المألوف مكتبةً على شغلها ، وخرجت أختى من غرفتها لتتنظر ، ووقفت عند العتبة • وكان فرسيلوف ، على عادته ، لا يعمل شيئاً ، فهض يستقبلنا •• وحدق الى بنظرة قاسية مستفهمة ، فأسرعت أقول لأطمئنه وأنا أتحنى :

- أنا لا شأن لى فى الأمر • لقد التقيت بها أمام الباب ، وكانت تسأل عنك ، فلا يدلها أحد • لكن لى أنا أيضاً قضية سوف يسرنى أن أشرحها لك بمد قليل ••

ولكن فرسيلوف ظل يتأملنى مستطعماً •

وبدأت الفتاة تتكلم وقد نفذ صبرها فقالت :

- هل تسمح ؟

فالتفت فرسيلوف اليها • فأردفت تقول :

- لقد فكرت طويلاً فى السبب الذى دعاك الى أن تترك لى هذا

المال بالأمس ، فاتتهيت الى •• الخلاصة : اليك مالك فخذ •

وأطلقت صرخةً كما فعلت من قبل ، وألقت على الطاولة حزمة من

الأوراق المالية • واستطردت تقول :

- اجتطرت أن أذهب الى مكتب العناوين لأعرف أين تسكن ،

ولولا ذلك لجئت قبل الآن •

ثم أضافت وهى تلتفت فجأة الى أمى التى شجب لونها شحوباً

شديداً :

- اسمعى انت • اننى لا أريد أن أهينك • فوجهك يدل على أنك

سيده شريفة ، وربما كانت هذه الفتاة ابنتك • لا أدرى أأنت زوجته

أم لا • ولكن اعلمى أن هذا الرجل يقص من الصحف الاعلانات التى

تنشرها المربيات والمعلمات بأخر ما يملكن من قروش ، ويطوف على

هؤلاء المسكينات سعياً الى منافع غير شريفة مغريباً اياهن بالمال • لا أدرى

كيف أمكنتى أن أقبل ماله أمس ! كانت هيئته تدل على استقامة وصدق •

قف مكانك ! لا تقل كلمة واحدة ! أنت رجل دنىء يا سيد ! وهبك

شريف النيات فاننى لا أريد مالك ! آه •• ما أشد سرورى بأن أفضحك

وأخزيك أمام نساك ! لعنة الله عليك !

وهربت مسرعه • ولكنها عند العتبة التفتت ، لا لشيء الا أن تصرخ

قائلة :

– يقال انك نلت ميراثاً !

ثم اختفت كما يختفى ظل • يجب أن أذكر مرة أخرى أنها كانت بشدة غضبها كجنية • شده فرسيلوف شدهاً عميقاً • ولبث في مكانه حالماً ، وكأنه يفكر في شيء ما • ثم التفت الى فجأة وسألني :

– ألا تعرفها البتة ؟

– رأيتها هذا الصباح مصادفةً في بيت فاسين • كانت تضطرب في الدهليز وتطلق الصرخات وترسل اليك اللعنات • ولكننا لم ندخل في حديث ، ولا أعرف عنها شيئاً • وقد التقيت بها الآن أمام الباب • لا بد أنها معلمة الأمس ، « تلك التي تعطي دروساً في الحساب » •

– هي نفسها • مرةً في حياتي قمت بعمل حسن ، و • • وأنت ماذا جاء بك ؟

فأجبه بقولي :

– اليك رسالة • لا داعي الى أن أشفعها بايضاحات • انها من كرافت • وقد تلقاها كرافت من المرحوم أندرونيكوف • اقرأها فينيرك مضمونها • ولكنني أضيف أن أحداً في العالم لا يعرف الآن بوجود هذه الرسالة سوى ، لأن كرافت الذي أعطاها أمس قد انتحر فوراً بعد زيارتي له •

فيما كنت أتكلم لاهثاً متعجلاً ، تناول هو الرسالة ، فجعلها في يده اليسرى ، وتابع النظر الىً باتباه • وحين أبلغته نبأ انتحار كرافت أنعمت النظر في وجهه لأرى ما أحدثه النبأ في نفسه • فما رأيكم اذا قلت لكم ان النبأ لم يحدث في نفسه أي أثر ؟ حتى حاجباه لم يرتفعا ! بالعكس : حين رأني أتوقف عن الكلام استل نظارته التي تركز على الأنف ويتدلى منها شريط أسود ( وكان لا يفارق هذه النظارة أبداً ) وقرَّب الرسالة من

شمعة ، وأخذ يقرأها بعد أن ألقى نظرة على التوقيع الذي يذيلها • ليس  
 فى وسعى أن أصف لكم عمق الجرح الذى أصابتنى به كبرياؤه وقلة  
 احساسه • لا بد أنه يعرف كرافت معرفة قوية • وهذا نبأ خارق على كل  
 حال ! ولقد كنت أتمنى طبعاً أن أحدث فى نفسه أثراً • انتظرت  
 نصف دقيقة ، واذ كنت أعرف أن الرسالة طويلة ، فقد أدت له ظهري  
 وانصرفت • كانت حقيبتى مهيأة منذ مدة طويلة ، ولم يبق علىّ إلا أن  
 أجعل بعض أمتعتى فى صرة • وخطرت ببالي أمى : لم أكن قد اقتربت  
 منها • وبعد عشر دقائق كنت قد تهيأت تهيؤاً تاماً ، وهممت أن أمضى  
 باحثاً عن عربة ، فاذا بأختى تدخل علىّ فى حجرتى تحت السقف •

- خذ • ان ماما ترسل اليك الستين روبلاً التى أعطيتها اياها ،  
 وترجوك مرة أخرى أن تغفر لها أنها حدثت آندره بتروفتش فى الأمر •  
 ثم اليك عشرين روبلاً أخرى • فقد دفعت بالأمس نفقات اقامتك خمسين  
 روبلاً ، وماما تقول انها لا يحق لها أن تأخذ منك الا ثلاثين ، لأنها لم  
 تنفق عليك أكثر من ذلك ، فهى ترد اليك العشرين روبلاً الزائدة •

- شكرآ ، لكننى أرجو أن يكون ما قاله حقاً • استودعك الله  
 يا أختى • أنا راحل •

- الى أين ؟

- الى الفندق مؤقتاً ، حتى لا أقضى فى هذا البيت يوماً آخر فوق  
 ما قضيت فيه من أيام • قولى لماما اننى أحبها •

- هى تعرف أنك تحبها • وهى تعرف أيضاً أنك تحب آندره  
 بتروفتش • كيف لم تتخجل من الاتيان بتلك الفتاة المسكينة ؟

- أنا لم آت بها ، أحلف لك • وانما لقيتها أمام الباب •

- بل أنت الذى آتيت بها •

- أوكد لك ••

- فكر جيداً ، واسأل نفسك ، تجد أنك أنت أيضاً كنت سيئاً  
فى ...

- كل ما هنالك اننى سررت جداً باخزاء فرسيلوف • تصورى  
أن له ولداً رضيعاً من ليديا آخماكوفاً •• ولكن لماذا أقول لك هذا  
الكلام ؟

- هو ؟ له ولد رضيع ؟ خطأ •• ليس الولد منه • من ذا الذى  
قصّ عليك هذه الأكذوبة ؟  
- ما أدراك أنت ؟

- ما أدراي أنا ؟ أنا التى ربيت هذا الولد فى لوغا • اسمع  
يا أخى : ألاحظ منذ مدة طويلة أنك ، بدون أن تعرف شيئاً ، تهين  
آندره بتروفتش ، وبذلك نفسه تهين ماما أيضاً •

- طيب • اذا كان هو على حق ، فأنا على خطأ • ولكن هذا لا ينفى  
أنتى أحببك كثيراً • لماذا تحمرين يا أختى ؟ طيب طيب • هانت ذى  
تزدادين احمراراً • على كل حال ، سوف أطلب مبارزة ذلك الأمير  
الصغير ، انتقاماً للصفعة التى كالهيا لفرسيلوف بمدينة « اسن » • واذا  
كان فرسيلوف غير مخطئ فى حق آخماكوف ، فيكون هذا أولى ••

- ما هذا الذى تقوله يا أخى ؟ ألا فكرت قليلاً ؟

- من حسن الحظ أن الدعوى قد فصل القضاء فيها • هانت ذى  
الآن تصفرتين •

ابتسمت ليزا ابتسامة صفراء من خلال ذعرها وقالت :

- ولكن الأمير لن يبارزك •

- عنذئذ سأخزيه على رعوس الأشهاد • ما بك يا ليزا ؟



لقد بلغت ليزا من صفرة الضعف والوهن أنها أصبحت لا تستطيع  
أن تثبت على قدميها ، فاذا هي تهالك على الديوان •

- ليزا !

• هكذا نادتها أمها من تحت

فاستجمعت ليزا قوتها ونهضت ، وابتسمت لى ابتسامة رقيقة زاخرة  
بالحنان ، وقالت :

- أخى ، دع هذه السخافات ، أو فانتظر حتى تعرف من الأمر  
أكثر مما تعرف الآن • ان ما تعرفه قليل جداً •

- لسوف أتذكر يا ليزا أنك شحبت حين علمت أنني سأبارز  
الأمير •

- نعم نعم ، تذكر هذا !

• وابتسمت مرةً أخرى مودعة ، ونزلت •

ناديت حوزياً ، ونقلت أمتعتى بمعاونته • لم يعترضنى فى البيت  
أحد ، ولا استوقفنى أحد • ولم أودع ماما حتى لا ألقى فرسيلوف • وفيما  
أنا أركب العربة ، برقت فى خاطرى فكرة سريعة ، فاذا أنا أقول  
للحوزى :

- فوتتانكا ، جسر سان سيمون !

• وأعود الى عند فاسين •

قدرت أن فاسين لابد أن يكون مطلعاً على نبأ انتحار كرافت ، وأنه أعرف منى كثيراً بالأمر . وذلك ما وقع . فسرعان ما روى لى فاسين جميع التفاصيل ملياً رغبتى ولكن بغير حرارة . فاستتجت من ذلك أنه متعب ، وكان ذلك حقاً . لقد ذهب فى الصباح الى كرافت . وكان كرافت قد أطلق على نفسه رصاصة مسدس ( ذلك المسدس نفسه ! ) بالأسس ، منذ هبط المساء ، كما يستخرج ذلك من يومياته . ان الكلمات الأخيرة التى دونها فى يومياته انما كتبها قيل انتحاره بلحظات ، وفيها يذكر أنه يكتب فى العتمة تقريباً وأنه لا يكاد يميز الأحرف ، ولكنه لا يريد أن يشغل شمعة ، مخافة أن يخلف وراءه حريقاً ، ثم هو يضيف الى ذلك فى السطر الأخير قوله هذا الغريب : « أما أن أشعل الشمعة لأطفتها قبل إطلاق الرصاص مع اطفاء حياتى ، فذلك ما لا أريده ، . وكان كرافت قد بدأ كتابة هذه اليوميات أمس الأول ، فور عودته الى بطرسبرج ، قبل زيارته درجاشيف .

وكان بعد انصرافى يدوّن شيئاً كل ربع ساعة ، أما مرات التدوين الثلاث أو الأربع الأخيرة فلم يكن يفصل بين الواحدة والأخرى منها الا خمس دقائق . ولقد أدهشنى أشد الدهشة أن فاسين ، وقد أصبحت هذه اليوميات تحت بصره منذ مدة طويلة ( اذ أعطيها ليقراها ) لم يحاول أن ينسخها ، لاسيما وأنها لا تملأ أكثر من ورقة واحدة ، وأن جميع التدوينات قصيرة ، « ولاسيما فى الصفحة الأخيرة ! » . وذكر لى فاسين مبتسماً أنه يتذكر كل ما ورد فى اليوميات ، وأن كلامها فوضى لا ينظمه ناظم وانما هى تسجيل لكل ما كان يخطر ببال المنتحر . وقد هممت

أن أجيئه بأن قيمتها انما تكمن في هذا نفسه ، ولكنى أمسكت عن الكلام ،  
 وآثرت أن ألع على أن يتذكر شيئاً مما قرأ . فتذكر بضعة أسطر فعلاً .  
 كان كرافت قد كتبها قبل اطلاق الرصاص على نفسه بنحو ساعة ، وفيها  
 يقول انه « يشعر بقشعريرة » وانه « تمنى أن يشرب كأساً من الحمرة  
 طلباً للدفع ، ولكنه تصور أن شرب الحمرة سيزيد غزارة الدم المسفوح ،  
 فامتنع عن الشرب » . قال فاسين ان كل ما كتبه هو من هذا النوع تقريباً .  
 هتفت أقول :

– أفهذا ما تسميه سخافات ؟

– متى تكلمت عن سخافات ؟ كل ما هنالك اننى لم أنسخ اليوميات .  
 وأنا أرى انها عادية وان لم تكن سخيفة ، أو قل انها طبيعية ، أى هى  
 ما لا بد أن يحدث فى مثل هذه الحالة . .

– ولكن الأفكار الأخيرة ، الأفكار الأخيرة . .

– الأفكار الأخيرة تكون فى بعض الأحيان تافهة تافهة عجيبة .  
 أعرف منتجراً تشكى فى يومياته من أنه لم تزره فى مثل هذه الساعة  
 الخطيرة أية « فكرة عليا » : فلا شئ إلا أفكار جوفاء تافهة .

– وهل القشعريرة فكرة جوفاء أيضاً ؟

– أتقصد القشعريرة أم غزارة الدم المسفوح ؟ انه لأمر معروف  
 جداً أن كثيراً من الذين يقدرون على التفكير فى موتهم الوشيك ، سواء  
 أكان موتهم بارادتهم أم كان بغير ارادتهم ، يهتمون فى كثير من الأحيان  
 بحسن حالة جثمانهم . وبهذه الروح انما كان كرافت يخشى انسكاب  
 دم غزير . .

جمجمت أقول :

– لا أدرى هل هذه واقعة معروفة . . وهل هذا الذى تقوله

صحيح ، ولكن يدهشنى أن ترى فى الأمر كله شيئاً طبيعياً الى هذا الحد •  
ان كرافت كان منذ وقت قصير يتكلم ويتحرك ويجلس بيننا • فهل يعقل  
أن لا تأخذك به أية شفقة ؟

– بل تأخذنى به شفقة طبعاً • ولكن هذه قضية أخرى • ثم ان  
كرافت نفسه ، على كل حال ، قد صور موته فى صورة استنتاج منطقى •  
وقد تبين أن كل ما قيل عنه بالأمس عند درجاتشيف صحيح • لقد ترك  
دفترأ ضخماً ضمنه نتائج علمية تذهب الى أن الروس جنس من الطبقة  
الثانية ، وأقام نتائجه على علم الهيئة ودراسة الجمجمة ، بل على الرياضيات  
أيضاً ، واستخلص من ذلك أن المرء اذا كان روسياً فلا داعى الى أن  
يحيا • فالشيء الذى يتميز به موت كرافت ، اذا شئت أن تجد له صفة  
تميزه ، ليس أنه استنتج هذه النتائج ، ففى وسع المرء أن يستخلص  
من النتائج المنطقية ما يشاء ، وانما هو أن ينتحر تدعيماً لهذه النتائج •  
ذلك هو الشيء النادر الذى لا يحدث كل يوم •  
– يجب أن تكبر قوة ارادته على الأقل •

قال فاسين متهورياً :

– وربما كان يجب أن تكبر شيئاً آخر ••  
ولكن كان واضحاً أن ما يدور فى خلد فاسين انما هو غباء كرافت  
وضعف عقله • فكان ذلك يثير حنقى • قلت :

– بالأمس تحدثت أنت نفسك عن العواطف يا فاسين •

– ولست اليوم أنكرها • لكننى ازاء عنف الأمر الذى وقع لا أملك  
الا أن أجد فيه من فحش الخطأ ما يجعل حكمى قاسياً يطرد من نفسى  
حتى الشعور بالشفقة •

– لقد أدركت من النظر فى عينيك أنك ستقول سوءاً فى حق

كرافت • ومن أجل أن لا أسمع ما ستقوله ، قررت أن لا أسألك رأيك •  
ولكنك أفصحت عن رأيك من تلقاء نفسك ، فلا يسعنى الا أن أوافق  
برغم ارادتي على رأى رجل له ما لك من قوة الحجة • ولكننى مستاء منك  
يا فاسين • اننى آسف على كرافت •  
- أرى أننا نغالى قليلاً •••

### فقاطعته قائلاً :

- نعم ، نعم ••• ولكن من المطمئن على الأقل أن الأحياء الذين  
يحكمون على المتوفى يستطيعون دائماً فى مثل هذه الحالة أن يقولوا  
لأنفسهم : « مهما يكن المتحر جديراً بالشفقة والتسامح ، فما نزال نحن  
أحياء ، فلا داعى أن نسرف فى الحزن • » •

- طبعاً ••• من هذه الناحية كلامك صحيح • ولكن ••• ولكن  
أظن أنك فيما قلته الآن كنت مازحاً • ظريفة نكتتك • اسمع • لقد اعتدت  
أن أشرب الشاي فى مثل هذه الساعة فسأمر لىفى بشاي • وستشاركنى  
طبعاً •

قال ذلك ثم خرج وهو يشمل بصره حقيبتى وصرتى •

والحق اننى أردت أن أسخر منه انتقاماً لكرافت • فقلت ما قلته على  
نحو ما استطعت • ولكن أغرب ما فى الأمر أنه فى البداية قد أخذ جملتى  
مأخذ الجد : « ما نزال نحن أحياء » • ومع ذلك ، ومهما يكن من أمر ،  
فقد كان أقرب منى الى الحق والصواب ، حتى فى موضوع العاطفة •  
اعترفت بذلك لىفى دون أى امتعاض • ولكننى أحسست أننى لا أحبه •  
فلما صار الشاي أمامنا أعلنت له أننى أريد أن يستضيفنى هذه  
الليلة ، فاذا كان ذلك مستحيلاً فما عليه الا أن يصارحنى ، فأذهب الى  
الفندق • ثم بسطت له الأسباب التى تدفعنى الى طلب هذه الضيافة ، ذاكراً

أنتى على شفاق مع فرسيلوف ، ولكن دون أن أدخل فى التفاصيل •  
فأصغى الى فاسين باتباه ، غير أنه لم يظهر عليه شيء من انفعال • وكان  
يقصر على الاجابة عن أسئلتى ، ولكن اجابته كانت لا تخلو من افاضة ،  
وكانت لهجته لا تخلو من لطف ومودة • ولم أقل كلمة واحدة عن  
الرسالة التى جئت الى بيته فى الصباح لأسأله النصيح فى أمرها • وانما  
ذكرت أن زيارتى السابقة لم يكن لها من غرض غير الزيارة • أنتى بعد  
الذى قطعته على نفسى لفرسيلوف ، وهو أن لا يعرف أحد عن هذه  
الرسالة شيئاً سواى ، قد أصبحت أعتقد أنه ليس من حقى أن أجيء على  
ذكرها لأحد أبداً • وكان يزعمجنى كثيراً من جهة أخرى أن أكلم فاسين  
فى بعض الأمور ، أقول فى بعض الأمور لا فى جميع الامور ، حتى لقد  
أفلحت فى ائارة اهتمامه حين قصصت عليه المشاهد التى وقعت فى الدهليز  
وفى غرفة الجارتين ، وأختتمت فى بيت فرسيلوف • فكان ينصت الى  
باتباه شديد ، ولا سيما حين كان الحديث يتناول ستيلكوف • حتى انه  
استعادنى الكلام مرتين ، ثم شرد فكره حين أتيت على ذكر الأسئلة التى  
ألقتها ستيلكوف عن درجاشيف • على أنه انفجر فى النهاية ضاحكاً •  
فبدأ لى فجأة فى تلك اللحظه أنه لا شيء ولا أحد يمكن أن يربك فاسين  
فى يوم من الأيام • وانى لأذكر أن هذه الفكرة قد عرضت لذهنى فى  
صورة تشرّفه كثيراً • وقلت اختم حديثى عندئذ :

— لم أستطع أن استخلص شيئاً مما قاله السيد ستيلكوف ، فانه ينطق  
بكلام مبهم متهرب ، وان معانبه يجرى بعضها وراء بعض متلاحقاً فلا  
تتماسك •••

فسرعان ما ظهر الجدل فى هيئة فاسين • وقال :

— صحيح أنه لم توهب له ملكة الكلام ، ولكن يتفق له أن يبدى  
ملاحظات تبلغ غاية الصحة والصواب فى وهلة واحدة • ثم ان أمثال

هذا الرجل أناس عمليون ، أو قل انهم رجال عمل لا رجال فكر • فيجب أن نحكم عليهم بهذا المقياس •

وذلك بعينه ما كنت قد أدركته من قبل •

قلت :

— ومع ذلك أحدث عند جارتيك فضيحة رهيبة ، فلا يستطيع أحد أن يتنبأ بما كان يمكن أن ينتهي إليه هذا كله •

وعن هاتين الجارتين أسرتني إلى فاسين أنهما هنا منذ ثلاثة أسابيع تقريباً ، وأنهما قادمتان من الأقاليم ، وأنهما تشغلان غرفة صغيرة جداً ، وأن جميع الدلائل تشير إلى أنهما فقيرتان فقراً مدقعاً ، وأنهما تنتظران هنا شيئاً ما • كان لا يعرف أن الفتاة نشرت إعلاناً في الجريدة تذكر فيه أنها معلمة ، ولكنه علم أن فرسيلوف زارهما • وقد وقعت الزيارة في غيبته ، غير أن المؤجرة ذكرتها له • وكانت الجارتان لا يتخالطان أحداً ، ولا تلقيان حتى المؤجرة • وقد لاحظ فاسين في الأيام الأخيرة أن لدى الجارتين مشكلات لا تجد سبيلها إلى الحل فعلاً ، ولكن لم يسبق أن وقعت عندهما مشاهد كالمشاهد التي وقعت اليوم • انني أتذكر حديثنا عن الجارتين بسبب الأحداث التي تلت ذلك • وكان يخيم في غرفتهما آتذ صمت كصمت الموت • وقد ظهر على فاسين اهتمام شديد حين ذكرت له أن ستيلكوف رأى أن عليه أن يكلم المؤجرة عن هاتين الجارتين ، وأنه ردد مرتين قوله « ستري ، ستري » : وأضاف فاسين يقول : « سوف ترى أن هذه الفكرة لم تساوره لغير سبب • ان له في بعض الأمور نظرة حادة صائبة » •

— أعتقد اذن بأن من الواجب أن تنصح المؤجرة بطردهما من

البيت ؟

— لا ، ليست المسألة مسألة طردهما من البيت • ولكنني أخشى أن

تقع قصة • على كل حال ، فان جميع هذه القصص لا بد تنتهي أخيراً على نحو من الأنحاء ... دعنا من هذا !

وامتاع فاسين امتناعاً قاطعاً عن ابداء رأيه في زيارة فرسيلوف للجارتين •

– كل شيء ممكن • أحسنّ الرجل بأن في جيبه مالا • • ومن الجائز مع ذلك أن لا يكون قد أراد الا اعطاء صدقة ، فهذه أمور هي من تقاليدهم ، بل لعلها قائمة في طبيعته وميوله •

فلما ذكرت له أقاويل ستيلكوف عن « الطفل الرضيع » ، قال فاسين بلهجة جادة خاصة ( مازلت أسمعها ) :

– هنا يخطيء ستيلكوف كل الخطأ • ان ستيلكوف يببالغ أحياناً في الاعتماد على حسه العملي والركون اليه ، وقد يتسرع في استخلاص النتائج بمنطقة الذي كثيراً ما يكون صادقاً نافذاً • فرب حادث واحد تختلف دلالاته اختلافاً شديداً باختلاف الأشخاص ، فيخضع للمنطق ويمكن التنبؤ به تارة ، ويتخذ صوراً خارقة ليست في الحسبان تارة أخرى • وذلك ما وقع : فان ستيلكوف وقد عرف جزءاً من القضية استنتج أن الطفل ولد فرسيلوف ، والحق أنه ليس من فرسيلوف •

وألححت على فاسين مستريداً من المعرفة ، فما كان أشد دهشتي حين علمت أن الولد من الأمير سيرجي سوكولسكى • ان ليديا آخماكوف ، بسبب مرضها أو بسبب طبيعتها الخالية الشاذة ، كانت تتصرف في بعض الأحيان تصرف مجنون • لقد تولت بحب الأمير قبل وصول فرسيلوف ، ولم « يجد الأمير حرجاً في قبول حبها » برهة قصيرة ، تشاجرا بعدها كما يعرف العارفون ، فطردت ليديا الأمير ، ويبدو أن الأمير ابتهج بهذا الطرد وسر به سروراً كبيراً • كانت ليديا فتاة عجيبة الأطوار ( كذلك أضاف سافين ) : ومن الجائز جداً أنها لم تكن سليمة العقل في يوم من



الأيام • ولكن الأمير حين سافر الى باريس كان يجهل كل الجهل أنه ترك  
ضحيته حبلًا ، وظل يجهل ذلك الى النهاية ، أى الى حين عودته • وفي  
أثناء ذلك أصبح فرسيلوف صديق ليدا ، فعرض عليها الزواج ، خاصة  
بسبب حبها الذي كان ظاهراً ( ولكن لم يفتنوا اليه حتى النهاية تقريباً ) •  
وكانت ليدا قد تولت بحب فرسيلوف فطار لبها فرحاً بعرضه ، « ولم  
تر فى هذا العرض تضحية فحسب » ، مع تقديرها للتضحية فى الوقت  
نفسه • وولد الطفل ( بنتاً ) قبل الأوان بشهر أو ستة أسابيع ، فعهد  
به الى مرضعة بمكان فى ألمانيا ، ثم استرده فرسيلوف ، وهو يعيش الآن  
فى روسيا ، ربما ببطرسبرج •

– وما حكاية أعواد الكبريت الفوسفورية ؟

قال فاسين :

– لا أعرف عن هذا شيئاً البتة • وقد ماتت ليدا آخماكوفاً بعد  
الولادة بخمسة عشر يوماً • ما ظروف موتها ؟ لا أدرى • وقد علم الأمير  
بوجود الطفل منذ عاد من باريس ، ويبدو أنه فى الوهلة الأولى لم يصدق  
أن الطفل منه ••• ومن جهة أخرى جهدت جميع الأطراف فى إبقاء  
القصة سرّاً لا يفشو بين الناس • وما تزال الى اليوم محفوفة بالغموض •

هتفت أقول مستاء :

– ولكن ما هذا الأمير ؟ أهكذا تعامل فتاة مريضة ؟

– لم يكن مرضها فى ذلك الحين قد تفاقم • ثم انها هى التى طردته •  
صحيح أنه ربما كان قد أسرع يستفيد من هذا الطرد ، فلم يلبث أن رحل  
على الفور •

– أتبرر سلوك رجل نذل مثله ؟

– لا • ولكننى لا أصفه بأنه نذل • ان فى الأمر شيئاً آخر غير  
النذالة • على كل حال ، هذه مسألة عادية مألوفة • انه لا ينفرد بهذا  
السلوك من دون سائر الناس •

- قل لى يا فاسين : هل عرفته من قرب ؟ اننى أحب كثيراً أن اعتمد على رأيك بسبب ظرف يمسنى جداً •

ولكن فاسين أجاب هنا بكثير من التحفظ • انه يعرف الأمير ، ولكنه لم يشأ أن يقول كلمة واحدة عن ظروف تعرفه اليه • وقد أسرَّ الى بعد ذلك أن طبع الأمير يجيز له أن يكون متسامحاً فى الحكم عليه • « ان نفسه تزخر بميول خيرة ، وهو انسان يمكن التأثير فيه ، لكنه لا يملك لا من العقل ولا من الارادة ما يمكنه من السيطرة على رغباته وشهواته » • وهو رجل لا ثقافة له ، لكنه مهووس بالتنقل والتشرد بين أفكار وأمور لا قدرة له على فهمها • من ذلك أنه يصدع أذنيك بأقوال من هذا النوع: « أنا أمير ، أنا سليل زوريك • ولكن لماذا لا أكون مساعد اسكافى اذا احتجت الى أن أجنى رزقى وكنت عاجزاً عن عمل شىء آخر ؟ سوف يقرأ الناس على لافتة دكانى حينئذ : « الأمير فلان ، حذاء » ، هل ثمة ما هو أنبل من هذا ؟ » • انه يقول هذا الكلام مستعداً لتنفيذه ، وذلك هو الأمر الخطير • أضاف فاسين هذه الجملة ، وأردف : ولكنه لا يقول هذا الكلام عن اقتناع ، وانما يقوله عن خفة عقل وسرعة تأثير • ثم تأتى الندامة بعد ذلك حتماً ، فيكون على أتم الاستعداد للانتقال الى النقيض تماماً • وهكذا تجرى حياته كلها • ان فى عصرنا أناساً كثيرين يجدون أنفسهم محصورين فى طريق مسدودة ، لا لشيء الا لأنهم ولدوا فى عصرنا •

بذلك ختم فاسين كلامه • فشرذ ذهنى ووجمت حالماً مفكراً • ثم سألت فاسين :

- هل صحيح أنه طرد فى الماضى من الجيش ؟

- لا أدرى أطرده أم لا • ولكننى أعلم أنه ترك الجيش بعد بعض المضايقات • لعلك لا تجهل أنه فى الحريف الماضى ، وقد أحيى الى التقاعد ، قد قضى شهرين أو ثلاثة أشهر فى لوغا ؟

.. أنا .. أعلم أنك كنت حينذاك فى لوغا .

- نعم ، كنت فى لوغا أيضاً بعض الوقت . وكان الأمير يعرف  
كذلك الزايت ما كاروفنا ؟

هتفت أقول :

- صحيح ؟ كنت أجهل هذا . اننى لم أكلم أختى الا قليلاً . ولكن  
هل استقبلته أمى فى بيتها ؟

- لا . هذه معرفة قديمة تمت فى لقاء بيت ثالث .

- نعم . ثم ، ماذا قالت لى أختى عن ذلك الطفل ؟ هل كان الطفل  
فى لوغا أيضاً ؟

- بعض الوقت .

- وأين هو الآن ؟

- لا بد أن يكون بيطرسبرج .

صحت أقول مضطرباً أشد الاضطراب :

- لن أصدق أبداً أن تكون أمى قد شاركت أية مشاركة فى هذه  
الألعاب من قصة ليديا كلها !

فقال فاسين وهو يتسهم ابتسامة تسامح :

- فى هذه القصة ، التى لا أحاول أن أحلل عقدها على كل حال ،  
لا أرى أن دور فرسيلوف يشتمل على شىء يستحق أن يلام عليه لوماً  
شديداً فى حقيقة الأمر .

وأظن أن فاسين كان قد سئم من الحديث معى ، ولكنه لا يريد أن  
يظهر سأمه .

وهتفت أقول مرة أخرى :

– لن أصدق أبداً ، أبداً ، ان امرأة يمكن أن تتنازل عن زوجها  
لامرأة أخرى ! لا ، هذا شيء لن أصدقه أبداً ! ... أحلف أن أمي لم  
تشارك أية مشاركة في هذا الأمر .

– يخيل الى مع ذلك أنها لم تعارضه .

– لو كنت في مكانها لثرت وعارضت ، من باب العزة والشمم على

• الأقل •

قال فاسين يختم كلامه :

– لا أريد من جهتي أن أقطع بحكم في هذا الموضوع •

والواقع أن فاسين ، رغم ذكائه كله ، كان لا يفهم في شؤون النساء  
شيئاً ، فكانت دائرة كبيرة من الأفكار والحوادث ، غريبة عنه مجهولة لديه •  
وصمت • وكان فاسين يعمل مؤقتاً في شركة مساهمة ، وكنت أعلم أنه  
يحمل شيئاً من عمله الى بيته • فلما ألححت في القاء الاسئلة عليه ، أعلن  
لي أن هناك حسابات يجب عليه أن ينجزها ، فرجوته رجاء حاراً أن  
لا يشعر من وجودي بحرج ، وأن يشرع في انجاز عمله • وأظن أن  
ذلك قد سره • ولكنه قبل أن يجلس الى مكتبه أراد أن يهيب لي سريراً  
على الديوان • وكان قد عرض عليّ أن أنام على سريره هو ، ولكنني  
رفضت ، وأظن أن هذا أيضاً قد سره • واستعرنا من المؤجرة مخدة  
وغطاء • وكان فاسين مهذباً ولطيفاً الى أقصى حد ، لكنني كنت أشعر بشيء  
من الضيق حين أراه يتكلف هذا العناء من أجلي • أذكر أنني قبل ثلاثة  
أسابيع ، حين اتفق لي عرضاً أن بت ليلة عند ايفيم في بطرسبرجسكاييا  
ستورونا ، كنت أكثر ارتياحاً • انه هو أيضاً قد أعد لي سريري على الديوان  
بغير علم عمته ، مفترضاً – لا أدري لماذا – أنها ستستاء اذا علمت أن رفاقاً  
له يجيئون اليه للمبيت عنده • لقد ضحكنا كثيراً ، واتخذنا من قميص  
شرشفاً تغطي به الديوان ، ولفقنا معطفاً فجعلناه مخدة • وأذكر أن

زفارييف ، بعد أن أتمنا هذا العمل كله ، ربت على الديوان براحة يده  
قائلاً بعاطفة :

– « ستنام كملك صغير ، ( بالفرنسية ) » •

فكان من شأن هذا المرح الغبي ، وهذه الجملة الفرنسية التي لاتناسبه  
أكثر مما يناسب البقرة أن تلبس مريلة ، كان من شأن ذلك أن قضيت  
عند هذا المهرج ليلة بديعة • أما عند فاسين فما كان أشد ارتياحى حين  
رأيته يجلس أخيراً الى مكتبه ويدير لى ظهره •

اضطجعت على الديوان ، وطفقت أفكر فى أمور كثيرة وأنا أنظر الى

• ظهره •

كان ثمة أشياء كثيرة تبعث على التفكير • وكانت نفسى مضطربة ،  
فلا شيء فيها مكتمل • صحيح أن بعض الاحساسات أبرز من بعض ، ولكن  
ما من احساس بينها كان يجزئى وراءه جراً تاماً ، وذلك من فرط وفرتها  
وغزارتها • كان كل شيء يبرق برقاً ان صح التعبير ، بغير ترابط ولا تماسك ،  
وكنت أنا نفسى لا أريد أن أتلبث على شيء ، ولا أن أقيم أى نظام • حتى  
ذكرى كرافت تراجعت شيئاً فشيئاً ، فأصبحت فى المقام الثانى من اهتمامى •  
ان ما يث الاضطراب فى نفسى أكثر من كل ما عداه انما هو حالتى  
الشخصية • أنبى الآن قد « قطعت صلتى » فها هى ذى حقيقتى ، وهأنذا  
بعيد عن البيت ، وهأنذا أبدأ حياة جديدة • لكأن كل ما سبق أن عقدت  
النته عليه وهيات له الأسباب انما كان قبل الآن لهواً وضحكاً ، ثم اذا بكل  
شيء « ينقلب الآن الى واقع على حين فجأة » على حين غرة خاصة • فكانت  
هذه الفكرة تشجئنى ، وكانت تبهجنى رغم الاضطراب الذى كنت أحسه  
لأسباب شتى • ولكن • • • ولكن كان ثمة احساسات اخرى • وكان بينها  
احساس يتمنى أن يتقدمها جنياً وأن يستولى على نفسى كلها • ومن  
غريب الأمر أن هذا الاحساس كان هو أيضاً يشجئنى ، ويدفعنى الى  
فرح شديد • ومع ذلك كان هذا الاحساس قد بدأ بخوف : لقد خفت  
منذ مدة طويلة ، طويلة جداً ، أن أكون قد أسرفت فى الكلام عن  
موضوع الوثيقة مع آخماكوف ، بدافع الحماسة والمفاجأة • قلت أحدث  
نفسى : « نعم ، لقد قلت أكثر مما كان يجب أن أقول ، فلا بد أنهما حزرتا  
شيئاً • ياللمصيبة ! لا شك فى أنهما لن تدعا لى راحة اذا ساورتها شبهة •  
ولكن لعلهما لن تعثرا على • سوف اتوارى عن الأنظار ! ولكن ماذا اذا  
لاحقتانى ؟ • • • » فاذا أنا أتذكر ، بغير قليل من التلذذ ، ما وقع لى مع

كاترين تقولايضا كاملاً لا ينقصه شيء من التفاصيل • فأرى نظرتها التي كانت جريئة ولكنها كانت كذلك مدهوشة أشد الدهش ، وأرى كيف تركتها مشدوهة مضطربة مشوشة ؛ « ليست عيناها سوداوين سواداً حالكا مع ذلك ••• وانما السواد الحالك في الأهداب وحدها ••• فهذا ما يضيف على العينين مظهر السواد الشديد ••• » •

أذكر أن هذه الذكرى قد أثارت في نفسي اشمئزازاً قوياً على حين فجأة ، اشمئزازاً وتقززاً منها ومنى على السواء • فأخذت أكيل لنفسي أنواعاً من اللوم ، وحاولت أن أصرف فكري الى شيء آخر • وخطر ببالي هذا السؤال فجأة : « لماذا لم يساورني أى استياء من فرسيلوف بسبب حكايته تلك مع الجارة ؟ » • كنت من جهتي مقتنعاً اقتناعاً قوياً بأنه مثل دور العاشق الولهان ، وانه لم يجيء إلا نشداناً للتسلية ، ولكن ذلك لم يثر غضبي في الواقع • حتى لقد بدا لي أنه يستحيل على المرء أن يتصوره في غير هذا الصورة • ولئن سرنى أنه أخزى ، فانتفى ما اتهمته ولا أدته قط • وانما كان الشيء الذى يهمنى هو نظرة الكراهية تلك التى ألقاها علىّ حين دخلت عليه مع الجارة • لقد قلت محدثاً نفسي خافق القلب : « ها قد أخذنى أخيراً مأخذ الجدا ! » • آه ••• هل كان يمكن أن اغتبط لكراهيته هذا الاغتباط كله لولا أن كنت أحبه ؟ •••

وغفوت في النهاية ، ثم نمت نوماً كاملاً • وفيما يشبه الحلم ، رأيت فاسين - وقد أنهى عمله - يرتب كل شيء بعناية ، ويلقى على ديوانى نظرة ثابتة ، ثم يخلع ملابسه ويطفىء الشمعة • كان الوقت قد جاوز منتصف الليل •

## ٤

بعد ساعتين ، استيقظت منتفضاً وجلست على ديوانى • كان ينبعث وراء الباب فى غرفة الجارتين صراخ رهيب وانتحاب وبكاء وعويل • وكان ياب غرفتنا نحن مفتوحاً على مداه ، وكان الدهليز مضاءً ، وكان فيه أناس يصيحون ويركضون • فأردت أن أنادى فاسين ، لكننى سرعان ما أدركت أنه لم يكن فى سريره • ولم أعرف أين يمكننى أن ألتمس أعواد ثقابٍ فتناولت ملابسى تلمساً ، وارتديتها فى الظلام • لكأن المؤجرة وجميع المستأجرين كانوا على موعد فى غرفة الجارتين • ان العويل يصدر عن صوت واحد اجمالاً ، هو صوت الجارة المسنة ، أما صوت الفتاة الذى سمعته أمس وما أزال أتذكره تذكراً واضحاً كل الوضوح ، فقد كان صامتاً صمتاً مطلقاً • هذه هى الملاحظة الأولى التى برقت فى خاطرى • وما ان انتهيت من ارتداء ملابسى حتى دخل فاسين مسرعاً ، فتناول أعواد الثقاب فى لحظة واحدة بيد تعرف المكان ، وأثار الغرفة • وكان يلبس قميصاً وثوباً للمنزل وخفين ، فسرعان ما أخذ يرتدى ثيابه •

هتفت أسأله :

— ماذا حدث ؟

فقال بما يشبه الغضب :

— قصة مزعجة مربكة ! ان الجارة الشابة التى حدثتى عنها بالأمس

قد شنت نفسها فى غرفتها •

فانطلقت من صدرى صرخة • لن أستطيع أن أصف الألم الشديد

الذى اعترانى ! وهرعنا الى الدهليز • أعترف أننى لم أجرؤ أن أدخل

غرفة الجارتين • ولم أر الفتاة المسكينة التى شنت نفسها الا فيما بعد •



بل لم أنظر إليها الا من بعيد • كانت مغطاة بشرشف برز تحته تعالا  
 حذاءيها الضيقان • لم أنظر الى وجهها • كانت الأم في حالة فظيعة  
 مخيفة • وكانت معها المؤجرة التي لم ألاحظ فيها كثيراً من الارتياح •  
 وكان المستأجرون قد تجمعوا في غرفة المأساة • ولم يكن عددهم كثيراً :  
 بحار عجوز دائم التذمر متشدد في مطالبه ، لكنه اليوم هادىء كل الهدوء ،  
 وعجوزان - زوج وامرأته - قدما بالأمس من اقليم « تفير » ، وهما  
 شخصان محترمان من رتبة معينة • لن أصف بقية تلك الليلة ، ولا الذهاب  
 والاياب ، ولا الزيارات الرسمية • لقد ظللت الى مطلع الصبح ارتعش  
 ارتعاشاً صغيراً سريعاً من شدة الاضطراب ، ورأيت أن من واجبي أن  
 لا أرقد ، رغم أنني لا أقدم أية معونة ولا أقوم بأن عمل مفيد • وكانت  
 وجوه الجميع تعبر عن يقظة شديدة على كل حال ، بل كانت تعبر عن همة  
 ونشاط • وقد خرج فاسين من البيت للقيام باجراءات رسمية في أغلب  
 الظن • وبرهنت المؤجرة على أنها في هذه الأحوال امرأة ذات شهامة ،  
 وأنها خير مما ظننت فيها • وقد أقتعتها ( وذلك أمر شعرت منه بفخر )  
 بأنه لا يجوز أن تترك الأم وحيدة مع جثمان ابنتها ، وبأن عليها أن تنقلها  
 الى غرفتها حتى الغد على الأقل • فسرعان ما وافقت على رأبي • ورغم أن  
 الأم أخذت تتخبط وتبكي رافضة أن تترك جثمان ابنتها ، فقد رضيت أن  
 تذهب الى غرفة المؤجرة أخيراً ، ولم تلبث المؤجرة أن سارعت تأمر باشعال  
 السماور • وتفرق المستأجرون بعد ذلك ذاهبين الى غرفهم وأقفلوا  
 أبوابهم بالمفاتيح • ولكنني لم أشأ أن أرقد بحال من الأحوال ، وظللت عند  
 المؤجرة طول الليل ، فسرت المؤجرة بأن يكون في غرفتها شخص آخر ،  
 وأن يكون هذا الشخص عدا ذلك قادرا على أن يحدثها في الأمر • وكان  
 السماور نعم المجلس • ان السماور في روسيا ضرورة لازمة في جميع  
 الكوارث والنوازل ، ولاسيما ما كان منها فظيماً مفاجئاً شاذاً ••  
 فحتى الأم شربت فنجانين من الشاي ، ولكن بعد أنواع من التوسل

والتضرع طبعاً ، حتى لكأننا أجبرناها على الشرب اجباراً • والحق اننى لم أر فى حياتى كرباً أقسى من كرب هذه الأم ولا يأساً أوضح من يأسها • وقد طاب لها بعد الانتحاب الشديد والصراخ المسعور أن تأخذ فى الكلام عما جرى لابنتها ، فأصغيت الى قصتها بنهم قوى • ان بين التساء الذين نزلت بهم المصائب ، ولاسيما النساء منهم ، أناساً يجب عليك فى مثل هذه الحالة أن تدعهم يتكلمون ما شاءوا أن يتكلموا • هذه نفوس حررتها أنواع الشقاء والمحن والأحزان حرثاً ان صح التعبير ، فلا شىء يدهشها بعد ذلك ، ولو كان كوارث مفاجئة ، ولا شىء ينسيها قاعدة من قواعد فن الكياسة والتماس المودة والشفقة ، ولو كان منظر جثمان أعز مخلوق لديها • ولست أحكم على هؤلاء الناس • فليس مصدر هذا عندهم أنانية عامية ولا تربية فجحة • بل لعل فى هذه القلوب من صفاء الذهب ما ليس فى قلوب أبطال لهم من النبل أعظم مظهر ؟ ولكن التعود الطويل على المذلة ، وغريزة البقاء ، واستمرار ما يعانون من القلق والخوف والاضطهاد ، قد غلبهم على أمرهم أخيراً • فمن هذه الناحية كانت المنتحرة المسكينة لا تشبه أمها • ولكنهما متشابهتان فى ملامح الوجه تشابهاً تاماً ، وان تكن الفتاة جميلة حقاً • ان الأم لم تطعن فى السن ، فهى فى نحو الخمسين من عمرها ؟ وكانت شقراء هى أيضاً ، ولكن عينيها غائرتان وخديها خاسفان وأسنانها كبيرة صفراء متفاوتة • وكل ما فيها يمت الى الاصفرار بصلته : فجلد الوجه واليدين أشبه بالرق ؛ وفستانها القائم قد اصفر من فرط قدمه ؛ وظفر الابهام من اليد اليمنى كان مدهوناً بشمع أصفر لا أدرى لماذا !

ولقد كانت القصة التى روتها مشوشة فى بعض الأحيان ، فلا ترابط بين أجزائها • وسوف أروى لكم الآن ما فهمته وما أتذكره •

لقد جاءتنا من موسكو • وهى أرملة منذ مدة طويلة ، ولكنها أرملة « مستشار » • كان زوجها موظفاً ، ولم يترك لها شيئاً ، « الا مائتى روبل هى راتب المعاش ، ولكن ما قيمة مائتى روبل ؟ » • ومع ذلك ربت أوليا ، وأرسلتها الى الليسيه • • « وما كان ألمها فى الدراسة ، ما كان ألمها ! لقد نالت عند تخرجها من المدرسة مدالية فضية • • » ( هنا ذرفت المرأة دموعاً غزيرة بطبيعة الحال ) • وكان زوجها قد خسر عند تاجر من بطرسبرج مبلغاً يساوى قرابة أربعة آلاف روبل • وفجأة استرد التاجر ثراه • « لدى أوراق ، وقابلت محامياً ، فقيل لى : طالبى بالدين ، وستقبضين المبلغ حتماً • • » ففعلت ذلك ، فأخذ التاجر يوافق • فقيل لى : اذهبي الية بنفسك • فحزمتنا أمتعتنا ، أنا وأوليا ، وجئنا الى بطرسبرج ، ونحن فيها منذ شهر • وكنا نملك قليلاً من المال • واستأجرنا هذه الغرفة لأنها أصغر الغرف ، ولكنها فى بيت شريف • لاحظنا هذا بأعيننا ، وهو الشيء الهام فى نظرنا : فاتنا ونحن امرأتان بغير خبرة يمكن أن يسىء الينا الناس وأن ينالونا بأذى • ودفعنا لك أجرة شهر سلفاً • ولكن المعيشة فى بطرسبرج باهظة التكاليف • ورفض التاجر أن يدفع لنا حقنا • قال : « أنا لا أعرفكما ولا أريد أن أعرفكما » ، وكانت الأوراق التى بيدى غير كافية • أدركت ذلك بنفسى • ونصحونى بأن استشير محامياً شهيراً • كان المحامى الذى نصحونى باستشارته استاذاً • لم يكن محامياً عادياً بل كان من رجال التشريع ، فلا بد أن يقول لى ما الذى يجب على أن أعمله • ذهبت الية حاملةً له آخر ما نملك ، خمسة عشر روبلاً • لم يصغ الى كلامى ثلاث دقائق • وقاطعنى يقول « فهمت ، فهمت • أعرف • اذا أراد التاجر أن يدفع دفع ، واذا لم يشأ أن يدفع فلن يدفع • واذا أقمت

دعوى ، فقد 'يحكم عليك بدفع النفقات • فالأفضل أن تحلى المسألة معه صلحاً ، حتى لقد زج فى كلامه آيات من الانجيل مازحاً متهكماً : « كن مصالِحاً لحصمك ما دمت معه فى الطريق ، قبل أن تخسر آخر فلس » • وشيغنى ضاحكاً • هكذا ضيعت خمسة عشر روبلاً ! رجعت الى أوليا • وجلست كل منا أمام الأخرى • وكنت أبكى • • أما هى فانها لم تبك • بل بقيت ساكنة ، شامخة ، متألة • وهكذا كان شأنها طول حياتها • لا « آه » ولا « أوه » ! لا تذرف دموعاً • وتظل عيناها قاسيتين • وكنت اذا رأيتها على هذه الحال تسرى فى ظهري رعدة • صدقتى اذا أردت أن تصدق : كنت أخاف منها ، أخاف منها حقاً ، منذ مدة طويلة • وكنت أشتهى فى بعض الأحيان أن أتسكى ، ولكنى لا أجرؤ أن أتسكى أمامها • عدت الى التاجر مرة أخيرة ، وذرفت دموعاً غزيرة • فلم يزد على أن قال لى : « طيب » ، حتى دون أن يصفى الى كلامى • يجب أن أذكر لكما أننا كنا لا ننوى أن نمكث مدة طويلة هذا الطول كله ، لذلك نفذ كل ما كان معنا • رهنت جميع أثوابى واحداً بعد واحد ، فكنا نعيش مما تقترض • ونفدت ثيابنا كلها • فأعطيتى آخر قميص عندها • فذرفت دموعاً مريرة • وقرعت بقدمها الأرض من شدة غضبها ، وهرعت تذهب الى التاجر بنفسها • انه رجل أرمل • فكللمها هكذا : « تعالى غداً غد فى الساعة الخامسة ، فقد يكون عندى ما أقوله لك » • فرجعت الى البيت فرحة جذلى • وأبلغتني ما قاله لها : « سيكون عندى ما أقوله لك » • فسررت أنا أيضاً • ولكن شعرت فى الوقت نفسه بثقل يجثم على صدرى • قلت لنفسي : سوف يحدث شيء ! ولكن هل كنت أجرؤ أن أفاتها بما يساورنى ؟ وفى غداة الغد رجعت من عند التاجر شاحبة شحوباً شديداً ، مرتعشة ارتعاشاً قوياً ، وارتمت على السرير • ففهمت كل شيء ، ولم أجرؤ حتى أن أسألها عما حدث • هل يمكنك أن تصدق ما وقع ؟ لقد أخرج لها هذا اللص الحقيير خمسة عشر روبلاً ، وقال : « اذا وجدتك

عذراء زدت المبلغ أربعين روبلاً . . . قال لها هذا ، فى وجهها ، دون  
 خجل . فما كان منها الا أن هجمت عليه - فيما روت لى - ولكنه دفعها  
 عنه برجله ، ومضى الى غرفة أخرى أقفل عليه بابها بالفتاح . وابى  
 لأعترف لكما صادقة أننا كنا مع ذلك لا نكاد نملك ما نقنات به . وأخذنا  
 صديرة مبطنة بجلد أرنب فبعناها . ثم ذهبت الى الجريدة ، ونشرت اعلانا  
 تقول فيه : أحضّر لجميع العلوم ، وللحساب . وقالت لى : « سأقبل أن  
 يدفع لى ثلاثون كوبكاً » . وأصبحت فى النهاية ، أنا أمها ، ارتاع حين  
 أراها . أمسيت لا تقول لى شيئاً ، بل تبقى جالسة على النافذة ساعات  
 بكاملها تنظر الى سطح المنزل المقابل ، ثم تصرخ قائلة على حين فجأة :  
 « لسوف أعمل غسالة ، أو أعمل حفارة اذا لزم الأمر » . تقول ذلك  
 ثم تفرع الأرض بقدمها . ذلك أننا ليس لنا أحد يمكن أن نلتجىء اليه .  
 ما المصير الذى ينتظرنا ؟ وكنت ما أزال أخاف أن أتحدث معها . ونامت  
 مرة فى وضع النهار ، ثم اذا هى تستيقظ فجأة فتفتح عينيها وتنظر الى .  
 وكنت أنا جالسة على الصندوق ، أنظر اليها أيضاً . فاذا هى تنهض دون  
 ان تقول شيئاً ، وتدنو منى ، فتقبلنى بقوة ، بقوة ، ثم تفقد كلتانا الصبر ،  
 فنأخذ نيكى ، ونظل متعانقين لا نترك احداًنا الأخرى . لم يحدث لها هذا  
 فى حياتها الا تلك المرة . وفيما نحن كذلك دخلت علينا خادمتك  
 ناستاسيا وقالت : « هناك سيدة تسأل عنكم » . حدث هذا منذ أربعة  
 أيام . ودخلت تلك السيدة : انها ترتدى ثياباً حسنة ، وتتكلم  
 الروسى ، ولكن بلكنة ألمانية . قالت : « هل أعلنت فى الجريدة أنك  
 تعطىن دورساً ؟ » ، فاحتفينا بها ، وأجلسناها ، وكانت تضحك بلطف  
 ومودة . وأضافت تقول : « لست أجيء من أجلى أنا ، بل من أجل  
 ابنة أخى التى لها أولاد صغار . فتعالى الينا اذا شئت ، وسنتفاهم » .  
 وأعطت عنوانها : شارع كذا ، عمارة كذا ، شقة كذا . ان العمارة  
 تقع قرب جسر فوزنسنسكى . وانصرفت . ذهبت أوليا الى العنوان .

بل سعت اليه في ذلك اليوم نفسه • ثم اذا هي تعود بعد ساعتين مصابة بنوبة عصبية رهيبية • وقد روت لي ما حدث لها فيما بعد فقالت : سألت البواب : « أين الشقة رقم كذا ؟ » ، فنظر الى البواب وقال : « ما حاجتك الى هذه الشقة ؟ » • وكان في لهجته غرابة شديدة ، حتى لتراود المرء ريبة من سماع هذه اللهجة وحدها • ولكن أوليا قوية الكبرياء ، نافذة الصبر ، فلا تستطيع أن تطبق الأسئلة الكثيرة والكلمات الفظة • فقال لها البواب مشيراً باصبعه الى السلم : « طيب • هي ذى الشقة فاذهبي اليها » • وأدار لها ظهره ، وعاد الى حجرته • فهل تتصورون ما الذى حدث ؟ دخلت أوليا الشقة ، وسألت ، فسرعان ما هرعت نساء من جميع الجهات تقول لها : « ادخلي ، ادخلي ! » ، وقد هرعن جميعاً ضاحكات ، مبهرجات ، مخضبات الوجوه بالأصباغ والمساحيق ؛ نساء ساقطات يبعثن على التقرز ، أحدقن بها وجررنها جراً ، وكان هناك من يعزف على البيانو • قالت لي أوليا : « أردت أن أهرب ، ولكنهن لم يتركنني » • فخافت ، وخارت ساقاها فلا تكادان تحملانها • والنساء ما يزلن ممسكات بها ، يكلمنها بلطف ورقة ، ويشجعنها • وفتحن زجاجة من خمرة بورتو يردن أن يسقينها احتفاءً بها وتكريماً لها • فانتفضت وأخذت ترشقهن بالشتائم مرتعشة مرددة : « اتركنني ، اتركنني » • وهجمت على الباب فأمسكنها ، فأخذت تعول • وعندئذ وثبت الأخرى ، تلك التي جاءت الينا ، فصفت أوليا صفتين ، ودفعتها الى الخارج وهي تقول لها : « أنت لا تستحقين يا قاذورة ، أنت غير جديرة بسكني بيت لائق ! » وهتفت امرأة ثانية قائلة لها وهي تهبط على السلم : « أنت جئت تعرضين نفسك ، لأنك ليس في بيتك طعام تسدين به رمقك ، والا لما رضينا أن ننظر اليك وأنت على ما أنت عليه من هذه الدمامة كلها ! » • وقد قضت ليلتها في حمى وهذيان • وفي الصباح كانت عيناها تسطعان • نهضت وقالت : « سأشتكى » • ولم أقل أنا شيئاً ،

ولكنى فكرت بينى وبين نفسى : « كيف تمكن الشكوى ؟ أين الأدلة ؟ » •  
 وأخذت أولياً تسير فى الغرفة طولاً وعرضاً ، وتلوى يديها ؛ وأخذت  
 الدموع تسيل من عينيها ، ولكنها تكز أسنانها متجلدة مكابرة • وقد  
 صار وجهها بلون التراب منذ تلك اللحظة ، وظل على هذه الحال حتى  
 النهاية • وتحسنت فى غداة الغد ، وسكتت عن الكلام ، فاعتقدت أنها  
 هدأت وسكنت • وفى الساعة الرابعة بعد الظهر من ذلك اليوم انما جاء  
 السيد فرسيلوف •

أقول بصراحة : اننى مازلت غير قادرة على أن أفهم كيف أمكن  
 أن تصنى أولياً اليه من أول كلمة وهى على ما عليه من سوء الظن وشدة  
 الارتباب • والحق أن ما جذبنا كلتنا اليه هو هيئته الجادة الرصينة ، بل  
 القاسية ، وكذلك أسلوبه فى الكلام وهو أسلوب رقيق ، مهذب ،  
 لا مهذب فحسب ، بل فيه توقير واحترام أيضاً ، بدون أن تملق مع  
 ذلك : ان المرء يحس أن كلامه تابع من قلبه • قال : « قرأت اعلاتك فى  
 الجريدة • وأرى أنك لم تحسنى كتابته ، وذلك قد يسىء اليك • » ثم  
 ذكر بعد ذلك شيئاً لم أفهمه ، شيئاً عن الحساب • ولكننى رأيت أولياً تحمر  
 ( فلا بد أنه رجل ذكى جداً ) ، حتى لقد سمعتها تشكره • وألقى عليها  
 عدداً من الأسئلة • وعرفت أنه يقيم بموسكو منذ مدة طويلة ، وأنه يعرف  
 مديرة ليسيه معرفة شخصية • وأضاف يقول : « سوف أجد لك دروساً ،  
 لأننى أعرف كثيراً من الناس هنا ، بل أستطيع - إذا شئت الحصول على  
 وظيفة ثابتة ، أن أوصى بك أشخاصاً لهم نفوذ كبير • ولكن اسمحى لى ،  
 بانتظار أن يتحقق ذلك ، أن ألقى عليك سؤالاً صريحاً بغير لف ولا  
 دوران : ألا أستطيع أن أساعدك فى شىء على الفور ؟ وثقى بأنك أنت  
 التى تحسنين الىّ اذا أتحت لى أن أساعدك ، فيكون علىّ أنا أن أشكر لك  
 صنيعك • والأمر بسيط : سوف ترددين الىّ المساعدة متى حصلت على  
 الوظيفة • وأقسم لك بشرفى أننى من جهتى اذا وقعت يوماً فى ضائقة

كالضائقة التي تعانين منها ، فلن أخجل من أن أطلب مساعدتك ، وسوف أرسل اليك عندئذ زوجتي وابنتي . . . » • لن أروى لكما كل حاله ، وحسبى أن أذكر أنني ذرفت دمعة حين رأيت شفتي أوليا تختلجان شكراً وعرفاناً بالجميل • ولقد أجابته هكذا : « اذا قبلت مساعدتك ، فانما آقبها لثقتى برجل شريف مستقيم انساني يمكن أن يكون بمثابة أبى . . . » • لقد عبرت عما فى ذهنها بكلام يبلغ هذا المبلغ من الحسن والايجاز والنبيل : « رجل انساني ! » • فما كان منه الا أن نهض فوراً وهو يقول : « سأجد لك دروساً ووظيفة ، حتماً ؛ سأهتم بهذا الأمر منذ اليوم ، لا سيما وأنتك حاصلة على شهادات كافية . . . » ولكننى نسيت أن أقول لكما انه منذ دخل قد دقق فى شهادات الليسىه لأنها أرته اياها ، وانه سألها فى موضوعات كثيرة • وقد قالت لى أوليا بعد انصرافه : « هل تعرفين يا ماما أنه امتحننى امتحاناً . . . ما أذكاه ! ما أمتع الحديث مع رجل فى مثل علمه وثقافته ! . . . » • كان وجهها يشع فرحاً • وكان على الطاولة ستون روبلاً • قالت لى : « ارفعيها يا ماما • سوف نحصل على وظيفة • وسوف نرد اليه القرض فى أقرب وقت • سوف نبرهن على أننا أناس شرفاء ، وأن لنا شعوراً مرهفاً واحساساً رقيقاً ، ولقد لاحظ هو ذلك طبعاً . . . » • ثم صمتت • ورأيت أنها تتنفس تنفساً عميقاً • وقالت لى بعد برهة : « لو كنا أناساً أفظاظاً يا ماما ، لرفضنا مساعدته كبرياء وأنفة ولكننا بقبولنا هذه المساعدة برهنا على رقة شعورنا ، وعلى أننا نشق به رجلاً جديراً بالاحترام ، شائب الشعر ، أليس كذلك ؟ » • فلم أفهم فى أول الأمر شيئاً ، وقلت : « لكن علام نرفض مساعدة رجل نبيل غنى يا أوليا ، اذا هو كان فوق ذلك طيب القلب ؟ » • فقطبت حاجبيها وقالت : « لا ياماما ، ليس هذا هو الأمر ، ليس الأمر أمر مساعدة بل أمر روح انسانية • أما المال فلعله كان ينبغى أن لا نأخذه • ألم يعد بأن يجد لى وظيفة ؟ كان هذا يكفى . . . رغم شدة حاجتنا الى المال . . . » • قلت « كفاك يا أوليا ، ما نحن



فى حال تسمح لنا بالرفض « ، حتى لقد ضحكت وأنا أقول لها هذا الكلام .  
 كنت بينى وبين نفسى مسرورة . ولكن ها هى ذى أوليا تعود الى الموضوع  
 بعد ساعة قائلة : « تريشى يا ماما . لا تنفقى من هذا المال شيئاً . » قالت  
 ذلك بلهجة قاطعة . فسألتها : « لماذا ؟ » ، قالت : « نعم ياماما ، تريشى » .  
 ثم لم تنطق بعد ذلك بشىء . وإنما ظلت مساءها كله صامتة . حتى اذا  
 كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، استيقظت فسمعت أوليا تتقلب على  
 سريرها وتسألنى : « ألسنت نائمة يا ماما ؟ » ، فأجبتها : « لا » ، فقالت :  
 « هل تعلمين ؟ لقد أراد أن يهيننى » . قلت : « ما هذا الكلام ؟ » . قالت :  
 « حتماً ، حتماً ، انه رجل دنىء . اياك أن تنفقى كوبكاً واحداً من ماله . » .  
 وهممت أن أجيبها ، حتى لقد بدأت أبكى على سريرى ، ولكنها انقلبت  
 الى جهة الحائط قائلة لى : « لا تجيبينى ، دعينى أنام ! » . ونظرت اليها  
 فى الصباح ، فلم أتعرفها من فرط تغيرها . صدقاً أو لا تصدقاً ، لكننى  
 أحلف لكما أمام الله أنها قد جنت ! انها منذ عوملت تلك المعاملة فى ذلك  
 البيت الساقط القدر ، قد اختل قلبها ، واختل عقلها أيضاً . . . . نظرت  
 اليها فى ذلك الصباح ، فاستبدت بى الحيرة وصرت لا أدرى كيف أتصور  
 الأمر واستبد بى الخوف . قلت لنفسى : « يجب أن لا أعارضها .  
 سألتنى : « ماما ، لم يترك عنوانه ، أليس كذلك ؟ » . فقلت : « أنت على  
 خطأ يا أوليا . لقد سمعت حديثه أمس ، فأثنت عليه ، ثم أوصلت أن  
 تذر فى دموع الشكر والعرفان بالجميل . » ولم أقل لها شيئاً آخر ، ولكنها  
 أخذت تصرخ ، وتضرب الأرض بقدمها قائلة لى : « ليس فى قلبك الا  
 عواطف ذل ! هى تربية عهد العبودية ، القديمة . . . واضح هذا ! » .  
 ما أكثر ما قالته لى من كلام جارح ! . . . وتناولت قبعتها ، وهربت .  
 لم أستطع أن أصددها . وصححت أناديها على السلم . ثم تساءلت ماذا  
 دهاها ؟ الى أين هربت ؟ لقد ذهبت الى مكتب العناوين ، لتعرف أين  
 يسكن السيد فرسيلوف . وقالت لى حين عادت : « فى هذا اليوم نفسه

سأردتُ إليه ماله ، سأرمى ماله في وجهه • لقد أراد أن يهيننى ، كما فعل سافرونوف ( التاجر ) ، ولا فرق بينهما الا فى أن سافرونوف فعل ما فعله بفظانة فلاح ، أما هو فمكر واحتيال ، ورياء ونفاق • • • وفى تلك اللحظة نفسها نقر على الباب ذلك السيد الذى جاءنا أمس ، وقال : سمعتكما تتكلمان عن فرسيلوف ، فأستطيع أن أزودكما بأنيابه • • • فما ان سمعت اسم فرسيلوف حتى وثبت الى الرجل مستعرة الغضب • وأخذت تتكلم ، وتتكلم • فكنت أنظر اليها فلا أصدق عيني • عهدى بها شديدة الصمت ، ما رأيتها فى حياتها تتدفق فى الكلام هذا التدفق ، فكيف تندفع الآن فى الحديث هذا الاندفاع ، ولا سيما مع رجل لا تعرفه ؟ وكانت خذاها حمراوين ، وكانت عيناها تسطعان • قال الرجل لها : انك على حق يا آنسة • ان فرسيلوف يشبه كل الشبه أولئك الجزالات الذين يوصفون فى الصحف • يتزين واحدهم بجميع أوسمته ، ويسعى الى المربيات اللواتى ينشرن اعلانات فى الجرائد ، يسعى ويجد مطلبه • واذا لم يجده يتكلم ، وينذل الوعود البراقة ، ثم يرجع من حيث أتى ! يكون قد تسلى على الأقل • « حتى أوليا ضحكت ، ولكن ضحكها كان متقطعاً عجيباً • وتناول ذلك السيد يدها وحملها الى قلبه قائلاً : « أنا أيضاً أملك ثروة فى امكاني دائماً أن أعرضها على فتاة جميلة • ولكن حسبى فى أول الأمر أن أقبل يدها • • • » ، ورأيت أنه يجذبها الى صدره ليعانقها ويقبلها ، فوثبت أوليا ، ووثبت أنا معها فى هذه المرة ، وتعاوننا كلتانا على طرده • وفى المساء استردت أوليا المال منى وخرجت مسرعة ، ثم رجعت فقالت لى : « ماما ، انتقمت من ذلك الرجل الحقير ! » • قلت لها : « أوليا ، من يدري أننا لم ندمر سعادتنا بأيدينا ، من يدري أنك لم تهينى رجلاً شريفاً محسناً ! » وبكيت ألماً وحسرة • لم أستطع أن أسيطر على نفسى • فاذا هى تصرخ قائلة : « لا أريد ، لا أريد ، نهييه أشرف انسان فى العالم ، فانى لا أريد صدقاته ! لا أريد أن يشفق على أحد ! » •

ورقدت خالية البال من أية فكرة • لم يدر في خلدي شيء • لطالما نظرت  
اليه ، هذا المسمار المدقوق في الجدار من بقايا مرآة ، فلم يخطر في ذهني  
شيء ، لا أمس ، ولا قبله ، ولا في يوم من الأيام • لم أقدر أن يحدث  
حادث • لاسيما وأنتى كنت لا أتوقع هذا من عزيزتى أوليا • ومن عادتى  
أنتى أنام نوماً ثقيلاً ، وأشخر ؟ انه الدم يصعد الى رأسى • وقد ينزل  
الدم الى قلبى فأصرخ فى نومى ، فتوقظى أوليا فى الليل وتقول لى :  
« ما هذا يا ماما ؟ انك تنامين نوماً يبلغ من الثقل أنه يصعب ايقاظك عند  
الحاجة • » فأقول لها : « آ ••• نعم نعم يا صغيرتى أوليا ، ان نومى ثقيل ،  
ثقيل جداً • » • ولا بد اذن أنتى كنت فى هذه الليلة أشخر ذلك  
الشخير • وهذا ما كانت تنتظره أوليا: فنهضت دون أن تخشى شيئاً • وكان  
عندنا سير طويل نحزم به حقيبتنا ، وكان السير ملقى فى الغرفة ظاهراً  
للعيان طول هذا الشهر • ولقد حدثت نفسى بالأمس قائلة ان على أن  
أضعه فى مكان ، فليس يليق أن يبقى ملقى فى الغرفة هكذا ! أما الكرسي  
فلا بد أنها دفعته بقدمها ؟ ومن أجل أن لا تحدث ضجة وضعت تحته  
تورتها • ولا شك أنتى لم أستيقظ الا بعد مدة طويلة ، بعد ساعة أو  
أكثر • فناديتها : أوليا ! أوليا ! لكأن نوعاً من رؤيا قد وافانى فناديتها •  
واما لأنتى لم اسمع تنفسها فى السرير ، واما لأن سريرها بدا لى فى  
الظلام خالياً ، فقد رأيتنى أثب دفعة واحدة وأمد ذراعى أتلمس السرير :  
لم يكن فى السرير أحد ، وكانت المخدة باردة • عندئذ انقبض قلبى ،  
وتجمدت فى مكانى كأننى تمثال من حجر ، واضطرب عقلى • قلت  
لنفسى : « لا بد أنها خرجت » • ثم لاح لى بقرب السرير ، فى الزاوية ،  
أمام الباب ، أنتى أراها واقفة • فنظرت اليها دون أن أقول كلمة ، ونظرت  
الى هى أيضاً فى الظلام دون أن تتحرك • ولكن لماذا هى واقفة على  
الكرسى • وقلت لها بصوت خافت جداً : « أوليا • انتى خائفة • أوليا ،  
هل تسمعينى ؟ » • عندئذ اتضح فى نفسى كل شيء فجأة • فتقدمت خطوة

الى أمام ، ومددت ذراعى نحوها ، وطوقتها • فكانت تترجح بين يدى •  
 وأمسكتها فظلت تترجح • أدركت كل شىء • ولم أشأ أن أدرك •••  
 وأردت أن تصرخ ••• ولكن صوتى لم يخرج • تأوهت فى داخلى :  
 آه ••• وهويت على الأرض • وعندئذ صرخت •

• • • • •  
 • • • • •

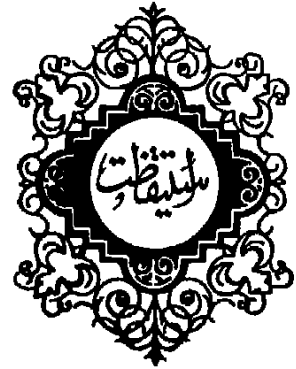
قلت لفاسين فى الصباح ، بين الساعة الخامسة والساعة السادسة :  
 \_ لولا صاحبك ستيلكوف يا فاسين ، كان يمكن أن لا يحدث شىء  
 • مما حدث •

\_ ما يدريك ؟ بل كان سيحدث حتماً • لا يجوز للمرء أن يحكم  
 فى الأمور على هذا النحو • لقد كان كل شىء يسير بالفتاة الى هذه  
 الحاتمة • صحيح أن ستيلكوف ، فى بعض الأحيان •••

ولم يكمل فاسين جملته ، وقطب حاجبيه ممتعضاً ؛ وانصرف فى  
 الساعة السادسة ، فخلوت أخيراً الى نفسى • لقد طلع النهار • وكنت  
 أشعر بشىء من دوار • ووافتنى صورة فرسيلوف : ان القصة التى روتها  
 عنه السيدة تظهره فى ضوء جديد • ومن أجل أن أفكر فى الأمر على  
 مهل ، استلقيت على سرير فاسين بملابسى وحذائى لحظة ، وليس فى  
 نيتى أن أنام أبداً • لكننى لم ألبث أن نمت ، لا أذكر كيف تم هذا • نمت  
 قرابة أربع ساعات • ولم يوقظنى أحد •

## الفصل العاشر

١



في نحو الساعة العاشرة والنصف ، فلبث مدة  
لا أصدق عيني : فعلى الديوان الذي نمت عليه  
في الليلة البارحة كانت تجلس أمي ، وبجانبتها  
الجارة المسكينة المفجوعة ، أم المنتحرة . وكانت  
الامتنان قد أمسكت كل منهما يد الأخرى ، وراحتا تتحدثان بصوت خافت  
حتى لا توقظاني طبعاً ، وكانتا كلتاهاما تبيكان . نهضت ووثبت لأقبل أمي ،  
فأشرك وجهها وقبلتني ، ورسمت عليّ إشارة الصليب بيدها اليمنى  
ثلاث مرات . ولم نكن قد نطقنا بعد بكلمة واحدة حين فتح الباب ، فدخل  
فرسيلوف وفاسين . مدّ اليّ فاسين يده . ولم يخاطبني فرسيلوف بكلمة ،  
بل تهالك على المقعد . أغلب الظن أنه جاء الى هنا هو وأمي منذ وقت .  
وكان وجهه مشدوداً ، وكانت هيئته تنم عن هم وقلق . ولا شك أنه كان  
قد بدأ حديثاً مع فاسين ، فهاهو ذا يكمل حديثه قائلاً له بصوت  
واضح جداً :

— ان ما آسف له أكثر من كل شيء آخر هو أنني لم أستطع أن  
أعالج هذا الأمر كله مساء أمس . ولولا ذلك لما وقعت هذه الحادثة  
الرهيبية ! كان في الوقت متسع . لم تكن الساعة قد بلغت الثامنة بعد .

وما ان خرجت من عندنا هاربة حتى قررت بيني وبين نفسي أن أدركها هنا ، فأبدد ما قام في ذهنها من فهم خطأ • ولكن تلك القضية المستعجلة التي لم تكن في الحسبان ، والتي كان يمكنني مع ذلك أن أرجئها الى اليوم ••• بل كان يمكنني أن أرجئها أسبوعاً ••• تلك القضية المؤسفة هي التي حالت بيني وبين اللحاق بالفتاة الى هنا ، فأفسدت كل شيء • أمور تحدث !

فقال فاسين معترضاً :

— لعلك ما كنت لتستطيع أن تفنعها • ان أحقاداً مريرة كثيرة كانت قد تجمعت في نفسها قبل أن تلقاها •

— بل كنت سأفصح في افناعها • كنت سأفصح حتماً • وكانت في ذهني فكرة أخرى ، هي أن أرسل اليها صوفيا آندريفنا نيابة عني • لقد خطرت هذه الفكرة ببالي ، ولكنها لم تستقر فيه • كان يمكن أن تفصح صوفيا آندريفنا ، فلو نفذنا هذه الفكرة لأمكن أن تكون المسكينة حية الآن • لا ، لا ! لن أقحم نفسي بعد اليوم في ••• « أعمل خير » ••• ها قد جربت فكان مسعاه وبالاً ! ما كان أغباني حين ظننت أنني ما أزال من أبناء هذا العصر ، وأنتى أفهم طبيعة الشباب في هذا الزمان ! نعم ، ان أدمغتنا قد شاخت حتى قبل أن تنضج • بالمناسبة : ان عدداً هائلاً من الناس لا يزالون بحكم العادة يظنون أنفسهم من جيل الشباب لأنهم كانوا حتى أمس يتمون الى جيل الشباب ، ولا يدركون أنهم قد أقصوا ونحسوا •

قال فاسين بتعقل وحكمة :

— هناك خطأ واضح في فهم المسألة • ان أم الفتاة تعترف بأن ابنتها ، بعد الحادث الذي وقع لها في بيت المومسات ، قد أصبحت كمن فقد عقله وأصابه جنون • أضف الى ذلك الظروف القاسية ، والاهانة الأولى التي

ألقها بها التاجر . . . ان هذا كله يمكن أن يحدث في الماضي على هذا النحو نفسه ، وليس هو في رأيي صفةً تميز بها شيية هذا العصر .

— ان شيية هذا الزمان نافذة الصبر قليلاً ، ناهيك طبعاً عما تتصف به الشيية في جميع الأزمنة من ضعف ادراك الواقع ، ولا سيما شيية الزمان الحاضر . قل لي : ماذا لفق السيد ستيلكوف هنا ؟

فانبريت أتدخل في الحديث فجأة فقلت :

— ان السيد ستيلكوف هو سبب البلاء كله . فلولاه لما حدث شيء .  
لقد صبب على النار زيتاً .

فأصغى فرسيلوف ، ولكنه لم ينظر الى . وقطب فاسين حاجيه .  
ثم استأنف فرسيلوف كلامه فقال ماطاً كلماته بدون تعجل :

— هناك شيء آخر مخيف ألوم نفسي عليه . يخيل الى انني بحكم عادة سيئة مستحكمة قد أبحث لنفسي شيئاً من المرح معها ، فضحكت ضحكة خفيفة ، أي انني لم أكن قاطعاً وجافاً وجهماً بالقدر الكافي ، وهذه صفات ثلاث أظن أن الجيل الجديد يقدرها قدراً كبيراً . فلعلني أتحت لها أن تحسبني نوعاً من سيلاون متجولاً .

فعدت أقاطعه مرة أخرى قائلاً بعنف :

— بالعكس : ان الأم تؤكد أنك أحدثت في نفسها اثرآ حسناً رائعاً ، وأن الفضل في هذا الأثر انما يرجع الى ما كان فيك من جدٍ بل من قسوة ، وما كان فيك من صدق . هذه أقوالها هي نفسها . ان الفتاة الراحلة قد أثنت عليك بعد انصرافك ثناءً يحمل هذا المعنى ذاته .

فتمتم فرسيلوف وهو يلقي على أخيراً نظرة سريعة خاطفة :

— ه . . . كذا ؟

ثم أضاف قائلاً لفاسين وهو يمد اليه ورقة صغيرة :

– خذ اذن هذه الورقة ، فلا بد منها للقضية •

فتناول فاسين الورقة ؛ واذ رأى أننى أنظر اليها مستطعماً ، أعطانيها لأقرأها • انها بطاقة كتب فيها سطران مضطربان "كتبا خربشةً بالقلم الرصاص ، وأغلب الظن أنهما كتبتا فى الظلام : « ماما ، ماما العزيزة ، اغفرى لى أننى قد رسبت فى مطلع الحياة : ابتتك أوليا التى أورتتك آلاماً » • • •

قال فاسين شارحاً:-

– 'وحدثت البطاقة فى هذا الصباح •

فهتفت أقول :

– يا لها من رسالة عجيبة !

فسألنى فاسين :

– عجيبة ؟ لماذا ؟

– هل يستطيع المرء ، فى لحظة كذلك اللحظة ، أن يكتب

بهذا الأسلوب الهزلى ؟

فنظر الى فاسين مستفهماً • فتابعت كلامى أقول :

– هذا الهزل نفسه عجيب • انه من اللغة التى يتخاطب بها تلاميذ

المدرسة • من ذا الذى يستطيع ، فى مثل تلك اللحظة ، وفى رسالة

لأمه الشقية ، أمه التى يجبها هذا الحب الذى نراه واضحاً فى الرسالة

نفسها ، أن يكتب : « رسبت فى مطلع الحياة » ؟

فسألنى فاسين وهو لا يزال لا يفهم :

– لماذا ؟

وقال فرسيلوف أخيراً :



- ليس ههنا أى هزل • قد يكون التعبير غير دقيق ، قد يكون ناشزاً ، قد يكون من بقايا اللغة التى يتخاطب بها التلاميذ فى المدرسة كما تقول ، أو قد يكون مستمداً من رواية مسلسلة قرأتها الفتاة ، ولكن لا شك فى أن الفتاة حين استعملته لم تلاحظ أنها تستعمل لهجة فيها هزل ، وانما هى استعملته فى هذه الرسالة النظيفة بسداجة تامة وجد كامل •

- مستحيل • لقد أنهت دراستها ، وحصلت عند تخرجها على مدالية فضية •

قال فرسيلوف :

- لا شأن للمدالية الفضية فى هذا • كثيرون من يتهون دراستهم فى هذا الزمان على هذا النحو !

فقال فاسين مبتسماً :

- تقصد الشبية أيضاً !

فأجابه فرسيلوف وهو ينهض ويتناول قبعته :

- لا ، أبداً •

ثم أضاف يقول بجد غير معهود فيه :

- لئن كان الجيل الحالى أقل معرفة بالأدب ، فمما لا شك فيه ... أن له من إياها أخرى ! ثم ان قولى « كثيرون » لا يعنى « الجميع » • فانت مثلاً لا يمكنكى أن اتهمك بأن ثقافتك الأدبية ناقصة ، ومع ذلك فانت لا تزال شاباً •

فلم أستطع أن أمنع نفسى عن أن أقول :

- ولكن فاسين لا يجد فى هذا « الرسوب » خيراً ، ولا يعده

سوءاً •

مدّ فرسيلوف يده الى فاسين صامتاً • وتناول فاسين كسكيتته ليخرج معه قائلاً لى : الى اللقاء •

وخرج فرسيلوف دون أن يوليني انتباهاً • وكنت أنا أيضاً على عجلة من أمرى ، لا أملك من الوقت ما أستطيع أن أضيعه سدى : كان على أن أسعى باحثاً لنفسي عن مسكن يؤوينى • ان حاجتى الى هذا أقوى منها فى أى وقت مضى !

وكانت أمى قد انصرفت مصطحبة الجارة • فلما خرجت الى الشارع وجدتنى مشرق المزاج • ان اجساساً جديداً رجياً قد نبت فى نفسى • وشاءت المصادفة أن ينجح مسعاى • فسرعان ما وقعت على مسكن مناسب كل المناسبة • سوف أعود الى هذا من بعد • أما الآن فلأفرغ من الشئ الأساسى •

حين عدت الى بيت فاسين لأخذ حقيبتى لم تكن الساعة قد تجاوزت الواحدة كثيراً • وكان فاسين فى البيت فما ان رأنى حتى هتف يقول لى جذل الهيئة صادق النبوة :

- كم يسعدنى أنك وجدتنى ! كنت على وشك أن أخرج • هناك حادث يجب أن أثقله اليك ، وأنا على يقين من أنه سيهمك كثيراً •  
فهتفت أقول :

- أنا على يقين من ذلك سلفاً •

- هيه ! ما أشد هذه الكبرياء فى هيئتك ! قل لى : ألم تكن تعرف شيئاً عن رسالة كانت عند كرافت ، ووقعت أمس بين يدي فرسيلوف ، فى أمر الميراث الذى آل اليه ؟ ان كاتب الوصية قد عبر فى هذه الرسالة عن ارادته بما يناقض حكم المحكمة • ويرجع تاريخ الرسالة الى زمن بعيد • الخلاصة اننى لا أعرف ما ذا تتضمن الرسالة على وجه الدقة ، ولكن ألا تعرف أنت شيئاً عن ذلك ؟

- أعرف ، طبعاً ! لقد اقتادني كرافت أمس الأول الى بيته ...  
من عند أوائك السادة ، فأعطاني الرسالة • وأنا الذي سلمتها أمس الى  
فرسيلوف •

- صحيح ؟ ذلك ما قدرته • تصور أن القضية التي تكلم عنها  
فرسيلوف هنا منذ قليل ، والتي حالت بينه وبين اللحاق بالفتاة في مساء  
الأمس ليبدد ما وقع في وهما من سوء الظن ، انما هي قضية آثارها تلك  
الرسالة • لقد ذهب فرسيلوف الى محامى الأمير سوكولسكى رأساً ،  
في مساء الأمس ، وأعطاه الرسالة وتنازل عن الميراث كله • وقد اكتسب  
هذا التنازل الآن صفة شرعية • فان فرسيلوف لا يهب هبة ، وانما  
يعترف في صك التنازل بأن الميراث حق كامل للأمرء •

ذهلت • ولكننى سررت • الحق اننى كنت مقتنعاً اقتناعاً تاماً بأن  
فرسيلوف كان سيتلف هذه الرسالة التي تعرض مصلحته للخطر • وأكثر  
من ذلك أننى قلت لكرافت : ان اتلاف الرسالة عمل غير شريف ، حتى  
اننى كررت هذا القول لنفسى فى المطعم ، ولكننى كنت فى قرارة نفسى  
أحس أن هذا الحل يفرض نفسه ، وانه طبعى ، سواء أكان الرجل  
شريفاً أم كان غير شريف • واذا أمكننى أن أتهم فرسيلوف فيما بعد ،  
فانما يكون ذلك منى تظاهراً ، اى اننى كنت سأصدر الاتهام عامداً  
لأحتفظ بتفوقى على فرسيلوف • أما الآن ، وقد علمت بالمأثرة التي قام بها ،  
فقد أحسست بحماسة صادقة تامة • وأسفت لاستخفافى بالفضيلة وقلة  
اكتراثى بالواجب ، وسرعان ما وضعت فرسيلوف فى منزلة أعلى كثيراً  
من منزلتى فى هذا المضمار • وأوشكت أن أقبل فاسين • وهتفت أقول  
فيما يشبه الهديان من النشوة :

- ما أعظمه من رجل ! ما أعظمه من رجل ! من ذا الذى كان  
يمكن أن يفعل ما فعله ؟  
قال فاسين :

– اعترف معك بأن كثيراً من الناس ما كانوا ليفعلوا ما فعل ...  
 وأن عمله عمل ينزله في منزلة عالية من النزاهة والزهد بالمنفعة ...  
 – « ولكن » ؟ أكمل يا فاسين ... هل عندك ما تعترض عليه  
 قائلاً « ولكن » ؟

– طبعاً ، عندي « ولكن » • ان العمل الذي قام به فرسيلوف  
 يشتمل في رأيي على تسرع ، ويشتمل على ... على ... ماذا أقول ؟  
 كيف أعبر ؟ نعم يشتمل على شيء من الزيف ....  
 – الزيف ؟

– نعم • لقد أراد بهذا الفعل أن يرفع قدر نفسه ... كان كمن  
 يبني لنفسه « نصيباً » يرتقيه • لقد كان في وسعه أن يقوم بعمل تزييه  
 دون أن يلحق بنفسه ضرراً • فكأنه أراد أن يقلد نفسه وسام شرف بإبداء  
 مصلحته • لقد كان في وسعه – والظروف هي ما عرفت من ان حكم  
 القضاء صذر ومن ان الوثيقة ليس لها قيمة حاسمة – كان في وسعه  
 أن يحتفظ لنفسه بنصف الميراث أو بجزء كبير منه في أقل تقدير ، دون  
 أن يعترض على ذلك أي وجدان مهما يكن شديد الاحساس ، قوى  
 التزم • وهذا رأي محامي الخصوم نفسه • لقد تحدثت مع المحامي  
 منذ برهة • فلو فعل فرسيلوف ذلك لكان قد قام بعمل لا يقل جمالاً  
 عن العمل الذي قام به • ولكنه فعل ما فعل حياً بالظهور ورغبة في  
 المباهاة • لقد تحمس السيد فرسيلوف كثيراً وأسرف في التسرع • ألم  
 يقل هو نفسه منذ قليل انه كان يستطيع أن يرجي الأمر أسبوعاً ؟ ...

– اسمع يا فاسين ... لا يسعني الا أن أوافق على أن ما تقوله  
 سليم ... ولكنني أود أن أرى الأمور تجري كما جرت !  
 – هذه مسألة ذوق • أنت الذي حرصتني على الكلام • ولولا ذلك  
 لصمت وما قلت شيئاً •

وتابعت كلامي فقلت :

- هب عمله نصباً يرتقيه اعلاءً لقدر نفسه فان هذا رغم ذلك أفضل . ان ميل المرء اعلاء قدر نفسه ، ولو بارتقاء « نصب » ، أمر جدير بالاعتبار والتقدير . ان له « مثلاً أعلى » على كل حال ، واذا كان الناس في هذا الزمان ليس لهم مثل أعلى ، فما هذا بتقدم . صحيح ان هذا المثل الأعلى مشوه بعض التشويه ، ولكنني أفضل أن يوجد على أن لا يوجد . ولا شك أنك تفكر هذا التفكير نفسه يا فاسين صديقي ، يا عزيزي فاسين ! أنا أعرف أنني أسرف في الحماسة حتى لكأنني أهدي ، ولكنك تفهم عني طبعاً ، والا لم تكن فاسين . على كل حال ، فأنني أعانقك وأقبلك يا فاسين !

- من شدة الفرح ؟

- من شدة الفرح ! ذلك أن هذا الرجل « كان ميتاً فبعث ، وكان ضائعاً فرجع ! » . أنا فتى سييء يا فاسين ، أنا لا أساويك . لذلك أشعر أحياناً بأنني أصبح اسناناً آخر ، أسمى وأعمق في أن واحد . انني بعد أن كنت لك المديح أمس الأول ( وما مدحتك في الواقع إلا لأنك أذلمتني وأرهقتني ) ، ظلمت أكرهك يومين كاملين ! وقد عاهدت نفسي في تلك الليلة على أن لا أجيئك من بعد أبداً ، لكن جئت إليك في صباح أمس ، فأنني لم أفعل ذلك الا من حنق ، هل فهمت ؟ من « حنق » ! وحين جلست على هذا الكرسي ، أخذت أنتقد غرفتك ، وانتقدك أنت نفسك ، وانتقد كل كتاب من كتبك ، وانتقد مؤجرتك . . . . كنت أحاول أن أخفض قيمتك وأن أسخر منك . . . .

- ما كان ينبغي أن تقول لي هذا .

- في مساء أمس ، حين استتجت من احدي عباراتك أنك لاتفهم المرأة ، أسعدني كثيراً أنني أستطعت أن أغلبك . ومنذ قليل ، بمناسبة

الكلام عن « الرسوب في مطلع الحياة » ، سعدت مرة أخرى سعادة هائلة لأننى استطعت أن أخطئك • وما ذلك كله الا لأننى مدحتك فى ذلك اليوم •••

كان فاسين لا يزال يتسسم ، دون أن يدهش أى دهش • وهتف يقول أخيراً :

- ولكن غذا أمر طبيعى • هذا ما يحدث دائماً ، لجميع الناس تقريباً ، بل هذا هو الشعور الأول الذى يشب فى النفس • ولكن لا أحد يعترف به ، ولا ينبغى الاعتراف به على كل حال ، لأنه ينقضى ولا تترتب عليه أية نتيجة •

- يحدث لجميع الناس ؟ هل هذا ممكن ؟ هل جميع الناس على هذه الشاكلة ؟ هل يمكن أن يعرف المرء هذه الحقيقة ثم يحافظ على هدوئه ؟ بمثل هذه الأفكار ، تصبح الحياة مستحيلة !

- فأنت اذن ترى ما يراه القائل :

لوهم<sup>٣</sup> يسمو بالنفس خير من ألف حقيقة دنيئة •

فهمت أقول :

- هذا صحيح كل الصحة • ان هذا البيت من الشعر يعبر عن بديهية مقدسة !

- لا أدرى ! لا أريد أن أجزم بأن هذا البيت من الشعر صادق أو كاذب • ان الحقيقة قائمة فى مكان بالوسط • كذلك شأنها دائماً • قرب أمر واحد يكون حقيقة مقدسة تارة ، ويكون كذباً سفيهاً تارة أخرى • غير أن هناك شيئاً أعلمه علم اليقين هو أن هذه الفكرة ستظل احدى النقاط الهامة التى يثور حولها الجدل وتكون موضع خلاف ونزاع بين الناس • وانى لألاحظ على كل حال أن بك الآن رغبة فى الرقص • فهيا

أرقص ! الرقص متعة ولكننى فى هذا الصباح قد تلقيت ركاباً ضخماً من  
من العمل • وأرى أننا تأخرنا •

صحت أقول وأنا أمسك حقيبتى :

— سأصرف حالاً ، سأصرف حالاً • ولكن لى كلمة واحدة •  
لئن حدث لى مرة أن « ارتميت على عنق أحد أقبلة » ، فما ذلك الا لأنك  
نقلت الى النبأ منذ وصولى بفرح صادق ، ولأنك قد أسعدك أنتى وجدتك  
فى البيت ، حتى بعد قضية « الرسوب فى مطلع الحياة » • فهذا السرور  
الصادق قد رد « قلبى الفتى » اليك زاخراً بالمحبة • استودعك الله ،  
استودعك الله ، سوف أحاول أن لا أجيء اليك الا بعد مدة طويلة ، بعد  
أطول مدة ، وأنا أعرف أنك تتراح لغيابى ارتياحاً عظيماً • أقرأ هذا فى  
عينك • وعلى كل حال ، فان فى غيابى عنك خيراً لنا كلينا ••

وفيما أنا فى هذه الثرثرة التى تكاد تخفنى مرحاً وجدلاً ، سحبت  
حقيبتى ومضيت بها الى مسكنى الجديد • وكان الشئ الذى يرضينى  
ارضاء خاصاً هو أن فرسيلوف قد غضب منى ، ورفض أن يكلمنى وأن  
ينظر الى • فما ان أودعت حقيبتى فى المسكن الجديد ، حتى طرت الى  
صاحبى الأمير العجوز • يجب أن أعترف بأن بعدى عنه خلال هذين  
اليومين قد شق على نفسى قليلاً • ولا بد من جهة أخرى أنه علم بما فعله  
فرسيلوف •

كنت أعرف أنه سيفرح برؤيتي فرحاً شديداً ، وأقسم اننى كنت سأذهب اليه فى ذلك اليوم بصرف النظر عن رغبتى فى سماع ما سيقوله عن فرسيلوف . ولكن كان يخيفنى أمس ، وقبل ساعات ، أننى قد ألقى عنده كاترين نيقولايفنا ، أما الآن فلا أخشى شيئاً .

عائفتى من شدة فرحه .

وسرعان ما هجمت على الموضوع الأساسى ، فبدأت حديثى معه

قائلاً :

– هيه ! ما رأيك فيما فعله فرسيلوف ؟

فبادرنى بقوله :

– « يا بنى العزيز » هذا عمل عظيم ، هذا عمل نبيل ! حتى كيليان

( الموظف الذى يعمل تحت ) قد شده منه شدهاً كبيراً . هذا العمل

جنون طبعاً ، ولكنه عمل باهر . انه مأثرة عظيمة ! يجب على المرء أن

يعرف كيف يقدر المثل الأعلى .

– أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ لقد كنا دائماً على اتفاق فى هذه

النقطة .

– يا عزيزى نحن دائماً متفقان . أين كنت ؟ لقد أردت أن أذهب

اليك حتماً ، ولكننى كنت لا أعرف أين يمكننى أن أجدك . ولم يكن

فى وسعى أن أذهب الى فرسيلوف طبعاً . . رغم اننى اليوم ، بعد

ما حدث . . هل تعلم يا صديقى ؟ انه بمثل هذه الميزات انما أتيح له أن

يتنصر على النساء . أنا من هذا على يقين . .

– بالمناسبة ، قبل أن أنسى . . لقد سمعت تعبيراً قيل فى حقه ،

فحفظته لأقوله لك خاصة . أمس ، قال شخص بذى حقير وهو يشتم

فرسيلوف ، قال ان فرسيلوف « نبي للنساء الفاضلات » . ياله من تعبير

عجيب ! التعبير نفسه ، هه ؟ حفظته لأقوله لك . .



- « نبي للنساء الفضلات ! » تعبير أخاذ ! هاهأها ! تعبير ينطبق عليه تماماً ! بل قل انه لا ينطبق عليه ، لكنه تعبير أصاب هدفاً ، بل قل انه لم يصب أى هدف .. ولكن ..

- لا بأس ، لا بأس ! لا تقلق ! انظر الى الكلمة الموقفة فحسب ..

- الكلمة رائعة ، وان لها معنى عميقاً .. الفكرة صحيحة كل الصحة .. أقصد .. لعلك ستصدق ما سأقوله لك .. الخلاصة .. سأقضي اليك بسر .. هل لاحظت فى ذلك اليوم أبواب تلك ؟ هل تصدق أنها أغرمت بآندره بتروفتش ؟ بل اننى أعتقد أن أملاً يساورها ..

صحت أسأله مستاءً :

- أى أمل ؟

- « يا عزيزى » لا تصح هذا الصياح .. الأمور تجرى دائماً هذا المجرى .. وأنت من جهة أخرى على حق ، من وجهة نظرك .. بالمناسبة : قل لى يا صديقى ، ماذا حدث لك فى المرة الماضية أمام كاترين نيقولايفنا ! لقد رأيتك تترنح ، وكدت تسقط ، حتى اننى هممت أن أثب لأمسك بك ..

- ليس هذا أوان الكلام فى هذا الأمر .. على كل حال ، اضطربت بعض الاضطراب ، لسبب من الأسباب ..

- وهأت ذاً يحمر وجهك ..

- وهل أنت فى حاجة الى مزيد من الالحاح ؟ انك تعرف أن بينها وبين فرسيلوف شقافاً .. ثم هنالك تلك الأمور كلها .. المهم اننى اضطربت .. دعنا من هذا الى حين آخر ..

ورأيت ضابطاً شاباً جميلاً يدخل .. فنظرت اليه بعين نهمه ، لأننى لم أكن قد رأيت من قبل أبداً .. واذا قلت انه جميل ، فلأن جميع الناس كانوا يقولون عنه ذلك ، ولكن يجب أن أذكر أن وجهه الشاب الجميل

كان فيه شيء منفر • اننى أسجل هنا شعوراً أحسسته فى الوهلة الأولى ، شعوراً خامرنى منذ أول نظرة ، ثم بقى فى نفسى لم يبارحها • انه نحيل الجسم ، حسن القامة ، كستناوى اللون ، نضر البشرة على شيء من صفرة ، جازم النظرة ، تبدو فى عينيه ، القائمتين قليلاً ، فسوة ، حتى حين يكون هادئاً • ولكن نظراته الجازمة هى نفسها الشيء المنفر فيه ، لأن المرء يحس أنها لا تكلفه الا ثمناً بخساً جداً • الخلاصة •• اننى لا أعرف كيف أعبر عما أريد أن أقوله • على كل حال ، كانت هيئته قادرة على الانتقال من القسوة الى المودة فجأة ، وذلك بصدق لا يستطيع المرء أن يمارى فيه أو أن يججده • فهذا الصدق كان فيه جذاباً • وثمة سمة أخرى : لقد كانت سحته ، رغم هذه المودة وهذا الصدق ، خالية من الفرح • فحتى حين كان هذا الأمير يضحك ، تحس رغم كل شيء أن قلبه لا بد أن يكون خالياً من الفرح ، الفرح الحق ، الفرح الرشيق المضيء • ولكن ما أصعب رسم صورة لوجه من الوجوه ! اننى من جهتى عاجز عن هذا كل العجز •

وسرعان ما اندفع الأمير الشيخ يعرّف أحدنا بالآخر ، على ما جرت به عادته المستحكمة الحمقاء •

- صديقى الشاب آر كادى آندريفتشس ( أيضاً آندزيفتشس )  
دولجوروكى •

فالتفت الأمير الشاب الى جهتى معبراً بوجهه عن احترام عظيم • ولكن كان واضحاً أنه لم يسمع باسمى من قبل • وتابع صاحبى الأمير الذى لا يطاق ، تابع كلامه قائلاً :

- هو •• قريب آندره بتروفتشس ••

ما أثقل هؤلاء الأمراء العجائز احياناً بعاداتهم المستحكمة !

وسرعان ما حزر الأمير الشاب من أنا • فسرعان ما قال :

- آ . . نعم . . سمعت عنك منذ مدة طويلة . وقد سررت كثيراً  
بمعرفة اختك اليزابث ماكاروفنا ، السنة الماضية ، في مدينة لوغا . وقد  
حدثني عنك أيضاً . .

دهشت دهشة كبيرة : ان سروراً صادقاً مخلصاً قد التمع في  
وجهه .

وتتمت أقول وأنا أعقد ذراعيّ على ظهري :

- اسمح لي يا أمير . يجب أن أقول لك بصراحة - ويسرنى أن  
أقول هذا الكلام بحضور أميرنا العالي - اننى أرغب فى لقاءك رغبة  
شديدة ، وان هذه الرغبة قد استبدت بى فى الآونة الأخيرة ، واشتدت  
بالأمس اشتداداً خاصاً ، ولكن لنية أخرى وغرض آخر . أقول لك هذا  
بصراحة مهما يدهشك . خلاصة الأمر أننى كنت أريد أن أدعوك الى  
المبارزة بسبب الالهانة الى ألققتها منذ ثمانية عشر شهراً بفرسيلوف فى  
مدينة « امس » . فاذا اتفق أن رفضت التحدى بحجة اننى تلميذ فى  
المدرسة وأننى فتى مراهق ، فأننى كنت سأوجه اليك هذا التحدى أياً كان  
جوابك ، وأياً كان العمل الذى تستطيع أن تقوم به . وما أزال عاقداً  
عزمى على انفاذ هذا النية نفسها . اعترف لك بذلك .

وقد ذكر لى الأمير العجوز فيما بعد اننى ألقيت جملتى الأخيرة هذه  
بكثير من النبل والشمم .

وارتسم على وجه الأمير الشاب أسى صادق . وأجابنى بلهجة  
فيها حرارة :

- انك لم تترك لى أن أتم كلامى . لئن كنت قد وجهت اليك بضع  
كلمات نابغة من القلب ، فانما السبب فى ذلك ما أحمله الآن لأندره  
بتروفتش من عواطف صادقة . يؤسفنى أننى لا أستطيع أن أذكر لك  
على الفور جميع الظروف والملابسات ، ولكننى أحلف بشرفى أننى منذ

مدة طويلة أشعر بأعمق الأسف للفعل السيء الذى بدر منى بمدينة  
 « امس » • وحين عدت الى بطرسبرج كنت قد عقدت العزم على أن أقدم  
 لآندره بتروفتش كل الترضيات الممكنة أى أن أطلب منه العفو والمغفرة  
 صراحةً على النحو الذى يحدده هو نفسه ، وفى الصورة التى يرسمها  
 بارادته • ان مؤثرات سامية جداً وقوية جداً هى التى كانت سبب هذا  
 التبدل فى رأى • أما أننا كان بيننا دعوى ينظر فيها القضاء ، فذلك أمر  
 لم يكن له أى تأثير فيما اتخذت من قرار • ولكن موقفه منى بالأمس قد  
 هزنى هزاً قوياً • وصدقنى اذا قلت لك اننى حتى هذه اللحظة مازلت  
 مضطرباً أشد الاضطراب لم استرد توازنى بعد • اعلم أننى انما  
 أجيء الآن الى الأمير لأبلغه أمراً فى غاية الخطورة : منذ ثلاث ساعات ،  
 أى - على وجه التحديد - فى اللحظة الذى كان يحرق فيه ذلك الصك  
 مع المخامى ، جاءنى الرجل الذى هو محل ثقة آندره بتروفتش ، ونقل  
 الىّ منه دعوة الى المبارزة •• دعوة رسمية •• تاراً لحادثة « امس » •••  
 هتفت أقول :

- دعاك الى المبارزة ؟

وأحسست بعينى تلتهبان ، وبالدم يصعد الى رأسى •

- نعم ، دعانى الى المبارزة • وقد قبلت التحدى فوراً • لكننى  
 قررت ، قبل النزال ، أن أبعث اليه رسالةً أعلن له فيها رأى فى الفعل  
 الذى صدر عنى ، وأعرب له فيها عن أسفى لهذه الخطيئة الرهيبة التى  
 ارتكبتها •• ذلك أنها كانت خطيئة رهيبة ، خطيئة فظيعة ، مشؤمة ! ••  
 أرجو أن تلاحظ أن هذه الخطوة التى أقوم بها قبيل المبارزة ، أعنى هذا  
 التراجع الذى يصدر عنى عشية النزال ، أمر مشين يحرك السنة الناس  
 بما يسيء الى سمعتى ، ويحرض رفاقى فى الحين على هاجر القول فى  
 حقى ، هل تفهم ما أعنى ؟ ومع ذلك اتخذت قرارى وعزمت أمرى •  
 ولكن الوقت لم يتسع لارسال الرسالة ، فبعد انقضاء ساعة واحدة على

دعوته اياي للنزال ، وصلتني منه رسالة جديدة يرجوني فيها أن أعفر له أنه أزعجني ، وأن أنسى تحديه ، ويضيف الى ذلك أنه « يأسف لهذه النوبة الطارئة من الوضاعة والأناية التي اعترته عرضاً » . تلك ألفاظه نفسها . وبذلك يستهل على أمر القيام بتلك الخطوة ، أعنى ارسال الرسالة . وأنا لم أرسلها بعد ، ولكنني جئت أباحث الأمير قليلاً . وصدقني اذا قلت لك ان ما عانيته من عذاب الضمير يفوق ما عاناه أى انسان . هل يرضيك هذا الايضاح ، ولو الى حين علي الأقل ، يا أركادى ماكاروفتش ؟ هل تقبل أن تسبغ عليّ شرف اعتقادك بصدق ما أقول صدقاً كاملاً ؟

غلبت . لقد رأيت صراحة لا مرء فيها ، صراحة لم أكن انتظرها أبداً . لا ولا كنت أنتظر شيئاً من هذا القبيل قط . فتمتت أجيبه بكلمات لا أدري ماذا كانت ، ومددت اليه يدي مستقيمين ، فهزهما بيديه فرحاً . ثم خلا بالأمر ، وتحدث معه في غرفته نحو خمس دقائق .

حتى اذا خرج من غرفة الأمير قال لي بصوت عال صريح اننا سننصرف معاً ، وانه سيطلعني على الرسالة التي سيرسلها الى أندره بتروفتش وانه سيطلعني كذلك على الرسالة التي تلقاها منه .

فوافقته على ذلك مسروراً أعظم السرور . وانهمك الأمير بتوديعي وتشيعي ، وناداني أيضاً الى غرفته دقيقة فقال لي هناك :

— « يا صديقي ، ما أسعدني ، ما أسعدني ! .. وستكلم في هذا من بعد على كز حال . أما الآن فان هناك عمليين أرجو أن تتكرم فتنجزهما لي بنفسك على جناح السرعة في البنك . »

قال ذلك وناولني قراطيس تقتضى مني ، فيما زعم ، أشد اليقظة والانتباه ، وشرح لي أن عليّ أن أذهب الى البنك ، فأودع رسالة ، وأوقع

على ورقة ، الخ •••

فهمت أقول له ضاحكاً وأنا أتناول الأوراق :

- ما أشد مكرك ! يمينا ليس هذا منك الا تظاهراً وادعاءً ، وليس هناك أى عمل يجب على أن أقوم به • وما هاتان المهمتان المزعومتان الا من صنع خيالك لفتنهما تليفياً لتوهمني بأن لوجودى معك نفعاً ، وانى أتقاضى أجرى عن جدارة واستحقاق !

فقال لى :

- أحلف لك انك لمخطيء « يا بنى ! » • هما مهمتان مستعجلتان كل الاستعجال •

ثم هتف يقول وقد فاض قلبه رقة وعاطفة وحناناً على حين فجأة :

- « بنى العزيز ! » •

ووضع يديه على رأسه وأردف يقول :

- اننى أباركك ، وأبارك مستقبلك •• لتكن قلوبنا عامرةً بالطهارة والعفة كما نحن الآن •• ولنتحلّ بالخير والجمال الى أقصى ما نطبق •• لنحب الجمال •• فى جميع صورهِ وكافة أشكالهِ •• « هيا •• أخيراً •• أخيراً •• لنشكر الله على نعمهِ وآلائهِ •• اننى أباركك •• » •

ولم يكمل كلامه ، بل أخذ يبكى فوق رأسى • وأعترف بأننى كدت أن أبكى أنا أيضاً • ولئن لم أبك فأننى على الأقل قد قبلت صاحبى الشاذ صادقاً مسروراً • بل تبادلنا قبلات كثيرة •

قادنى الأمير سرجى ( أقصد سرجى بتروفشس ، وبهذا الاسم سأسميه بعد الآن ) قادنى الى بيته فى مركبة أنيقة ، فأخذت أعجب بما فى شقته من فخامة وأبهة ، أو دعك من الفخامة والأبهة وقل انها شقة كالشقق التى يملكها أناس من « عليه القوم » : غرف واسعة عالية وضاعة ( رأيت منها غرفتين وكانت الغرف الأخرى مغالقة ) ، وأثاث ان كان لا يذكر بقصر فرساي أو عصر النهضة ، فانه لين طرى مريح وافر أنيق غاية الأناقة ، الى سجاد ثمين ، وخشب محفور ، وتمائيل صغيرة . ومع ذلك كان الناس مجتمعين على أن هذه الأسرة فقيرة معدمة ، وانها أصبحت لا تملك شيئاً البتة . ولكن يجب أن أضيف الى هذا أن الأخبار كانت تقول ان الأمير سرجى كان يحب أن يزر الرماد فى العيون حيث يكون ، سواء هنا أو فى موسكو أو فى الجيش ، وانه مقامر ، وانه مدين . وكنت أنا أرتدى ردنجاتاً مهترئاً ، وكان الردنجات عدا ذلك مغطى بالزغب بعد أن نمت من غير أن أخلع ثيابى ، ولم أكن قد بدلت قميصى منذ أربعة أيام . على أن الردنجات لم يكن يبعث على الاشمئزاز ، لكننى ما ان وجدت نفسى عند الأمير حتى تذكرت ما أوصانى به فرسيلوف من تفصيل رداء جديد .

قلت شارد الذهن :

— تصور أنتى قضيت الليل دون أن أخلع ثيابى ، بسبب حادثة انتحار !

فلما رأيتة يصيخ بسمعه متنبهاً على الفور ، رويت له القصة بايجاز . غير أن ما كان يهمه أكثر من كل ما عداه انما هو الرسالة التى يتتوى أن

يبعثها الى فرسيلوف • وقد استغربت من جهتي أنه لم يظهر فيه حتى شيء من تبسم ، بل لم تبدر منه حتى حركة يسيرة تحمل هذا المعنى ، حين أعلنت له بغتةً منذ قليل ، أنني أريد أن أدعوه الى مبارزة • فأغلب الظن أنني عرفت كيف أجبره على أن لا يضحك ، غير أن الأمر يظل محل استغراب من رجل مثله •

جلسنا متقابلين في وسط الغرفة أمام مكتب كبير ، وأراني رسالته الى فرسيلوف ، وكانت مهياةً تهيئةً كاملة • كانت الرسالة تتضمن جميع المعاني التي عبر عنها الأمير • حتى لقد كتبت بلهجة فيها حرارة • والحق أنني كنت لا أعرف بعد ماذا يجب أن أراه من رأي حاسم في هذه الصراحة الظاهرة وهذه الميول الطيبة الحيرة ، ولكنني قد بدأت انقاد للافتان بالرجل ، حتى لقد تساءلت ما الذي يدعو الى أن لا أصدقته ؟ انه مهما يكن طبعه ، ومهما تكن الاشاعات التي تروج عنه ، قد يتصف بميول حسنة وسجايا كريمة • ورأيت الرسالة الأخيرة التي بعثها اليه فرسيلوف أيضاً ، وهي سبعة أسطر يعلن له فرسيلوف فيها عدوله عن تحديه ، وتراجعته عن دعوته الى مبارزته • فرأيت أن هذه الرسالة رغم ما ضمنها فرسيلوف من كلام عن « وضاعته » وعن « أنانيته » تتميز في جملتها بنوع من الاستعلاء •• أو قل ان المرء يحس حين يقرؤها أن الخطوة التي قام بها فرسيلوف تشتمل على نوع من الاحتقار ! •• وقد حاذرت أن ابدى له هذه الملاحظة •

قلت أسأله :

– ولكن ما رأيك أنت في عدوله هذا؟ ألا تعتقد أنه خاف؟

فابتسم الأمير ، ولكن ابتسامته كانت تشتمل على كثير من الجد ، وقال :

– لا ، حتماً •



وكان يبدو عليه من جهة أخرى مزيد من الهم • وتابع كلامه  
يقول :

- اننى أعرف شجاعة هذا الرجل • ولكن له - وهذا رأى خاص  
بى طبعاً - طرازاً فريداً فى النظر الى الأمور ••  
فقاطعته قائلاً بحرارة :

- قطعاً • ان شخصاً اسمه فاسين يرى أن فى حكاية الرسالة  
والتنازل عن الميراث نوعاً من اقامة « نَصَب » يرتقيه اعلاءً لقدره فى نظر  
الناس عن عمد • أما رأى أنا فهو أن هذه الأشياء لا يفعلها المرء حباً  
بالظهور ، وانما هى تقابل شعوراً عميقاً وعاطفة صادقة •  
قال الأمير :

- اننى أعرف السيد فاسين معرفة جيدة •  
- آ •• نعم •• لا بد أنك رأيت فى لوجا •  
فنظر كل منا فى صاحبه فجأة • وأذكر أننى قد احمر وجهى  
قليلاً • وانقطع الحديث على كل حال • وكنت أنا ميلاً الى الكلام •  
كنت أتصور اللقاء الذى تم بالأمس ، فيحضىنى ذلك على أن ألقى عليه  
بعض الأسئلة ، ولكننى لا أعرف كيف أتصرف فى الأمر ، وكنت أشعر  
بغير قليل من الارتباك • ومما خطف بصرى أيضاً ما لاحظته فيه من حسن  
أدب ورقة تهذيب وطلاقة حركة ، أى ما رأيت فيه من ذلك البريق الذى  
يكتسبه أمثال هؤلاء الناس وهم لا يزالون فى المهد • لكننى وقعت فى  
رسائله على خطأين فاحشين من أخطاء الاملاء • وأنا فى لقاء أمثال هؤلاء  
الناس لا أخفض رأسى أبداً ، حتى انى شرستى تغنف فى بعض الأحيان  
عنفاً سيئاً • ولم يكن من شأن ردنجاتى المغطى بالزغب أن يهدىء  
ما يضطرم فى نفسى • وكنت قد لاحظت أن الأمير يتفرس فى أحياناً بكثير  
من الاستطلاع •

قلت فجأة :

- قل لي يا أمير : ألا ترى في قرارة نفسك أنه أمر مضحك أن يدعوك « غر » مثلي الى مبارزة ، ولاسيما بسبب اساءة لحقت شخصاً غيره ؟

فأجابني برصانة ووقار قائلاً :

- انه لأمر طبيعي أن يفضب المرء لاساءة ألحقت بأبيه • فلست أرى في سلك شيئاً سخيفاً يبعث على السخرية •  
- أما أنا فأرى عملي سخيفاً سخيفاً رهيباً •• من وجهة نظر شخص آخر طبعاً ، لا من وجهة نظري أنا • ولاسيما أن اسمي هو دولجوروكي ، وليس فرسيلوف • فاذا كنت لا تقول الحقيقة ، أو اذا كنت تلتطف الأمور من باب الكياسة التي يلتزمها أبناء المجتمع الراقى ، فأنت اذن تخدعني وتفشنى في سائر الأمور الأخرى •

فكرر يقول بجهد كبير :

- لا ، لا أرى في هذا شيئاً سخيفاً • انك لا تستطيع أن لا تحسن بدم أبيك فيك ! •• صحيح أنك ما تزال فتى يافعاً ، و •• لا أدري •• لكن يخيل اليّ أنه لا يجوز لقاصر أن يبارز ، وأنه لا يجوز لأحد أن يلبي دعوته الى النزال •• فيما توجهه الأنظمة ! •• غير أن هناك اعتراضاً واحداً يجدر أن ننظر فيه : انك حين تدعو الى المبارزة على غير علم من الشخص الذي لحقت به الالهانة والذي تريد أن تتأثر له ، ألا تكون بذلك قد انتقصت من قدره ولم توله ما يجب له من احترام ؟

وفجأة دخل خادم ليبلغ عن قدوم زائر ، فانقطعت محادثتنا • وأغلب الظن أن الأمير كان ينتظر هذا الزائر ، فما ان رأى الخادم حتى نهض دون أن يكمل كلامه ، وتقدم الى لقائه مسرعاً ، فكلمه الخادم بصوت خافت ، فلم أسمع من كلامه شيئاً • وقال لي الامير :

- معذرة • سأرجع بعد دقيقة •

وخرج • وبقيت وحيداً • وأخذت أذرع الغرفة ذاهباً آيياً وأنا مسترسل في التفكير • غريب : لقد أعجبني الأمير ولم يعجبني • ان فيه

شيئاً لا أستطيع أن أصفه وأن أعبر عنه ، لكنه نبيء يصدمني ويؤذيني .  
 قلت أحدث نفسي : « اذا كان لا يسخر مني فانه اذن ممتليء سداجة . .  
 ولو كان يسخر مني ، لبدا لي أكثر ذكاءً . » برقت هذه الفكرة  
 العجيبة في ذهني . ودنوت من الطاولة فأعدت قراءة رسالته الى  
 فرسيلوف . ومن ذهولي لم أشعر بانقضاء الوقت ، حتى اذا أفقت من  
 شرودي لاحظت فجأة أن دقيقة الأمير دامت ربع ساعة . فاضطربت من  
 ذلك بعض الاضطراب . وعدت أسير في الغرفة ذاهباً آيياً . ثم تناولت  
 قبعتي أخيراً وقررت أن أنصرف . انني أتذكر هذا . قلت لنفسى : اذا  
 رأيت أحداً بعثته يستدعى الأمير ، حتى اذا جاء ودعته مؤكداً أن ثمة  
 عملاً يناديني وأنتى لا أستطيع المكوث معه أكثر مما مكثت . فبدا لي أن  
 هذا أحفظ للكرامة ، لأننى تصورت أنه بتركى هذه المدة الطويلة انما  
 يدل على أنه يزدريني .

وكان للغرفة بابان اثنان يقعان في طرفى جدار واحد . وكان  
 البابان كلاهما مغلقين . وكنت قد نسيت من أى باب دخلنا ، أو قل اننى  
 لذهولى فتحت واحداً من البابين بغير تفكير ، فاذا أنا أفاجأ باختى ليزا  
 جالسة على ديوان فى غرفة طويلة ضيقة . ولم يكن فى الغرفة أحد  
 غيرها ، فلا بد أنها كانت تنتظر أحداً . ولكن ما ان اعترتنى هذه الدهشة  
 الأولى حتى سمعت صوت الأمير يتكلم بصوت عال راجعاً الى المكتب .  
 فأغلت الباب ، ودخل الأمير من الباب الآخر فلم يلاحظ شيئاً . أتذكر  
 أنه أخذ يعتذر عن تأخره أشد الاعتذار ، وأنه جاء على ذكر امرأة سماها  
 آنا فيدوروفنا . . ولكننى كنت قد بلغت من الانشدهاء والاضطراب أننى لم  
 أكد أفهم من كلامه شيئاً ، وتمتمت أقول ان على أن أعود الى بيتى حتماً .  
 ثم خرجت متعجل الخطى . ولاشك أن هذا الأمير المهذب ذلك التهذيب  
 كله قد بدا له سلوكى غريباً . وقد شيعنى الى الباب وهو ما يفتأ يتكلم  
 ويتكلم ، بينا أنا لا أجييه بشيء ولا أنظر اليه .

صرت فى الشارع ، فاسندرت يسرةً ، وأخذت أسير على غير هدى • كان كل شىء فى رأسى مختلطاً مضطرباً • وكنت أسير سيراً بطيئاً • أظن أننى قطعت مسافة طويلة ، تبلغ نحو خمسمائة خطوة • وانى لكذلك اذا أنا أحس ربثاً رقيقاً على كفى • فالتفت • فرأيت أختى ليزا • لقد أدركتنى ، ولامست كفى بمظلتها • وكان فى نظرتها المتلألئة فرح عظيم ، وشىء من مكر •

- يسرنى جداً أنك سرت فى هذا الطريق ، والا لما استطعت أن ألقاك طول النهار •

كانت تلهث قليلاً من سرعة السير •  
- ما أشد لهائك !

- ركضت كثيراً لأدركك •

- ليزا ، أنت من رأيت منذ قليل ؟  
- أين ؟

- عند الأمير • • الأمير سوكولسكى • •

- لا ، ليست أنا • • لا يمكن أن تكون قد رأيتنى • •

فصمت • وسرنا نحو عشر خطوات • انفجرت ليزا ضاحكة ،

وقالت :

- طبعاً أنا التى رأيتنى ! رأيتنى وحدقت الى عينى ، وحدقت اليك

أنا أيضاً • فلماذا تلقى هذا السؤال ؟ ما أغرب طبعك ! • • ولقد راودتنى

رغبة قوية فى الضحك حين حدقت الى • • كانت هيئتك مضحكة جداً •

• وضحكت ضحكاً شديداً • فدد ضحكها قلقي •

- ولكن ما جاء بك الى هناك ؟

- زرت آنا فيدوروفنا •

- أية آنا فيدوروفنا ؟

- السيدة ستوليافا • حين كنا نقيم بمدينة لوغا ، كنت أقضي عندها أياماً كاملة • كانت تستقبلنا أنا وماما ، وكانت تجيء إلينا أيضاً • وكانت لا تزور أحداً غيرنا تقريباً • انها تمت الى الأمير سوكولسكى بقرابة بعيدة ، وكذلك الى الأمراء سوكولسكى • أظن أنها للأمير بمثابة جدة •

- فهل تقيم عند الأمير ؟

- بل الأمير يقيم عندها •

- لمن الشقة اذن ؟

- لها • انها تملك الشقة منذ سنة • وقد وصل الأمير منذ قليل فنزل ضيفاً عليها • وهى نفسها لم تجيء الى بطرسبرج الا منذ أربعة أيام •

- طيب •• حفظها الله هى وشقتها ! ••

- ولكنها سيده لطيفة •

- لا أنكر عليها ذلك • ثم انها تملك للطف وسائله وأسبابه • نحن أيضاً أناس لطاف • انظرى الى هذا النهار ما أجمله ! ما أبدع هذا الجو ! وما أجملك اليوم يا ليزا ! ما أنت الا طفلة على كل حال •

- قل لى يا آرКАДى : رأيت الى حكاية تلك الفتاة بالأمس ما كان

أهولها ! ••

- آه •• شىء محزن يا ليزا ، محزن جداً !

- محزن حقاً • يا لهذا المصير ما أشد هولهُ ! أليس شراً يا آرКАДى

أن نكون نحن فرحين هذا الفرح كله بينما تهوم روحها الآن في  
الظلمات ، في ليل بهيم ليس له قرار ، حاملةً اثمها معها ؟ قل لي  
يا آرКАДى : من المسئول عن الاثم الذى ارتكبته ؟ آه .. ما أشد هول  
هذه المسألة ! هل تفكر أحياناً في تلك الظلمات ؟ آه .. لشدما أخاف  
من الموت ! وهذا أيضاً اثم ! اننى لا أحب الظلمة . هذه الشمس أحلى  
كثيراً ! تقول ماما ان الخوف من الموت شر .. قل لي يا آركَادى : هل  
تعرف ماما حق معرفتها ؟

- لم أعرفها بعد الا قليلاً يا ليزا ، قليلاً !

- يا لها من انسانة ! يجب أن تعرفها ، يجب أن تعرفها . يجب  
على المرء أن يفهمها خاصة !

- أنت أيضاً كنت لا أعرفك ، وهأنذا أعرفك الآن . معرفة تامة ! ..  
في دقيقة واحدة ، نفذت الى حقيقتك كلها ! .. ليزا ، مهما تخافى من  
الموت ، فلا بد أنك ذات كبرياء ، وجسارة ، وشجاعة . أنت خير منى ،  
خير منى كثيراً . أحبك حب الجنون يا ليزا . ليزا ، يستطيع الموت أن  
يجيء متى شاء ، أما الآن فلنعش ، فلنعش ! لنا أن نتألم لتلك البائسة ،  
ولكن فلنبارك الحياة . ألسنت على حق ؟ ان لي « فكرتى » يا ليزا . ليزا ،  
هل تعلمين أن فرسيلوف تنازل عن الميراث ؟

- كيف لا أعرف ذلك ؟ لقد تعانقنا أنا وماما .

- انك لا تعرفين ما بنفسى يا ليزا ، لا تعرفين ماذا كان هذا الرجل  
في قلبى !

- دعك من هذا الكلام ، اننى أعرف كل شىء !

- تعرفين كل شىء ؟ نعم ، حتماً . أنت ذكية . أنت أذكى من  
فاسين . ان لك ولماما عيوناً نافذة ، انسانية ، أقصد النظرة ، لا العيون ..  
لقد أخطأت التعبير . ما أغبانى أحياناً يا ليزا .

88

- بل أنت في حاجة الى من يسيطر عليك • هذا كل شيء •

- فسيطري علىّ يا ليزا • ما أحلى النظر اليك اليوم يا ليزا ! هل تعلمين أنك رائعة الجمال ؟ لم أر عينك قبل اليوم أبداً •• رأيتهما الآن أول مرة • من أين جئت بهما يا ليزا ؟ من أين اشتريتهما ؟ كم دفعت ثمنهما ؟ ليزا ، أنا لم يكن لي أصدقاء ، حتى لقد كانت هذه « الفكرة » حماقة ، أما الصداقة معك أنت فليست حماقة •• هل تقبلين أن نكون صديقين ؟ هل تفهمين ماذا أريد أن أقول ؟

- أفهم كل الفهم •

- أقصد صداقة بغير عقد ، بغير شروط • نكون صديقين وكفى ، ببساطة !

- نعم ، صداقة وكفى ، ببساطة •• غير أن لي شرطاً : اذا اتفق ان اتهم احدها الآخر يوماً ، اذا ساءنا أمر من الأمور ، اذا اعتكر مزاجنا ، بل اذا نسينا أيضاً كل شيء فلن نسي أبداً هذا اليوم ولا هذه الساعة ! فلتعاهد على هذا • لتعاهد على أن تتذكر الى الأبد ، هذا اليوم الذي سرنا فيه معاً وقد أمسك كل منا يد الآخر ، وضحكنا فيه كثيراً ، وسعدنا فيه هذه السعادة كلها •• هل تقبل ؟ تقبل ؟

- نعم يا ليزا ، نعم ، أقسم لك • يخيل الىّ يا ليزا اننى أسمعك الآن أول مرة •• ليزا ، هل قرأت كثيراً ؟

- لم تلق على هذا السؤال قبل اليوم ! أمس فقط ، حين أخطأت في كلمة ، تفضلت فانتبهت الى هذا أيها السيد الفيلسوف !

- لماذا لم تبادريني أنت بالحديث بعدما رأيت أننى غبى الى ذلك الحد من الغباء ؟

- كنت أنتظر أن تصبح أكثر ذكاء •• لقد عرفتك منذ البداية

يا آر كادى ماكاروفتش ، فسرعان ما قلت لى نفسى : لسوف يىجىء ، لسوف يىجىء آخىر الأمر حتماً . وآثرت أن أدع لك شرف القىام بالخطوة الأولى . قلت لك فى سرى : « لا ، عليك أنت أن تجرى الآن ورائى ! » .

— ها . . يا للصغىرة المغناج ! طىب قولى بصراحة يا لىزا : لابد أنك ضحكت منى كثرأ طوال هذا الشهر ، ألىس كذلك ؟

— طبعأ . لأنك مضحك فعلاً ، مضحك جداً يا آر كادى ! ولكن هل تعلم ؟ لعلنى لهذا السبب انما أحييتك هذا الشهر ، ذلك أنك كنت طرىفأ . غىر أن طرفتك ردىثة أحيانأ . أقول لك هذا حتى لا تتباهى وتفتىر . ولكن هل تعلم من ضحك منك أىضأ ؟ ماما . ضحكنا معأ . كنا تتهامس قائلين : « غرىب الأطوار ! ما أغرب أطواره ! » . وكنت أنت تظن طوال هذا الوقت أننا نرتعد رعبأ منك .

— لىزا ، ما رأىك فى فرسىلوف ؟

— هناك أشياء كثرىة يمكن أن تقال فىه . لكننا لن نتكلم عنه الآن . لىس هذا الوىم أو ان الحدىث عنه ، ألىس كذلك ؟

— أنت على حق . لا ، لا ، ان ذكاءك رهىب حقأ يا لىزا . انك أذكى منى حتماً . انتظرى قلىلاً ، اننى متى فرغت من هذه الشئون كلها ، سوف أذكر لك فى النهاىة بعض الأشياء . . .

— ما بالك تقطب حاجىك ؟

— لم أقطب يا لىزا ، ما هذا بشىء . . اسمعى يا لىزا . . الأفضل أن أقولها بصراحة : ان لى سمه خاصة هى أن فى نفسى نقاطأ حساسة لا أحب أن يلمسها أحد . . أو قولى ان لى مشاعر معىنة لا أحب عرضها طلبأ لاعجاب الناس . مخجل ، ألىس كذلك ؟ ولهذا أفضل أحيانأ أن أقطب الحاجىين ولا أقول شىئأ . أنت ذكىة ، فعلىك أن تفهمى .



- ولكننى مثلك • اتنى أفهمك فهماً كاملاً • وماما أيضاً مثلك •
- آه يا ليزا ! كل ما أتمناه هو أن نعيش فى هذه الحياة الدنيا مدةً طويلة • ماذا قلت ؟
- لم أقل شيئاً •
- انك تنظرين الىّ •••
- وأنت تنظر الىّ أيضاً • اتنى أنظر اليك ، واتنى أحبك •••
- رافقتها حتى البيت تقريباً • وذكرت لها عنوانى • وحين تركتها ، قبلتها أول مرة فى حياتى •

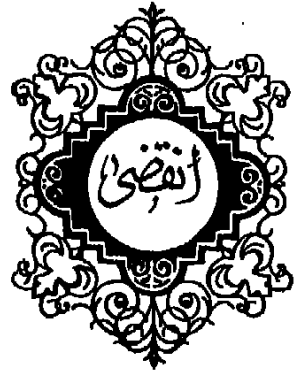
هذا كله كان حسناً ، لولا أن هناك ظلاً كان يعكسه : ان فكرة  
 حزينة كانت تضطرب في نفسى منذ الليل ولا تبارح خيالى . ذلك أننى  
 حين التقيت في مساء أمس بتلك المسكينة قلت لها اننى سأترك البيت ،  
 وان على المرء أن يبني عشه بعيداً عن الأشرار ، وان لفرسيلوف عدداً  
 من أولاد الزنا ؛ فلا شك أن هذه الكلمات التى يقولها ابن عن أبيه  
 قد أكدت جميع شكوكها فى فرسيلوف ، وعززت احساسها بأنه أراد بها  
 سوءاً . لقد كنت أتهم ستيلكوف ، ولعلنى أنا الذى صبيت على النار  
 زيتاً . فكرة رهية ، رهية حتى اليوم . ولكننى فى ذلك الصباح ، رغم  
 كل ما عانيت من عذاب فى أول الأمر ، قد بدا لى أن الأمر ليس من  
 الخطورة فى المحل الذى أحله فيه ، وكنت أكرر لنفسى من وقت الى آخر:  
 « دعك من هذا الكلام ، فان فى نفسها من الحقد المتراكم قبل أن تراها  
 وقبل أن تقول لها شيئاً ما كان سيدفعها الى الاقدام على فعل ما فعلته حتماً !  
 هيا . . . سينقضى الأمر ، وسأبرأ من هذه الوسوس . . . وسأكفر عن  
 غلطتى بطريقة من الطرق . . . بعمل من الأعمال الحسنة . فما يزال فى  
 عمري خمسون عاماً ! » .

ولكن الفكرة ظلت تتحرك وتضطرب فى نفسى .

الجزء الثاني

## الفصل الأول

١



شهران تقريباً . أرجو من القارئ أن لا يقلق : فسوف يتضح له كل شيء . وكما دونت في بداية يومياتي تاريخ ١٩ أيلول ( سبتمبر ) ، فانتى أسجل هنا تاريخ ١٩ تشرين الثاني ( نوفمبر ) ، وهو يوم لا أنساه ، وذلك لأسباب كثيرة . يجب أن أذكر أولاً ان من رآني منذ شهرين لن يعرفني اذا هو رآني الآن . هذا من جهة المظهر على الأقل . أقصد انه سيرفني ، ولكنه لن يفهم شيئاً . انني ارتدي الآن ثياباً تبلغ غاية الأناقة بل الغندرة . هذه نقطة أولى . ان الحياط الذي أوصاني به فرسيلوف يوماً ووصفه بأنه فرنسي دقيق في عمله رفيع الذوق قد خاط لي ثياباً كاملة ، ولكنني لا ارتديها فهي لا تبلغ المستوى الذي يليق بأنيق مثلي . وانما لي الآن خياطان من درجة أعلى ، خياطان من الدرجة الأولى ، حتى انهما فتحا لي حساباً . ولي حساب مفتوح أيضاً في مطعم راق . ولكنني ما أزال في هذا المجال تعوزني الجسارة : فما ان أملك مالاً حتى أبادر الى سداد الدين ، رغم علمي بأن هذا أمر ناب أعرض به مهابتي للانتفاص . ولي في شارع نفسكي حلاق فرنسي من باريس ، يروي لي النوادر والملح كلما ذهبت اليه لقص

شعري ، حتى أصبحت حكاياته معروفة لى مألوفة عندي • وأعترف بأننى أتمررن معه على الكلام بالفرنسية • اننى أعرف اللغة الفرنسية ، بل أعرفها معرفة مناسبة ، ولكننى فى المجتمع الراقى أشعر دائماً بخجل فلا أجرؤ على التكلم بها مجازفاً • هذا عدا أن لهجتى لا بد أنها بعيدة عن اللهجة الباريسية • ولى كذلك عربية وحوذى هو ما تقضى ، يلىنى كلما ناديته • انه يقود مركبة فخمة يجرها حصان كميث مشوق ( أنا لا أحب الخيل الصهباء ) • غير أن هناك أشياء ليست كما أحب • نحن الآن فى اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الثانى ( نوفمبر ) • البرد قارص منذ ثلاث أيام • ومعطفى المصنوع من فراء الراءتون ، وهو هدية أهداها لى فرسيلوف ، قد أصبح قديماً ، فلو شئت أن أبعه لما جاءنى بأكثر من خمسة وعشرين روبلاً • لا بد لى من معطف جديد • وجيىى خاوى • وعدا ذلك يجب على أن أحصل على مال لهذا المساء ، بأى شكل من الأشكال • والا « أفلست وهلكت » • هذه هى الألفاظ التى كنت أستعملها فى ذلك الأوان • أواه ! يا للشقاء ! من أين جاءت هذه الألف ، وهذه الخيول ، وهذه المطاعم ( أمشل مطعم بوريل ) على حين فجأة ؟ كيف أمكن أن أنسى كل شىء ، وأن أتغير كل هذا التغير ؟ يا للخزى والعار ! أيها القارىء ، انى محدثك الآن عن خزىى ، عن تلتطخى بالعار ، ولا شىء يمكن أن يخل بالشرف عندي كهذه الذكريات !

اننى أحكم فى الأمر كما يحكم قاض ، وأعرف أننى مذنب • فرغم أنى والزوبعة تجرفنى ، كنت وحيداً بلا مرشد ولا ناصح ، فلقد كنت أشعر بسقوطى ، فوالله ليس لى اذن من عذر • ومع ذلك كنت شبه سعيد خلال ذينك الشهرين • لماذا شبه سعيد ؟ بل لقد كنت سعيداً مسرفاً فى السعادة ، حتى لقد بلغت من فرط السعادة أن شعورى بتلطح شرفى ، وهو شعور يخالجنى فى لحظات كثيرة متكررة ، ويهز نفسى هزاً قوياً ، كان يغمرنى بمزيد من النشوة والسكر ، هل تصدقون ؟ كان لسانى حالى يقول : « ما دمت أسقط ، فلأسقط الى الدرك الأسفل ؟ على

اننى لن أسقط ثم لا أخرج ، بل سأخرج • ان لى نجماً يهدينى ! « •  
على جسر هزيل نحيل من نثارة ، جسر بغير درابزين ، كنت أسير فوق  
الهاوية ، وكان يسعدنى أن أسير هذا السير • وكان منظر الهاوية يقطن  
لبى • نعم ، كان يفرحنى أن أشعر أننى فى قلب الخطر • و « الفكرة » ؟  
لا خوف عليها • سوف تأتى من بعد ، فى وسعها أن تنتظر • ما هذا كله الا  
« انحراف » : « ••• لماذا لا يهب المرء لنفسه شيئاً من مسرة ؟ » ذلكم هو  
عيب « فكرتى » ، تلكم هى آفتها : أنها تتسامح فى جميع الانحرافات •  
فلعلها لو كانت أقل صلابة ومثابة ، لكانت ثقتى بها أضعف ، ولكن يمكن  
أن أخشى الانحراف عنها •

ما أزال محتفظاً بمسكنى الصغير • لقد احتفظت به دون أن  
أسكنه ، وأودعته حقيبتى وصرتى وأشياء أخرى • أما اقامتى فاكترها عند  
الأمير سرجى سوكولسكى • أمكث عنده ، وأبيت عنده ، وأقيم أسابيع  
كاملة ••• أما كيف حدث هذا ، فسوف ترون ذلك بعد قليل • ولأحدثكم  
الآن عن مسكنى الصغير • انه عزيز فى نفسى • اليه انما جاء يزورنى  
فرسيلوف بنفسه أول مرة ، بعد المشاجرة التى قامت بيننا ، ثم جاء مراراً  
كثيرة • أكرر أن تلك المدة لم تكن الا عاراً فظيماً ، ولكنها كانت سعادة  
كبيرة أيضاً ••• كنت فى تلك الفترة أوفق فى كل شىء ، وكان كل  
شىء يبتسم لى ! وكنت أقول لنفسى فى تلك اللحظات من النشوة : « علام  
ذلك الوجه المتجهم والسحنة الكالحة ؟ فىم ذلك الانقباض ، وتلك الطفولة  
المنعزلة المكتئبة والأحلام المستحيلة تحت الغطاء فى الفراش ، وتلك  
الأيمان والحسابات ، وحتى « الفكرة » ؟ ذلك كله أخيلة وأوهام ! العالم  
شىء آخر • وكنت فرحان جداً • كان كل شىء رائماً • كان لى أب :  
فرسيلوف • وكان لى صديق : الأمير سرجى • وكان لى أيضاً •••  
لكن دعونا من هذا • واحزنناه ! ان كل ما حدث عندئذ باسم الحب والنبيل  
والشرف قد ثبت بعد ذلك أنه كان قبحاً شنيعاً وعاراً وغشياً •  
كفى !

جاء الى أول مرة بعد قطيعتنا بثلاثة أيام • ولم أكن في البيت •  
فانتظرنى • ورغم أننى انتظرتة طوال هذه الأيام الثلاثة فقد بلغت من  
الاضطراب حين دخلت غرفتى الصغيرة أن عينيّ ضربت عليهما غشاوة ،  
وأن قلبى خفق خفقا شديداً ، فوقفت فى العتبة • ومن حسن الحظ أن  
مؤجرى قد استحسن أن يجالس الزائر فوراً حتى لا يصيبه ضجر ، فلما  
دخلت كان يقص عليه حكاية من الحكايات مندفعاً بخرارة • انه موظف  
بسيط ، فى نحو الأربعين من العمر ، مجدور الوجه ، مدقع الفقر ، مثل  
بعبء زوجة مصدورة وابن مريض ، له طبع منفتح مسالم مواعع رقيق •  
فابتهجت بوجوده ، بل ان وجوده قد أخرجنى من مأزق ، والا فما عساي  
أقول لفرسيلوف ، وكيف كان يمكن أن أكلمه ؟ كنت أعرف أن فرسيلوف  
سيجىء من تلقاء نفسه ، أنه سيكون هو البادىء بالسعى الىّ ، كما كنت  
أريد تماماً ، لأننى ما كنت لأبدأ أنا بالسعى اليه مهما يكن من أمر ،  
لا معاندة له ، بل حباً به ، مدفوعاً الى ذلك بنوع من غيرة المحب ، بنوع  
من عاطفة لا أعرف كيف أعبر عنها ، لا أعرف كيف أصفها • اننى  
لا أجيد الافصاح ، ولا بد أن القارىء قد ألف أن لا يجيد فى كتابتى  
فصاحة أو بلاغة • ولكن رغم اننى انتظرتة طوال هذه الأيام الثلاثة ،  
وكنت أتصوره فى كل حين داخلاً علىّ ، فقد كنت عاجزاً عن تخيل  
الحديث الذى سيجرى بيننا بعد كل ما حدث من صدام عنيف ، مع أننى  
بذلت جهوداً كثيرة فى سبيل أن أتصور ما قد يدور عليه كلامنا •

قال لى دون أن ينهض :

— ها ••• هانت ذا •••

ومد الى يده ، واستطرد يقول :

- اجلس هنا ، الى جانبنا • ان بطرس هيبوليتوفتش يروى لى قصة شائقة جداً عن تلك الصخرة التى كانت تترى قريبة من ثكنة بافلوفسكى ، أو ربما قريبة من هنا •••

فأسرعت أجيّب قائلاً وأنا أجلس على كرسى بجانبهما :

- نعم ، أعرفها ••• تلك الصخرة •••

كانا أمام الطاولة • وكانت الغرفة الصغيرة مربعاً لا يتجاوز طول ضلعه أربعة أمتار • وكنت أتففس بمشقة •

التمع فى عيني فرسيلوف وميض فرح : لا شك أنه لم يكن هادىء النفس ، لا شك أنه كان يتوقع أن أقوم بحركات ، ثم اطمأن الآن • وأردف يهيب بمؤجرى أن يكمل قصته :

- اتمم يا بطرس هيبوليتوفتش •

كانا قد أخذنا. يتخاطبان منذ الآن بالاسم التنايى ، اسم الشخص وأبيه • فالتفت بطرس هيبوليتوفتش الى وتابع كلامه يقول منقبض الهيئة كأنما هو يخشى سلفاً أن لا أكون مستمعاً حسناً :

- نعم ، حدث الأمر فى عهد الامبراطور الراحل • أنت تعرف اذن تلك الصخرة ، تلك الصخرة الضخمة التى تجثم فى وسط الشارع ولا تزيد على أن تزعج • لقد مر الامبراطور بذلك المكان مراراً كثيرة ، وكانت الصخرة فى مكانها دائماً • فضاق بها أخيراً • الحق أنها كانت أشبه بجبل حقاً ، أشبه بجبل فى وسط الشارع ، يؤذى منظرها الأبصار • فها هو ذا الامبراطور الراحل يقول : « فلتخفف الصخرة من هذا المكان ! » • نعم قال : « فلتخفف ! » • تعرفون ماذا يعنى أن يقول الامبراطور الراحل : « فلتخفف الصخرة من هذا المكان ! » • هل



تذكرون الامبراطور الراحل ؟ فما العمل بالصخرة ؟ طاش صواب الجميع • وكان المجلس البلدى حاضراً ، وكان آخرون لا أذكر الآن من هم ، حاضرين أيضاً • غير أن واحداً من أعلى شخصيات ذلك العهد قد كلف بتنفيذ أمر الامبراطور الراحل • فاليكم ما علمه ذلك الرجل : لقد قيل له ان تنفيذ أمر الامبراطور سيكلف خمسة عشر ألف روبل ، لا تنقص كوبكاً واحداً ، بل تكلف خمسة عشر ألف روبل فضة ( ذلك أن الأوراق المالية قد بدلت روبات فضة في عهد الامبراطور ) • « خمسة عشر ألف روبل ؟ هل يعقل هذا ؟ » • أراد الانجليز في أول الأمر أن يمدوا سككاً حديدية ، فيزلقوا الصخرة فوقها ، ثم يجرونها بقاطرة بخارية • ولكن كم كان يمكن أن يكلف هذا من نفقات ؟ لم تكن قطارات السكك الحديدية قد وجدت بعد ، وكان خط تسارسكوييا سيلو هو الخط الوحيد الذى يعمل •••

فقاطعته أقول متبرماً ممتليء النفس أسفاً وخجلاً أمام فرسيلوف :

– ألم يكن فى الامكان قطعها ؟

ولكن فرسيلوف كان يصغى الى كلام المحدث بسرور ظاهر للعين • فأدركت أنه يرحب بوجود الرجل ، لأنه كان هو أيضاً يشعر بخجل أمامى ، ويحس بحرج من الانفراد بى • حتى لقد كان ذلك منه بادرة مؤثرة •

– قطعها ؟ تلك هى بعينها الفكرة التى خطرت بالبال حينذاك • هى فكرة مونفران الذى كان ، كما تعلمون ، يبنى فى ذلك العهد كاتدرائية القديس اسحاق • قال سوف نقطع الصخرة نشراً بالمنشار ، ثم نقلها • نعم ، ولكن ما النفقات ؟

– لا مجال لنفقات كبيرة ، 'نقطع نشراً بالمنشار ثم تنقل ، هذا كل

شئ !

- لا ، اسمح لى • كان لابد من تركيب ماكينة ، ماكينة بخارية •  
ثم الى أين تنقل الصخرة ؟ الى أين ينقل جبل هذه ضخامته ؟ قيل ان  
النفقات لن تقل عن عشرة آلاف روبل ، عشرة آلاف أو اثني عشر ألفاً •

- اسمح يا بطرس هيوليتوفتش • هذه سخافات • لم يحدث هذا  
كله على هذا النحو •••

ولكن فرسيلوف رمانى فى تلك اللحظة بغمزة خفيفة لا ترى ،  
رأيت فيها اشفاقاً كبيراً على مؤجرى بل تألماً شديداً له ، فأعجبني ذلك  
منه كثيراً ، وضحكت مجاملاً •

لم يلاحظ الرجل شيئاً وكان يخشى أكبر الخشية كسائر أمثاله  
من القصاصين أن يقاطعه أحد بالقاء أسئلة ، فقال فرحاً جذلاً :

- نعم ، هو كذلك ، هو كذلك ، هو كذلك • لقد جاء شاب من  
الضواحي روسى السحنة تماماً ، له لحية صغيرة مدببة ، يرتدى قفطاناً  
طويلاً يغطي الكمين ، ثمل بعض الثمل ، بل لم يكن ثملاً • جاء فى  
اللحظة التى كان فيها الانجليز و مونفران يعقدون مؤتمراً يتبادلون فيه  
الآراء ، ووقف يستمع الى أحاديثهم • ووصل الشخص الكبير المكلف  
بالاشراف على تنفيذ أمر الامبراطور راكباً عربية فخمة ، فأصغى الى كلام  
المؤتمرين فثارت نائرتة : كيف تطول المناقشات هذه المدة كلها ثم  
لا يتوصلون الى نتيجة ؟ وفجأة وقع بصره على ذلك الشاب واقفاً على  
مسافة غير قريبة ، مبتسماً ابتسامة زائفة ••• لا ••• لا زائفة ••• ليس  
هذا هو اللفظ المناسب •• بل •• بل ••

فقال فرسيلوف يحاول مساعدته فى العثور على الكلمة المناسبة  
بلباقة •

- ساخرة ؟

- نعم ساخرة ! أقصد ساخرة قليلاً ••• انها تلك الابتسامة الروسية

التي تعرفونها • ومن شدة استياء الرجل الكبير زعق يسأل الشاب :  
« وأنت يا ذا اللحية هناك ؟ ما وقوفك ؟ ماذا تنتظر ؟ من أنت ؟ » •

فأجاب الشاب :

– أنظر الى الصخرة الصغيرة يا سمو الأمير • نعم بهذا ناداه : سمو  
الأمير • أظن أنه كان الأمير سوفوروف الايطالى • خسارة : نسيت من  
هو • ولكن هبه أميراً فلقد كان روسياً صرفاً ، كان نموذجاً روسياً حقاً ،  
رجلاً وطنياً ، قلباً روسياً رحباً واسعاً • فاستطاع أن يدرك كل شيء •  
وقال يخاطب الشاب الآتى من الضواحي :

– هيه ! أتولى أنت نقل الصخرة ؟ والا فما ضحكك ؟

– يضحكنى الانجليز يا سمو الأمير • فلأن الحزينة الروسية عامرة ،  
ولأنهم ليس فى بلادهم ما يأكلونه ، تراهم يطلبون أسعاراً فاحشة ! أعطنى  
مائة روبل يا سمو الأمير ، فلا ترى للحجر أثراً فى مساء غد ! فى وسعكما  
أن تتصور المشهد • أراد الانجليز أن يلتموه نيتاً • وضحك مونفران •  
والأمير وحده – هذا القلب الروسى الطيب – قال : « اعطوه مائة روبل !  
أتقل الصخرة اذن ؟ » •

– فى مساء غد نكون قد نقلناها يا سمو الأمير •

– وكيف تعمل حتى تنقلها ؟

– لا سيئتك جوابى يا سمو الأمير اذا قلت : هذا سرنا نجن •

قال له ذلك بلغة روسية أصيلة • فأعجب الأمير ، وقال : « اعطوه  
كل ما يريد ! » • وتركوه هناك ، فماذا تظنان ؟ هل وفى بما قال ؟

توقف المتحدث لحظة عن الكلام ، وأجال علينا نظرة رقيقة زاخرة  
بالعاطفة • فقال فرسيلوف مبتسماً :

– لا أدرى •

و كنت أنا متجههم الهيئة •

فهتف الآخر هتاف المنتصر ، كأنه هو الذى حقق المعجزة ، هتف

يقول :

- بل وفى بما قال • كيف ؟ استأجر فلاحين ومجارف ••••• مجارف روسية طيبة ••••• وحفر حفرة بجانب الصخرة • ظلوا يحفرون طول الليل • حفروا حفرة ضخمة ، بضخامة الصخرة نفسها ••••• بل أعمق قليلاً • حتى اذا فرغوا من حفر الحفرة ، فقدت الصخرة توازنها • فلما فقدت توازنها دفعوها الى الحفرة صائحين : « هوررا » • فسقطت الصخرة فى الحفرة • ثم أسرعوا يهيلون عليها التراب ، ومهدوا التراب بمخباط ، وفرشوا حصى صغيرة ، فعاد الطريق كما كان • ولم يبق للصخرة أثر !

قال فرسيلوف :

- انظر الى هذا الخدق !

- وجاء ناس كثير ، هرعت جماهير كبيرة • واغتاز الانجليز الذين أدوكوا كل شىء فوراً • ووصل مونفران وقال : « هذا عمل بسيط ، بسيط جداً ، يقوم به فلاحون ! » ولكن ذلك بعينه هو السر : عمل بسيط جداً ، ثم لم يخطر لكم على بال أيها الأغبياء • سأقول لكما شيئاً آخر : ان الرئيس الكبير ، الشخص الحكومى العظيم ، احتضن الرجل وقبله ، ثم سأله : « من أين أنت ؟ » فأجابه الرجل : « من اقليم ياروسلاف يا سمو الأمير • مهنتى خياط ، وفى الصيف أجيء الى العاصمة أبيع فاكهة • » • ووصل الأمر الى علم السلطات • فأمرت للرجل بمداية تتدلى من عنقه • ومضى يتجول والوسام فى عنقه ، ثم مضى يشرب • تعلمان أننا معشر الروس لا نستطيع أن نسيطر على أنفسنا • وذلك هو السبب فى أننا ما نزال ندع للأجانب أن يأكلونا ، أليس كذلك ؟

قال فرسيلوف :

– حتماً ، الذكاء الروسي ...

ولكن شاء حسن الحظ أن تنادى القصاص امرأته في تلك اللحظة ،  
فهرع اليها • ولولا ذلك لما استطعت أن أصبر • وأخذ فرسيلوف يضحك •

– لكنه يا عزيزي قد سلاّني ساعة كاملة قبل أن تصل ... ان قصة  
هذه الصخرة ... هي من أتفه ذلك الركام من القصص المعبرة عن  
الوطنية ، الشائعة بين الناس في بلادنا • ولكن كيف أقطعه ؟ لقد كان  
يندوب فرحاً كما رأيت • أظن أن الصخرة لا تزال في مكانها اذا لم  
أخطيء ، ولم ينزلها أحد في حفرة ...

فهمتف أقول :

– طبعاً ... كيف تجرأ فزعم ما زعم ؟ ...

– ما هذا الذي تقول ؟ ما بالك تستاء هذا الاستياء فيما أرى ؟ لا بد  
أنه مزج بين شيئين : لقد سمعت في طفولتي قصة من هذا النوع عن  
صخرة ، ولكنها ليست هذه الصخرة • « وصل الأمر الى علم السلطات » •  
كانت نفسه كلها تغني لحظة قال هذا • ان أمثال هذه الحكايات ضرورية  
في هذه البيئة المسكينة • وان عندهم ذخيرة كبيرة منها ، ولا سيما بسبب  
ميلهم الى المغالاة • انهم لم يتعلموا شيئاً ، ولا يعرفون أمراً من الأمور معرفة  
دقيقة صحيحة • فهم الى جانب قيامهم بأعمال مهنتهم ولعبهم بالورق ،  
يشناقون الى الحديث عن شيء انساني ، شعري ... من هو بطرس  
هيوليتوفتش هذا ؟

– انسان فقير بائس •

– أرايت ؟ ولعله لا يلعب بالورق أبداً • فاذا روى هذه الحكايات  
الخيالية كان يرضى بذلك ما يملأ نفسه من حب الانسان لأخيه الانسان :  
لقد أراد أن يسرنا • وهو يرضى بذلك أيضاً ما يزخر به قلبه من روح

وطنية • انظر مثلاً في هذه القصة الأخرى التي يروون فيها أن الانجليز عرضوا على زوفالوف مليوناً في مقابل أن لا يضع ماركته على بضاعته...•••

- نعم نعم ، أعرف هذه الحكاية •••

- من ذا الذي لا يعرفها؟ هو أيضاً كان يعرف حين روى لك قصة الصخرة أنك قد سبق لك أن سمعتها حتماً ، ولكنه يرويها مع ذلك ، متخيلاً « عن عمد » أنك لا تعرفها • ان الحكاية التي تتحدث عن رؤيا ملك السويد قد أصبحت قديمة فيما يبدو ، ولكن الناس كانوا في أيام شبابي يتناقلونها همساً متلذذين • وكذلك تلك القصة الأخرى التي كانت تروى عن شخصية في مطلع هذا القرن أنها جثت راکعة أمام أعضاء مجلس الشيوخ في أحد اجتماعاته • وقد راجت أيضاً قصص كثيرة عن الكومندان باخوتشسكى ، ومن بين تلك القصص تلك التي تتحدث عن انتزاع النصب التذكاري • ان ابناء الشعب مولعون كثيراً بالقصص المتعلقة بالبلاط • من ذلك حكاياتهم عن تشرنيشيف ، وهو أمير من العهد السابق عمره سبعون عاماً استطاع فيما تروى القصة أن يبدل سحنته تبديلاً كبيراً ، فاذا رآه أحد لم يخطر بباله أن يكون قد تجاوز من عمره الثلاثين ، حتى ان الامبراطور الراحل كان لا يصدق عينيه حين يراه في الاستعراضات...•••

- هذه أيضاً أعرفها •

- من ذا الذي لا يعرفها؟ ان هذه الحكايات كلها تبلغ الذروة من فساد الذوق • ولكن اعلم ان هذا النوع من فساد الذوق أوسع انتشاراً وأعمق ذبوعاً مما نظن • ان هذه الرغبة في الكذب من أجل مسرة الآخرين شائعة حتى في أرقى مجتمع ، لأننا نعاني جميعاً من داء الغلو الذي يضطرم في قلوبنا • كل ما هنالك من فرق هو أن القصص التي نلقاها في المجتمع الراقى تنتمي الى نوع آخر : كم نحكى عن أمريكا مثلاً؟ وعن رجال الدولة أيضاً؟ لا أكتمك اننى أنا نفسى أتمنى الى هذه الفئة من الناس ، ولشدها عانيت من ذلك طول حياتى !

– أنا أيضاً قصصت حكاية تشرنيشيف مراراً •

– أنت أيضاً ؟

– فى هذا البيت الذى أسكنه يسكن مستأجر آخر هو موظف مجدور الوجه كالأول ، متقدم فى السن ، لكنه واقعى الى درجة رهية ، فما ان يفتح بطرس هيوليتوفتش فمه ، حتى يأخذ يقاطعه ويعارضه ويكذبه • وقد بلغ من نجاحه فى ذلك أن بطرس هيوليتوفتش يتملقه كعبد ، ولا يرجو الا أن يسره ، لا لشيء الا أن يحمله على الاصغاء اليه •

– وهذا نوع آخر من فساد الذوق ، بل لعله أدعى الى النفور من النوع الأول • الأول حماسة كله • « كل ما أطلبه هو أن تتيح لى أن أتكلم ، وسوف ترى أن ما سأقوله جميل جداً » • أما النوع الثانى فهو خال من روح الشعر ، وهو اسفاف وكآبة : « لا تقل لى سخافات • اين وقع هذا ؟ متى ؟ فى أية سنة ؟ » • ان من يقف هذا الموقف انسان لا قلب له • يا صديقى ، اسمح دائماً للناس أن يكذبوا قليلاً • هذا كذب برىء • بل اسمح لهم أن يكذبوا كثيراً • فأنت بذلك تبرهن أولاً على رقة شعورك وحسن أدبك ، وأنت بذلك تحصل ثانياً على حق الكذب أيضاً : فائدتان فى آن واحد • يجب على الانسان أن يحب أخاه الانسان •

وأضاف فرسيلوف قائلاً وهو ينهض عن كرسيه :

– اننى مستعجل • يجب أن أنصرف • مسكنك رائع • سأذكر لصوفيا أندريفنا ولأختك أننى زرتك فوجدتك فى صحة حسنة • الى اللقاء يا عزيزى •

كيف ؟ أهذا كل شيء ؟ أنا لم تكن حاجتى الى هذا • كنت أنتظر شيئاً آخر ، كنت أنتظر الشيء « الجوهري » ، رغم أننى أدركت أن الأمور لا يمكن أن تجرى على غير هذا النحو • وسرت معه الى السلم حاملاً شمعة • وهمّ المؤجر أن يخرج من غرفته بهدوء ، ولكننى أمسكت ذراعه

ورددته بقسوة وشدة ، دون أن يلاحظ فرسيلوف ذلك ، فنظر الى مدهوشاً ، ولكنه اختفى فوراً •

قال فرسيلوف ماطاً كلماته ، لا لسبب الا أن يتكلم ، وربما لكي يمنعني أنا من أن أقول شيئاً :

– هذه السلالم وعرة •• وأنت في الطابق الثاني •• طيب •• كفى •• الآن أهتدي الى طريقى •• لا تقلق •• يا عزيزى •• لا تنزل معى أكثر مما نزلت • أخشى أن تصاب بزكام •

ولكننى لم أتركه • ونزلنا معاً الى الطابق الأول • فاذا أنا أقول له:  
– انتظرتك ثلاثة أيام •

أفلتت منى هذه الجملة كأنما برغم ارادتى • وكنت أحتق من شدة الانفعال •

– شكراً يا عزيزى •

– كنت أعلم أنك آت الى حتماً •

– وأنا كنت أعلم أنك تعلم أنني آت اليك • شكراً يا عزيزى •

وصمت • صرنا أمام الباب • وما أزال أتبعه • وفتح الباب ، فاذا بالرييح تندفع فجأة فتطفئ الشمعة • فأمسكت عندئذ ذراعه • وكان الظلام حالكأ • فارتعش ولكنه لم ينطق بكلمة • وارتميت على يده ، وأخذت أقبلها بشراهة عدة مرات ، بل مراراً كثيرة •

قال :

– لماذا تحبنى هذا الحب كله يا بنى العزيز ؟

ان صوته الآن صوت آخر ، صوت مختلج ، له نبرة جديدة كل الجدة ، لكأن المتكلم شخص غيره •



وأردت أن أجيب ، لكننى عجزت عن ذلك ، ورجعت أصعد السلم  
 مسرعاً . ونبت هو فى مكانه ينتظر . ولم أسمع الباب الخارجى يفتح ثم  
 يفلق مقرقاً الا حين صرت فى طابقي . وانسلت الى غرفتى متحاشياً  
 المؤجر الذى رأيت فى طريقى مرة أخرى ، وشدت المزلاج لأحكام اغلاق  
 الباب ؛ وبدون أن أشعل شمعة ، ارتميت فوق سريرى مكباً بوجهى على  
 المخذة ، وبكى ، وبكى . تلك أول مرة أبكى فيها بعد مدرسة توشار !  
 وكان نشيجى يخرج من صدرى قوياً جداً . . . . . وكنت أنا سعيداً جداً . . . . .  
 ولكن كيف أستطيع أن أصف ؟

خطت الآن هذه الأسطر دون أن يحمر وجهى ، لأن ذلك كله  
 لعله كان حسناً رغم كل ما فيه من غرابة مستحيلة !

ولكن ذلك كلف أبى ثمناً باهظاً . فلقد برهنت على اننى انسان طاغية . لم يجز أى حديث بيننا عن ذلك المشهد الذى جرى فى الظلام . التقينا مرة أخرى بعد ثلاثة أيام ، فجرى كل شيء وكأن ما حدث كان حلماً . حتى لقد كنت فظاً . وتم اللقاء الثانى فى غرفتى كاللقاء الأول : ذلك أننى رغم رغبتى فى رؤية أمى لم أرد له زيارته .

ظلت أحاديثنا طوال تلك المدة ، أى خلال هذين الشهرين ، تدور على نظريات عقيمة ومسائل مجردة : حرصنا حرصاً شديداً على تحاشي الأمر الجوهري . وكان هذا الأمر الجوهري هو بعينه ما يتطلب ايضاحاً ، بل يتطلب ايضاحاً سريعاً . وعن هذا الأمر الجوهري انما كنا نتقى الكلام . لم أتكلم لا عن أمى ولا عن ليزا ( كنت أزورها كل أسبوع ) ولا عن نفسى ، ولا عن قصتى كلها . أفكان هذا الصمت خجلاً ، أم كان نوعاً من حماقة الشباب ؟ أغلب الظن أنه كان نوعاً من حماقة الشباب ، لأن الخجل يستطيع المرء أن يتغلب عليه بطريقة من الطرق آخر الأمر . لقد سمت فرسيلوف سوء العذاب . حتى لقد كنت فى معاملته وقحاً عدة مرات ، وكان ذلك على مريض منى أيضاً : كانت الوقاحة تنطلق من تلقاء ذاتها ، على نحو لا سبيل الى مغالته ومقاومته ، فكنت لا أملك أن أنهى نفسى عنها . وكان فى لهجته هو شيء من سخرية ، على عهدى به ، وان تكن هذه السخرية رقيقة فى الواقع . ومما أدهشنى أيضاً أنه كان يفضل أن يجيء الى ، حتى صرت فى النهاية لا أذهب الى أمى الا قليلاً ، مرة واحدة فى الأسبوع لا أكثر ، ، ولا سيما فى الآونة الأخيرة ، حين طاش صوابى تماماً . وكان يأتى دائماً فى المساء ، فنظف ثرثر ، وكان يحب أيضاً أن يثرثر مع مؤجرى ، فكان يحقنى أن يصدر هذا عن رجل مثله .

وقد برق في ذهني خاطر : أتراه ليس له صديق يذهب اليه ؟ ولكنني كنت أعلم علم اليقين أن له معارف ، حتى انه في المدة الأخيرة قد جدد كثيراً من العلاقات القديمة بالمجتمع الراقى ، بعد أن أهمل تلك العلاقات في السنة الماضية . ولكن كان لا يبدو مفتوناً بهذه العلاقات كثيراً ، وكأنه لم يجدد عدداً كبيراً منها الا بتجديداً رسمياً شكلياً ، وانما هو يؤثر أن يجيء الى . . . ومما يؤثر في قلبي أحياناً أنه حين يجيء في المساء ، يكاد يشعر كل مرة بشيء من الحنجل لحظة يفتح الباب ، فينظر الى في البرهة الأولى بعينين تعبران عن قلق خاص كأنه يسأل : « ألا أضايقك ؟ اذا كنت أضايقك فقل لي ذلك فأصرف ! » . بل كان يلقي السؤال أحياناً . ففي ذات مرة ، في الآونة الأخيرة ، دخل على . . . وكنت قد فرغت في تلك اللحظة نفسها من ارتداء بدلة جديدة جاءتني من عند الخياط منذ لحظة ، وكنت أتتياً للخروج ذاهباً الى الأمير سرجي من أجل أن نمضي معاً الى مكان لي فيه عمل ( أما ما هذا المكان ، فسوف أشرح ذلك فيما بعد ) . دخل فرسيلوف وجلس ، ربما دون أن يلاحظ أنني أتتياً للخروج . ان له ذهولاً عجيباً في بعض الأحيان . ربما يشبه المصادفة ، أدار الحديث عن المؤجر . فتارت ثائرتي ، وقلت :

— ليذهب المؤجر الى الشيطان !

فاذا هو ينهض فجأة ، ويقول :

— معذرة يا عزيزتي . أظن أنك تتتياً للخروج ، وأنتي أضايقك ،

فسامحني ، أرجوك . . .

وأسرع يخرج بمذلة . ان هذه المذلة يظهرها لي رجل مثله ، رجل يبلغ منزلته في المجتمع الراقى ، ويتصف بما يتصف به من روح الاستقلال ، ويملك ما يملكه من أصالة الشخصية ، ان هذه المذلة كانت لا تلبث أن تثير في قلبي على الفور كل ما يضره له من محبة حنان ، وكل

ما يحمله له من ثقة به واطمئنان اليه • ولكن اذا كان يحبنى هذا الحب كله • فلماذا لم ينهني ولم يزجرني حين أخذت أهوى الى الدرك الأسفل ؟ لعله كان يكفى أن يقول لى كلمة واحدة حتى أتوقف عن الانهيار • أو لعله كان لا يكفى ذلك • ولكنه كان يرى فرط تأتقى وتندرى ، ويلاحظ تشدقى وتنفجى وتبججى ، ويبصر سائق عربتى الحوذى ما تفىء ( حتى لقد أردت مرة أن أوصله الى بيته بعربتى فرفض ، بل لقد تكرر هذا نفسه مراراً فكان فى كل مرة يرفض ) • وكان يرى أننى أتلف أموالاً طائلة ، ثم هو لا يقول كلمة واحدة ، ولا ينطق بحرف واحد ، ولا يبدى أى ميل الى الاستطلاع • ان هذا لا يزال يدهشنى حتى اليوم • وكنت أنا لا أخرج أمامه • بل كنت أعرض كل شىء ، دون أى شرح أو تعليق طبعاً • كان هو لا يسألنى ، وكنت أنا لا أتكلم من تلقاء نفسى •

ومع ذلك أوشكنا مرتين أو ثلاث مرات أن نتكلم عن الأمر الجوهري ، مرة فى البداية بعد التنازل عن الميراث • فقد سألته حينذاك مم سيعيش الآن ، فأجابنى قائلاً بصوت هادىء هدوءاً خارقاً :

— سأدبر أمرى يا صديقى •

انى أعلم الآن أن المبلغ الصغير الذى تملكه تاتيانا بافلوفنا ، أن هذا المبلغ الصغير نفسه قد أنفق نصفه على فرسيلوف فى هاتين السنتين الأخيرتين •

ومرة تكلمنا عن أمى : قال فجأة بحزن :

— كثيراً ما قلت لصوفيا أندريفنا فى مطلع حياتنا المشتركة ، بل فى مطلعها ووسطها ونهايتها : « يا عزيزتى ، اننى أعذبك وسأظل أعذبك عذاباً شديداً ؛ ولست آسف لذلك ما دمت أمامى • ولكننى أعلم أننى سأنتحر معاقبة لنفسى اذا أنت مت • » •

وانى لأذكر من جهة أخرى أنه كان فى ذلك المساء صريحاً صراحة خاصة ، قال :

- ليتنى على الأقل كنت امرءاً ذاهباً لا ارادة له ، مثلاً من أنه كذلك ! ولكن لا • فانا أعلم اننى قوى قوة لا نهاية لها • ما مكن قوتى فى رأيك ؟ ان قوتى هى فى هذه القدرة المباشرة على التلاؤم مع كل شىء ، وهى قدرة يتميز بها جميع الروس الأذكاء من أبناء جيلنا • لا شىء يستطيع أن يدمرنى ، ولا شىء يستطيع أن يدهشى • اننى قوى جم النشاط ككلب الراعى أستطيع أن أحس عاطفتين متعارضتين فى لحظة واحدة ، بسهولة لا تفوقها سهولة ، ودون أن تشارك فى ارادتى • ولكننى أعرف مع ذلك أن هذا أمر فيه حطة ، لأن فيه فرط تعقل • لقد عشت حتى الآن قرابة خمسين عاماً ، وما أزال الى الآن أجهل أهو شر أم هو خير أن أبلغ هذه السن • لا شك فى أننى أحب الحياة ، وهذا ما تشهد به الوقائع وتدل عليه • ولكن حب الحياة عند رجل مثلى ، شىء فيه جبن • هناك أمور جديدة فى هذه الأزمنة الأخيرة : فأمثال كرافت لا يتلامون فينتحرون • واضح أن أمثال كرافت حمقى • ومعنى ذلك أننا نحن أذكاء • فليس هناك تواز يمكن أن نقيمه ، وتبقى المسألة مفتوحة • هل يعقل أن لا تكون الأرض قد وجدت الا لأناس مثلنا ؟ جائر ! ••• ولكن هذه الفكرة تحزن النفس وتبطل العزيمة • الخلاصة • الخلاصة •• المسألة تبقى مفتوحة •

كان يتكلم بحزن • ومع ذلك لا أدري أكان صادقاً أم لا • ان فى نفسه على الدوام نوعاً من سر لا يريد أن يكشف عنه بحال من الأحوال •

## ٤

أعرقته عندئذ بالأسئلة • هجمت عليه هجوم الجائع على قطعة خبز • فكان يجيبني دائماً بمودة وبساطة ، ولكنه ينتهي في الحتام الى حكم عامة وقوالى مأثورة ، فيستحيل علىّ أن استخرج من أقواله شيئاً • وكانت هذه الأسئلة جميعها قد أفلقتني طوال حياتي • واني لأعترف لكم صريحاً كل الصراحة بأنني كنت أرجىء الاجابة عنها دائماً الى حين لقائنا ببطرسبرج • حتى لقد أعلنت له ذلك ، فلم يسخر مني ، بل شد على يدي •

فيما يتعلق بالسياسة العامة والمسائل الاجتماعية لم أستطع أن أتزع منه شيئاً على وجه التقريب ؛ وكانت هذه المسائل مع ذلك هي التي تقلقني أكثر من كل ما عداها ، بحكم فكريتي • وفيما يتعلق بأناس مثل درجاتشيف استطعت أن أتزع منه في ذات مرة هذه الملاحظة : « انهم أدنى من أي نقد » • ولكنه سرعان ما أردف يضيف أنه يحتفظ لنفسه بهذا الحق : وهو أن لا يخلع على رأيه هذا أي « قيمة ذات بال » • أما ما أقيته عليه من أسئلة عن الدول المعاصرة ما مآلها ، وعن العالم ما مصيره ، وعن السلام الاجتماعي كيف يتحقق ، فانه أصم أذنيه عن سماعه زمناً طويلاً ، ثم استطعت في النهاية أن أتزع منه هذه الأقوال :

– أظن أن هذا كله سيتم على نحو عادي جداً • ان جميع الدول ، رغم توازن الميزانيات ، و « عدم وجود عجز » ستفيق « ذات صباح » فاذا هي متورطة تورطاً حاسماً ، واذا هي جميعاً ترفض أن تدفع ، واذا هي في افلاس شامل • ولكن جميع العناصر المحافظة في العالم بأسره ستتناهض هذا ، لأن هذه العناصر ستكون هي مالكة الأسهم وستكون هي الدائنة ، فلا تريد أن تقبل الافلاس • وبطبيعة الحال ، سيحدث عندئذ نوع من

الأكسدة : يزداد عدد اليهود ، ويقوم حكمهم ، وبعد ذلك ، فإن جميع الذين لم يملكو أسهماً في يوم من الأيام ، ولا ملكوا شيئاً بعامه ، أى جميع الشحاذين ، سيرفضون المساهمة في الأكسدة طبعاً . فتقوم المعركة . . . وبعد سبعين هزيمة يبيد الشحاذين مالكي الأسهم ، ويأخذون أسهمهم ، ويحلون محلهم ، كمساهمين أيضاً بطبيعة الحال . وقد يقولون شيئاً جديداً ، وقد لا يقولون . وأغلب الظن أنهم سيفلسون هم أيضاً . أما فيما عدا هذا يا صديقي ، فانتى لا أستطيع أن أوغل مزيداً من الايغال في قراءة المصائر التي سوف تغير وجه العالم . على كل حال ، اقرأ رؤيا يوحنا . . .

– ولكن هل ستكون الأمور مادية الى هذا الحد؟ هل شئون المال وحدها هي التي ستنتهي العالم الحاضر؟

– أنا لم أنظر الا الى زاوية من اللوحة طبعاً ، ولكن هذه الزاوية مرتبطة بسائرها ارتباطاً لا انفصام له .

– فما العمل اذن؟

– أوه ! لا تسرف في التسرع يا عزيزي : هذا كله ليس وشيك الحدوث . أفضل شيء على كل حال ، هو أن لا يعمل المرء شيئاً البتة . فيكون ضميرك مرتاحاً على الأقل ، لأنك لا تكون شاركت أية مشاركة . . .

– دعنا من هذا الكلام . لتكلم جادين . أريد أن أعرف ما الذي يجب عليّ أن أفعله ، وكيف ينبغي أن أعيش؟

– ما الذي يجب عليك أن تفعله يا عزيزتي؟ كن شريفاً ، لا تكذب أبداً ، لا تشته أن تملك منزل جارك . . . الخلاصة : عليك بالوصايا العشر فأعد قراءتها . . . ان كل شيء مدون فيها الى الأبد .

– كفى كفى ، هذا كله قديم جداً ، وما هو الا ألفاظ ، وانما المهم أن نعمل .

- طيب ، اذا كنت فريسة ضجر شديد ، فحاول أن تحب أحداً أو أن تحب شيئاً ، أو حتى أن تتعلق بشيء .

- انك لا تزال تسخر ! ثم ما عساي أفعل وحدي ، باتباع وصاياك العشر ؟

- تطبقها غير متشرد بين المشكلات والشكوك فتصبح انساناً عظيماً .

- مجهولاً من جميع الناس .

- لا سر يبقى خافياً .

- انك ما تزال تمزح !

- طيب ، اذا كنت تأخذ كل شيء مأخذ الجد الى هذه الدرجة ، فالأفضل أن تسارع الى التخصص : كن مهندساً أو محامياً . فيكون لك شاغل حقيقي جدي ، وتهدأ بالآ ، وتنسى جميع هذه الأمور الصيانية !

سكت . ما عساي أستطيع أن أستخرج منه ؟ ولماذا كنت بعد كل حديث من هذه الأحاديث اضطرر مزيداً من الاضطراب ، ويربو قلقي عما كان عليه من قبل ؟

ثم انني كنت أرى رؤية واضحة أنه لا يزال في نفسه نوع من سر لا يكشف عنه . وكان هذا ما يجذبني اليه مزيداً من الجذب يوماً بعد يوم .

قاطعته يوماً أقول :

- اسمع ، لقد ساورني دائماً أنك لا تقول هذا الكلام الا عن غضب وألم ، أما في قرارة نفسك فأنك شديد الحماسة لفكرة عليا تخفيها أو تخجل من الاعتراف بها .



- شكراً يا عزيزتى •

- اسمع ! لا شيء أسمى من أن يكون المرء نافعاً • فقل لى : فى أى شىء يمكننى فى لحظة معينة أن أكون نافعاً أكبر نفع ؟ أعرف أنك لن تحل المسألة • ولكننى فى حاجة الى رأيك : قل لى رأيك ، فأخذ به ! عيّن لى فكرة عظيمة •

- تبادل الحجارة خبزاً ، هذه هى الفكرة العظيمة •

- أعظم فكرة ؟ الواقع أنك رسمت طريقاً يجب اتباعه • ولكن قل لى : أهذه أعظم فكرة ؟

- هى عظيمة جداً يا صديقى ، عظيمة جداً • ولكنها ليست العظمى • هى عظيمة ، ولكن عظمتها من مرتبة ثانية ، وهى عظيمة فى الوقت الراهن فحسب : فمتى شبع الانسان لم تبق عظيمة • بل ان الانسان سرعان ما سيقول : « طيب ، هأنذا شبع ، فماذا أعمل الآن ؟ » • ويبقى السؤال قائماً الى الأبد •

- لقد تكلمت عن « آراء جنيف » • ولم أفهم أنا ما « آراء جنيف » هذه •

- « آراء جنيف » يا عزيزى ، هى الفضيلة بغير يسوع المسيح • تلك هى أفكار هذه الأيام ، بل قل هى فكرة الحضارة الحديثة كلها • الخلاصة : هذه حكاية من تلك الحكايات الطويلة التى تبعث على الضجر والسأم • فالأفضل أن نصمت •

- تود دائماً لو تصمت !

- تذكر يا صديقى أن الصمت لا خطر منه ، وأنه براءة وجمال •

- الصمت جميل ؟

- طبعاً • الصمت جميل دائماً ، والصامت أجمل من المتكلم دائماً •

- ولكن الكلام على نحو ما تتكلم أنا وأنت أشبهه باصمت على كل حال . تبا لهذا الجمال ، تبا لهذا الجمال ، بثت هذه الميزة !  
قال لي فجأة وهو يغير لهجته قليلاً ، حتى لقد كان كلامه عاطفة وكان فيه شيء من الحاح خاص :

- يا عزيزتى ، لا أريد أبداً أن أغويك فأبدل مثلك العليا بفضيلة من الفضائل البورجوازية . لا أريد أن أقول لك ان « السعادة خير من البطولة » . بالعكس : البطولة أسمى من أى سعادة ، واستعداد المرء للبطولة هو في ذاته سعادة . ذلك أمر لا جدال فيه بيننا . تلك مسألة محلولة . وإذا كنت أحترمك فلأنك استطعت في عصرنا هذا المعفن أن تنشئ لك في قرارة قلبك « فكرة » ( اطمن ، اننى أتذكر هذا الأمر ) . ولكن يستحيل عليك أن لا تفكر أيضاً في القصد والاعتدال . ذلك أنك تحلم الآن بحياة لها دوى ، تحلم أن تحرق لا أدري ماذا ، وأن تمزق لا أدري ماذا ، أن تسمو فوق روسيا كلها ، أن تمر مرور سحابة ساطعة ، أن تغرق العالم كله في الرعب والاعجاب ، ثم تمضى تختفى في الولايات المتحدة ! ان في قلبك شيئاً كهذا حتماً ، لذلك أرى أن من المفيد أن أحذرك ، لأننى أحمل لك عاطفة صادقة .

ماذا كان في وسعى أن استخرج من هذا أيضاً ؟ ان هذا الكلام لا يتضمن الا قلقاً علىَّ بصدد حالتى المالية . هو الأب بعواطفه الخالية من كل روح شعرية ، وان تكن عواطف طيبة . ولكن أهذا ما كنت في حاجة اليه ازاء أفكار ينبغى لكل أب صادق أمين أن يرسل ابنه الى الموت تضحية في سبيلها ، كما فعل هوراس القديم بذويه في الزمان الحالى من أجل الفكرة الرومانية ؟

وكنت أسأله كثيراً عن الدين ، ولكن الضباب في هذا المجال كان اكتف من الضباب في كل مجال آخر . فاذا سألته : ماذا يجب على أن

أعمله في هذا المجال؟ أجنبي أغبي اجابة ، كما يجاب طفل صغير ، فقال :  
« يجب أن تؤمن بالله يا عزيزى ! » •

وقد اشتد حنقى مرة فهتفت أقول له :

- فاذا كنت لا تؤمن بهذا كله ؟

فاذا هو يقول لى :

- ذلك حسن جداً يا عزيزى !

- حسن جداً ؟ كيف ؟

- هذه علامة طيبة يا صديقى ، بل هى أضمن علامة ، لأن الملحد  
الروسى - هذا اذا كان ملحداً حقاً وكان على شىء ولو قليل من الذكاء -  
هو خير انسان فى هذا العالم ، فهو يعامل الله بالحسنى لأنه طيب ، وهو  
طيب لأنه مسرور بالحاده سروراً كبيراً • ان الملحدين فى بلادنا روسيا  
اناس جديرون بالاحترام ، اناس يوثق بهم ، وهم دعامات الوطن ان صح  
التعبير •••

هذا شىء طبعاً • لكنه ليس كل ما كنت أريده • مرة واحدة أفصح  
عن فكرته ، ولكن بطريقة تبلغ من الغرابة أن دهشتى ازدادت ، ولا سيما  
بعد الذى ترامى صدها الى سمعى عما يأخذ به نفسه من كفارات ومن  
عبادات كاثوليكية • قال لى يوماً ، لا فى البيت بل فى الشارع ، بعد حديث  
طويل ، وكنت أوصله الى منزله :

- يا عزيزى ، يا صديقى ، ان حب البشر على ما هم عليه أمر  
مستحيل • ومع ذلك يجب أن نحبههم • لذلك يجب أن تصنع لهم خيراً  
وأن تكظم عواطفك وتسد أنفك وتغض عينك ( هذا الشرط الأخير  
لا غنى عنه ) • تحمل ما يفعلون من شر ولا تؤاخذهم ان استطعت ،  
« متذكراً أنك أنت أيضاً انسان » • هذا لا ينفى أن من حقت أن تقسو  
عليهم اذا وهب لك أن كان ذكاًوك أعلى من متوسط ذكائهم • البشر

منحطون بطبيعتهم ، وهم يحبون أن يجبوا عن خشية وخوف •  
 فلا تستسلمن لهذا الحب ، ولا تكف عن احتقارهم • في سورة من سور  
 القرآن يأمر الله نبيه بأن ينظر الى الكفار نظرتة الى قرآن ، وأن يحسن  
 اليهم ، ويمضى في طريقه •

ان في هذا شيئاً من تعالٍ ، ولكنه صدق وحق • فاحتقر البشر ،  
 حتى حين يكونون طيبين ، فحين ذلك انما هم أشد ما يكونون عفناً وتناً •  
 يا صديقي ، أنا لا أقول هذا الكلام الا لأننى أعرف نفسى معرفة جيدة !  
 لا يملك انسان غير غبى الا أن يحتقر نفسه ، شريفاً كان أو غير شريف •  
 يستحيل على الانسان أن يحب أخاه الانسان ولا يحتقره • رأى أن  
 الانسان خلق بتكوين جسمه عاجزاً عن حب أخيه الانسان • لقد وقع  
 خطأ لغوى منذ البداية • ما ينبغى أن تفهم من « حب الانسانية »  
 الا الانسانية التى خلقتها لنفسك فى قرارة قلبك ( بتعبير آخر : أنا أخلق  
 نفسى وأخلق لها الحب ) ، أى الانسانية التى لن توجد حقيقة واقعة فى  
 يوم من الأيام أبداً •

– لن توجد أبداً ؟

– أتعرف يا صديقى بأن ذلك أمر سخيف ، ولكن ليس الذنب ذنبى  
 أنا • وكما لم أسأل رأبى حين خلق العالم ، فأنى احتفظ لنفسى بالحق فى  
 أن يكون لى رأى •

هتفت أقول :

– كيف يمكن بعد هذا أن يقال عنك انك مسيحي متحمس  
 ومبشر ، وأنت تأخذ نفسك بكفارات وعبادات ؟

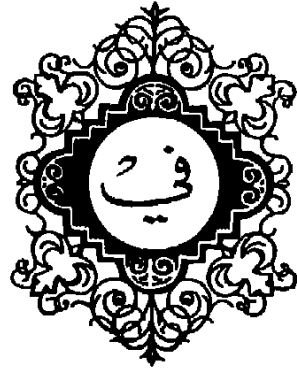
– من ذا يقول عنى هذا ؟

فقصصت عليه ما سمعت • فأصغى الى كلامي بانتباه شديد ، ولكنه  
علق الحديث •••

لا أفصح في تذكر المناسبة التي جرتنا الى هذا الحديث الذي لا أنساه •  
ولكنني أذكر أنه زعل ، وذلك أمر كان لا يكاد يحدث له أبداً • كان  
يتكلم بان دفاع ، وبغير سخريه ، كأنما هو يوجه كلامه الى شخص غيري •  
ولكنني هنا أيضاً لم أصدقته : فما كان له ، مع غبي مثلي ، أن يعالج بالجد  
موضوعات كهذه •

## الفصل الثاني

١



ذلك الصباح من ١٥ تشرين الثاني ( نوفمبر )  
 رأيته عند الأمير سرجي • اننى أنا الذى وصلت  
 بينهما ، ولكن كان بينهما نقاط التقاء كثيرة من قبل  
 أن أصل أنا بينهما ( أقصد تلك القصص التى  
 وقعت بينهما فى الخارج ، الخ ) • وعدا ذلك كان الأمير قد قطع له عهداً  
 بأن يكون له ثلث الميراث على الأقل ، أى قرابة عشرين ألف روبل • وأذكر  
 أننى قد دهشت من أن يخص فرسيلوف بثلث الميراث لا بنصفه • ولكننى  
 لم أقل شيئاً • ولقد بذل الأمير هذا الوعد بمبادرة منه • أما فرسيلوف فلم  
 ينطق بنصف كلمة ، ولا جازف بأية إشارة • ان الأمير هو الذى قدم  
 العرض ، فلم يقابله فرسيلوف الا بالصمت ، ولا ذكر به فى يوم من  
 الأيام ، ولا بدا عليه أن يتذكره البتة • يجب أن أشير عابراً الى أن الامير  
 قد افتتن به فى أول الأمر افتتانا كبراً ، ولا سيما بأحاديثه ، حتى لقد  
 تحمس له ، وأعرب لى عن ذلك مراراً • بل انه كان فى بعض الأحيان ،  
 حين يخلو الى ، يهتف قائلاً عن نفسه بما يشبه اليأس « اننى انسان ضئيل  
 الحظ من الثقافة ، واننى أسير فى طريق خطأ ، ••• ذلك أننا كنا حينئذ  
 صديقين حميمين ! وقد حاولت من جهتى أن أوحى الى فرسيلوف برأى

حسن في الأمير ، مدافماً عن عيوبه ، مع أنني أراها • ولكن فرسيلوف  
كان يبقى صامتاً أو كان يتسم •

وقد صحت ذات يوم أقول لفرسيلوف منفرداً به :

– اذا كانت له عيوب ، فان له مزايا تساويها •

فأجابني فرسيلوف وهو يضحك ساخراً :

– انك تبالغ في مدحه !

– أين المبالغة ؟ لست أفهم !

– المبالغة في قولك ان مزاياه تساوى عيوبه • فلو كانت له مزايا بقدر

عيوبه لصنع معجزات !

ولم يكن هذا رأياً بطبيعة الحال • المهم أنه كان يتحاشى الكلام عن  
الأمير كتحاشيه الكلام عن الأمور الجوهرية عامة ، بل كان تجنبه الكلام عن  
الأمير أشد من تجنبه الكلام عن تلك الأمور الجوهرية • وكنت أقدر أنه  
يزور الأمير في غيابي ، وأن بينه وبينه علاقات خاصة • ولكنني كنت راضياً  
بالأمر • وكان لا يثير غيرتي أن يكون في حديثه مع الأمير من الجد والدقة  
والوضوح ما ليس في حديثه معي من مثل ذلك كله ، وأن يخلو حديثه  
اليه مما يمازج حديثه الى من سخريه • بل قد بلغت من فرط السعادة  
أن ذلك كان يرضيني ويعجبني • وكان يشفع لفرسيلوف في هذا عندي  
أن الامير رجل محدود الذكاء قليلاً ، فالتلميح لا يغني معه عن التصريح  
حتى لقد يحتاج حتى يفهم الى الحاح ، والا فقد يفوته ادراك معنى بعض  
الأماريح • ولكن ها هو ذا قد أخذ يتحرر في الآونة الأخيرة • وبدا  
أن عواطفه نحو فرسيلوف قد تتغير • ولاحظ فرسيلوف ذلك بما أوتى من  
لطافة الحس • ولاحظت تغيراً كهذا في علاقات الأمير بي • حتى لقد كان  
هذا التغير واضحاً كل الوضوح • فلم يبق من صداقتنا الأولى الحارة الا  
صور ميتة • ومع ذلك ظلت أذهب اليه • وهل كان يمكنني أن أفعل غير

هذا بعد أن أبحرت ؟ آه . . . ما كان أشد سذاجتى ! هل يمكن لبسناطة القلب أن تؤدي بانسان الى مثل هذه الدرجة من الخراقة والحطة ؟ كنت أقبل منه مالا ، وفي ظنى أن ذلك ليست له عواقب ، وأنه من طبيعة الأمور . بل قل لم يكن الأمر كذلك : لقد كنت أعلم منذ ذلك الحين أن هذا ليس ما كان يجب على أن أعمله ، ولكننى كنت لا أفكر فى الامر كثيراً ، ولا أتلبث عليه طويلاً . ولم أكن أذهب اليه من أجل المال ، رغم حاجتى الشديدة الرهية الى المال . وكنت أعلم أننى لا أذهب اليه من أجل المال ، ولكننى أدرك أننى آجىء كل يوم فأخذ مالا . على أننى أدور فى الزوبعة وكانت نفسى عدا ذلك مشغولة بشيء آخر يختلف عن هذا كل الاختلاف . كانت نفسى كلها تغنى !

حين دخلت فى نحو الساعة الحادية عشرة من ذلك الصباح ، وجدت فرسيلوف عند الأمير مشارفاً على ختام حديث مستفيض . كان الأمير يصغى وهو يذرع الغرفة ذاهباً آيماً . وكان يبدو على الأمير شيء من الاضطراب . ان فرسيلوف يبت فى نفسه بعض الاضطراب دائماً . فالأمير شديد التأثير الى درجة السذاجة ، وكان هذا يجعلنى أنظر اليه من عل . ولكننى أعود فأكرر أنه فى هذه الأيام الأخيرة قد ظهر فيه شيء من خبث وشر . فلما رآنى توقف ، وتقبض وجهه قليلاً . وكنت أعرف بينى وبين نفسى كيف أفسر هذا الظل يظهر على وجهه فى ذلك الصباح ، ولكننى لم أتوقع أن تتبدل سحنته هذا التبدل . كنت أعلم أن هناك أنواعاً شتى من المنغصات قد تراكمت عليه ، ولكن المؤسف أننى كنت لا أعرف عشر معشارها ، وكان ما عدا ذلك سراً أجهله جهلاً تاماً . ومما يزيد الأمر مضايقة لى أننى كنت أتدخل فى شئونه أحياناً كثيرة محاولاً أن أواسيه وأن أسدى اليه بالنصح ، دون أن يفوتنى أن أسخر من ضعفه فى استعلاء قائلاً له : ما هذا الاستسلام لمثل هذه « الترهات » ! وكان يلتزم الصمت . ولكن يستحيل أن لا يكرهنى كرهاً رهيباً فى تلك اللحظات : لقد كنت



في وضع زائف دون أن يخطر ببالى ذلك • آه ••• شهد الله أن الأمر  
الجوهري ما كان يدور في خلدي ، ولا كان يخطر على بال !

ومع ذلك مد اليّ يده بحركة مهذبة • وهز فرسيلوف رأسه محياً  
دون أن يقطع حديثه • واستلقت على الديوان •

ما أعجب تلك الأساليب التي كنت أصطنعها في ذلك الوقت ! كنت  
أنظر اليه من عل ، وأعامل أصدقاءه معاملة أصدقائي • آه ••• لو كان  
يمكن أن أتقهقر الآن في الزمان الى الوراء ، لسلكت سلوكاً آخر •••

كلمتان أخيرتان قبل أن أنسى : كان الأمير ما يزال يسكن تلك الشقة  
نفسها ، لكنه يشغلها الآن كلها تقريباً ، فان مالكتها ستوليافا لم تقض  
فيها الا شهراً واحداً ثم سافرت •

كانا يتكلمان عن طبقة النبلاء أو طبقة الأشراف • يجب أن أذكر أن هذه المسألة كانت تشغل بال الأمير كثيراً ، وتعذبه كثيراً ، رغم ما يصطنعه من مظاهر التقديمية ؛ حتى لأعتقد أن كثيراً من الجوانب السيئة في حياته قد نشأت عن ذلك ، أو بدأت بذلك : انه من فرط ولوعه بلقب الأمير قد قضى حياته كلها يبذر المال ويفرق في الديون مدفوعاً بزهو بطل وكبرياء كاذبة ، رغم أنه لا يملك ثروة • وقد أسمع فرسيلوف مراراً أن النبالة ليست في هذا ، وحاول أن يدخل في قلبه تصوراً ارفع من هذا التصور • ولكن الأمير تأذى في آخر الأمر ، وأهانته أن يلقنه أحد دورساً • ولا شك أن مشهداً من هذا النوع هو ما كان يجري في ذلك الصباح ، ولكنني لم أحضر بدايته • وقد بدت لي أقوال فرسيلوف في البداية رجعية ، ولكنه استدرك بعد ذلك •

كان يقول ( وأنا أنقل المعنى وحده بقدر ما تسعفنى الذاكرة ) :

- ان كلمة الشرف تعنى الواجب • فحين تسيطر في دولة من الدول طبقة ذات امتيازات ، فان البلاد تكون قوية عزيزة الجانب • ولهذه الطبقة دائماً شرفها ولها دائماً ديانة شرف تعتقها • وقد تكون هذه الديانة خطأ ولكنها رباط يحقق تلاحم الأمة ، فهي نافعة في الأخلاق ، وهي نافعة في السياسة خاصة • ولكن العيب يتألمون وأعنى بالعيب جميع اولئك الذين لا ينتمون الى تلك الطبقة ؛ فمن أجل أن لا يتألموا توهب لهم المساواة في الحقوق • فهذا ما حدث عندنا ، وهو أمر حسن جداً • غير أن جميع التجارب التي تمت حتى الآن ، وفي كل مكان ( أي في أوروبا ) ، تدل على أن المساواة في الحقوق تؤدي الى انخفاض في مستوى الشرف ،

وفي مستوى الواجب تبعاً لذلك • فالأناية حلت محل الفكرة القديمة التي كانت تشد البلاد برباط قوى ، وصار كل شيء الى حرية للأفراد • فلما تحرر البشر ، وخلوا من فكرة تشد بعضهم الى بعض ، بلغوا من فقدان كل رابطة عليا أنهم أصبحوا لا يدافعون عن حريتهم • ولكن النبالة الروسية لم تشبه نبالة الغرب في يوم من الأيام • وحتى في أيامنا هذه ، بعد أن فقدت حقوقها ، تظل نبالتها قادرة على أن تبقى نظاماً أعلى يحافظ على الشرف والأنوار والعلم والمعاني السامية والأفكار الرفيعة ، ولا سيما اذا هي كفت عن أن تكون طبقة مغلقة ، والا كان في انغلاقها موت الفكرة • وقد ظلت أبواب النبالة في بلادنا مشقوقة منذ مدة طويلة ، والآن حان الوقت الذي يجب ان تفتح فيه هذه الأبواب على مصاريعها • فاذا كل مآثره من مآثر الشرف أو العلم أو الشجاعة تهب لصاحبها حق الانتماء الى هذه الطبقة العليا • فبذلك تستحيل الطبقة من تلقاء نفسها الى جمع يضم خيار الناس بالمعنى الصادق الحق لهذه الكلمة ، لا بالمعنى القديم من حيث أنها طبقة مغلقة ذات امتيازات • ففي هذه الصورة الجديدة ، أو قل هذه الصورة المجددة يمكن أن تبقى هذه الطبقة وأن تستمر •

#### فكشف الأمير أسنانه قائلاً :

— وماذا يبقى عندئذ من النبالة ؟ ان ما تتصوره لهو محفل ما سوني

لا طبقة نبلاء •

يجب أن أعود فأكرر أن الأمير رجل جاهل جهلاً رهيباً ، حتى لقد استدرت على ديوانى غضباً ، رغم أنني لم أوافق فرسيلوف على مقاله موافقة تامة • وأدرك فرسيلوف أن الأمير حانق • فأجاب يقول له :

— لا أدري ماذا تعنيه بالماسونية • ولكن اذا رفض أمير روسي هذه الفكرة ، كان معنى ذلك أن الوقت لم يحن بعد ، وأن الفكرة سابقة لأوانها • صحيح أن الفكرة القائلة بأن الشرف والثقافة والعلم شرط

الانتماء الى طبقة لا تغلق أبوابها ولا تجمد على حالها بل ما تنفك تتطور وتتجدد ، هي حلم يتوق اليه الانسان ، ولكن هل هي مستحيلة ؟ يكفي أن هذه الفكرة قائمة ولو في عدد قليل من الأذهان حتى نقول انها لم تضع ، فهي تسطوع كنطوع نقطة مضيئة في ظلمات كثيرة .

قال الأمير :

— أراك تحب أن تستعمل هذه الألفاظ : « فكرة عليا » ، « فكرة كبيرة » ، « فكرة تربط الناس وتشدهم بعضهم الى البعض » ؟ فأريد أن أفهم ما الذي تعنيه على وجه الدقة من قولك : « فكرة كبيرة » ؟

فأجاب فرسيلوف بتهكم ناعم :

— لا أدري بماذا أجيبك يا عزيزي الأمير . بل لعلي آتون أقرب الى الصدق اذا قلت لك انني عاجز عن الاجابة . ان الفكرة الكبيرة هي في العادة عاطفة تظل بدون تعريف خلال مدة طويلة أحياناً . ولكنني أعلم أن هذه العاطفة هي ما ولد الحياة الحية دائماً ، أقصد الحياة التي ليست حياة مصطنعة مستخرجة من الكتب وقائمة على الألفاظ ، بل حياة حقة ، حياة يتدفق فيها الفرح ولا يخالطها ضجر . فالفكرة العليا التي تتبع منها هذه الحياة هي اذن ضرورة لا غنى لها ، وان ساءت الناس طبعاً .

— ولماذا تسوء الناس ؟

— لأن الناس يسأمون أن يعيشوا بأفكار ، ويبهجهم أن تخلو معيشتهم منها .

وبلغ الأمير هذه الغمزة . ثم قال يسأل وقد استمر غضبه استعاراً واضحاً :

— وما تلك الحياة الحية في رأيك ؟

- لا أدري أيضاً يا أمير • ولكننى أعرف أنها شىء بسيط غاية البساطة ، شىء عادى الى أبعد الحدود ، شىء ظاهر للعيان كل يوم فى كل دقيقة ، بل شىء يبلغ من البساطة أننا لا نكاد نصدق أنها تبلغ هذا المبلغ من البساطة ، وأتانا نلقاها فى طريقنا منذ ألوف السنين دون أن نلاحظها أو أن نتعرفها •

قال الأمير :

- لكننى أردت أن أقول ان فكرتك عن النبالة هى فى الوقت نفسه انكار للنبالة ونفى لها •

- فاعلم اذن ، ما دمت حريصاً على ذلك ، أن النبالة لعلها لم توجد عندنا فى يوم من الأيام •

- هذا الكلام كله غامض غموضاً رهيباً ، مبهم ابهاماً فظيماً • حين يتكلم الانسان ، يجب عليه فى رأى أن يشرح ويوضح •••

وتفضن جين الأمير ، وألقى نظرة على ساعة الجدار • فتناول فرسيلوف قبعته ونهض وهو يقول :

- 'يشرح ويوضح؟ لا بل الأفضل أن لا يشرح وأن لا يوضح • وهذه آفة من آفاتي على كل حال : فأنا لا أفيض فى الشرح والايضاح • نعم ، هو كذلك • وثمة سمة غريبة أخرى من سمات طبعى : اذا اتفق لى أن أخذت أشرح وأن أوضح فكرة أو من بها ، فانتى فى جميع الأحيان تقريباً أنتهى أنا نفسى الى الكف عن الايمان بها ، وانتهى الى جحودها • وأخش أن تجرى الأمور اليوم هذا المجرى • الى اللقاء يا عزيزى الأمير • انتى استرسل فى الحديث وأنقاد للثرثرة عندك ، وهذا أمر لا يفتقر •

وخرج • فشيعة الأمير بأدب ، ولكننى تأذيت وجرح شعورى • وقال لى الأمير دون أن ينظر الى وجهها لوجه ، ودون أن يتوقف :

- ما بالك تقطب حاجيك ، وما بال وجهك يتجهم ؟

فأجبتة أقول متهدج الصوت :

- يتجهم وجهي لأننى أرى فيك تبديلاً تجاهي وحتى تجاء فرسيلوف ... تبديلاً يبلغ من الغرابة أن ... لا شك أن كلام فرسيلوف قد كان فى البداية رجعيًا ولكنه استدرك فى النهاية ، و ... لعل أقواله كانت فكرة عميقة ، ولكنك لم تفهمها ، و ...

- لا أريد أن يلقننى أحد درساً ، وأن يعاملنى معاملة صبي صغير .

كذلك قال الأمير بلهجة قاطعة غاضبة . فقلت له :

- يا أمير ، ان هذه الأقوال ...

- دعنا من الحركات المسرحية ، من فضلك ! اننى أعلم أن ما أفعله فيه حطة ، فأنا مبذر ، وأنا مقامر ؛ وربما كنت لصاً ... نعم ؛ ربما كنت لصاً ؛ لاننى أتلف مال أسرتى ، ولكننى لا أريد قضاة يحكمون على من فوق . لا أريد ذلك ، ولا أطيعه ، ولن أقبله . أنا قاضى نفسى . وما معنى هذا الكلام الملتبس الذى يقوله ؟ اذا كان يريد أن يقول لى شيئاً ، فليعبر عنه بصراحة بدلاً من الايغال فى هذه المناهات المظلمة والنبوءات الغامضة . ومع ذلك ينبغى أن يكون قبل كل شىء أهلاً لأن يقول لى شيئاً ، يجب أن يكون له حق فى هذا ، يجب أن يكون هو نفسه رجلاً شريفاً ...

- أولاً : أنا لم أحضر بداية الحديث ، وأجهل عمّ كنتما تتكلمان .

ثم لماذا تقول ان فرسيلوف ليس شريفاً ؟ هلا أذنت لى بالقاء هذا السؤال !

- كفى كفى ، أرجوك . لقد طلبت منى بالأمس ثلاثمائة روبل .

فاليك هى !

قال ذلك ووضع المال على الطاولة ، وجلس فى مقعد ، وارتد مسنداً

ظهره اليه بحركة عصبية ، ووضع ساقا على ساق . فوقفت مضطرباً  
وتمتتم أقول :

- لا أدري . لقد طلبت منك هذا المبلغ فعلاً . . . . وأنا فى حاجة  
ماسة اليه حقاً . . . . ولكن ازاء هذه اللهجة التى تخاطبني بها ، فانى . . . .  
- دعك من اللهجة . وانى لآعترز اليك اذا كنت قد نطقت بكلام  
يجرح شعورك فانى ما أردت أن أسئ اليك . وأؤكد لك أن هناك  
هموما أخرى تملأ نفسى ! اسمع ، لقد تلقيت رسالة من موسكو . انك  
تعلم أن أخى ساشا قد مات وهو صبى منذ ثلاثة أيام . وتعلم أن أبى  
مصاب بشلل منذ سنتين . وقد كتبوا الىّ أن حالته ساءت حتى أصبح  
لا يستطيع أن ينطق بكلمة ، ولا يقدر أن يتعرف أحداً . وهم هناك  
مبتهجون منذ الآن ، بسبب الميراث ؛ ويريدون أن يذهبوا به الى خارج  
البلاد . ولكن الطيب كتب الىّ قائلاً ان أبى لن يبقى حياً أكثر من  
أسبوعين آخرين . وهكذا سنبقى أنا وأمى وأختى . . . . فكأنتى سأكون  
وحيداً . بل هأنذا وحيد . . . . وذلك الميراث ، ذلك الميراث ، آه . . . .  
الآ ليته لم يجيء أبداً ! ولكن اليك ما كنت أريد أن أبلغك اياه : لقد  
وعدت بطرس أندريفتشس أن يناله من هذا الميراث ما لا يقل عن عشرين  
ألف روبل . . . . ولكن هل تصور أننا بسبب الاجراءات الرسمية لم  
نستطع بعد أن نحصل على هذا الميراث حتى الآن ؟ حتى اننى . . . أقصد . . .  
حتى اننا . . . أقصد حتى ان أبى لم يصبح هذا الميراث فى حوزته . ومع  
ذلك ما أضخم المبالغ التى أنفقتها فى هذه الأسابيع الثلاثة الأخيرة ! . . . .  
وما أشنع الربا الذى يأخذه هذا الوغد الدنىء ستييلكوف . . . . اننى  
أعطيك الآن آخر ما معى . . . .

- لا يا أمير ، اذا كان الأمر كذلك . . . .

- ليست هذه هى المسألة . أبداً . ان ستييلكوف سيجيئنى اليوم

بمال قطعاً ، وسيكون ما يجيئني به كافياً الآن . ولكن ما احقر هذا الرجل ! لقد توسلت اليه ضارِعاً أن يجد لي عشرة آلاف روبل ، فأستطيع أن أعطي آندره بتروفتش عشرة آلاف على الأقل . ان الوعد الذي بذلته بأن أترك له ثلث الميراث يعذبني تعذيباً شديداً . لقد قطعت على نفسي عهداً ، فينبغي أن أفي به . وأحلف لك أنني احترق رغبة في تحقيق التزاماتي . انها ثقيلة على نفسي ؛ ثقيلة جداً . ان هذه العلاقة ترهقني . . . . . انني لا أستطيع أن أرى آندره بتروفتش ، لأنني لا أستطيع أن أنظر اليه وجهاً لوجه . . . . . لماذا يستغل سوء حالتي هذه ؟

- كيف يستغل سوء حالتك يا أمير ؟

قلت له ذلك وأنا أقف أمامه مبهوراً . وأضفت :

- هل الملع أو غمز أو عرض أحيانا ؟

- أبداً . انني لأقدر له هذا . لكنني أنا الذي أعرض بنفسى . وما

أبرح ازداد تورطاً وارتباطاً . ما احقر ستيلكوف هذا !

- اسمع يا أمير ، هدىء نفسك ، أرجوك . أرى أنك كلما أمعت

في هذا السبيل اشتد اضطرابك ، وتفاقم عذابك . وقد لا يكون الأمر مع

ذلك الا سراياً . . . . آه . . . . أنا أيضاً تورطت تورطاً دنيئاً لا يفتخر . لكنني

أعرف أن هذا عارض طارئ . . . . سوف يكفيني أن أربح مبلغاً ثم . . . .

قل لي : ان دينك علىّ يصبح ألفين وخمسمائة وربلاً اذا أنا أخذت هذه

الثلاثمائة ، أليس كذلك ؟

- أظن أنني لا أطلبك بسداد هذا الدين .

قال الأمير ذلك وابتسم فجأة .

قلت :

- تقول انك ستعطي فرسيلوف عشرة آلاف روبل ، فاذا قبلت الآن

ما أخذته منك فيجب أن يدخل في حساب العشرين ألفاً التي ستخص



بها فرسيلوف • ولن أقبل أن يكون الأمر غير ذلك • ولكن ... • ولكنى سأرد اليك المبلغ بنفسى حتماً • هل تظن أن فرسيلوف يجرىء الينا من أجل هذا المال ؟

قال الأمير بلهجة تحمل معنى اللغز :

– ليت مجيئه للمال •

– تكلمت عن « علاقة ترهقك » ... فاذا كنت تعنى فرسيلوف وتعينى فهذا كلام جارح • وقلت أيضاً : لماذا لا يكون هو كما يريد من الناس أن يكونوا ؟ هذا هو منطقك ، فاسمح لى أن أقول لك ان هذا ليس بمنطق • هبه لا يلتزم بما يطلبه من غيره ، ان هذا لا يمنعه من الدعوة الى الحقيقة • ولماذا كلمة الدعوة أو التبشير هذه ؟ ثم انك تستعمل كلمة النبوءات ، فقل لى : هل أنت الذى وصفته فى ألمانيا بأنه « نبي للنساء » ؟

– لا ، لست أنا •

– ذكر لى ستيلكوف أنك قائل هذه الجملة ؟

– كذب • لست قادراً على خلع القاب فكهة • ولكن اذا أراد أحد أن يدعو الى الفضيلة أو أن يبشر بها ، فليكن فاضلاً هو نفسه : ذلك منطقي ... • ولا يهمنى كثيراً أن يكون هذا المنطق خطأ • أريد هذا ، وسيكون • فلا يجروُن أحد بعد على أن يجرىء الى ليحكم على وليعاملنى معاملة صبي صغير •

وهتف أخيراً يقول وهو يحرك يده باشارة تهيب بى أن لا أعقب على كلامه :

– كفى ! آه ... أخيراً •

وفتح الباب ودخل ستيلكوف •

لا يزال كما كان ، حسن الهندام ، ناهداً بصدره الى أمام ، محققاً بنظره تحديقاً أبله ، ظاناً نفسه أمكر من غيره ، راضياً عن ذاته أعظم الرضى . ولكنه حين دخل هذه المرة ألقى على الغرفة نظرة مستطلعة غريبة ، وكان فى نظرتة شىء من روية وتفرس ، فكأنه يحاول أن يحزر من رؤية وجهينا شيئاً من الأشياء . على أنه لم يلبث أن اطمأن بالآ ، وأضاءت شفقيه ابشامة غرور وقحة كنت أتأذى منها كثيراً .

ولقد كنت أعلم منذ مدة طويلة أنه يزعج الأمير كثيراً . وسبق أن جاء الى الأمير ، وأنا عنده ، مرة أو مرتين . وأنا أيضاً . . . كان لى معه شأن فى الشهر الأخير ، ولكننى فى هذه المرة استغربت زيارته بعض الاستغراب لسبب من الأسباب .

قال له الأمير حتى دون أن يحييه :

— حالاً .

وأدار لنا ظهره ، وأخرج من مكتبه أوراقاً وحسابات .

ولقد كنت من جهتى متأدياً من الكلمات الأخيرة التى قالها لى الأمير تأدياً شديداً . فان اشارته الى أن فرسيلوف رجل غير شريف، كانت تبلغ من شدة الوضوح ( وشدة ما تبعته فى النفس من الدهشة أيضاً ) أنه كان يستحيل أن أصرف النظر عنها ، وأن لا أطلب لها بايضاح . ولكن كان لا يمكن أن يخطر هذا بالبال أثناء وجود ستيلكوف .

وعدت أتمدد على الديوان ، وفتحت كتاباً كان أمامى ، فرأيتنى أقول  
للأمير بلهجة لعلها لا تخلو من سخريه :

- بيلنسكى ، الجزء الثانى ! ... هذا شىء جديد ! واضح أنك حتى التفت الىّ وقال لى بخشونة :

وكان الأمير منهمكاً فى تقليب أوراقه ، ولكنه ما ان سمع كلمتى التفت الىّ وقال لى بخشونة :

- دع هذا الكتاب وشأنه ، من فضلك !

فكانت جملة هذه تتجاوز الحدود المألوفة ، ولا سيما أمام ستيلكوف ! وبمصادفة تشبه العمد جعد ستيلكوف وجهه بحركة دنيئة ماكرة ، وغمزنى مشيراً الى الأمير خلسة • فاشحت وجهى عن هذا الرجل العجى • وقلت أخاطب الأمير :

- لا تزعل يا أمير ، فهأناذا أدعك للرجل الرئيسى ، وأنسحب •

كنت قد قررت أن لا أتحرج فى كلامى • فقال ستيلكوف جذلاً وهو يشير الى نفسه باصبعه :

- أنا الرجل الرئيسى ؟

- نعم أنت • أنت الرجل الرئيسى ، وانك لتعرف ذلك حق معرفته !

- لا ، اسمح لى • ان فى كل مكان على هذه الأرض رجلاً ثانياً • فأنا الرجل الثانى • الرجل الأول يفعل ، والرجل الثانى يأخذ • فبذلك يصبح الثانى أول ويصبح الأول ثانياً • أصحیح أم لا ؟

- جائز ، ولكننى لا أفهم عنك ، على عادتى •

- اسمح لى • لقد قامت فى فرنسا ثورة • وأعدم الناس بالمقصلة • ثم جاء نابوليون فأخذ كل شىء • فالثورة هى الأولى ، ونابليون هو الثانى •

ولكن نابليون أصبح هو الأول ، وأصبحت الثورة هي الثانية • أصحيح أم لا ؟

يجب أن أذكر عابراً أنني حين أخذ يتكلم عن الثورة الفرنسية رأيت في كلامه ذلك المكر نفسه الذي لاحظته في المرة الأولى فأضحكني كثيراً • انه ما يزال ينظر الى نظرتي الى نظرتي الى رجل ثوري ، فكلمنا لقيني رأى من واجبه أن يقذف بعبارات من هذا النوع •

قال الأمير :

— هيا بنا !

وانسلنا كلاهما الى غرفة أخرى • حتى اذا خلوت الى نفسي اتخذت قراراً قاطعاً بأن أرد اليه الثلاثمائة روبل متى انصرف ستيلاكوف • لقد كنت في حاجة الى هذا المال ؟ ولكنني عزمتم أمري واتخذت قرارى •

لثنا عشر دقائق لا يُسمع لهما صوت ، ثم اذا هما يتكلمان بصوت عال على حين فجأة • أصبحا يتكلمان كلاهما في آن واحد ، ويقاطع أحدهما الآخر ، ولكن الأمير لم يلبث أن أخذ يصرخ ، فلو سمعته لقلت انه غاضب غضباً يبلغ درجة الخنق الشديد • وكان يندفع في بعض الأحيان اندفاعاً قوياً • لذلك غفرت له أشياء كثيرة • ولكن خادماً دخل في تلك اللحظة نفسها ، فدلتته على الغرفة التي فيها الأمير ، فما ان دخل عليهما حتى هدأ كل شيء في الغرفة دفعة واحدة • وسرعان ما خرج الأمير مهموم الهيئة ولكنه مبتسم • ورجع الخادم راکضاً ، فما انقضت دقيقتان حتى دخل زائر •

انه رجل مهيب الطلعة ، تزدان بزته بالأوسمة ، ويحمل صدره رقماً امبراطورياً ، ولا يزيد عمره على ثلاثين عاماً في أكثر تقدير ، وهو من أبناء المجتمع الراقى ، تعبر هيئته عن صرامة وقسوة • يجب أن أنه القارىء الى أن سرجى بتروفتش كان لا يتسمى حقاً الى المجتمع

البترسبرجى العالى ، رغم شوقه المحرق الى ذلك ، ورغبته المحمومة فيه ( كنت أعرف فيه هذه الرغبة ) ، فلا بد أن يقدر مثل هذه الزيارة قدراً عظيماً وأن يعدها شرفاً كبيراً . ولقد تم التعارف بين الرجلين منذ مدة قصيرة بعد جهود كبيرة بذلها الأمير ، ( كنت أعرف ذلك ) ، والزائر انما يرد الآن للأمير زيارة سابقة ، ولكن شاء سوء الحظ أن يجيئه مباحثاً . فرأيت ما زخرت به سحنة الأمير من ألم ، وما كان في نظرتيه من زيغ حين التفت لحظة الى ستيلكوف . ولكن ستيلكوف احتمل هذه النظرة كأن شيئاً لم يكن ، ولم يخطر بباله أبداً أن ينصرف ، بل جلس على الديوان طلق الحركة منبسط الأسارير ، وأخذ ينكش شعره بيده اظهاراً لاستقلاله في أغلب الظن . حتى لقد اصطنع الوقار والمهابة . الخلاصة أنه كان لا يطاق ! أما أنا فكنت في ذلك الأوان قد تعلمت حسن التصرف وكياسة السلوك ، فما كان لأحد أن يحمر خجلاً من وجودى . ولكن ما كان أشد دهشتى حين لمحت في الأمير تلك النظرة نفسها ، النظرة الزائغة الغاضبة المسكينة الكارهة ، فأدركت أنه خجل من وجودنا كلينا ، وأنه لا يفرق بينى وبين ستيلكوف من هذه الناحية ! فأحنقتنى هذه الفكرة . فرأيت نفسى استرخى على المقعد استرخاء أدعى الى الراحة ، وأخذت أقلب الكتاب غير مكترث ، كشخص لا يعنيه شيء البتة . ولا كذلك ستيلكوف ، فقد حملق عينيه ، ومال الى أمام ، وأصاخ بسمعه الى الحديث ، ولعله كان يظن أن هذا من الأدب والالطف والكياسة والتودد . فألقى عليه الزائر نظرة أو نظرتين . وكذلك فعل لى على كل حال .

أخذ الأمير والزائر يتناقلان أنباء عائلية . كان الزائر قد عرف أم الأمير التى هى سليلة أسرة كريمة المحدث مشهورة . واذا صح ما أدركته فقد كان الزائر ، رغم ما فى سكونه من بساطة ولطافة ، كان يشعر بامتلاء ، ويحس<sup>2</sup> بأنه يبلغ من رفعة القدر أن زيارة منه لا بد أن تكون شرفاً عظيماً لمن يحظى بها . ويقينى أن الأمير ، لو خلا الرجلان أحدهما

الى الآخر ، لبدا عليه وقار أكبر وحذق أعظم ، غير أن شيئاً من الاختلاج  
فى ابتسامته التى لعلها كانت مفرطة فى التودد ، وشيئاً من الذهول الغريب ،  
كانا يفضحان ما هو فيه من حرج وضيق .

وما ان انقضت خمس دقائق حتى أُعلن عن وصول زائر آخر  
شاعت المصادفة التى تشبه العمد أن يكون حضوره محرراً للأمر مسيئاً  
الى سمعته . اننى أعرف هذا الزائر : سمعت عنه كثيراً وان لم يعرفنى  
هو يوماً . انه شاب فى غضارة الشباب ، وان يكن فى الثالثة والعشرين  
من العمر ، يرتدى أجمل الثياب ، ويتمى الى أسرة كريمة ، ويتمتع  
بوسامة حلوة ، ولكن لا شك أنه لا يختلف الى المجتمع الراقى . ولقد  
كان فى العام الماضى ما يزال يعمل فى فوج من أشهر أفواج فرسان  
الحرس ، ولكنه أُحيل على التقاعد ، وعلم جميع الناس بسبب حالته على  
التقاعد . حتى ان أهله أعلنوا فى الصحف أنهم غير مسئولين عن ديونه .  
ولكن هذا لم يمنعه من الاستمرار فى اللهو والقصف والمجون ، مقترضاً  
بفائدة تبلغ عشرة فى المائة على الأقل ، مقامراً بمبالغ ضخمة فى مجتمعات  
القمار ، مدمراً نفسه فى سبيل « فرنسية » شهيرة . ولقد ربح منذ أسبوع  
فقط ، فى سهرة واحدة ، قرابة اثنى عشر ألف روبل ؛ فحقق بذلك  
نصراً . وهو على علاقة طيبة بالأمير ، حتى لقد كانا يقامران بمبالغ  
مشتركة فى كثير من الأحيان .

ارتعش الأمير حين رآه . لاحظت ذلك وأنا جالس فى مكاني . وكان  
هذا الفتى يشعر أنه فى بيته حيث كان ، ويتكلم بصوت عال دون أى  
تخرج أمام أى انسان ، ويقول كل ما يخطر بباله مرحاً فرحاً . وما  
كان له أن يلاحظ طبعاً ان الأمير يرتجف خجلاً من صحبته أمام زائره  
العظيم .

وسرعان ما بادر ية اطعهما متحدثاً عن لعب الليلة البارحة حتى قبل أن  
يجلس . قال مخاطباً الضيف الكبير وهو يحسبه واحداً من الصحب :

- أظن أنك كنت حاضراً بالأمس .

ولكنه بعد أن أنعم النظر فيه استدرك يقول هاتفاً :

- آآآآ معذرة . . . . ظننتك واحداً من العصبة !

فبادر الأمير يعرف الرجلين أحدهما بالآخر :

- ألكسى فلاديميروفتش دارزان ! هيبوليت ألكسندروفتش

ناشتشوكين !

وكان الفتى رغم كل شيء حسن الهيئة ، وكان اسمه طيباً ومعروفاً .  
غير أن الأمير لم يقدمه إلينا ، أنا وستيلكوف ، فلبثنا في ركنينا . وأبيت  
أنا إباء قاطعاً أن ألفت وجهي نحو الجمع . ولكن ستيلكوف ابتسم ابتسامة  
صغيرة فرحة ، وهمّ أن يفتح فاه متكلماً . وأخذ هذا كله يسلينى .

قال دارزان :

- كنت في العام الماضى ألقاك كثيراً عند الأميرة فيريجينيا . فأجاب

ناشتشوكين بظرف :

- أذكر هذا . ولكنك كنت فى ذلك الوقت ترتدى بزة عسكرية

فيما أظن .

- نعم ، كنت أرتدى بزة عسكرية ، ولكن بسبب . . . . هه ! هذا

ستيلكوف ! ما المصادفة التى جاءت بك الى هنا ؟ . . . . نعم . . . . بسبب  
أمثال هؤلاء السادة أصبحت لا أرتدى البزة العسكرية .

قال ذلك وهو يشير الى ستيلكوف صراحة ، وانفجر ضاحكاً . وعد  
ستيلكوف هذه العبارة تودداً لطيفاً ، ففرح بها وضحك هو أيضاً . واحمر  
الأمير خجلاً ؟ وأسرع يلقى على ناشتشوكين سؤالاً ما ؟ بينا اقترب  
دارزان من ستيلكوف وانخرط معه فى حديث حار ، ولكن بصوت خافت .

سأل الزائر الأمير :

- لا بد أنك عرفت في الخارج كاترين نيقولايفنا آخماكوفا ؟

- آ . . . طبعاً . . . كانت معرفتي بها حسنة جداً .

- أظن أن نبأ سيداع هنا في القريب . يقال انها ستزوج البارون

بيورنج فصاح دارزان يقول :

- هذا صحيح !

فقال الأمير يسأل ناشتسوكين باضطراب واضح ونبرة خاصة :

- أنت تعلم هذا . . . علم اليقين ؟

- بل ذكر لي . وأظن أن الناس قد بدت تتحدث فيه منذ الآن .

لكنني لا أعلمه علم اليقين .

قال دارزان وهو يدنو منهما :

- النبأ صحيح ، أكدته لي دوياسوف أمس ، و دوياسوف أول من يعلم

أمثال هذ الأخبار . ولا بد أن الأمير يعرف على كل حال . . .

انتظر ناشتسوكين أن يفرغ دارزان من كلامه ، ثم التفت الى الأمير

من جديد يقول له :

- أصبحت لا تختلف الى المجتمع الا نادراً .

فقال الأمير بلهجة جافة :

- كان أبوها مريضاً في الشهر الماضي .

فاذا بدرارزان يقول فجأة :

- هذه آتسة لها مغامرات !

فرفعت رأسى ونصبت جذعي ، وقلت :



- يسرنى أنتى أعرف كاترين نيقولايفنا معرفة شخصية ، وأظن أن من واجبي أن أؤكد لكم أن تلك الشائعات جميعها ليست الا أكاذيب دنيئة ... اختلقها أولئك الذين حاموا حولها ثم لم يظفروا بطائل ...

وصمت بعد هذه المقاطعة الحمقاء ، وظللت أنظر الى الحضور منتهب الوجه قائم الجذع . فالتفت الجميع الىّ ، ولكن ستيلكوف لم يلبث أن ضحك ساخراً . ودهش دارزان فابتسم أيضاً .

وقال الأمير مشيراً الىّ ، معرقاً بى دارزان :

- آر كادى ماكاروفتش دولجوروكى !

فقال دارزان وهو يلتفت الىّ صريح الهيئة باش الوجه :

- صدقنى يا أمير : لست أنا من يتحدث فى الأمر . ثمة شائعات ،

ولست أنا من يذيعها وينشرها .

فأجبتة قائلاً بسرعة :

- لست أتهمك .

ولكن ستيلكوف كان قد انفجر يضحك كما لا يليق بأحد أن يضحك ، لأن دارزان نادانى بقوله « يا أمير » . هذا « مقلب » آخر يدبره لى هذا الاسم المشؤم ! ومازلت الى الآن أحمر خجلاً حين أتذكر أنتى لم أستطع - بسبب ذلك الحجل الزائف طبعاً - أن أصحح ذلك الخطأ فوراً وأن أعلن أنتى لست الأمير دولجوروكى ، بل دولجوروكى فحسب . تلك أول مرة يحدث لى فيها هذا . وكان دارزان ينقل بصره مدهوشاً بين ستيلكوف ضاحكاً وبينى مبهوتاً .

ثم اتجه الى الأمير يسأله فجأة :

- ها ... نعم ... من تلك المرأة الجميلة التى رأيتها الآن على

سلم بيتك لطيفة نضرة ؟

فأسرع الأمير يجيبه وقد احمر وجهه :

- لا أدري !

فقال دارزان ضاحكاً :

- فمن يدري اذن ؟

فتتمم الأمير يقول :

- مع ذلك .. من الجائز .. من الجائز أن ..

فقال ستيلكوف وهو يشير الى :

- نعم نعم ... هي اخته • أنا أيضاً رأيتها منذ مدة قصيرة •

فقال الأمير مؤيداً ، ولكن بهيئة وقورة جادة في هذه المرة :

- ها ... نعم ! لا بد أنها اليزابت ماكاروفنا ، صديقة آنا تيودوروفنا

ستولبايفا التي أسكن الآن في بيتها • لا بد أنها زارت اليوم داريا أو نيسيموفنا

التي عهدت اليها آنا تيودوروفنا بالبيت حين سافرت •

وكان كلام الأمير صحيحاً • ان داريا أو نيسيموفنا هي أم تلك الفتاة

المسكينة التي سبق أن تكلمت عن انتحارها • لقد كفلتها تاتيانا بافلوفنا في

أول الأمر ثم جاءت بها الى ستولبايفا • وكنت أعلم أن ليزا تجيء الى

ستولبايفا ، وأنها كانت ترى أحياناً داريا أو نيسيموفنا التي أصبح جميع أهل

بيتنا يعطفون عليها ويحبونها • ولكنني في تلك اللحظة ، بعد ذلك الكلام

الدقيق الذي قاله الأمير ، وبعد تلك الفورة السخيفة من ستيلكوف ، وربما

أيضاً لأنني سميت أميراً ، شعرت باضطراب قوى ، واحمر وجهي احمراراً

شديداً • ومن حسن الحظ أن ناشتسوكين نهض في تلك اللحظة نفسها

مودعاً ، ومد يده الى دارزان أيضاً • فلما لم يبق معنا الا ستيلكوف ، أوماً

ستيلكوف الى دارزان الذي كان في العتبة مديراً لنا ظهره ، فلوحت

لستيلكوف بقبضة يدي •

وما أن تقضت دقيقة حتى انصرف دارزان هو أيضاً ، بعد أن اتفق على موعد مع الأمير غداة غد ، في بيت من بيوت القمار طبعاً . وأثناء خروجه هتف يقول شيئاً لستييلكوف ، وانحنى لى انحناء خفيفاً أيضاً .  
فما ان انصرف حتى وثب ستييلكوف من مكانه ، وتسمر في وسط الغرفة رافعاً اصبعه في الهواء ، وقال :

- ان هذا السيد الصغير قد اقترف في الأسبوع الماضي ما يلي : ووقع على سند توقيعاً مزيفاً باسم آفريانوف . ورُفض السند ، فما يزال موجوداً : جريمة يلاحق مرتكبها من قبل الحق العام . ثمانية آلاف روبل !

فسألته وأنا أرشقه بنظرة كاسرة :

- وهل السند عندك أنت ؟

- أنا عندي مصرف ؟ عندي « بنك اقراض » ، لا سند . انك تعرف ما « بنك اقراض » بباريس ! هو خبز وسعادة للفقراء . فأنا عندي « بنك اقراض » خاص بي . . . .

فلما رجع الأمير ، أوقفه عن الكلام بقسوة ، وقال له بلهجة عنيفة :

- ما عملك هنا ؟ لماذا بقيت ؟

فقال له ستييلكوف وهو يطرف عينيه :

- ماذا ؟ والمسألة ؟

فصرخ الأمير قائلاً وهو يضرب بقدميه الأرض :

- كلا ثم كلا ثم كلا ! قلت لك . . . .

- طيب . . . . اذا كان الأمر كذلك ، فليكن كذلك . . . ولكن الأمر

لن يكون كذلك . . . .

قال ستييلكوف هذا ، ثم استدار وخرج بحركة عنيفة ، خافضاً رأسه ، حائياً ظهره . وصرخ الأمير يقول له في العتبة :

– واعلم أنني لست خائفاً منك يا سيد !

كان الأمير مستعر الغضب والحق • وأراد أن يجلس ، لكنه رأى قلم يفعل • وكانت نظرتة كأنها تقول : « وما بقاؤك أنت ؟ » • فبدأت أتكلم فقلت له :

– يا أمير •••

لكنه قاطعني قائلاً :

– لا وقت عندي يا آر كادي ماكاروفتش ! حقاً لا وقت عندي ! يجب على أن أخرج •

– لحظة قصيرة يا أمير • أمر هام جداً • اليك أولاً الثلاثمائة روبل •  
– ما معنى هذا ؟

لقد كان يمشى فتوقف • قلت :

– بعد الذي حدث ••• وبعد الذي قلته عن فرسيلوف من أنه رجل غير شريف ••• ثم بعد لهجتك هذه في الكلام طول الوقت ••• بعد هذا كله ، لا يمكنني أن أقبل أخذ هذا المال •

– ومع ذلك ظللت تقبل طوال شهر كامل •

وجلس فجأة • وكنت واقفاً أمام الطاولة أفرك كتاب بينسكى باحدى يدي ، وأمسك قبعتي بالأخرى • قلت :

– كانت العواطف غير العواطف يا أمير ••• وما كان لي أن أصل الى ذلك المبلغ الضخم لولا القمار على كل حال • المهم أنني لا أستطيع اليوم أن أقبل •••

– أنت غاضب لأنك لم تستطع أن تجتلي في أي أمر من الأمور • هلا أرحت هذا الكتاب ، من فضلك !

- ماذا تعنى بقولك اننى لم « أستطع أن أجتلى فى أى أمر من الأمور » ؟ ثم انك ، بحضور ضيوفك ، قد عاملتني كماعاملتك ستيلكوف وجعلتني فى مثل منزلته •

فقال وهو يضحك ضحكة لاسعة :

- ذلك هو السر • وعدا هذا فقد اضطربت حين سميت أميراً •  
كانت ضحكته شريرة • فانفجرت أقول :

- لست أفهم ••••• ثق أن لقب الأمير هذا الذى تفخر به أنت ،  
لا أرضى أنا أن أشيله من الأرض •••••

- أعرف طبعك • لشدما صحت صياحاً مضحكاً لتدافع عن  
آخماكوف ••••• اترك هذا الكتاب !

فهتفت أقول :

- ما معنى كلامك ؟

فاذا هو ينتصب على مقعده غاضباً كأنه يهم أن يشب • ويزار قائلاً :

- اترك الكتاب !

فقلت وأنا أسارع الى الخروج من الغرفة :

- ذلك ما يتجاوز أخيراً جميع الحدود •

ولكن ما كدت أتجاوز الصالون حتى سمعته يناديني من مكتبه :

- ارجع يا أركادى ماكاروفتش ! تعال ! تعال ! ••••• تعال ••••• حالا !

فلم استمع له ، وانصرفت • لكنه لحق بى راكضاً ، حتى اذا أدركنى  
أمسك ذراعى وجرّنى الى مكتبه ، فلم أقاوم •

قال لى وقد شحب لونه من شدة الانفعال ، ومدّ الى الثلاثمائة روبل  
التي تركتها:

- خذها ! خذها ! أصر على هذا •• والا فأتنا •• خذها •• أصر على هذا !

- ولكن كيف يمكنني أن آخذ يا أمير ؟

- أنا مستعد لأن اعتذر اليك اذا شئت • هأنذا اعتذر • معذرة •

- يا أمير ، أنا قد أحبيتك دائماً ، فاذا كنت ، أنت أيضاً •••

- أنا أيضاً ••• خذها !

فأخذتها • وكانت شفاته ترتجفان •

- اننى أفهمك يا أمير • انك غاضب من ذلك الوغد ••• ولكننى لن

أقبل أن آخذ المال رغم كل شيء الا اذا تعاقنا ، كما كنا نفعل بعد مشاجراتنا

السابقة •

و كنت ارتجف أيضاً وأنا أقول هذا الكلام •

فقال الأمير وهو يتسّم خجلاً :

- يا للمواطف الرقيقة !

لكنه مال علىّ وقبلنى • فسرت رعدة فى جسمى : ذلك اننى حين

قبلنى رأيت فى وجهه اشمئزازاً واضحاً •

- هل جاءك بالمال على الأقل ؟

- لا قيمة لهذا !

- من أجلك انما •••

- جاء بالمال ، جاء به •••

- يا أمير ، لقد كنا أصدقاء •• وأخيراً •• ان فرسيلوف •••

- طيب ••• طيب •••

- ما زلت لا أدري حقاً هل هذه الثلاثمائة روبل ••• وكان المبلغ

بيدي • فقال :

- خذها ! خذها !

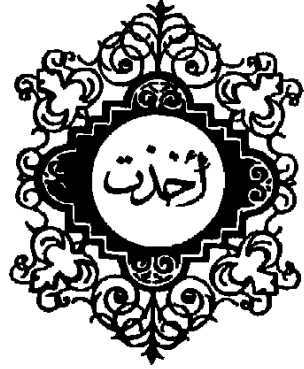
وعاد يضحك من جديد ، لكن ضحكته كانت تشتمل على شر

وسوء •

• أخذت المال

## الفصل الثالث

١



المال منه لأنني كنت أحبه • ولمن لا يصدقني  
سأقول انني في اللحظة التي أخذت فيها المال  
كنت مقتنعاً اقتناعاً جازماً بأن في وسعي أن  
أحصل على المال من مصدر آخر لو شئت • ومعنى  
هذا أنني لم آخذه عن حاجة ، بل أخذته على سبيل الكياسة حتى لا أخرج  
شعور الأمير • كذلك كنت أفكر في ذلك الحين والأسفاه ! على انني حين  
تركت الأمير كنت أحس بضيق وانزعاج رغم كل شيء • لقد أحسست  
بتبدل ضخم في سلوكه معي ذلك الصباح • انه لم يسبق ان استعمل في  
مخاطبتي لهجة كتلك اللهجة يوماً • أما على فرسيلوف فقد كانت نورته  
صريحة معلنة • لا شك أن ستيلكوف كان قد عكر مزاجه • ولكن تبدل  
سلوكه قد بدأ قبل ذلك • أعود فأقول : ان هذا التبدل كان يلاحظ منذ  
الأيام السابقة ، ولكنه لم يكن قوياً هذه القوة ، لم يكن قد بلغ هذه  
الدرجة •

ولعل من العوامل التي كان لها تأثيرها أيضاً ، ذلك النبأ الأحمق



الذى يتعلق بالبارون بيورنج ، مرافق صاحب الجلالة • ولقد انصرفت مضطرباً أنا أيضاً ••• ولكن شعاعاً آخر كان يلوح أمام عيني حينذاك ، فكنت أفوت كثيراً من الأمور لا أوليها انتباهاً ، وكنت أتعجل انقضاءها ، أطرد كل ما هو مظلم ، ولا ألتفت الا الى كل ما هو مضيء لامع ساطع ••

ان الساعة لم تبلغ الواحدة بعد • ومن عند الأمير ذهبت مع سائق عربتي ماتفتى رأساً الى عند ستيلكوف ، سواء أصدقتموني أم لم تصدقوني • لم تفاجئنى زيارته للأمير ( وكان قد وعده بأن يجيئ اليه ) بقدر ما فاجأتنى غمزات أرسلها اليّ ، على عادته القبيحة ، ولم تتناول ما كنت أتوقع أن تتاوله • كان ستيلكوف قد بعث اليّ بالبريد ، فى مساء أمس ، رسالة ملغزة يتوسل اليّ فيها أن أزوره اليوم بين الساعة الواحدة والساعة الثانية ، قائلاً : « ان هناك أشياء غير متوقعة يريد أن يبلغنى اياها » • ولم يشر الى هذه الرسالة بكلمة واحدة حين كنا عند الأمير • ما عسى يكون بينى وبين ستيلكوف من أسرار ؟ ان الفكرة وحدها سخيفة مضحكة • ومع ذلك فانتى ، بعد كل ما جرى ، كنت أشعر بشيء من الارتجاف وأنا ذاهب اليه • صحيح أنتى اتجهت اليه مرة ، منذ خمسة عشر يوماً ، لاقتراض بعض المال ، وقد عرض علىّ أن يقرضنى ، ولكننا لم نصل الى اتفاق ورفضت العرض : لقد جمجم عندئذ بكلمات غامضة على عادته ، وبدأ لى أنه يريد أن يفرض علىّ شروطاً خاصة • واذ أنتى أعامله باستعلاء كلما التقينا عند الأمير ، فقد رفضت فكرة فرض شروط خاصة ، رفضتها باباء وشمم • وخرجت رغم أنه ركض ورائى الى الباب يحاول صدى عن الخروج • واقترضت المال يومئذ من الأمير •

ان ستيلكوف يسكن مستقلاً ، ويعيش حياة باذخة : منزل يتألف من اربع غرف واسعة ، جميلة الأثاث : مع خادمين ، رجل وامرأة : ومع مديرة للبيت متقدمة فى السن •

دخلت غاضباً • وبدأت أتكلم منذ أن اجتزت الباب ، فقلت :

- اسمع يا عزيزي ، قل لي أولاً : ما هذه الرسالة التي بعثتها الي ؟  
انتي أرفض أن يكون بيننا مكاتبة • ولماذا لم تقل ما تريد قوله ، حين كنا  
منذ قليل عند الأمير ؟ كنت بين يديك !

- وأنت ، لماذا لم تتكلم حينئذ أيضاً ؟ لماذا لم تسألني عن شيء ؟

قال ذلك وفتح فاه باهتسامة تعبر عن رضاً كامل • فصرخت أقول  
غاضباً :

- الجواب بكل بساطة هو أن المحتاج منا الي الآخر هو أنت لا أنا •  
- فلماذا تجيء اليّ اذن ؟

وكاد يقفز من شدة سروره • فسرعان ما استدردت أريد أن أنصرف ،  
ولكنه أمسك كفتي وقال :

- لا ، لا ، كنت أمزح • ان الأمر جد • ستري •

فجلست • أعترف بأن الفضول قد انتصر • جلسنا متقابلين عند طرف  
مكتب كبير • ورأيتني يتبسم ابتسامة رقيقة ، ويرفع اصبعه ، نهتفت أقول  
له غاضباً من جديد :

- أرجوك ، لا رقة ولا اصبع ! ولا رموز بخاصة ! هلمّ الي الوقائع  
رأساً ، والا انصرفت فوراً •

فقال عابئاً عتياً غيباً وهو يترجج على كرسيه ويرفع جميع عضون  
جبينه :

- انك ... متكبر •

- بالتكبر تجب معاملتك !

- أخذتَ اليومَ ... مالاَ من الأمير : ثلاثمائة روبل • وأنا أملك مالاَ • ومالي خير من ماله •

- من أين عرفتَ أنني قبلتَ ؟ أهو الذي قال لك ؟  
وشدتها شديداً قوياً •

- هو قال لي • ولكن هدىء نفسك • لم يقل لي ذلك الا عرضاً •  
لم يقله متعمداً • ولكنه قال لي • وكان في امكانك مع ذلك أن لا تقبل •  
أهذا صحيح أم لا ؟

- ولكنني ، فيما سمعت عنك ، تسليخ جلود الناس سليخاً بما تأخذه  
من ربا ؟

- ان لي « بنك تسليف » • فلا أسليخ جلد أحد ، ولا أقرض الا  
الأصدقاء • أما غير الأصدقاء فيمكنهم أن يقترضوا من « بنك تسليف  
المحتاجين » •

ان « بنك التسليف » هذا الذي يشير اليه ستيلكوف مصرف يقرض  
مبالغ من المال على رهون ، ومقره في مسكن آخر ، وكانت أحواله  
مزدهرة •

وأردف ستيلكوف يقول :

- وللأصدقاء أعطى مبالغ ضخمة •

- هل الأمير واحد من هؤلاء الأصدقاء ؟

- هو واحد منهم • لكنه يقول علينا سخافات • يجب أن يتنبه  
ويحاذر !

- أهو بين يديك الى هذه الدرجة ؟ هل ديونك عليه ضخمة ؟

- عليه ؟ ... ضخمة !

- سيدفع لك • ان له ميراثاً •••

- هذا الميراث ليس له • وهو مدين لى بمال ، وبغير المال أيضاً !••  
الميراث لا يكفى • سأقرضك بغير فائدة •

قلت ضاحكاً :

- بصفتى صديقاً كذلك ؟ ما الذى جعلنى استحق هذه الصداقة ؟

- سوف تستحقها •

وتقدم نحوى بكل جسمه وهم أن يرفع اصبعه • فهتفت أقول له :

- ستيلكوف ! لا اصبع ! والا انصرفت •

فقال وهو يغمز غمزة مأكرة :

- اسمع ••• قد يتزوج آنا أندريفنا !

- اسمع يا ستيلكوف ، ان حديثك يتخذ طابع الفضيحة ••• كيف

تجرؤ أن تجيء على ذكر اسم آنا أندريفنا ؟

- لا تغضب !

- ابنى أجبر نفسى على الاستماع اليك ، لأننى أرى أن ثمة مكيدة

تدبر ، فأريد أن أعرف كل شيء ••• ولكن نفذ صبرى يا ستيلكوف !

- لا تغضب • دعك من التكبر • دع التكبر لحظة قصيرة ثم تعود

اليه متى شئت • أنت تعرف آنا أندريفنا ؟ وتعرف أن الأمير قد يتزوجها ؟

- سمعت عن مثل هذا المشروع طبعاً • أعرف كل شيء • ولكننى

لم أكلم الأمير فى هذا الموضوع يوماً ، وان كنت أعرف أن الفكرة انما

هى فكرة الأمير سوكولسكى العجوز الذى هو الآن مريض • وأنا لا يد

لى فى هذه القصة كلها ، ولم أشارك فيها أية مشاركة • والآن أريد أن

ألقي عليك سؤالين : أولاً - لماذا تكلمنى فى هذا الموضوع ؟ ثانياً - هل كاشفك به أنت ؟

- ليس هو الذى يكلمنى فى هذا الأمر • هو لا يريد أن يكلمنى فيه ، ولكننى أكلمه فيه أنا ، فلا يريد أن يصغى الى • وقد أخذ يصرخ صراخاً قوياً حين كنا عنده منذ قليل •

- اننى أفهمه ! واننى أؤيده !

- ان الأمير سوكولسكى ، العجوز ، سيعطى آنا آندريفنا مهراً كبيراً ، فهى تعجبه • فاذا خطبها الأمير سوكولسكى الشاب استطاع أن يرد الى مالى • وسوف يرد الى الدين الآخر أيضاً • سيرده الى حتماً ! أما الآن فلا يستطيع ذلك •

- ولكن قل لى : ما شأنى أنا فى الأمر ، وما النفع الذى ترجوه منى ؟

- تستطيع أن تنفغنى فى أمر أساسى • انك على صلة بهم • وأنت معروف فى كل جهة • فتستطيع أن تطلع على كل شىء •

- وما الذى يجب أن أطلع عليه ؟

- يجب أن تعرف : هل الأمير يريد ؟ هل آنا آندريفنا تريد ؟ هل الأمير العجوز يريد ؟ تستطيع أن تعرف الحقيقة •

فانتفضت مستاءً وقلت له :

- كيف تجرؤ أن تعرض على أن أكون لك جاسوساً ، وأن أكون لك جاسوساً فى سبيل مال أيضاً ؟

- لا تتكبر ! لا تتكبر ! دع التكبر مدة قصيرة أخرى ، خمس دقائق لا أكثر !

وأجلسنى • وكان واضحاً أنه لا يهاب لا اشارات يدي ، ولا صيحات صوتى • وقررت أن أصغى اليه حتى النهاية •

- وانما يجب علىّ أن أعرف بسرعة ، أن أعرف بسرعة ، فقد يفوت الأوان بعد حين ! لقد لاحظت كيف بلمع الأمير المسألة حين تكلم الضابط عن البارون والسيدة آخماكوفا ، أثناء وجودنا عندد منذ قليل ، ألم تلاحظ ؟

شعرت بخجل من نفسى لأننى أصغى الى كلامه ، وأحسست أننى أخفض قدرى بالحديث معه ، ولكن فضولى كان قد ثار فلا سبيل الى مغالته •

قلت بلهجة قاطعة :

- اسمع ! أنت ••• أنت وغد • واذا كنت أبقى هنا ، وأصغى الى كلامك ، وأسمع لك بأن تتكلم عن هؤلاء الأشخاص ••• وحتى اذا كنت أجيبك ، فليس معنى ذلك أبداً أننى أعترف لك بهذا الحق • كل ما هنالك أننى أرى أن ثمة مكيدة تدبر • ما عسى أن يكون أمل الأمل فيما يتعلق بكاترين نيقولايفنا ؟

- ليس له أى أمل • غير أنه ساخط •

- هذا خطأ •

- انه ساخط • فيما يتعلق بأخماكوفا ، انتهى الأمر • بقى مخرج واحد : آنا آندريفنا • سأعطيك ألفى روبل ، بلا فوائد ولا سند •

قال ذلك وارتد الى ظهر مقعده ، وحملق ناظراً الىّ • وحملت أنا أيضاً •

- انك ترتدى بدلة مشتراه من شارع « ميلبونايا الكبير » • فأنت

في حاجة الى مال ، في حاجة الى مال • ومالى خير من ماله • سأدفع أكثر  
من ألفى روبل •••

- ولكن لماذا؟ لماذا؟ لست أفهم!

وضربت الأرض بقدمى غاضباً ، فمال على وقال بلهجة معبرة :

- حتى لا تعرقك وتمنع!

فصرخت أقول :

- ولكننى أقول :

- ولكننى لا أتدخل!

- أعرف أنك تصمت • وهذا حسن •

- لست فى حاجة الى استحسانك • وهبنى تمنيت لهذا الزواج أن  
يتم ، فسأظل لا أتدخل ، لأننى أرى أن لا شأن لى فى الأمر وأن تدخل  
لا يليق!

- صحيح ، صحيح ، لا يليق!

ورفع اصبعه • ثم أردف يقول :

- نعم ، لا يليق!

وانفجر ضاحكاً • ثم تابع كلامه فقال :

- أفهم ، أفهم ! لا يليق بك أن تتدخل ! ولكنك لن تصنع حواجز ،  
أليس كذلك ؟

وغمز بعينه ، لكننى رأيت فى غمزته وقاحة فظيعة ، بل رأيت فيها  
سخرية واستهزاء ، وحطة وخسة • لقد افترض وجود دناءة فى نفسى ،  
وكان يعوّل على هذه الدنائة • ذلك واضح • لكننى لم أدرك بعد ما الذى  
كان يريد أن يصل اليه •

وهذا هو يقول :

- ان آنا آندريفنا هي أيضاً أختك •
- أمتك من الكلام عنها • وليس من حقت أن تتكلم عنها •
- لا تتكبر • اصبر علىّ دقيقة أخرى • اسمعني : سوف يقبض  
ملا • فيكفلنا « جميعاً » • هل تتابع كلامي ؟
- وقد شدد على قوله « جميعاً » • قلت :
- أظن اذن انني سأقبل ناله ؟
- ألسنت تقبله الآن ؟
- الآن آخذ النصيب الذي يخصني •
- النصيب الذي يخصك ؟

- النصيب الذي يخصني من مال فرسيلوف : انه مدين لفرسيلوف  
بعشرين ألف روبل •

- هو مدين لفرسيلوف ، لا لك أنت •

- فرسيلوف أبي •

- لا • أنت أسمك دولجوروكي ، وليس فرسيلوف • على أن  
النتيجة واحدة • والحق أنني فكرت هذا التفكير • كنت أعلم أن لهذا  
شأنًا هاماً جداً • فلم أكن غيباً الى ذلك الحد • ولكنني أكرر لك أنني  
ما فكرت هذا التفكير الا « كياسة » •

صرخت أقول :

- كفي • انني لا أفهم شيئاً البتة • وكيف تجرؤ فتدعوني لثل هذه  
السخافات ؟

- هل يعقل أنك لم تفهم حقاً ؟ أتراك تتعمد عدم الفهم تعمداً ؟



كذلك قال ستييلكوف وهو يرشقى بنظرة نافذة تصحبها ابتسامة  
شك • فقلت أجه :

- أحلف لك اننى لا أفهم •

- أقول انه سيكفلنا جميعاً ، جميعاً ، جميعاً • وانما المهم أن لا تحول  
أنت دون اتمام الأمر •

- أرى أنك فقدت عقلك ! ما الذى تعنيه بقولك « جميعاً » • أترأه  
يكفل فرسيلوف مثلاً ؟

- لن يكفلك وحدك ، ولن يكفل فرسيلوف وحده ، بل سيكفل  
آخرين ••• ان أنا أندريفا اختك ، مثل « اليزابث ماكروفا » سواء  
بسواء •

نظرت اليه محملاً • فاذا أنا أرى فى نظرتة الدنيئة الى نوعاً من  
شفقة على • وقال :

- لا تفهم ؟ طيب ! هذا أحسن ! انه لحسن جداً أن لا تفهم • هذا  
أمر محمود ••• اذا صح أنك لا تفهم حقاً !

فبلغ حنقى ذروته ، فصرخت أقول وأنا أتناول قبعتى :

- شيطان يأخذك أنت وسخافاتك ! انك رجل مختل العقل •

- ما هذه سخافات ! وسوف ترجع •

فأجبتة قائلاً بلهجة قاطعة وقد صرت فى العتبة :

- لا •

- بل سوف ترجع ••• وسنقول عندئذ كلاماً آخر • سيدور بين

حديث هام • ألفا روبل • تذكر هذا ولا تنسه !

لقد أحدث فى نفسى أثراً يبلغ من الاضطراب والدناءة أننى حين خرجت من عنده حاولت أن لا أفكر فيه ، واقتصرت على أن بصقت ، اشمئزاً • وكنت كلما تصورت أن الأمير كلمه عنى وعن هذا المسال أحسست بما يشبه وخز الابر • وقلت أحدث نفسى : « سوف استرد خسارتى ، فارجع اليه أمواله فى هذا اليوم نفسه » •

وأصبحت أرى ستييلكوف الوغد رجلاً متألقاً ، رغم أن كل غبائه وتعقده ، لا سيما وأننى قدرت أن ثمة مكيدة تحاك حتماً • غير أن وقتى كان لا يتسع للاهتمام بالكشف عن مكائده ، وذلك هو السبب الرئيسى فى عماوتى الطارئة العابرة !

نظرت فى ساعتى قلقاً ، فرأيت أنها لم تبلغ الثانية • أستطيع اذن أن أقوم بزيارة ، والا لهلكت من فرط الانفعال الى أن تحين الساعة الثالثة • فذهبت الى آنا آندريفنا فرسيلوف ، أختى • كانت قد انعقدت الصلة بينى وبينها منذ مدة غير قصيرة عند الأمير العجوز أثناء مرضه • وكان شعورى بأننى لم أرها منذ ثلاثة أيام أو أربعة يعذب ضميرى • ولكن آنا آندريفنا هى التى ساعدتني : كان الأمير يحبها حباً عظيماً ، حتى لقد وصفها أمامى ذات يوم بأنها ملاكه الحارس • يجب أن أقول بالمناسبة : ان فكرة تزويجها الأمير سرجى بتروفتش انما نبئت فعلاً فى رأس صاحبي الأمير العجوز ، حتى لقد عبر لى عن هذا غير مرة ، فى السر طبعاً • وقد نقلت الخبر الى فرسيلوف لأننى كنت قد لاحظت أنه يهتم اهتماماً كبيراً بالأبناء التى أنقلها اليه عن لقاءاتى بآنا آندريفنا ، رغم أنه

قليل الاكترات بسائر الأخبار مهما تكن ذات شأن • وقد جمجم فرسيلوف عندئذ قائلاً ان آنا آندريفنا تملك من الذكاء ما يجعلها قادرة على الاستغناء عن نصائح الآخرين في أمر يبلغ هذا المبلغ من الدقة والخرج • ولقد كان ستيلكوف على حق حين افترض أن العجوز سيخص آنا آندريفنا بمهر ضخم ، ولكن كيف اجترأ أن يعوّل على شيء له هو ؟ ان الأمير الشاب قد صرخ يقول له انه لا يخافه : ولكن ألم يكن مدار حديثهما في مكتب الأمير على آنا آندريفنا في الواقع ؟ آه ••• اننى أتصور الحق الذى كان يمكن أن يستعر في نفسى لو كنت في مكانه •

ولقد كنت في الآونة الأخيرة أذهب الى آنا آندريفنا أحياناً كثيرة • ولكن كان يحدث دائماً شيء غريب : انها هى التى كانت تحدد لى موعداً في جميع المرات ، وكانت تنتظرني حتماً ، ولكن ما ان أدخل حتى تشعرني بأننى وصلت على غير توقع • لاحظت ذلك فيها ، ولكنه لم يضعف تعلقى بها • وكانت تقيم عند فاناريوتوفا ، جدتها ، كربية لها طبعاً ( كان فرسيلوف لا يدفع شيئاً لعولها ) ، ولكن دورها عندها يختلف كل الاختلاف عن الدور الذى يسند عادة الى ربيبات السيدات الكيرات ، كما نلاحظ ذلك مثلاً في قصة بوشكين « البنت البستونية » ، ربيبة الكوتيسة العجوز • لقد كانت آنا آندريفنا نوعاً من كوتيسة هى نفسها • كان لها في المنزل مسكنها الخاص ، المستقل كل الاستقلال ، رغم أنه يقع في نفس الطابق الذى تسكنه فاناريوتوفا ، وفي نفس الشقة ، ولكنه يتألف من غرفتين منفصلتين ، فلم أصادف أحداً من آل فاناريوتوفا في يوم من الأيام ، لا حين كنت أدخل ، ولا حين كنت أخرج • وكان من حقها أن تستقبل من تشاء ، وأن توزع وقتها التوزيع الذى تحب • ولكن يجب أن نذكر أنها كانت قد بلغت الثالثة والعشرين من عمرها • وقد انقطعت عن التردد الى المجتمع منذ السنة الماضية انقطاعاً يكاد أن يكون تاماً ، رغم أن فاناريوتوفا كانت لا ترضن بأية نفقة على حفيدتها التى كانت

تحبها كثيراً فيما سمعت • وكان يعجبني في أنا آندريفنا أنتى كنت ألقاها  
 فى ثياب بسيطة دائماً ، وأراها عاكفة على شغل أو على كتاب فى جمع  
 الأحيان • وكان فى هيتها تقشف يشبه أن يكون تقشف سكان الأديرة ،  
 فكان هذا يعجبني فيها أيضاً • وكانت قليلة الكلام ، وكانت تزن كلامها ،  
 وتعرف كيف تصغى الى كلام غيرها ، وذلك ما كنت أنا عاجزاً عنه •  
 وكان وجهها يتخضب بالحمرة قليلاً اذا قلت لها انها تذكرني كثيراً  
 بفرسيلوف رغم أنتى لا أرى بينهما أية سمة مشتركة • وكانت تحمر  
 فى كثير من الأحيان ، وكانت تحمر احمراراً سريعاً ، ولكن الحمرة التى  
 تخضب وجهها حمرة ضئيلة دائماً ، فكانت هذه الصفة من صفات وجهها  
 تعجبني كثيراً • وكنت عندها لا أسمى فرسيلوف باسمه أبداً ، وانما  
 اسميه آندره بتروفتش ، وكان هذا يبدو طبيعياً فهو يتم من تلقاء نفسه  
 بدون تكلف • حتى لقد لاحظت أن آل فاناريوتوف عامة يشعرون بخجل  
 وعار من فرسيلوف • لاحظت هذا خاصة على أنا آندريفنا ، وإن كنت  
 لا أستطيع أن أقول هل كلمة « الحجل » أو « العار » هى الكلمة المناسبة •  
 ولكن كان ثمة شىء من هذا القيل • وكنت أكملها أيضاً عن الأمير سرجى  
 بتروفتش ، فكانت تصغى الى كلامى كثيراً ، وكان يبدو عليها الاهتمام  
 بما أحمل اليها من مثل هذه الأنباء • ولكن كان يحدث دائماً أنتى أنا الذى  
 أنقل اليها هذه الأنباء ، أما هى فلم تسألنى عن شىء فى يوم من الأيام •  
 ولم أجرؤ أبداً أن أكلمها عن امكان زواج بينهما ، رغم أنتى رغبت أن  
 أفعل ذلك مراراً كثيرة ، لأن هذه الفكرة كانت تعجبني وتسرنى أنا  
 أيضاً • ولكن ما أكثر الأشياء التى أصبحت لا أجرؤ أن أتعرض لها  
 بحديث عندها ، ومع ذلك كنت أشعر فى غرفتها بارتياح كبير • ومما كنت  
 أحبه كذلك جداً كبيراً أنها كانت واسعة الثقافة ، فهى تقرأ كثيراً ، بل  
 تقرأ كتباً ليست سهلة ، وكانت أكثر منى اقبالاً على القراءة وانهماكاً  
 فيها •

انها هي التي استدعتني اليها في المرة الأولى • وقد قدرت أنها ربما كانت تريد أن تعلم مني أمراً ما • آه ••• ما أكثر الأمور التي كان كثير من الناس في ذلك الأوان يستطيعون أن يعلموها مني ! ••• وقلت لنفسي في تلك المرة الأولى : « لا ضير ! انها لا تستقبلني لهذا السبب وحده » • الخلاصة انني قد أسعدني أن أكون قادراً على أن أفيدها في أمر من الأمور ، و ••• حين كنت أجلس بقربها ، كان يبدو لي دائماً أن أختي هي التي تجلس بجانبى ، رغم أننا لم نتكلم يوماً عن قرابتنا لا تصریحاً ولا تلميحاً • فكأن هذه القرابة لم توجد في يوم من الأيام • كان يبدو لي حين أزورها انني يستحيل عليّ استحالة تامة أن أتعرض لهذا الموضوع ، وكنت حين أنظر اليها تبرق في خاطري أحياناً فكرة عجيبة : أنها ربما كانت تجهل هذه القرابة ما دامت تقف مني هذا الموقف وتعاملني هذه المعاملة •

## ٣

حين دخلت عليها وجدت عندها ليزا • فكذت أشده • كنت اعرف  
 أنهما قد التقنا قبل الآن • حدث ذلك اللقاء عند « الطفل الرضيع » • قد  
 أتكلم فيما بعد ، اذا عرضت لي فرصة ، عن تلك النزوة التي اعترت  
 أنا أندريفنا ، ذات الكبرياء والخفر ، وهي أن ترى ذلك الطفل ، وقد  
 أتكلم أيضاً عن اللقاء الذي تم بينها وبين ليزا هناك • ولكن لم أكن أتوقع  
 أبداً أن تقوم أنا أندريفنا بدعوة ليزا اليها • لذلك دهشت حين رأيتهما ،  
 وكانت دهشة لذيذة • وبدون أن أظهر شيئاً من هذه الدهشة طبعاً ،  
 حيث أنا أندريفنا ، وصافحت ليزا مصافحة حارة ، وجلست بقربها •  
 وكاتتا كلتاها منكبتيين على عمل « خطير الشأن » : كان فستان السهرة  
 التي تملكه أنا أندريفنا ، وهو فستان جميل لكنه قديم ، أي لبس قبل  
 الآن ثلاث مرات ، كان ذلك الفستان ممدوداً على الطاولة وعلى ركبهما  
 تفكران في تغيير شكله • ان ليزا « فنانة » كبيرة في هذا المجال ، وانها  
 صاحبة ذوق مرهف • هذا اذن مجلس حرب تعقده « سيدات عاقلات » •  
 وتذكرت فرسيلوف ، فضيحت ، وكنت مشرق المزاج على كل حل •

قالت أنا أندريفنا مبرزة كل كلمة من كلماتها بوقار :

— أنت اليوم جذل جداً • هذا شيء ممتع !

ان لها صوتاً دافئاً مختلفاً ، ولكنها تنطق كلماتها دائماً بهدوء  
 ورفق ، خافضة أهدابها الطويلة قليلاً ، على ابتسامة خاطفة تطوف  
 بوجهها الشاحب •

قلت مرحاً :

٥٥

- تعرف ليزا كم أكون مزعجاً حين لا أكون جذلاً •

فقلت ليزا بمكر :

- وربما كانت آنا أندريفنا تعرف ذلك •

هذه وخزة من ليزا • آه لو عرفت ما كان يجثم على صدر ليزا

العزيزة في ذلك الوقت ، وما ذا كان يفيض به قلبها من هموم !

وقالت آنا أندريفنا تسألنى :

- ماذا تعمل الآن ؟

( لاحظوا أنها هي التي رجتى أن أجيء إليها ! ) • قلت

أجيبها :

- أنا الآن هنا • وانى لأتساءل لماذا يحلوا لى دائماً أن أراك قارئة

فى كتاب أكثر مما يحلوا لى أن أراك عاكفة على شغل من أشغال الحياطة

والتطريز وما الى ذلك • لا ، لا ، لا ، حقاً ان أشغال السيدات لا تناسبك •

أنا من هذه الناحية أشارك آندره بتروفتش رأيه •

- ألم تحزم أمرك على دخول الجامعة بعد ؟

- أشكرك شكراً لا حدود له على أنك ما نسيت أحاديثنا السابقة •

هذا دليل على أننى أخطر ببالك أحياناً • ولكن ••• فيما يتعلق بالجامعة ،

لم أثبت على أمر بعد • ثم ان لى أهدافى •

قلت ليزا :

- اى ان له سره •

قلت :

- دعى هذه الأمازيح يا ليزا ! ان رجلاً ذكياً قال فى الأيام

الأخيرة ان حركتنا التقدمية كلها خلال الخمسة والعشرين عاماً قد

برهنت قبل كل شىء على مدى ايغالنا فى الجهل ، ولم ينس أن ينسب هذا

الى جامعتنا طبعاً • من المسئول عن هذا الجهل ان لم تكن الجامعات هي  
المسئولة ؟

فقلت ليزا :

- لا بد أن بابا هو الذي قال هذا الكلام • فأنت في أكثر الأحيان  
لا تزيد على أن تكرر أقواله •

- لكأنك تفترض يا ليزا أنني ليس شيء من فكر •

وقالت آنا آندريفنا مدافعة عني :

- ليس بالأمر الشائع كثيراً في هذا الزمان أن نرى أناساً يحسنون  
الاستماع الى أقوال أشخاص أذكاء ، ثم يحسنون حفظها وتذكرها في  
الوقت المناسب •

فاستأنفت كلامي قائلاً بحرارة :

- حقاً يا آنا آندريفنا • ان من لا يفكر الآن في روسيا ليس  
بمواطن ! ربما كنت أنظر الى روسيا من زاوية خاصة : لقد تحملنا الغزو  
التتري ، ثم تحملنا قرنين من العبودية ، ولعل تحملنا هذا أن يكون مرده  
الى أن الأمرين كليهما قد أرضيانا • والآن وهبت لنا الحرية ، ويجب أن  
نتحملها : فهل نحن على ذلك قادرون ؟ هل الحرية ترضينا وتتفق  
وذوقنا ؟ هذا هو السؤال •

ألقت ليزا نظرة سريعة على آنا آندريفنا • فسرعان ما غضت  
آنا آندريفنا طرفها ، وتظاهرت بأنها تبحث عن شيء ما • ورأيت ليزا  
تحاول أن تسيطر على نفسها بكل ما أوتيت من قوة • ولكن بصرينا  
التقيا مصادفة على حين فجأة ، فاذا بليزا تضحك • فانفجرت قائلاً :

- ليزا ، ان المرء لا يفهمك حقاً •



فأسرعت تكف عن الضحك ، وتقول بلهجة يخالطها حزن :

- اغفر لى • لا أدرى ماذا فى رأسى •

واختلجت فى صوتها دموع على حين فجأة • فخبجت خجلاً  
شديداً ، وتناولت يدها قبلتها بشدة •

فقلت آنا آندريفنا برفق ووداعة • وهى ترانى اقبل يد ليزا :

- انك طيب القلب نبيل النفس •

- انى ليسعدنى يا ليزا أن أراك مرة تضحكين • هل تصدقين  
يا آنا آندريفنا اننى منذ بضعة أيام أرى فى وجهها كلما لقيتها نظرة غريبة ،  
نظرة يتموج فيها قلق ، فكأنها تتساءل : « ترى هل علم شيئاً ؟ هل يجرى  
كل شىء مجرى حسناً ؟ » • حقاً ان فيها شيئاً من هذا النوع •

فألت عليها آنا آندريفنا نظرة بطيئة ثابتة ، فخفضت ليزا عينها •  
وقد أدركت على كل حال أن الصلة بينهما أوثق مما تصورتها حين  
دخلت • فسرتنى هذه الفكرة وأبهجتنى • قلت مخاطباً آنا آندريفنا  
بعاطفة :

- قلت منذ هنيهة اننى طيب القلب ، فلا تستطيعين أن تتصورى  
يا آنا آندريفنا مدى من أصيب من تحسن حين أكون عندك ، ومدى ما  
أشعر به من سعادة حين ألقاك !

فأجابتنى قائلة بوقار :

- وأنا يسرنى أن أسمعك تقول هذا الكلام فى هذه اللحظة •

يجب أن أذكر أنها لم تكلمنى فى يوم من الأيام عن حياة الفوضى  
التي أعيشها ، وعن الزوبعة التي كانت تجرفنى أعاصيرها ، رغم أنها  
كانت - فيما أعرف - على علم بكل شىء ، حتى انها سألت عنى بعض

الناس • فكان هذا أول الماع منها ، فما زادنى ذلك الا ميلاً اليها •  
وقلت أسألها :

- وكيف صحة مريضنا ؟

- تحسنت كثيراً • نهض عن فراشه • وقد خرج يتزره أمس  
واليوم بالعربة • ولكن ألم تذهب اليه أنت اليوم ؟ انه ينتظرك •  
- اننى مذنب فى حقه • ولكنك أنت التى تزورينه الآن ، فتحلين  
محلّى تماماً • انه رجل لا وفاء له ، استغنى بك عنى ، واستبدلك بى •  
فانقلب وجهها قليلاً • لأن مزاحتى يمكن أن تبدو عامية مبتذلة •  
قلت :

- أنا آت من عند الأمير سرجى بتروفتش ، و ... بالمناسبة يا ليزا:  
هل كنت منذ قليل عند دارية أونيسيوفنا ؟  
فقال ليزا مقتضبة ، دون أن ترفع رأسها :

- نعم •

ثم سألتنى فجأة ، كأنما لتقول أى شىء :

- ولكن كنت أظن أنك تذهب الى الأمير المريض كل يوم ؟  
فأجبت أقول ضاحكاً :

- أذهب • ولكننى لا أكمل الطريق اليه ، فما ان أدخل البيت  
حتى أمضى يسرة •

قالت آنا آندريفنا :

- حتى الأمير نفسه لاحظ أنك تزور كاترين نيقولايفنا كثيراً •  
تكلم عن هذا أمس وضحك كثيراً •

– مم ضحك ؟

فأجابت آنا آندريفنا ضاحكة :

– كان يمزح كما تعلم • قال : « والله ••• يظهر أن المرأة الجميلة لا تنفّر دائماً قلب شاب في غضارة الصبا ••• » •  
هتفت أقول :

– عبارة بارعة • لا شك أنها ليست منه ، بل منك أنت •

– لماذا ؟ بل هي منه •

فاذا أنا أنبرى فجأة فأسألها بجرأة غبية :

– فما قولكما اذا كانت هذه المرأة الجميلة تتبه الى الشاب رغم أنه لا قيمة له ولا شأن ، ورغم انه شديد الخجل والبساطة والسذاجة ، يقبع في ركنه حائقاً من أنه « صغيرها » ، ثم اذا هي تفضله فجأة على جميع من يحومون حولها ويحيطون بها مولهين عابدين ؟

كان قلبي يخفق • فانفجرت ليزا تقول ضاحكة :

– اذن لقد ضعت !

فهتفت قائلاً :

– ضعت ؟ لا • لم أضع • وأظن اني لن أضيع أبداً • اذا وقفت امرأة في طريقي ، فسوف تكون مضطرة أن تتبغى • لا يسد أحد طريقي الا ويناله عقاب •

لقد قالت ليزا في ذات يوم ، عرضاً ، بعد ذلك بمدة طويلة ، انني قد نظقت بهذه الجملة على نحو غريب ، بجدي شديد ، كأنني أزن كل كلمة وأفكر في كل لفظة • ولكن العبارات كانت عندئذ تبلغ من فرط السخف والاضحاك أنه لم يكن للمرء سبيل الى السيطرة على نفسه ، والامتناع عن الضحك •

وقد انفجرت أنا أندريفنا تضحك مرة أخرى بالفعل .

فصحت أقول منتشياً ، لأن هذا الحديث والمجربى الذى سار فيه قد طابا لى كثيراً :

- اضحكى يا أنا أندريفنا . اضحكى منى . ضحكك لذة لى .  
 اننى أحب ضحكك يا أنا أندريفنا ان لك موهبة مميّزة : تصمتين ساكنة  
 وادعة ، ثم اذا أنت تنطلقين فى ضحك ما كان لشيء فى وجهك قبل ثانية  
 واحدة أن ينذر به . عرفت سيدة بموسكو كنت أختلس النظر اليها  
 أحياناً . انها تكاد أن تكون فى مثل جمالك ، ولكنها لا تحسن الضحك ،  
 فكان وجهها ، الذى لا يقل فتنة وسحراً عن وجهك ، يفقد هذه الفتنة  
 وهذا السحر متى ضحكت ، بينما يزددان توهجاً فى وجهك حين  
 تضحكين . اننى منذ مدة طويلة أريد أن أذكر لك هذا .

ولقد مكرت حين نطقت بتلك الجملة عن السيدة التى « تكاد تكون  
 فى مثل جمال » أنا أندريفنا . تظاهرت بأن الجملة أفلتت منى بدون  
 ارادة ، وحتى بدون أن ألاحظ ذلك . كنت أعرف أن مثل هذا المديح  
 الذى يفلت من قائله « افلاتاً » يؤثر فى المدوح أضعاف تأثير المديح  
 المقصود . ولقد كنت واثقاً بأن أنا أندريفنا سرت رغم الحمرة التى تخضب  
 بها وجهها . والسيدة التى زعمت أنها فى مثل جمال أنا أندريفنا انما  
 كانت من تلفيق خيالى : فاننى ما عرفت فى يوم من الأيام سيدة كهذه  
 السيدة بموسكو . وما كان ذلك منى الا بقصد ازجاء المديح لآنا أندريفنا ،  
 وبعث المسرة فى قلبها .

قالت وهى تبسم ابتسامة لطيفة :

- يتراءى للمرء أنك فى هذه الأيام خاضع لتأثير امرأة جميلة . . .

فأخسست اننى أظير . . . وكدت أن أبوح لهما . . . لكننى سيطرت

على نفسى وأمسكت عن الكلام .

- بالمناسبة ، لقد قلت منذ قليل عبارة قاسية في حق كاترين  
نيقولايفنا .

فقدحت عيناى شرراً ، وانبريت أجيب قائلاً :

- لقد أسأت التعبير ... وانما يرجع ذلك الى تلك النيمة  
الخيثة التي تزعم أن كاترين نيقولايفنا تناصب آندرة بتروفتشس العداء .  
وهم يتجنون عليه أيضاً ، ويقولون فيه النائم اذ يزعمون أنه أحبها  
وعرض عليها عروضاً ويزعمون أموراً أخرى أيضاً . وليست هذه  
النيمة أخبت من تلك النيمة الثانية التي تزعم أنها عرضت على الأمير  
سرجى بتروفتشس ، أثناء حياة زوجها ، أن تتزوجه متى ترملت ، ثم لم  
تف بوعودها . اننى أعلم علم اليقين أن هذا كذب وافشاش ، وأن الأمر  
كله لم يكن الا مزاحاً ؛ ففي ذات مرة ، قالت للأمير أثناء لحظة مرح في  
الخارج : « ربما في المستقبل » . ولكن كان هذا كلاماً في الهواء ؟  
وأنا أعلم حق العلم أن الأمير من جهته لا يمكن أن يصدق مثل هذا  
الوعد .

ثم استدركت أضيف :

- ولا هو اهتم بأن يصدقه .

وأضفت أدساً بمكرٍ قولى :

- أظن أن في ذهنه أفكاراً أخرى . صدقاني اذا قلت لكما انه ،  
حين حدثه ناشتسوكين في بيته منذ قليل عن أن كاترين نيقولايفنا قد  
تزوج البارون بيورنج ، استقبل النبأ أحسن استقبال .

هنا سألتُ آنا آندريفنا قائلة برصانة يخالطها نوع من الدهشة :

- ناشتسوكين ؟ ناشتسوكين كان عنده ؟

- نعم ، ناشتسوكين نفسه • انه واحد من أولئك الرجال الذين  
يوحون بالاحترام و ...

- وناشتسوكين هو الذى كلمها عن هذا الزواج من بيورنج ؟

كذلك تابعت آنا آندريفنا أسئلتها وقد استيقظ اهتمامها فجأة  
فقلت :

- عن الزواج ، لا ؛ بل هو كلمها عن امكان الزواج ، عن شائعة  
قال انها تروج فى المجتمع • أما أنا فانى مقتنع بأنها حكاية ملفقة !

ففكرت آنا آندريفنا ثم عكفت على شغلها •

وأضفت أقول بحماسة مباغته :

- اننى أحب الأمير سرجى بتروفتش • صحيح أن له عيوبه ؛ فهذا  
أمر لا يمكن نكرانه وقد سبق أن كلمتك عنه ••• انه محدود الأفكار •  
ولكن ألا تشهد له هذه العيوب نفسها بأنه امرؤ نبيل النفس ؟ فى هذا  
اليوم مثلاً كدنا أن تتشاجر من أجل فكرة : هو مقتنع بأن على المرء اذا  
أراد الكلام عن النبيل أن يكون هو نفسه نبيلًا ، والا فان كل ما يقوله  
كذب • فهل هذا الكلام منطقي ؟ لا ••• ولكنه يشهد لقائله بأنه شديد  
المطالب فيما يتعلق بالنبيل والواجب والعدالة • ألسنت على حق ؟

وهتفت فجأة أقول وقد وقعت عيني مصادفة على الساعة الموضوعه  
فوق المدفأة :

- آ ••• كم الساعة ؟

فقلت آنا آندريفنا بهدوء بعد أن نظرت الى الساعة :

- الثالثة الا عشر دقائق •

وكانت طول مدة حديثي عن الأمير تصبغني الى كلامي خافضة  
عينيها ، معبرة عن شيء من سخريه مأكرة لكنها لطيفة : لقد كانت تعرف  
لماذا أمدحه هذا المديح كله • وكانت ليزا تنصت مائلة على شغلها ، ولكنها  
أصبحت لا تشارك في الحديث منذ مدة طويلة •

انتفضت مودعاً كمن أصابه حرق • فقالت آندره آندريفنا تسألني :

— أنت مستعجل ؟

— نعم •• لا •• بل أنا مستعجل ، هذا صحيح • ولكن لحظة  
يا آنا آندريفنا •••

كذلك بدأت أقول منفعلًا انفعالاً شديداً وتابعت كلامي :

— كلمة واحد يا آنا آندريفنا ••• لا أستطيع أن لا أقول لك اليوم  
ما أريد قوله ! أريد أن أعترف لك بأنني قد باركت مراراً ما أظهرته لي  
من طيبة ولطف اذ دعوتني الى زيارتك •• وقد أحسنت الى هذا العلاقات  
التي قامت بيننا احساناً كبيراً • انني هنا أتطهر من أدراي ، فأخرج من  
عندك وأنا خير ما كنت قبل أن أجيء ، هذا صحيح • حين أكون الى  
جانبك لا أستطيع أن أقول سوءاً ، بل لا أستطيع حتى أن تراودني أفكار  
سيئة • فالأفكار السيئة تتلاشى من ذهني متى رأيتني معك • فاذا برقت  
في خيالي ذكرى سيئة وأنا بقربك ، احمر وجهي فوراً وخجلت من  
نفسي • ولقد سرني مسرة خاصة في هذا اليوم أن أجد أختي عندك •  
ان هذا يدل على كثير من النبل فيك ••• انه يدل على عاطفة جميلة •••  
الخلاصة : لقد قلت أشياء « أخوية » جداً ، اذا سمحت لي أخيراً أن أحطم  
الجليد ، وأن ••

كانت آنا آندريفنا أثناء كلامي قد نهضت من مكانها ، وأخذ وجهها  
يحمر مزيداً من الاحمرار شيئاً بعد شيء • وها هي ذى ترتاع فجأة

كأن لكل شيء حدوداً ما ينبغي تجاوزها ، وتسرع الى مقاطعتي قائلة :  
 - ثق أنني سأقدر عواطفك بكل قلبي ... ولقد كنت أفهم حتى  
 قبل أن أسمع كلامك ... منذ مدة طويلة ...  
 وقطعت كلامها مضطربة وهي تصافحني مودعة • وسرعان  
 ما أدركتني ليزا في الغرفة الأخرى •



## ٤

قلت أسأل ليزا :

- ليزا ، لماذا شددتني من كمي ؟

- انها شريرة ، انها مأكرة ، انها لا تستحق • انها لا تحرص عليك  
الا لتستدرجك الى الكلام •

كذلك أسرت الى ليزا بهمس سريع مبغض حاقد • لم آرَ ليزا  
هينة كهذه الهيئة في يوم من الأيام • قلت :

- ما هذا الذي تقولينه يا ليزا ؟ انها فتاة عذبة جداً !

- اذن أنا الشريرة •

- ماذا بك يا ليزا ؟

- أنا شريرة جداً • ربما كانت أعذب فتاة ، وكنت أنا السيئة  
الشريرة • هيا ، دعني • اسمع : ان ماما تطلب منك « مالا تستطيع أن  
تكلمك فيه » • هذه ألفاظها نفسها • يا عزيزي آر كادي ، انقطع عن  
القمار ، اترك القمار يا عزيزي ، أرجوك ؟ أتوسل اليك ••• وماما  
أيضاً •••

- ليزا ، أعلم هذا بنفسى ، ولكن ••• أنا أعلم اننى بما فعلته قد  
برهنت على ضعف فى الادارة وخور فى العزيمة ••• ولكن ما هذه الا  
سخافات عابرة لا أكثر • اسمعى : لقد راكمت على نفسى ديوناً رهيبه. كما  
لا يفعل ذلك الا رجل أحمق ، وانما أريد الآن أن استرد ما خسرته لأدفع  
تلك الديون • والربح ممكن • كنت حتى الآن أقامر على غير هدى ،

أقامر منقاداً للمصادفة ، أقامر بغباء • أما الآن فلسوف أرتعش خوفاً على كل روبل ألقيه على مائدة القمار ، ولن ألقيه عليها الا بروية وتفكير • لن أكون أنا اذا لم أربح ! ليس القمار عندي هو ملك على نفسي واستبد بي • ليس القمار بالشىء الأساسى • ما هو الا عرض طارىء • أوكد لك ذلك ! أنا أقوى من أن لا أكف متى شئت ••• سأرد الديون أولاً ، ثم أكون لكم دون غيركم ، وقولى لماما اننى لن أترككم •••

– ما أبهظ الثمن الذى دفعته للحصول على تلك الثلاثمائة روبل ! •••

قلت مرتعشاً :

– من أين عرفت هذا ؟

– سمعتُ داريا أونيسيوفنا كل شىء •

وفجأة رفعت ليزا ستارة ودفعتنى الى داخل « المصباح » وهو حجرة صغيرة مدورة كلها نوافذ ؟ فما ان أفقت من ذهولى حتى سمعت صوتاً أعرفه ، وصليل مهماز ؟ ومشية عرفت صاحبها • فهمست أسأل ليزا :

– أهو الأمير سرجى ؟

فأجابتنى بهمس أيضاً :

– هو نفسه •

– لماذا أراك خائفة هذا الخوف كله ؟

– هكذا ! لا أريد بجال من الأحوال أن يرانى هنا •

– « غريب » ! أتراه يحاول مغازلتك مثلاً ؟ لسوف أريه •••

قلت هذا ضاحكاً ، ثم أردفت أسألها :

– الى أين تذهين ؟

- لنخرج • أنا ذاهبة معك •

- هل ودعت هناك ؟

- نعم ، ومعطى فى حجرة المدخل •

وخرجنا • وفيما كنا نهبط السلم ساورتنى فكرة ، فقلت :

- هل تعلمين يا ليزا ؟ لعله جاء يعرض عليها الزواج •

فأجابت ليزا قائلة بهدوء ولهجة قاطعة ، وصوت خافت :

- لا ••• لن يعرض عليها •

- هل تعلمين يا ليزا ؟ اننى رغم المشاجرة التى وقعت بينى وبينه -

ما دام قد روى لك كل شىء - أحبه حباً صادقاً وأتمنى له النجاح ،

أحلف لك • لقد تصالحنا • حين نكون سعداء ، نكون أختياراً • ان فى

نفسه أفكاراً نبيلة ، أو قولى على الأقل ان نفسه تربة صالحة لنمو أفكار

نبيلة • فاذا أصبح بين يدي فتاة مثل أنا فرسيلوف ، التى تتمتع بقوة الارادة

وثبات الجنان وحصافة الرأى ، أمكن أن يكون انساناً طيباً وسعيداً •

يؤسفنى اننى مستعجل جداً • ولكننا سنسير بضع خطى معاً • أريد أن

أحكى لك •

- بل اذهب وحدك • وسأسير أنا فى اتجاه آخر • هل تأتى

للغداء ؟

- سأتى ، سأتى • هذا وعد • اسمعى يا ليزا • هناك شخص حقير ،

بل شخص هو أدناً المخلوقات طراً ، اسمه ستيلكوف اذا كنت تعرفينه :

ان لهذا الشخص تأثيراً رهيباً وسلطاناً كبيراً على شئون الأمير سرجى

وأعماله ••• ان لديه سندات مالية ••• الخلاصة انه قابض عليه برجليه

قبضاً شديداً ، وقد بلغ الأمير من فرط السقوط أن الاثنين كليهما أصبحا

لا يريان مخرجاً من المصاعب المالية الا هذا الزواج من أنا أندريفنا •

فيجب تسيبها تسيباً جدياً • هذه سخافات على كل حال • ستولى ترتيب كل شيء بنفسها فيما بعد • ثم ما رأيك ؟ هل ترفضه ؟

فقاطعتني ليزا قائلة :

- الى اللقاء • ليس في وقتي متسع •

ورأيت فجأة في نظرتها السريعة الحاطفة كرهاً يبلغ من القوة أنني لم أملك الا أن أصبح مرتاعاً :

- ليزا ، عزيزتي ، لماذا ••• ؟

- ليس هذا الكره لك • ولكن انقطع عن القمار •••

- آه ••• أسبب القمار ؟ فلن أقامر اذن ، انتهى !

- قلت منذ هنيهة : « حين نكون سعداء » • فهل أنت « سعيد »

جداً ؟

- سعيد سعادة هائلة يا ليزا ! سعادة هائلة ! آه ••• رباه ••• الساعة

بلغت الثالثة ، بل تجاوزتها ! استودعك الله يا صغيرتي العزيزة ليزا •

قولي يا ليزا ، يا عزيزتي ، هل يستطيع المرء أن يدع امرأة تنتظره ؟

أيجوز هذا ؟

- أنت على موعد ؟

أقلت على هذا السؤال وهي تبسم ابتسامة خفيفة ، ابتسامة ولدت

على شفيتها ميتة ، ابتسامة راعشة مختلفة • قلت لها :

- ناوليني يدك لتجلب لي الحظ !

- لتجلب لك الحظ ؟ يدي ؟ يستحيل أن أفعل بحال من الأحوال !

وابتعدت مسرعة • وقد أطلقت تلك الصرخة جادة كل الجدة !

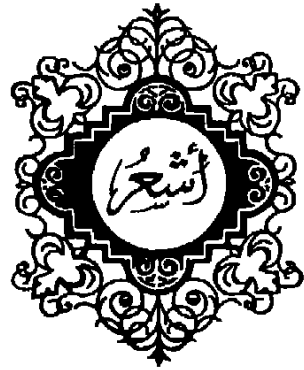
وارتميت على عربتي فركبتها •

نعم ، نعم ، ان تلك « السعادة » هي التي جعلتني ، كالخلد الأعمى ،

لا أدرك شيئاً ولا أرى الا نفسي !

## الفصل الرابع

١



اليوم حتى بخوف من سرد القصة • كل ما سأرويه قد أصبح قديماً • ولكن ذلك كله ما يزال الى هذه الساعة يبدو لي أشبه بسراب • كيف أمكن أن تضرب امرأة مثلها « موعداً » لصبي تافه كالصبي الذي كنته في ذلك الأوان ؟ ذلك ما يبدو في الوهلة الأولى أنه حدث !

بعد أن تركت ليزا ، وابتعدت مسرعاً ، خفق قلبي ، وتصورت أنني فقدت عقلي حقاً : ان فكرة « موعداً » تضربه لي هذه المرأة قد بدت لي مستحيلة استحالة صارخة على حين فجأة ، فلا سبيل الى تصديقها • ومع ذلك كان لا يساورني أي شك فيها • أكثر من هذا أن تصدقني الفكرة كان على قدر قوة استحالتها ، فكلمة بدت لي استحالتها أقوى ، كان تصديقي لها أكبر •

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة قليلاً ، فكان هذا ما يقلقني : « مادام هناك موعداً ، فكيف يمكن أن أصل متأخراً ! » • وعرضت لذهني أسئلة

غبية من نوع هذا السؤال : « أيهما أفضل : الجسارة أم الحجل ؟ » • ولكن ذلك كله كان يمضى عابراً • أما الشيء الأساسى فهو يمكث فى قلبى ، وهو ما لم أستطع أن أحدهه •

لقد قالت بالأمس : « غداً ، فى الساعة الثالثة ، سأكون عند تاتيانا بافلوفنا » • ذلك كل شيء • فاليكم الاسئلة التى كانت تهمنى على فكرى •  
 اولاً : لقد كانت تستقبلنى فى شقتها دائماً على انفراد ، وكانت تستطيع أن تقول لى كل ما تريد دون أن تنتقل الى بيت تاتيانا بافلوفنا • فلماذا تحدد فى هذه المرة مكاناً آخر هو بيت تاتيانا بافلوفنا ؟ ثانياً : اذا كان الأمر أمر « موعده » ، فيجب أن لا تكون تاتيانا بافلوفنا فى بيتها ، فكيف السبيل الى حملها على الغياب عن البيت بدون أن يشرح لها كل شيء سلفاً ؟ هل يكون معنى هذا أن تاتيانا بافلوفنا مطلعة على السر ؟ كان هذا يبدو لى أمراً لا يمكن تصوره ، كان يبدو لى مفقراً الى الحياء بل خالياً من الحشمة •

ثالثاً وأخيراً : لعل الأمر كله لا يزيد على أنها تتوى زيارة تاتيانا بافلوفنا ، فأبلغتنى رغبتهامس بدون أى هدف آخر ، فطفقت أنا أتصور وراء ذلك أشياء لا وجود لها • لقد قالت ما قالته عرضاً ، وقالته باهمال ، وقالته بهدوء ، وقالته بعد جلسة مملّة جداً ، لأننى طوال الوقت الذى مكثته عندها كنت مضطرباً ، فأنا جامد فى مكاني أجمعم بكلام مشوش ، ولا أعرف ماذا أقول ، وكانت هى - كما اتضح ذلك فيما بعد - تتهياً للخروج ، فكان يسرها أن ترانى أنصرف • تلك الأفكار كلها كانت تغلى وتفور فى رأسى ؟ وعزمت أمري أخيراً ، قائلاً لى نفسى : « سأذهب الى هناك ، وأقرع الجرس ، فتفتح لى الطباخة ، فأسأل هل تاتيانا بافلوفنا فى البيت ؟ فان لم تكن تاتيانا بافلوفنا فى البيت كان معنى ذلك أن الأمر أمر « موعده » حقاً • ولكن لم يكن يساورنى أيسر شك ، لم يكن يساورنى أى شك •

صعدت راکضاً • وهناك ، على فسحة السلم ، أمام الباب تبدد كل رعبى • قلت لنفسى : « هيا ، ليحدث أى شىء ، فانما المهم أن أعرف حقيقة الأمر بأقصى سرعة ! » • وفتحت الطباخة الباب • وبصوتها الأخرن وبرودتها الكريهة قالت ان تاتيانا بافلوفنا ليست بالبيت • « وليس بالبيت أحد آخر ؟ ألا ينتظر أحد تاتيانا بافلوفنا ؟ » • لقد أردت أن ألقى عليها هذا السؤال ؟ ولكننى لم أفعل ؟ وانما قلت محدثاً نفسى : « سارى بعينى » • وجمجت أقول للطباخة اننى سأنتظر تاتيانا بافلوفنا ، وخلعت معطفى ، وفتحت الباب •

كانت كاترين نيقولايفنا جالسة أمام النافذة « تنتظر تاتيانا بافلوفنا » • فما ان رأتنى حتى بادرت تسألنى مهمومة قلقة :  
- أهى اذن غائبة ؟

وكان صوتها ووجهها لا يتفقان وما كنت أتوقع ، فجمدت فى العتبة • وتمتمت أسألها :  
- من هى ؟

- تاتيانا بافلوفنا ! لقد رجوتك أمس أن تبلغها أننى سأجىء اليها فى الساعة الثالثة •

- أنا ... ما رأيته •

- هل نسيت ؟

جلست كمن حكم عليه بالاعدام هذا هو الأمر اذن : انه واضح وضوح النهار ! ومع ذلك لم أستسلم • قلت أقطعها نافذ الصبر :

- لا أذكر أنك رجوتى أن أبلغها شيئاً • انك لم تطلبى منى شيئاً : كل ما قلته لى هو أنك ستكونين بيتها فى الساعة الثالثة •

ولم أكن أنظر اليها وأنا أقول هذا الكلام •

فهتفت تقول فجأة :

- اذا كنت قد نسيت أن تبلغها ، واذا كنت تعرف أنني سأكون هنا فلماذا جئت اذن ؟

فرفعت رأسي ، ونظرت اليها ، فلم أر في وجهها لا سخرية ولا غضباً ، وانما رأيت ابتسامة مضيئة مرحة ، ورأيت ذلك المكر الذي يشبه أن يكون مكر طفل ، والذي يعبر عنه وجهها دائماً ، فكأن هيئتها كانت تقول : « ها قد غلبتك ، فما عساك قائلًا الآن » .

لم أشأ أن أجيب ، وخفضت عيني . ودام هذا الصمت نصف دقيقة . ثم اذا هي تسألني :

- أنت قادم من عند بابا ؟

قلت :

- بل من عند آنا آندريفنا . لم أكن عند الأمير يقولوا ايفانوفتش .

ثم أضفت :

- ولقد كنت تعلمين هذا حق العلم !

- ألم يحدث لك شيء عند آنا آندريفنا ؟

- أتقصدين أن هيئتي هيئة مجنون ؟ لقد كانت هيئتي هيئة مجنون من قبل أن أذهب الى آنا آندريفنا .

- فهل استرددت عندها شيئاً من عقلك ؟

- لا . وانما علمت هناك أنك ستزوجين البارون بيورنيج .

فظهرت عليها علائم الاهتمام فجأة ، وسألتنى .

- أهى التى قالت لك هذا ؟

- بل أنا الذى أعلمتها به ، لأننى سمعت ناشتشوكين يقوله للأمير

سرجى بتروفتش .



وما زلت خافضاً عيني لا أنظر اليها • لأن النظر اليها معناه أن أغرق في الضياء والفرح والسعادة • وأنا لم أبدأ أن أكون سعيداً • ثم وخزت الحسرة قلبي ، فاذا أنا أتخذ قراراً ضخماً في لحظة واحدة • فطفقت أتكلم وأتكلم ، دون أن أعرف ماذا أقول • كنت أختنق ، وأتمتم ، وأتلغثم ، ولكنني أصبحت أنظر اليها بجراًة • وكان قلبي يخفق • وقلت جملة لا أدري ماذا كانت ، جملة لا شأن لها بما نحن فيه ، ولكنها جملة بارعة محكمة • فكانت في البداية تصغي الى كلامي مبتسمة ابتسامتها الهادئة التي لا تبارح وجهها أبداً ، ولكن الدهشة ثم الارتياح لم يلبثا أن أخذا يبرقان في نظرتها الساكنة • ومع ذلك لم تفارقها ابتسامتها ، غير أن هذه الابتسامة نفسها أخذت تختلج في بعض الأحيان •

ورأيتها ترتعش كلها ، فسألتها فجأة :

– ماذا بك ؟

فأجابتنى كالمذعورة :

– أنا خائفة منك •

– فلماذا لا تنصرفين ؟ انك تعلمين أن تاتيانا بافلوفنا غائبة ، ولا شيء يدل على أنها آتية بعد قليل • فما عليك الا أن تنهضي وتنصرفي •  
– كنت أريد أن أنتظرها ••• أما الآن فالأفضل فعلاً أن •••

قالت ذلك ونهضت نصف نهوض •

فقلت وأنا استوقفها :

– لا ، لا • ابقى جالسة • هانت ذى ترتعشين من جديد • ولكنك ما تزالين في ذعرك تبسمين ••• ابتسامتك هذه لا تفارقك أبداً ••• وهانت ذى تبسمين ابتسامة صريحة كاملة •••

– أنت تهذي ؟

- نعم أهذى \*

همست تقول مرة أخرى :

- أنا خائفة ...

- ممّ ؟

فقلت وهي تبسّم أيضاً ، ولكنها مذعورة مع ذلك :

- خائفة من أن تخترق الجدار \*

قلت :

- لا أستطيع أن أحتمل ابتسامتك !

وظفقت أنكلم وأتكلم من جديد \* كنت كمن يطير طيراناً \* كان شيء ما يدفعني \* لم أكن قد كلمتها قبل الآن على هذا النحو في يوم من الأيام أبداً ، لأنني كنت شديد الحجل دائماً \* أذكر أنني حدثتها عندئذ عن وجهها ، فقلت لها هاتفاً على حين فجأة : «أصبحت لا أستطيع أن أحتمل ابتسامتك \* ولقد كنت أتخيلك ، وأنا بموسكو ، رهيبة ، رائعة ، تطلقين الكلام زاخراً بالمر على عادة أبناء المجتمع الراقى ! ... نعم ، بموسكو \* كنا منذ الحين نتكلم عنك هناك أنا وماريا ايفانوفنا ، ونحاول أن نراك كما لا بد أن تكوني ... هل تتذكرين ماريا ايفانوفنا ؟ لقد ذهبت إليها مرة \* وفي أثناء السفر حملت بك طول الليل في القطار \* وهنا ، قبل وصولك ، ظلت شهراً كاملاً أنظر الى صورتك في مكتب أبيك ، فلم أستطع أن أحزر شيئاً \* ان تعبير وجهك مزيج من مكر طفولي وبساطة لا نهاية لها : ذلك ما يشي به وجهك ! ما رأيت وجهك ! ما رأيت وجهك مرة الا أعجبت به \* آه ... أنت أيضاً تعرفين كيف تصطنعين هيئة التكبر والاستعلاء ، وكيف تجعلين نظرتك ساحقة : انني أتذكر كيف نظرت الى عند أبيك حين وصلت من موسكو \* لقد رأيتك عندئذ ، ومع ذلك لو سألتني أحد عنك بعد ذلك فوراً ، لما استطعت أن أقول له شيئاً في

وصفك ، بل لما استطعت أن أجيبه بشيء حتى عن قامتك ! ذلك اننى ما ان رأيتك حتى صرت أعمى • ان صورتك لا تشبهك البتة : عينك ليستا قائمتين بل هما واضحتان ، غير أن أهدابك الطويلة هى التى تلقى عليهما ظلالاً فتبدوان قائمتين • وانت بدينة الجسم ، ربعة القامة ، ولكن بدانتك قوة وخفة ؛ هى بدانة قروية شابة معافاة • ووجهك أيضاً قروى ؛ انه وجه قروية حسناء • لا تزعلى ، انه لوجه رائع ••• هذا الوجه المستدير المورد الواضح الجسور الضاحك و ••• الخجول ! نعم ، الخجول ! انه خجول يا كاترين نيقولايفنا آخماكوفنا ! خجول وعف ، أحلف لك • بل هو أكثر من عف : هو وجه طفلة • ذلك هو وجهك ! لطالما خطف بصرى ، فتساءلت : أهذه هى تلك المرأة نفسها ؟ وأنا أعلم الآن أنك ذكية جداً ، أما فى أول الأمر ، فكنت أظنك محدودة الفكر قليلاً • وان لك روحاً فرحة ، ولكن بدون تجمل مصطنع • وأحب فيك أيضاً ابتسامتك هذه الأبدية : هى جنتى التى عرضها السماوات والأرض ! وأحب أيضاً هدوءك ، وعذوبتك ، وحديثك الرصين الهادى الذى يكاد يكون وانياً • اننى أحب هذا النوى • يخيل الى أنك لو هوى تحت قدميك جسر لظلمت تتكلمين بهذه اللهجة الرصينة الموزونة ••• كنت أظنك ذروة التكبر والاهواء الجامحة ، ثم يمضى شهران فلا اسمع منك خلالهما الا حديثاً كحديث طالب لطالب ••• ولم أتخيل فى يوم من الأيام جبهة كهذه الجبهة : انها ضيقة قليلاً كجباه التماثيل ، لكنها طرية بيضاء كالمرمر ، تحت شعر غزير رائع • وان لك صدرأً عالياً ، ومشية مرنة ، وجمالاً خارقاً ؛ لكنك لا تشعرين من ذلك بخيلاء • الآن انما أقنع بهذا ، وكنت أرفض دائماً أن أصدقه ! » •

أنصت الى كلامى المستفيض محملقة • وكانت ترى اننى ارتجف • وقد حاولت عدة مرات أن تقفنى عن الاسترسال فى هذا الحديث بحركة رشيقة من يدها الصغيرة المغمودة فى قفاها ، ولكنها كانت لا تلبث فى كل

مرة أن تسحب يدها مضطربة حائرة منهية • حتى لقد كانت تتراجع كلها بحركة سريعة في بعض الأحيان • ومرتين أو ثلاث مرات ، عادت الابتسامة تضيء وجهها • وفي لحظة من اللحظات تخضب خداهما بحمرة شديدة ، ولكنها في النهاية خافت فعلاً وشحب لونها • فما كدت أتوقف عن الكلام حتى مدت اليّ يدها ، وقالت بصوت ضارع مبتهل ، ولكنه ما يزال رصيناً :

- ما ينبغي أن يقال هذا ••• لا يجوز للمرء أن يتكلم هكذا ! •••

ونهدت فجأة ، وتناولت شالها و فروتنيّ يديها بغير تعجل •  
فهمتُ أسألهما :

- أتصرفين ؟

فأجابت بلهجة فيها حسرة وعتاب :

- حتماً • أنا خائفة منك ••• انك تسرف •••

- اسمعي ! لن أخترق الأسوار ، أحلف لك •

- لكنك بدأت تخترقها •

ولم تستطع أن تكبح نفسها ، فابتسمت • وأضافت تقول :

- حتى انني لست واثقة بأنك ستدعني أنصرف •

أظن أنها كانت تخشى حقاً أن أسد عليها طريقها • قلت :

- بل سأفتح لك الباب بنفسى ، هيا اذهبي ••• ولكن ••• ألا فأعلمي

أننى اتخذت قراراً ضخماً • فاذا كنت تريدين أن تهبي لنفسي ضياءً ،

فارجعي واجلسي واسمعي منى كلمتين أخريين • واذا لم تريدي ،

فانصرفي ، وسأفتح لك الباب بنفسى •

فنظرت اليّ وعادت تجلس •

فهمتُ أقول ثملاً :

– لو كنت امرأة أخرى لخرجت مستاءةً أشد الاستياء • ولكنك  
• عدت تجلسين •

– انك لم تبج لنفسك أن تقول لى مثل هذا الكلام فى يوم من  
• الأيام •

– كنت خجولاً • ومازلت خجولاً • وحين وصلت الى هنا ، كنت  
لا أعرف ما عسانى أقول • أتظنين أننى أصبحت غير خجول ؟ لا • اننى  
ما أزال خجولاً • لكننى اتخذت قراراً ضخماً على حين فجأة ، وأحسست  
أننى سأنفذه • فلما اتخذت ذلك القرار طاش صوابى وطفقت أتكلم •  
اسمعى الكلمتين اللتين أريد أن أقولهما لك : أأنت تتخذينى جاسوساً  
أم لا ؟ أجيبينى ! هذا هو السؤال !

فاحمر وجهها بغته • واستدركتُ أقول لها :

– لا تجيبى بعدُ يا كاترين نيقولايفنا • استمرى على الاصغاء ، ثم  
قولى لى الحقيقة كلها •

لقد قلبت جميع الحواجز دفعة واحدة ، وأصبحت أطيّر فى  
• الفضاء •

- منذ شهرين ، كنت واقفاً هناك وراء الستارة ، وكنت أنت تتحدثين مع تاتيانا بافلوفنا عن الرسالة • فظهرت لكما ، وأسرفت في الكلام خارجاً عن طوري بغير روية • فأدركت على الفور أنني على علم بشيء ما ••• ولم يكن في وسعك الا أن تدركي ••• كنت تبخين عن وثيقة هامة ، وتخشين خطرهما عليك خشية كبيرة • انتظري يا كاترين نيقولايفنا ، لا تتكلمي بعد • انني أعلن لك بأن شبهاتك كانت في محلها : فالوثيقة موجودة ••• فقد رأيتها بعيني •• انها رسالتك الى آندرونيكوف ، أليس كذلك ؟

فسألتني بسرعة وقد امتلأت نفسها اضطراباً وانفعالاً :

- رأيت تلك الرسالة ؟ أين رأيتها ؟

- رأيتها ••• رأيتها عند كرافت ••• كرافت الذي انتحر •

- حقاً ؟ رأيتها بعينيك ؟ وماذا صارت اليه ؟

- مزقها كرافت •

- مزقها أمامك ؟ رأيتَه يمزقها !

- مزقها أمامي ، ربما لأنه كان يتبأ بموته • ولم أكن أعرف أنه

سيقتل نفسه بمسدس ••

- اذن أتلفها • الحمد لله !

كذلك قالت ببطء ، بعد أن تنفست الصعداء • ثم رسمت اشارة

الصليب •

لم أكذب عليها • بل لقد كذبت ، لأن الوثيقة كانت عندي ، ولم تكن عند كرافت في يوم من الأيام • ولكن ذلك أمر لا قيمة له • وأنا لم أكذب فيما يتعلق بجوهر القضية ، لأنني في اللحظة التي كذبت فيها قطعت عهداً على نفسي لأحرقن تلك الرسالة في هذا المساء نفسه • ويميناً لو كانت الرسالة في جيبى حينذاك ، لأخرجتها وناولتها إياها • ولكنني لم أكن أحملها ، وإنما كانت في البيت • وقد لا أعطيها الرسالة مع ذلك لأن من الصعب عليّ أن أعترف لها بأن الرسالة كانت عندي طول هذه المدة فاحتفظت بها ولم أسلمها إليها • ولكن لا فرق : فلقد قررت أن أحرق الرسالة على كل حال ، وأنا اذن لم أكذب ! أقسم لقد كنت صادقاً في تلك اللحظة •

وتابعت أقول خارجاً عن طوري :

— فاذا كان الأمر كذلك ، فأرجو أن تجيبني عن هذا السؤال : لماذا جذبتني اليك ودلتني واستقبلتني في بيتك ؟ أليس لأنك قدّرت انني على علم بأمر الوثيقة المقلقة ؟ انتظري يا كاترين نيقولايفنا ، انتظري دقيقة أخرى ، لا تتكلمي ؛ أتيح لي أن أنهى كلامي : انني طوال المدة التي ظلت أزورك في أثائها ، كنت أقدر أنك لا تلاحظيني ولا تدليني الا لتستدرجيني الى الكلام عن تلك الرسالة ، ولتجبريني على الاعتراف ••• انتظري دقيقة أخرى • كنت أقدر وأشبهه ، ولكنني كنت أتألم وأتعذب • أصبحت لا احتمل منك هذا الرياء ••• ذلك أنتي اكتشفت أنك بين سائر مخلوقات الله أنبلها نفساً ! أقول لك بصراحة ، نعم ، أقول لك بصراحة : انني كنت عدوك ، ولكنني وجدت أنك أنبل مخلوقات الله ، فغلبتني دفعة واحدة • ولكن الرياء ••• أقصد شبهة الرياء كانت ترهقني ••• فيجب الآن أن يتقرر كل شيء ، أن يتوضح كل شيء • لقد حان الوقت • ولكن انتظري قليلاً ، لا تتكلمي ، واعرفي كيف أنظر أنا الى هذا كله الآن ، في اللحظة الراهنة : اذا كانت الأمور قد جرت على

هذا النحو فلن أغضب ، بل أقصد : لن أستاذ ، لأن هذا طبيعي . اننى ادرك ذلك حق الادراك . اى شىء فى هذا يخالف الطبيعة أو يتصف بأنه شر ؟ الوثيقة تعذبك وتقلقك ، وأنت تقدرين أن فلاناً من الناس على علم بكل شىء ، فمن حقا أن تمنى أن يتكلم فلان هذا ... ليس فى هذا شر ؛ ليس فيه أى شر . اننى أتكلم صادقاً كل الصدق . ومع ذلك يجب أن تقولى لى الآن شيئاً ... يجب أن تعترفى ( اغفرى لى استعمال هذه الكلمة ) . اننى فى حاجة الى معرفة الحقيقة ، فى حاجة ماسة الى معرفة الحقيقة ! فقولى لى : هل من أجل أن تستدرجى الى الكلام عن تلك الوثيقة انما لاطقتى ودالمتنى ... يا كاترين نقولا يفنا ؟

كنت أتكلم ولا أستطيع التوقف عن الكلام ، وكان جينى يحترق احترافاً . وكانت تصغى الى الآن بغير قلق ، حتى ان هيتها كانت تم عن عاطفة . ولكن نظرتها كانت تشتمل على خجل ، ربما من شعورها بشىء من العار .

ثم قالت بصوت بطىء خافت :

- نعم من أجل ذلك .

وأضافت تقول فجأة وهى ترفع الى يديها قليلاً .

- سامحنى ، أخطأت .

لم أكن أتوقع هذا . توقعت كل شىء الا هاتين الكلمتين ، حتى منها هى التى كنت أعرفها الآن . صحت أقول :

- وتقولين « أخطأت » ؟ بكل هدوء تقولين « أخطأت » ؟

- اننى لأشعر بأخطائى فى حقا منذ مدة طويلة ... ويسعدنى اليوم أن يكون كل شىء قد توضح ..

- منذ مدة طويلة ؟ فلماذا لم تقولى ذلك فى حينه ؟



فابتسمت وقالت :

- ذلك أنتى كنت لا أعرف كيف أقوله •

وابتسمت مرة أخرى وأضافت تقول مستدركة :

- أو قل كان فى امكانى أن أعرف ... لكننى كنت أشعر بعذاب الضمير ... لأننى ، كما تقول ، لم « أجذبك » فى أول الأمر الا من أجل ذلك الهدف ، ثم ألبث أن أحسست أنا باشمئزاز ... وسئمت ذلك الزيف كله ... أوكد لك ! وسئمت تلك الارتباكات كلها ...

أضفت ذلك ببلهجة تتم عن مرارة •

قلت :

- لماذا ، لماذا لم تسألينى صراحة ؟ كان فى وسعك أن تقولى لى : « أنت تعرف أمر الرسالة ، فعلام التظاهر ؟ » • فلو ألقيت على ذلك السؤال لاعترفت لك فوراً بكل شيء !

- كنت ... كنت خائفة منك بعض الخوف • بل يجب أن أعترف يأتنى كنت أثق بك • ثم لقد مكرت أنا ومكرت أنت !

قالت هذه الجملة الأخيرة وهى تضحك • فهتفت أقول مصعوقاً :

- نعم نعم ، لقد كنت دنيئاً • آه ... انك لا تعرفين عمق الهوة التى سقطت فيها !

- هأت تعود الى الكلام عن الهوة التى سقطت فيها ، والدرك الأسفل الذى انحدرت اليه ... اننى أعرف أسلوبك !

وابتسمت ابتسامة رقيقة ، ثم أضفت تقول بحزن :

- ان تلك الرسالة هى من حوادث حياتى أبعثها على الحزن ، وهى من أفعالى أكثرها خفة وطيشاً • لطالما أنبنى ضميرى على كتابتها • اننى

بتأثير الظروف وتأثير مخاوفي قد شككت في أبى العزيز الشهم • واذ قدرت أن هذه الرسالة يمكن أن تقع بين أيدي أناس أشرار ••• ومن حقى أن أقدر هذا ( قالت ذلك بحرارة ) ، فقد ارتعدت خوفاً من أن يستخدموها وأن يطلعوا عليها بابا ••• وكان يمكن أن يؤثر ذلك في صحته تأثيراً شديداً بسبب حالته التي هو فيها ، فاذا هو يكرهنى •••  
ثم أضافت تقول وقد حدثت في عيني فلاحظت في نظرتى بعض الالتماع فى أغلب الظن :

- نعم ••• وخفت أيضاً على نفسى •• خفت أن يحمله مرضه على أن يحرمنى من أرزاقه ••• كان هذا الشعور مائلاً هو أيضاً • ولكن لا شك أنى كنت هنا مخطئة فى حقه : فهو أطيب قلباً وأكرم نفساً من أن لا يغفر لى • ذلك كل ما حدث • أما عن سلوكى معك ، فما كان ينبغى لى أن أتصرف كما تصرفت ! انى أشعر الآن بخزى •

بذلك ختمت كلامها وقد اعترأها خجل مباحث • فهتفت أقول :

- لا ، ليس لك أن تشعري بخزى •

- لقد عوّلت فعلاً على حرارة اندفاعك ، أعترف بذلك •

قالت هذا وهى تخفض عينها •

فهتفت أقول كالسكران :

- كاترين نيقولايفنا ، من ذا يجبرك على مثل هذه الاعترافات ؟ ماذا كان يكلفك من جهد أن تنهضى فتبرهنى لى بألفاظ منتقاة أنه كان ثمة شىء ما فعلاً ، ولكن هذا الشىء لا قيمة له ••• كما يجيد أن يفعل ذلك أبناء مجتمعك الراقى فى مواجهة الحقيقة ؟ اننى امرؤ غبى بليد ، فلو فعلت ذلك لصدقتك على الفور ، ولصدقت كل ما قد تقولينه لى ! ماذا كان يكلفك من جهد أن تفعلى هذا ؟ ولم تكونى خائفة منى مع ذلك ، فكيف ارتضيت أن تخفضى قيمتك أمام دساس حقير ، ومراهق تافه ؟

فقلت بوقار شديد ، لأنها لم تدرك تعجبي في أغلب الظن :

- أنا لم أخفض قيمتي أمامك ، لأنني قلت الحقيقة على الأقل .

- بالعكس ، بالعكس . ان هذا بعينه هو ما أعترض عليه .

صاحت تقول وهي تحمل يدها الى وجهها كأنما لتخفيه بها :

- كان هذا مني شراً وا أسفاه ! كان طيشاً وقبحاً ! وأمس كنت أشعر بالحزى ؟ فلذلك كنت سيئة الحال شديدة الانزعاج حين جئت تزورني .

ثم أضافت تقول :

- والواقع أن الظروف توجب عليّ حتماً أن أعرف الحقيقة كاملة عن مصير تلك الرسالة المشؤمة ، ومع ذلك كنت قد أخذت أسماها ... فكنت استقبلك في بيتي لا بسبب تلك الرسالة وحدها ...

أضفت هذه الجملة الأخيرة بغتة . فوجف قلبي . وتابعت كلامها

فقلت :

- نعم ، لم أكن أستقبلك بسبب تلك الرسالة وحدها .. لا ..

حتماً .. انني ..

وأملت بشفتيها ابتسامة رقيقة . وأردفت قائلة :

- انني .. لقد عبرت أنت عن هذا منذ قليل يا أركادي ماكاروفتش .. فذكرت أننا كثيراً ما نتحدث كما يحدث طالب طالبة .

أؤكد لك أنني في كثير من الأحيان أشعر في المجتمع بضعج وسأم ، ولا سيما بعد اقامتي في الخارج ، وبعد تلك المصائب العائلية كلها ... حتى لقد أصبحت لا أخرج كثيراً ، وليس هذا عن كسل مني . وكثيراً ما أتمنى أن أعتزل في الريف ، فأعيد هناك قراءة كتبي المفضلة التي هجرتها منذ زمن طويل ، والتي لا أتمكن من اعادة قراءتها هنا . على أنني قد قلت

لك هذا كه من قبل • انك تتذكر ذلك • حتى ضحكتَ لأننى أقرأ  
الجرائد الروسية ، بمعدل جريدتين فى اليوم ، أليس كذلك ؟

- لا ، لم أضحك •••

- ربما لأنك كنت أنت أيضاً متأثر • لقد اعترفت لك منذ مدة  
ظويلة بأننى روسية ، وبأننى أحب روسيا • تتذكر أننا كنا نشترك دائماً  
فى قراءة « الوقائع » كما كنت تسميها ( وابتسمت ) • ورغم أنك كنت  
فى كثير من الأحيان ••• غريباً متفرداً بعض الشيء ، فقد كنت فى أحيان  
أخرى تتحمس فتعرف كيف تقول كلمة حق ، وكنت تهتم بنفس الأشياء  
التي كنت أهتم بها أنا • انك لطيف وأنيس وأصيل متى كنت «طالباً» •  
أما الأدوار الأخرى فلا تلائمك كما يلائمك دور الطالب •

أضافت هذه الجملة الأخيرة وهى تبسم ابتسامة حلوة فيها مكر  
محبب • واستطردت تقول :

- تتذكر أننا كنا فى بعض الأحيان نقضى ساعات كاملة فى الاهتمام  
بالأرقام فنحسب ونقيس ، نحصى عدد المدارس فى بلادنا ، ونسأل عن  
تطور التعليم وما يقود اليه ؟ وننظر فى عدد جرائم القتل ، وجرائم السطو ،  
ونقارن ذلك كله بالأبناء السارة ••• كنا نحاول أن نعرف أين يتجه هذا  
كله ، وما الذى سنصير اليه آخر الأمر • ووجدت فىك الصديق • ان  
الرجال فى المجتمع الراقى لا يخاطبوننا بهذه اللغة نحن معشر النساء •  
كنت فى الأسبوع الماضى أكلم الأمير « ••• سوف » عن بسمارك ،  
لأننى شديدة الاهتمام ببسمارك ، وكنت لا أعرف ماذا يجب أن  
يكون رأىى فيه • فهل تتصور ما فعله الأمير ؟ جلس الى جانبى ، وطفق  
يقص علىَّ حكايات شتى مسرفاً فى ذكر التفاصيل ، وكان فى كلامه كله  
نوع من سخرية ، وكان فى كلامه ذلك النوع من التواضع والتنازل الذى  
يصطنعه « كبار الرجال » فى العادة حين يكلموننا نحن النساء اذا « تدخلنا

فيما لا يعيننا ، • لقد أصبحت لا أطيق هذا التواضع المصطنع الزائف •  
 هل تذكر كم من مرة أوشكنا أن تتشاجر في كلامنا عن بسمارك ؟ كنت  
 تريد أن تبرهن لي على أن لك « فكرة أعلى كثيراً » من فكرة بسمارك •  
 قالت هذا وضحكت فجأة • واستطردت تقول :

– ما رأيت في حياتي الا رجلين اثنين كلماني جادين حقاً ؛ فأما  
 الأول فهو المرحوم زوجي الذي كان رجلاً ذكياً ، ذكياً جداً ••• وكانت  
 نفسه تزخر نبلاً ( قالت هذا بلهجة مؤثرة ) ، وأما الثاني فانك تعرف •••  
 فهتفت أقول لاهتاً :

– فرسيلوف ؟

– نعم • كنت أحب كثيراً أن أسمع • وقد أصبحت في النهاية •••  
 صريحة معه كل الصراحة ، بل لعلى أسرفت في هذه الصراحة ، غير أنه  
 أصبح عندئذ لا يصدقني •

– لا يصدقك ؟

– وما صدقني أحد في يوم من الأيام على كل حال •

– ولكن فرسيلوف ! فرسيلوف !

قالت وهي تخفض عينيها وتبتسم ابتساماً غريباً :

– لم يقتصر على أن لا يصدقني ، بل قرر جازماً أنني « أتصف

بجميع العيوب » •

– ليس فيك عيب واحد •

– بل ان لي بعض العيوب ، أنا أيضاً •

هتفت أقول وقد سطعت عيناى :

– كان فرسيلوف لا يحبك ، فلذلك لم يفهمك •

فتغير شيء ما في وجهها وقالت بحرارة والحاح شديد :

- دع هذا الأمر ، ولا تكلمنى أبداً عن هذا ... عن هذا الرجل .  
ولكن كفى ، لقد حان الوقت ...

ونهدت لتتصرف قائلة لى وهى تحديق فى تحديقاً صريحاً :  
- فماذا ؟ أتغفر لى أم ؟

- أنا ؟ أغفر لك ؟ اسمعى يا كاترين نيقولايفنا ، ولا تغضبى : هل  
صحيح أنك ستزوجين ؟

فقالت مضطربة ، كالمرتاعة :

- لم يتقرر الأمر بعد .

- أهو رجل طيب ؟ معذرة ، اغفرى لى هذا السؤال .

- نعم ، هو طيب جداً ...

- لا تجيبى بعد الآن ، لا تنعمى علىّ بأن جواب . أنا أعلم أن هذه  
الأسئلة مستحيلة حين ألقبها أنا ! وقد أردت أن أعرف أهو جدير أم لا .  
ولكننى سأعرف منه بنفسى .

قالت مرتاعة :

- لا ... اسمع !

- طيب ، طيب ... سأمتنع ، سأمتنع ، سأصرف النظر عن هذا  
الأمر . ولكن اليك ما أريد أن أقوله لك : أسأل الله أن يهبى لك جميع  
أنواع السعادة ، جميع أنواع السعادة التى تمنيتها ... جزاء ما وهبت لى  
من سعادة فى هذه الساعة القصيرة ! ان ذكراك قد نقشت الآن فى نفسى  
الى الأبد . لقد كسبت كنزاً عظيماً هو فكرة الكمال هذه التى تجسدونها .  
كنت أقدر فىك خداعاً وغنجاً زائفاً ، فكنت من ذلك شقياً ... لأننى لم  
أستطع أن أوفق بين هذا الاشتباه وبين ما أراه فىك . وأصبحت فى الأيام

الأخيرة أفكر في هذا الأمر ليلاً ونهاراً • أما الآن فقد وضع لي كل شيء وضوحاً تاماً ! حين كنت آتياً الى هنا كنت أتصور أن ألقى نفاقاً ومكرآ ، وحية لائبة ، فاذا أنا أجد سعادة ، وعظمة ••• اذا أنا ألقى طالبة ! ••• أتضحكين ؟ اضحكي ! ولكنك قديسة ، فلا يمكنك أن تضحكي مما هو مقدس •••

— أنا لا أضحك. الا لأنك تستعمل تعابير رهيبة • فما هي هذه «الحية اللائبة» التي ذكرتها؟

وانفجرت تضحك • ولكنني تابعت كلامي متحمساً أقول :

— لقد أفلتت منك اليوم كلمة ثمينة • كيف أمكنتك أن تقولى انك كنت تعوّلين على «حرارة اندفاعي» ؟ صحيح أنك قديسة ، وأنت نفسك تقرّين بهذا ما دمت تتخيلين أنك ارتكبت ذنوباً تريدن التكفير عنها ••• مع أنه ليس ثمة ذنب في الواقع ، لأن كل ما يصدر عنك فهو مقدس ولأنه لا شيء يمكن أن يلطخك • ولكن كان في امكانك مع ذلك أن لا تنطقى بذلك التعبير •

واستطردت أقول صائحاً مشوشاً :

— ان هذه الصراحة التي ليست أمراً مألوفاً انما تدل على عفتك العظمى ، وعلى ما تضمينه لي من احترام وعلى ما تحسّينه من ثقة بي • لا تحمري لا تحمري ••• من ذا الذي تقول عليك فزعم أنك امرأة جامحة الهوى ؟ آه ••• اغفري لي ••• انتى أرى في وجهك تعبيراً عن ألم ! اغفري لمرأى مندفع عباراته الخرقاء ! ولكن هل الأمر اليوم أمر عبارات ، أمر تعابير ؟ ألسنت فوق كل التعابير ؟ قال فرسيلوف يوماً : لئن قتل عطيل ديمونة ثم قتل نفسه ، فإنه لم يفعل ذلك عن غيرة ، وانما فعله لأنه سلب مثله الأعلى • انتى أفهم اليوم هذا الكلام ، بعد أن رُدد الى مثلى الأعلى !

قالت بعاطفة :

- انك تسرف في مدحى : أنا لا أستحق هذا المدح !

ثم أضافت تقول مازحة :

- هل تذكر ما كنت أقوله عن عينيك ؟

- كنت تقولين عنهما انهما مجهران ، واننى أرى الذبابة جملاً !

لا ، لا ، اننى لا أضخم الأمور الآن ... ماذا ؟ أتصرفين ؟

كانت فى وسط الغرفة تحمل شالها وفروتى<sup>٥</sup> يديها ، فأجابتنى

تقول :

- بل سأنتظر أن تنصرف أنت ، ثم أمضى بعدك • على أن أكتب

كلمتين لتأتينا بافلوفنا •

- أنا منصرف ، أنا منصرف ، ولكن اليك كلمتين أخريين : أرجو

لك السعادة ، وحيدة أو مع من تختارين ! أما أنا فلست فى حاجة الا الى

مثلى الأعلى •

- عزيزى ، عزيزى الطيب آر كادى ماكاروفتش ، صدق أنتى

سأفكر فيك • ان أبى يصفك دائماً « بالفتى اللطيف ، الطيب » • صدق

أننى سأذكر دائماً ما رويته لى عن الصبى الصغير المسكين الذى ترك عند

غرباء ، وما رويته لى عن أحلامه فى عزلة • اننى لأفهم كيف تكونت

نفسك فهماً واضحاً كل الوضوح •

ثم أضافت تقول وهى تبسّم ابتسامة ضارعة زاخرة بالحياء والحفر ،

وتشد على يدي مصافحة :

- ولكن لا يجوز لنا بعد اليوم أن نلتقى كما كنا نلتقى ، مهما نكن

طالين ... و ... هل تفهم ما ذا أريد أن أقول ؟



- لا يجوز ؟

- لا ، لا يجوز • وسيستمر ذلك مدة طويلة ••• هذا ذنبي أنا •  
اننى أرى أن اجتماعنا بعد الآن مستحيل استحالة مطلقة • على أننا سوف  
نلتقى أحياناً عند بابا •••

- أتخشين حرارة اندفاعى وحميا عواطفى ؟ ألا تثقين بى ؟

أردت أن أهتف ملقياً عليها هذا السؤال ، ولكنها بلغت من شدة  
الحجل أما فى تلك اللحظة فان الألفاظ لم تخرج من حلقى •  
وتوقفت فجأة بقرب الباب وقالت تسألنى :

- قل لى : هل رأيت ••• بعينيك ••• أن تلك الرسالة قد تم  
تمزيقها ؟ هل تذكر هذا تذكرأ واضحاً ؟ وكيف عرفت أن الورقة التى  
تم تمزيقها هى نفسها رسالتى الى أندرونيكوف ؟

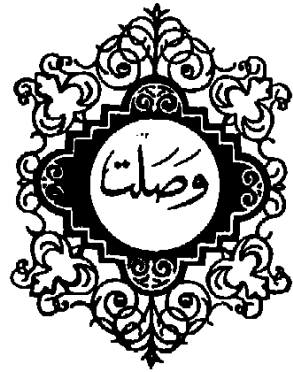
- حدثنى كرافت عن مضمونها ، بل أطلعنى عليها ••• استودعك  
الله ! كنت اذا جئت اليك أفقد كل شجاعة ، فاذا خرجت لحظة هممت  
أن أقبل الموضوع الذى وطأته بقدميك من الأرض •  
قلت هذا الكلام الأخير لا أدرى كيف ولا لماذا • ثم خرجت  
بسرعة دون أن أنظر اليها •

أسرعت الى بيتى • كانت نفسى مترعة بحماسة شديدة وافتنان  
قوى • وكان كل شىء مرعصف فى خاطرى كزوبعة • وكان قلبى زاخراً  
مفعماً • فلما اقتربت من منزل أمى تذكرت فجأة ما رأيته فى ليزا من  
التكر لجميل آنا أندريفنا ، وتذكرت الكلمة القاسية الرهية التى قالتها فى  
حقها منذ قليل ، فشعرت بقلبى ينسحق ألماً لهما كليتهما ! « ما أقسى قلوبهن  
جميعاً ! ولكن ليزا ما بالها ؟ » • كذلك تساءلت وأنا أضع قدمى على درج  
الباب •

وصرفت ماتفتى ، بعد أن أمرته بأن يعود الى فى الساعة التاسعة •

## الفصل الخامس

١



متأخراً عن موعد الغداء ، ولكنهم لم يكونوا قد  
جلسوا الى المائدة : كانوا ينتظرونني ، وقد  
أعدوا للغداء ألواناً من الطعام اضافية ، ربما  
لأنني كنت لا آكل عندهم الا نادراً ، فكان على  
المائدة مشهيات وسردين وما الى ذلك . ولكن ما كان أشد دهشتي وما كان  
أكبر حزني حين رأيتهم جميعاً مهمومين مكفهرين : فأما ليزا فانها حين  
رأتني لم تكذب ترسم على شفيتها ابتسامة ، وأما ماما فكان واضحاً أنها قلقة ،  
وأما فرسيلوف فقد تبسم ولكن بجهد ، سألت نفسي : « أتراهم  
تشاجروا ؟ » وجرى كل شيء في البداية مجرى حسناً ، باستثناء أن  
فرسيلوف امتعض حين جرى بحساء الشعيرية ، ثم سخط حين جرىء  
بالكفتة ، فقال غاضباً :

– يكفي أن أتنبأ أن صنفاً من أصناف الطعام لا تحتمله معدتي حين  
أراه في الغداة على المائدة !

فقلت أُمي تجيبه خجلي :

– ماذا تريد يا أندره بتروفتش ؟ لا يستطيع المرء أن يخترع في كل يوم لوناً جديداً •

– ان أملك على نقيض بعض صحفنا التي ترى في كل جديد شيئاً حسناً •

لقد أراد فرسيلوف أن يمزح ، أن يقول شيئاً فيه مرح وصدقة ، ولكنه لم يفلح ، بل لم يزد على أن أربع أمي مزيداً من الرعب ، وهي لم تفهم شيئاً من تلك المقارنة بينها وبين الصحف طبعاً ، ومضت ترسل نظرات زائغة هنا وهناك • وفي تلك اللحظة دخلت تاتيانا بافلوفنا ، فلما دُعيت الى المشاركة في الغداء أعلنت أنها تغدت ، وجلست على الديوان قريبة من أمي •

لَمْ أكن قد أفلحت بعد في الحصول على حظوة هذه الانسانة • هي لقد كان تهجمها علىَّ يزداد بمناسبة كل شيء ، وبغير أية مناسبة • وكان استياؤها قد اشتد في الآونة الأخيرة : فهي لا تستطيع أن ترى ثيابي الأنيقة ، وقد روت لي ليزا عنها أنها كادت تصاب بنوبة عصبية حين علمت بأن لي خوزياً تحت امرتي • وقد أصبحت في النهاية أتحاشاها ما استطعت الى ذلك سبيلاً • أذكر أنني منذ شهرين ، حين رفض أبي الميراث هرعت الى بيتها أحدثها عن سلوك فرسيلوف ، ولكنني لم أحظ منها بأى عطف على هذا السلوك ، حتى لقد استاءت استياء رهيباً : لقد أسخطها أشد الاسخاط أن فرسيلوف رد الميراث كله بدلاً من أن يرد نصفه ، ووجهت الىَّ أنا ملاحظة لاذعة فقالت :

– أراهن أنك على ثقة بأنه رد الميراث ودعا الآخر الى المبارزة لا لشيء الا أن يملو قدره واعتباره في نظر آرКАДى ماكاروفتش •

كادت تحزر ! فلقد كنت أحس بشعور من هذا النوع حينذاك •

وما ان دخلتُ حتى أدركتُ فوراً أنها ستهجم عليّ ، بل كنت مقتنعاً  
 أنها ما جاءت الا لهذا الغرض . لذلك بادرت الى اصطناع لهجة طليقة  
 جداً ، ولم يكلفني هذا جهداً كبيراً ، لأنني كنت لا أزال مغمم النفس  
 فرحاً . يجب أن أشير الى أن هذه اللهجة الطليقة كانت لا تناسبني أبداً ،  
 ولا توافق سحنتي اطلاقاً ، وأنها كانت كثيراً ما تجليني بالحزى ، وذلك  
 ما حدث ، فسرغان ما قبض عليّ متلبساً بجريمة الكذب ، ذلك أنني - بدون  
 أية عاطفة سيئة ، بل بدافع الحفة وحدها - حين لاحظت أن ليزا حزينة  
 حزناً شديداً ، أفلت من لساني على حين فجأة ، دون أن أفكر فيما أقوله ،  
 أفلت من لساني قولي :

- منذ قرن من الزمان لم آكل هنا ، ثم هانت ذى عابسة الوجه ،  
 متجهمة الهيئة يا ليزا . فهل اخترت لحزنك وكأبتك هذا اليوم اختياراً ؟

فأجابتنى ليزا تقول :

- أعاني من صداع .

ثم اذا بتاتيانا بافلوفنا تهجم هجمتها قائلة :

- ما قيمة أن تكوني مريضة ؟ لقد تفضل آر كادي ماكاروفتش فجاء

الى هنا : فيجب عليك أن ترقصي وأن تتهججي !

فأبريت أقول :

- انك بلية حياتي حقاً يا تاتيانا بافلوفنا ! لن أجيء بعد اليوم أبداً

متى كنت هنا !

قلت ذلك و خبطت المائدة بيدي في غضب صادق . فانتفضت أمي ،

وألقي عليّ فرسيلوف نظرة خاصة غريبة . وانفجرت أنا أضحك واستغفر .

قلت ملتفتاً الى تاتيانا بافلوفنا ، بلهجة ما تزال طليقة :

- انني أسحب كلمة « البلية » .

فأجابت تقول جازمة :

- لا ، لا ، ثق أنك تمدحني مدحاً عظيماً حين تصفني بأثني بلية حياتك ، ولا تصفني بنقيض ذلك !

وقال فرسيلوف مبتسماً :

- يا عزيزي ، يجب على الانسان أن يعرف كيف يتحمل البلايا الصغيرة في هذه الحياة • ولا جمال للحياة بغير بلايا !

فصحت أقول وأنا أضحك ضحكاً عصبياً :

- انك في بعض الأحيان رجعي رهيب !

- يا صديقي ، هذا لا يهمني !

- لا يهمك ؟ انك مسرف في الأدب والتهذيب • لماذا لا تنطلق على السجية فتقول لعمار انه حمار ؟

- أنفesk تعنى ؟ أنا أولاً لا أريد ولا أستطيع أن أحكم على أحد !

- لماذا لا تريد ، لماذا لا تستطيع ؟

- كسلاً واشمئزازاً • قالت لى امرأة ذكية فى يوم من الأيام : ليس من حقى أن أحكم على الآخرين ، « لأننى لا أجيد الألم » ، ومن أجل أن ينصب المرء نفسه حاكماً وقاضياً ، يجب عليه أن يكتسب حق الحكم بما يقاسى من آلام • صحيح أن هذا الرأى يشتمل على غلو وتفخيم ، ولكن لعله يصدق فى تطبيقه على ، وقد ارتضيت أن أصدقه وأن أتقيد به •

هتفت أسأله :

- هل يمكن أن تكون تاتيانا بافلوفا هى التى قالت لك هذا الرأى ؟

فقال فرسيلوف وهو يرشقتنى بنظرة دهشة :

- كيف حذرت ؟

- من النظر في وجهها ، فقد انمط فجأة ••

الحق أنني لم أحزر الا مصادفة • وقد علمت فيما بعد أن هذه الجملة  
انما قالتها تاتيانا بافلوفنا لفرسيلوف بالأمس أثناء مناقشة حامية • وأخذت  
أدرك بمزيد من القوة أنني جئت اليهم منطلق النفس مفعم القلم فرحاً في  
غير الأوان المناسب : فقد كان لكل منهم هم ثقيل جاثم على صدره •

قلت :

- اننى لا أفهم شيئاً ، لأن هذا الكلام كله مجرد جداً • انك تحب  
الكلام فى أمور مجردة يا آندره بتروفتش • وهذه سمة من سمات  
الأنانية • فجميع الأنانيين يحبون أن يتكلموا فى الأمور المجردة !

قال :

- عبارة جميلة ! ولكن دعنى ولا تلح •

فتابعت كلامى منطلقاً أقول بهجراً :

- بل اسمع لى ! ما معنى قولك « أن يكتسب حق الحكم بما يقاسى من  
آلام » ؟ كل انسان شريف فهو قاض • ذلك رأى أنا •

- لن تقع اذن على عدد كبير من القضاة •

- أعرف واحداً •

- من هو ؟

- انه هنا يتحدث معى !

فضحك فرسيلوف ضحكة غريبة ، ومال على أذنى بجسمه كله ،  
وأمسك كفى ، وهمس يقول لى : « انه يكذب عليك » •

لم أستطع أن أفهم 'ماذا أراد أن يقول ، ولكن لاشك أنه كان فى  
تلك اللحظة مضطرباً اضطراباً شديداً ( عقب علمه نبأ من الأنباء كما عرفت

ذلك فيما بعد ) ، ولكن هذه الجملة « انه يكذب عليك » قد قيلت بلهجة تبلغ من الجدة وهيئة تبلغ من الغرابة والبعد عن المزاح ، أننى رأيتنى أرتعش ارتعاشاً عصبياً ، حتى لكأننى مرتاع ، وألقيت عليه نظرة متوحشة • ولكن فرسيلوف أسرع يضحك •

قالت أمى بعد أن خافت حين رأته يهمسن فى أذنى :

- الحمد لله ! لقد ظننت أن •• لا تزعل منا يا أركادى • الأذكياء فى هذا العالم كثير ، ولكن من عسى يجبك كما نجبك ، بعد أن نرحل نحن عن هذه الحياة ؟

- لهذا السبب أرى أن حب الأبوين مناف للأخلاق ، فهو حب لا يحظى به المرء عن جدارة واستحقاق • وانما ينبغى أن يكون الحب مستحقاً •

- ستستحقه فيما بعد ، وبانتظار ذلك نجبك لغير سبب يدعوا الى الحب •

أخذ الجميع يضحكون • فهتفت أقول ضاحكاً كذلك :

- لملك يا ماما لم تقصدى أن تسددى الى هدف معين ، ولكن أصبت قلب هذا الهدق •

وانبرت تاتيانا بافلوفنا تهجم على من جديد فقالت :

- أتراك كنت تظن أن هناك أسباباً تدعو الى حبك ؟ نعم ، انهم يحبونك لغير سبب يدعوا الى حبك ، بل قل انهم يحبونك من خلال الاشمزاز منك !

فهتفت أقول مرحاً :

- اه •• لا ! •• أتعرفين من قال لى اليوم انه يحبنى ؟

فأسرعت تاتيانا بأفلوفنا تقول بمكر غير مألوف ، فكأنها قد توقعت مني تلك الجملة نفسها:

— اذا قال لك أحد انه يحبك ، فانما قال ذلك ليسخر منك • نعم ، لا بد لانسان مرهف الشعور ، ولا بد لامرأة بخاصة أن تشمئز من نفسك السوداء • ان لك فرقاً في شعر رأسك ، وانك تلبس قميصاً ناعماً ، وترتدى ثياباً يخطها لك الخياط الفرنسى الشهير ، ولكن ذلك كله ليس الا وحلاً ! من ألبسك ؟ من يطعمك ؟ من يعطيك مالاً لتقامر فى الروليت ؟ تذكر من الذى لا تستحى أن تطلب منه هذا المال !

تخضبت أُمى بحمرة شديد • لم أر فى حياتى خجلاً كهذا الحجل يجبل وجهها • فنار خفى وقلت محمر الوجه :

— اذا كنت أنفق فانما أنفق مالى ، وليس على حساب أؤديه لأحد !  
— مالك ؟ مالك أنت ؟ كيف ؟

— اذا لم يكن مالى فهو مال آندره بتروفتش الذى يمنعه عنى • آخذه من الأمير سداداً لدين آندره بتروفتش عليه •••  
فقال فرسيلوف بلهجة جازمة :

— يا صديقى ، ليس لى عليه كوبك واحد •

كانت الجملة ذات مغزى رهيب • فتسمرت فى مكائى صامتاً • ولاشك أننى كان فى وسعى أن أتذكر الحالة النفسية المشوشة العجيبة التى كنت عليها حينذاك ، فأخرج من الحرج باندفاعه « نبيلة » أو بكلمة ذات تأثير أو بأية حيلة أخرى • ولكننى لاحظت فجأة فى وجه ليزا المكفهر تعبيراً شريراً فيه اتهام وظلم ويكاد يشتمل على سخرية ، فاذا بشيطان يدفعنى فأقول لها وأنا التفت اليها :

— يبدو لى يا آنسة أنك تزورين كثيراً داريا أونيسيموفنا فى بيت



الأمير • فهل أستطيع أن أطلب منك أن تعطى الأمير هذه الثلاثمائة روبل التي أنبتموني عليها اليوم هذا التائب كله؟

وسللت المال من جيبي ومددته إليها • هل يصدق أحد أن هذه الكلمات الشريرة قد قيلت بغير أى قصد ، أعنى أنها كانت خالية من أى تلميح الى أى امر ؟ بل كان لا يمكن أن تشتمل على أى تلميح ، لأننى كنت حتى تلك اللحظة لا أعرف شيئاً البتة ؟ ولعل كل ما أردت أن أفعله هو أن أخزها وخزة بريئة ، وكأن أقول مثلاً : « يا آنسة تتدخل فيما لا يعينها ، هلا رضيت - ما دمت تحرصين على أن تحشرى أنفك فى كل مكان - أن تذهبي الى هذا الأمير ، الى هذا الشاب ، الى هذا الضابط البطرسبرجى ، فتتلقى اليه هذه الرسالة » ما دمت تحين كثيراً أن تتدخلى فى شئون الشباب » • ولكن ما كان أشد انشداهى وما كان أعظم ذهولى حين رأيت أمى تنهض بحركة سريعة مفاجئة ، وترفع اصبعها مهددة اياى ، وتصرخ قائلة لى :

- اخرس !

ما كان فى وسعى أن أتوقع منها شيئاً من هذا القليل ، فاذا أنا أنتفض ، من زعر ، بل من ألم ، من جرح فى القلب نازف موجه ، لأننى أدركت بجأة أنه قد وقع شىء فظيع رهيب • ولكن ماما لم تصمد طويلاً ، فما هى الا برهة قصيرة حتى دفنت وجهها فى يديها وخرجت من الغرفة بسرعة ، وتبعها ليزا دون أن تنظر الى الجهة التى كنت فيها ؟ وتأملتنى تاتيانا بافلوفنا فى صمت نصف دقيقة ، ثم هتفت تقول ملغزة وهى تنظر الى مدهوشة :

- هل 'يعقل أنك أردت أن تقول كلاماً قذراً ؟

وبدون أن تنتظر منى جواباً ، خرجت هى أيضاً • ونهض فرسيلوف عن المائدة وفى وجهه تعبير عن عداوة تكاد تكون شريرة ، وتناول قبعته من ركن فى الغرفة ، وجمعهم يقول مستهزئاً :

كنت أقدر أن لا تكون غيباً هذا الغباء كله ... وانما أن تكون  
بريئاً لا أكثر . اذا رجعت فقل لهن أن لا ينتظرنى لتناول الحلوى ، فسأقوم  
بجولة .

بقيت وحدى . ووجدت الأمر فى البداية غريباً ، ثم وجدته مهينا  
جارحاً ، ورأيت فى النهاية أننى على خطأ . ولكنى لم أدرك ما خطئى ،  
وانما كنت أحس احساساً بأن خطأً قد صدر عنى . وجلست أمام النافذة  
أنتظر . وبعد عشر دقائق تناولت قبعتى أنا أيضاً ، وصعدت الى غرفتى  
القديمة التى تقع تحت السقف . كنت أعلم أنهما هناك ، أعنى أمى وليزا ،  
وأن تاتيانا بافلوفنا قد ذهبت الى بيتها . وقد وجدتهما فى غرفتى فعلاً ،  
جالستين على ديوانى تتهامسان . فما ان رأيتنى حتى انقطع تهامسهما . وما  
كان أكبر دهشتى حين لم تظهرا لى غضباً ! ان ماما على الأقل قد طالعتنى  
بابتسامة .

أردت أن أتكلم فقلت :

– اغفرى لى يا ماما ...

ولكن ماما قاطعتنى قائلة :

– هيا هيا ! لا قيمة لهذا ... ولكن فليجب كل منكما الآخر ،  
ولا تتشاجرا أبداً . أسأل الله أن يمن عليكما بالسعادة .

فقلت ليزا بعاطفة واقتناع :

– هو يا ماما لن يسيء الى يوماً . ثقى بأنه لن يسيء الى أبداً .

وهتفت أقول :

– لولا تاتيانا بافلوفنا هذه لما حدث شيء من هذا كله . انسانية

مسيئة .

قلت ليزا وهى تشير الى :

– رأيت يا ماما؟ أسمعت؟

وصحت أقول :

– واليكما ما أحب أن أعلنه لكما كليكما : اذا كان أحد يفسد الحياة فهو أنا ، ولولاى لكان كل شيء بهيجاً !

– لا تزعل يا صغيرى آر كادى ، يا بنى العزيز ، ولكن ليتك تكف

عن . . . .

– عن القمار؟ عن القمار؟ سأكف يا ماما . سأقامر اليوم آخر مرة ، ولا سيما بعد الذى أعلنه أندره بتروفتش صراحة منذ هنيهة اذ قال انه ليس له على أحد هناك كوبك واحد . لا تستطيعين أن تتصورى مدى ما أشعر به من عار . . . . ولكن على أن أشرح ما بنفسى . . . . ماما العزيزة ، لقد قلت هنا فى آخر مرة كلمة خرقاء . . . . كذبت يا ماما : الحق أننى أريد صادقاً أن أوامر . . . . كان ذلك منى تبجحاً . فأنا أحب المسيح . . . .

كنا فى المرة السابقة قد جرى بيننا حديث من هذا النوع فعلاً . وقد تأملت أسمى كثيراً وارتاعت كثيراً . فلما سمعت ما قلته الآن ابتسمت لى كما يتسم المرء لطفل ، وقالت :

– ان المسيح يا صغيرى آر كادى سيغفر كل شيء : سيغفر تجديفاتك وما هو أسوأ منها أيضاً . المسيح أب ، المسيح ليس فى حاجة الى شيء ، وسيظل يتلأأ حتى فى أعمق الظلمات . . . .

ودعتهما وخرجت مفكراً فى احتمالات لقائى فرسيلوف فى هذا اليوم نفسه . هناك أشياء كثيرة يجب أن أحادثه فيها ، وقد استحال ذلك منذ قليل . وقد رت أنه لا بد أن يكون الآن فى بيتى ينتظرنى . فذهب الى بيتى ماشياً . ان المشى ليحلو فى مثل هذا الجو البارد .

## ٢

كنت أقيم بقرب جسر « الصعود » في عمارة كبيرة ، وكان مسكني يطل على فناء العمارة • فما ان دخلت بوابة العمارة حتى رأيتني أصطدم بفرسيلوف الذي كان خارجاً من عندي • وقال :

- على عادتي ، كنت أتنزه ماشياً فوصلت الى مسكنك ، حتى لقد انتظرتك عند بطرس هيوليتوفتش ، ولكنني ضجرت في النهاية • انهم في هذا البيت لا يكفون عن التشاجر • بل ان زوجته مستلقية الآن في فراشها تبكي • ألقيت نظرة ثم انصرفت •

شعرت بشيء من الاستياء • وقلت :

- أظن انني الشخص الوحيد الذي تزوره ، فكأنك لا تعرف أحداً في بطرسبرج الا أنا وبطرس هيوليتوفتش !

- أي بأس في هذا يا صديقي ؟

- فأين تذهب الآن ؟

- لا ، لن أصعد اليك ثانية ، فاذا شئت تنزهنا ماشيين ، فالأمسية

رائعة •

قلت فجأة :

- لو انك ، بدلاً من الاسترسال في تأملات مجردة ، قد قلت لي شيئاً انسانياً ، لو انك - مثلاً - قلت كلمة عن حماقتي التي تدفعني الى العمار ، فلعلني ما كنت لأنجرف ذلك الانجراف كما يفعل أبله معتوه •

فقال وهو يزن كلماته :

– أأنت نادم؟ هذا حسن • لقد قدرت دائماً أن انغماسك في القمار ليس أصلاً فيك ، وإنما هو انحراف عابر •• ! انك على حق يا صديقي ، فالقمار من الموبات ، ناهيك عن أن المرء قد يخسر •

– وقد يخسر مال غيره أيضاً •

– هل خسرت مال غيرك؟

– خسرت مالك أنت • كنت اقترض من الأمير على حساب دينك عليه • ولاشك أنه سخف وحمافة منى أن أعد مالك مالي ، ولكنني كنت أريد دائماً أن ألعب لأسترد الخسارة •

– أنبهك مرة أخرى يا عزيزي الى أن الأمير ليس عليه لي دين • أنا أعرف أن هذا الشاب يعاني هو نفسه ضيقاً شديداً ، وأرى أنه ليس مديناً

ا كانت حالي سيئة سوءاً مضاعفاً ••• بل كانت تدعو  
• فما صفتي الآن حتى يعطيني وأخذ منه؟

شأنك أنت ••• ولكن قل لي بصراحة : أليس هناك أي سبب ••• خاص يبيح لك الاقتراض منه ، هه؟

– لا شيء الا كوننا رقيقين •

– لا شيء الا كونكما رقيقين؟ أليس هناك أي سبب آخر يسوّغ لك أن تقترض منه؟ أليس هناك اعتبارات معينة مثلاً؟ •••

– ما عسى يكون هنالك من اعتبارات؟ لست أفهم!

– هذا أفضل • الأفضل أن لا تفهم! أتعرف لك يا صديقي بأنني كنت على يقين من هذا • « طيب ، لنقف عند هذا الحد يا عزيزي »! وحاول أن تكف عن القمار مع ذلك •

- ليتك أسديت لى هذه النصيحة من قبل ! بل انك حتى فى هذه اللحظة تسديها الى بلهجة تخلو من كل حرارة •

- لو نصحتك قبل الآن لما زدنا على أن نختصم ، ولما سرّك كثيراً أن تستقبلنى فى بيتك مساء • اعلم يا صديقى أن جميع هذه النصائح التى تستهدف نفع الآخرين ليست الا تدخلاً فى شئونهم لا حق لأحد فيه • ولطالما تدخلت هذا التدخل فما جنيت منه الا المنغصات والسخريات • وهبنى لم أعبأ بالمنغصات والسخريات ، فان الشيء الهام هو أن هذا التدخل لا يثمر أبداً ، فما من أحد يستمع لك ، ويأخذ الناس يكرهونك •

- يسعدنى أنك بدأت تكلمنى فى غير الأمور المجردة • هناك شيء آخر أريد أن أسألك عنه منذ مدة طويلة ولكننى لم أستطع ذلك حتى الآن • ان المشى فى الشارع يشجع على المسارة والنجوى • هل تتذكر ذلك المساء الذى كنا فيه عندى ، فى « تابوتى » ، منذ شهرين ، فسألتك عن ماما وعن ماكر ايفانوفتش ؟ هل تتذكر كيف استرسلت فى الكلام منطلقاً « بغير تحرج » ؟ فهل كان يجوز لابن أن يخوض فى الكلام عن أمه بهذه الألفاظ ؟ ولكنك لم تصدر عنك كلمة اعتراض واحدة ! حتى لقد « حللت أزرارك » أنت نفسك ، فشجعتنى على المزيد من خلع العذار •

- يا صديقى ، يسعدنى أن أسمعك تفصح عن ... مثل هذه المشاعر ... نعم ، أتذكر تذكراً واضحاً ... لقد كنت أتوقع فى تلك اللحظة فعلاً أن أى حمرة فى وجهك ، ولئن أرخيت لك العنان ، فلعلنى انما فعلت ذلك لأجعلك تبلغ آخر الحدود ...

- فلم تزد اذن على أن خدعتنى ، وعكرت النبع الصافى الذى كان فى نفسى مزيداً من التعكير ! نعم ، ما أنا الا مراهق شقى ، وانى لأجهل فى بعض الأحيان ما هو خير وما هو شر • فلو أريتنى الدرب ولو قليلاً لفهمت ولسرت فى الطريق القويمة فوراً • ولكنك لم تزد على أن أثرت حنقى •

– « ايها الابن العزيز » ، لقد أوجست دائماً أننا سنتفق في يوم من الأيام حتماً : فهذه « الحمرة » في وجهك قد ظهرت الآن من تلقاء نفسها بدون أن أدلك على شيء ، وأحلف أن هذا خير لك ... اننى ألاحظ يا عزيزى أنك قد تحسنت كثيراً في هذه الآونة الأخيرة ... أياكون الفضل في هذا لصحبة ذلك الأمير الشاب ؟

– لا تمدحنى ، فانى لا أحب هذا . لا تتخلق في قلبى هذا الاشتباه الأليم وهو أنك انما تمدحنى نفاقاً ورياءً على حساب الحقيقة حتى لا أكف عن الاعجاب بنفسى . هل تعلم أنتى في هذه الآونة الأخيرة قد ترددت على نساء ؟ هل تعلم أن أنا أندريفنا مثلاً تحسن استقبالى فى بيتها وتكرم وفادتى ؟

– أعرف ذلك منها نفسها يا صديقى . نعم ، انها لطيفة وذكية . ولكن « لنقف عند هذا الحد يا عزيزى » . شيء غريب . حالتى اليوم سيئة . لعله السم . اننى أنسب هذا الى البواسير . ما أخبار البيت ؟ لا شيء ؟ تصالحتم وتعاقتهم طبعاً ، هه ؟ هذا ما جرى قطعاً . انه أمر محزن أحياناً أن يضطر المرء الى العودة اليهما حتى بعد جولة مزعجة . ولكم يتفق لى أن أطيل الطريق تحت المطر المنهمر حتى أؤخر لحظة العودة ... ما أشده سأمًا يارب ! ما أشده سأمًا ! ...

– أمى ...

– أمك أكمل مخلوقات الله وأعذبها ، « ولكن » ... الخلاصة : يظهر اننى لا أساويهما قيمة . بالمناسبة : ما بهما اليوم ؟ ان هيتهما تدل فى هذه الأيام الأخيرة على ... ماذا أقول ؟ ذلك اننى أحاول دائماً أن أجهل ، ولكن لا بد أنهما تدبران اليوم أمراً ... ألم تعلم شيئاً ؟

– لا أعلم شيئاً البتة ، بل ما كان لى أن ألاحظ شيئاً لولا هذه اللعينة تاتيانا بافلوفنا التى لا تستطيع أن تمتنع عن العض . انك على حق : لا بد أن

هناك أمراً • لقد وجدت ليزا عند آنا أندريفنا ، وكانت ••• حتى لقد  
أدهشتني حالهما • أظن أنك تعلم أن آنا أندريفنا تستقبلها ؟

– أعلم يا صديقي • وأنت ••• متى كنت عند آنا أندريفنا ؟ في أية  
ساعة على وجه الدقة ؟ اننى فى حاجة الى معرفة هذا بسبب واقعة ما •

– بين الساعة الثانية والساعة الثالثة • وتصور أننى حين خرجت  
رأيت الأمير داخلاً •••

وحكى له زيارتى من أولها الى آخرها تفصيلاً • فأصغى الى كلامى  
دون أن يقول كلمة واحدة • ولم يعقب بشيء على احتمال زواج الأمير  
بآنا أندريفنا • وحين كلت المديح لآنا أندريفنا متحمساً تحمناً شديداً عاد  
يقول مرة أخرى أنها « لطيفة » • وقلت فجأة كأنما أفلتت منى الجملة  
أفلاتاً :

– لقد أدهشتها اليوم ادهاشاً هائلاً حين نقلت اليها ذلك النبأ الجديد  
كل الجدة وهو أن كاترين يقولايضا ستزوج البارون بيورنيج •

– أدهشتها ؟ فما رأيك اذا قلت لك انها أبلغتنى هذا النبأ هى نفسها  
فى هذا الصباح قبل الظهر ، أى قبل أن تدهشها أنت ذلك الادهاش  
الهائل ؟

– ما هذا الذى تقول ؟

وتسمرت فى مكانى ، واستطردت أتكلم فقلت :

– من أين أمكنها أن تعرفه ؟ ولكن ما هذا الذى أقوله أنا ؟ انه الأمر  
محقق أنها استطاعت أن تعرف النبأ قبلى ، ولكن هل تتصور أنها أصغت  
الى كلامى اصغاءها الى نبأ جديد يثير الدهشة ؟ الخلاصة ••• عاشت رحابة  
الصدر ! يجب على المرء أن يقبل جميع الطباع بجميع خصائصها ، أليس  
كذلك ؟ فأنا مثلاً اذا علمت نبأ من الأنباء طفت أذيعه فوراً ، أما هى



فإنها تحكم اغلاق علبة تبغها على كل ما تعرف ... حسن ، حسن ! انها مع ذلك أطف المخلوقات ، وان طبعها أروع الطباع !

... لكل انسان خلقه طبعاً ! ولكن الشيء الفريد العجيب هو أن هذه الطباع الرائعة تمتاز أحياناً بأنها تلقى عليك ألبازاً غريبة • تصور أن أنا أندريفنا قد رشقتنى فى هذا اليوم نفسه بهذا السؤال من غير لف ولا دوران : « أحب كاترين نيقولايفنا آخماكوفاً أم لا ؟ » •

هتفت أقول مشدوهاً مرة أخرى :

... يا للسؤال العجيب السخيف !

واضطرب فكرى لحظة • اننى لم أبحث معه هذا الأمر فى يوم من الأيام ، وها هو ذا الآن ، من تلقاء نفسه ...

قلت :

... وكيف شرحت سؤالها ؟

... لم تشرحه يا صديقى ... وانما عادت علبة التبغ 'تغلق' باحكام أشد • يجب أن تلاحظ من جهة أخرى أننى لم أقبل فى يوم من الأيام أن تجرى بيننا أحاديث من هذا القبيل ... ولا هى قبلت ذلك أبداً من قبل • ولكنك تقول إنك تعرفها ، ففى وسعك اذن أن تتخيل أن مثل هذا السؤال يناسب جمالها كثيراً • أترك تعرف شيئاً ؟

... ان صدور هذا السؤال عنها لغز فى نظرى كما هو لغز فى نظرك •

لعله فضول ، لعله مزاح ؟

... بالعكس • لقد كان فى السؤال جد كثير • حتى انه لم يكن سؤالاً بل استجواباً ، ولا شك أنها ألقته مدفوعة بأسباب خارقة قاطعة • سوف

تراها ، أليس كذلك ؟ فهل تستطيع أن تعرف منها شيئاً ؟ بل اننى أطلب منك هذا طلباً ، لأن الأمر ، كما ترى ...

- ولكن امكان افتراض أنك تحب كاترين نقولاً أيضاً يحيرنى ويذهلنى . معذرة : اننى لا أعرف كيف أخرج من هذه الحيرة وهذا الدهول . أنا لم أبح لنفسى فى يوم من الأيام أبداً أن أكلّمك فى هذا الموضوع ولا فى أى موضوع من هذا النوع ..

- ولقد تصرفت تصرفاً حكيماً يا عزيزى !

- ان مغامراتك القديمة لا يلىق أن تكون موضوع حديث بيننا طبعاً . ولو كلمتك عنها لكان ذلك منى حماقة . ولكننى لا أكلّمك أننى فى هذه الآونة الأخيرة ، فى هذه الأيام الأخيرة ، قد هتفت متسائلاً بينى وبين نفسى : « لو أنه أحب هذه المرأة فى يوم من الأيام ولو لحظة واحدة ، لما اقترف فى حقها خطأ يبلغ ذلك المبلغ من الهول الذى بلغه خطوك بعد ذلك . » اننى أعرف ما وقع : أعرف عداوتكما المتبادلة وما يشعر به كل منكما نحو الآخر من نفوز وكره ان صح التعبير . لقد سمعت عن هذا ، سمعت عنه كثيراً منذ كنت بموسكو ؛ وما يبرز واضحاً للعيان هنا هو أن نمة كرهاً شديداً وعداوة ضارية هما تقيض الحب . فكيف تسألك أنا أندريفاً فجأة هل أنت تحب كاترين نقولاً أيضاً ؟ أمر غريب جداً . لا بد أنها أرادت أن تضحك !

قال فرسيلوف بصوت لاحظت فيه شيئاً من اضطراب عميق ينفذ الى القلب ، وهذا ما لا يحدث له الا نادراً :

- لكننى ألاحظ يا عزيزى أنك تتكلم أنت نفسك عن كاترين نقولاً أيضاً بحرارة شديدة . لقد قلت منذ لحظة انك تتردد الى نساء ... واننى لأشعر بحرج طبعاً اذا أنا سألتك عن أمر كهذه الأمر ... ولكن أليست « هذه المرأة » فى عداد صديقاتك الجديديات ؟

اختلج صوتي فجأة وقلت :

— هذه المرأة ... اسمع يا آندره بتروفتش ، اسمع : ان هذه المرأة هي ما وصفته منذ حين عند الأمير بأنه « الحياة الحية » ، هل تتذكر هذا الذي قلته ؟ ولقد شرحت كلامك عندئذ بأن هذه الحياة الحية شيء يبلغ من الصراحة والوضوح والبساطة وينظر اليك نظرة تبلغ من الاستقامة أنك بسبب هذه الاستقامة وبسبب هذا الوضوح وهذا الجلاء انما يستحيل عليك أن تصدق أنه هو ما ظللنا نبحت عنه طوال حياتنا بكثير من المشقة والعناء ، فانظر اذن بأى عينٍ استقبلت أنت تلك المرأة المثالية ، وانظر كيف رأيت في الكمال وفي المثل الأعلى « جميع العيوب والرذائل » ! ذلك هو رأيي يستطيع القارىء أن يتصور مدى الاضطراب الذي كنت فيه ، ومدى ما وصلت اليه من خروجي عن طوري !

صاح فرسيلوف يقول :

— « جميع العيوب والرذائل ! » أوه ! هذه كلمة أعرفها . اذا كانت العلاقة بينكما قد بلغت من العمق أنها ذكرت لك تلك العبارة ، فربما كان يحسن أن أهنتك ! ان هذا يفترض أن بينكما صلة تبلغ من الصميمية أنه يجب على المرء أن يحمد لك تواضعك وتكتمك اللذين لا يقدر عليهما كثير من الشبان ...

كان في صوته رنين من ضحك لطيف ، ضحك مودة ، ضحك ملاطفة ... وكان شيء من كياسة ومن اغاظة في أقواله وفي وجه المتألق ، اذا صدق ما لمحتة في الظلام . كان في حالة احتياج شديد ، وأشرقت نفسي رغم ارادتي .

هتفت أقول محمر الوجه وأنا أشد في الوقت نفسه على يده التي كنت قد تناولتها ثم لم أتركها بدون أن أشعر :

- تواضع ! تكتم ! لا ، لا تواضع ولا تكتم • ولا محل لهنتى ، ولن يحدث شيء من هذا أبداً ، أبداً •

كنت أختنق اختناقاً ، وأطير طيراناً • كانت تملؤنى رغبة قوية فى أن أطير ، ان فى الطيران فتنة عظيمة ! واستطردت أقول :

- وهب شيئاً من ذلك حدث فى يوم من الأيام ، ولو مرة واحدة ، فان رأى يا بابا العزيز اللطيف - هل تسمح لى بأن أناديك بابا؟ - رأى أنه عار على أى انسان ، لا على ابن وأبيه فحسب ، أن يتحدث الى شخص آخر عن علاقاته بامرأة ، مهما تكن هذه العلاقات طاهرة نقية ! بل كلما كانت هذه العلاقات أظهر وأنقى كان كتمانها أوجب وألزم • ان الحديث فى هذه الأمور عيب وليس فى هذا المجال نجى يفضى اليه المرء بأسراره ! فكيف اذا لم يكن ثمة شيء البتة ؟ هل يجوز الكلام فى هذه الحالة ؟ هل يجوز ؟

- الا اذا اشتهى المرء أن يتكلم •••

- سؤال محتشم ، محتشم جداً : انك قد عرفت فى حياتك نساء ، وكانت لك بهن علاقات ••• أليس كذلك ؟ اننى ألقى عليك هذا السؤال عاماً ••• عاماً لا خاصاً !

. احمر وجهى وكنت أختنق حماسة • قال :

- لنفرض اننى عرفت نساء وكانت لى بهن علاقات ، فما هو السؤال الذى تريد أن تلقيه ؟

- اليك حالة أريد أن تفسرها لى ، ما دامت تجربتك أكبر : هذه امرأة تقول لك وهى تودعك ، تقول لك فجأة ، بغير مقدمات ، وهى تنظر الى جانب : « سأكون فى الساعة الثالثة من الغد فى مكان كذا ••• » عند تاتيانا بافلوفنا مثلاً •••

ها قد اندفعت ومضيت الى النهاية • كان قلبى يخفق ، بل لقد كف

قلبي عن الحفقان • أردت أن أمسك عن الكلام : ولكن استحالي على ذلك •  
وكان هو يصغى بانتباه شديد • استطردت أقول :

- وفي الساعة الثالثة من الغد ، كنت عند تاتيانا بأفلوفنا • دخلت •  
وكنت أفكر على النحو التالي : « ستفتح لي الطباخة - هل تعرف طباختها؟ -  
فأسألها فوراً : هل تاتيانا بأفلوفنا هنا ؟ فإذا أجابتنى بأنها ليست هنا ، وبأن  
سيدة تنتظرها » فما الذي يجب أن أستخلصه من هذا ؟ قل لي اذا كنت ...  
أقصد اذا كنت ...

- يجب أن تستخلص من هذا أن موعداً قد ضرب لك ولكن هل  
حدث هذا ؟ وهل حدث اليوم ؟ نعم ؟

- أوه ! لا ، لا ، لا ! أبداً ! أبداً ! لقد حدث ، ولكنه لم يحدث  
على هذه الصورة ! هو موعد ، ولكن لا لهذا الأمر • أعلن ذلك قبل كل  
شيء ، حتى لا أكون رجلاً غير شريف • لقد حدث ، ولكن ...

- يا صديقي ، هذا كله قد بلغ من الغرابة انى اقترح عليك  
أن ...

- كنت في الماضي أتصدق بذهب على كل سائل ... مضي ذلك  
الزمان ! بضعة كوبكات فقط • ان ضابطاً برتبة ليوتنان هو الذي يستجديك  
بضعة كوبكات ، ضابط سابقاً •

ان قامة طويلة هي قامة شحاذ لعله ضابط محال على التقاعد فعلاً قد  
سدّت طريقنا فجأة • وكان أعجب ما في أمره أن هندامه أحسن كثيراً  
من أن يكون هندام شحاذ • ولكن ذلك لم يمنعه من مدّ يده مستعظياً •

## ٣

إذا كنت أذكر واقعة الليوتنان هذه الشقية فأنسى أفعال ذلك عامداً ،  
لأن فرسيلوف انما يعرض لذاكرتي دائماً محاطاً بجميع تفاصيل هذه  
الواقعة ، حتى التفاصيل الدقيقة منها ، وهي واقعة كانت لي حاسمة مشؤمة ،  
ولكننى لم أكن أعرف أنها كذلك •

رفع فرسيلوف صوته عالياً غير طبيعي على حين فجأة ، وقال يخاطب  
الليوتنان وهو يقف امامه :

– دعنا ، والا ناديت الشرطة فوراً !

ما كان لي أن أتوقع غضباً كهذا الغضب ، من فيلسوف كهذا الفيلسوف ،  
لسبب تافه هذه التفاهة • ولاحظوا أننا قطعنا حديثنا عندئذ في نقطة هي  
أكثر النقاط اثارة لاهتمامه واجتذاباً لانتباهه ، كما قال ذلك هو نفسه منذ  
هنيهة •

فصرخ الليوتنان يقول بغتة وهو يحرك يده :

– أليس معك خمسة عشر كوبكاً ؟ أى وغد لا يملك خمسة عشر  
كوبكاً في هذه الأيام ؟ وغد ! سافل ! يرتدى فاخر الثياب ، ثم هو يجعل  
الخمسة عشر كوبكاً قضية كبيرة من قضايا الدولة !

فصاح فرسيلوف منادياً :

– يا شرطى !

وكان الشرطى هناك فعلاً ، في ناصية الشارع ، وكان قد سمع شتائم  
الليوتنان ، فقال له فرسيلوف :

- أرجو أن تكون شاهداً على الشتم ! أما أنت فتعال معنا الى المخفر !

فقال الشحاذ :

- ها ها ! يستوى عندي ... لك ما تشاء ... لن نستطيع أن تثبت شيئاً ! وخاصة لن نستطيع أن تثبت ذكائك !

فقال فرسيلوف جازماً :

- أيها الشرطي ، لا تتركه ، وخذنا الى المخفر .

فهمست أسأل فرسيلوف :

- الى المخفر ؟ لماذا ؟

- حتما يا عزيزي . ان هذه الفوضى في شوارعنا قد أخذت تضجرتي ، فلو قام كل امرئ بواجبه ، لكان في ذلك خير للجميع . « ذلك مضحك ، ولكن هو ما سنفعله » .

مشينا مائة خطوة كان الليوتنان يصخب ويتعجرف ، مؤكداً أن هذه المعاملة شيء « غير معقول » ، وان خمسة عشر كوبكاً لا تستحق أن ... الخ ؟ ثم مال على الشرطي يهمس في أذنه . وكان يبدو على الشرطي ، وهو رجل عاقل يكره الفضائح في الشوارع ، أنه يوافق على رأيه ، ولكن بمعنى واحد ، فكان يجمع قائلاً له بصوت خافت : « لاسييل الآن » ، « لقد نشأت قضية » ، « لو تعتذر فيقبل السيد اعتذارك ، لكان يمكن أن ... » .

فصرخ الليوتنان يقول :

- طيب . اسمع يا سيد . الى أين تذهب بنا ؟ اننى أسألك : الى أين نركض هذا الركض ؟ هل هذا من العقل في شيء ؟ ما رأيك في أن يعتذر لك هذا الانسان الشقي وهو يعاني ما يعاني من ألوان العذاب ... ما رأيك في أن تكفني بما أوقعت فيه من اذلال حتى الآن ... هو ! لسنا في صالون

على كل حال ... نحن في الشارع ... وفي الشارع تكفى اعتذارات  
كهنه ...

فتوقف فرسيلوف وانفجر ضاحكاً • فكنت أتصور أنه لم يسترسل  
في هذه القصة كلها الا على سبيل التسلية • ولكن الأمر لم يكن كذلك  
قال :

- اننى أعذرك كل العذر يا حضرة الضابط ، وأؤكد لك أنك  
لا تخلو من موهبة • ولك أن تتصرف هذا التصرف حتى في الصالونات •  
قريباً سيكون هذا صالحاً كل الصلاح للصالونات أيضاً • وبانتظار ذلك ،  
إليك أربعين كوبكاً فاشرب بها وكل • وأعتذر إليك عن ازعاجك  
يا حضرة الشرطى ، وأهنتك على ما أظهرت من نبل •

ثم التفت فرسيلوف الى قائلاً :

- ويا عزيزتى •• ان هناك مشرباً ليس في حقيقته الا مكاناً قدراً ،  
ولكننا نستطيع أن نشرب فيه شايًا ، فأنا أدعوك ••• لسنة بعيدين عنه ،  
فهلم بنا اليه •

أعود فأقول مرة أخرى اننى ما رأيته مهتاجاً هذا الاهتياج فى يوم  
من الأيام • ومع ذلك كان وجهه مرحاً مشرقاً بالضياء • لكننى لاحظت أنه  
حين أخرج من محفظة نقوده قطعتين بأربعين كوبكاً ، كانت يدها ترتعشان  
وكانت أصابعه لا تطاوعه ، حتى انه رجائى أخيراً أن أقوم عنه باخراج  
النقود واعطائها الليوتنان • لا أستطيع أن أنسى هذا •

وقادنى الى مشرب صغير تحت مستوى أرض الشارع • ولم يكن  
فى المشرب ناس كثير • وكان يُعزف فيه على أرغن من برباريا مبسوح  
الأصوات متنافر الأنغام • وكانت تنتشر فى جوه روائح أشبه برائحة  
قوطة ملوثة بالدسم • وجلسنا فى ركن •



— لملك لا تعرف أنتى أحب أحياناً ، من فرط الضجر ، من فرط  
الضجر الرهيب الذى يرهق القلب ، أن أنزل الى هذه الأماكن . فهذه  
الموائد ، وهذا اللحن النشاز الذى يعزف « لوسيا » ، وهؤلاء الخدم الذين  
يرتدون ثياباً وطنية روسية تعوزها اللياقة والحشمة ، وهذا الدخان الذى  
يتصاعد من احتراق التبغ ، وهذه الصرخات يطلقها لاعبو البليارد و ، ذلك  
كله يبلغ من العامية والابتذال أنه يكاد يكون من صنع الخيال .  
طيب يا عزيزى ، ماذا كنا نقول ؟ ان ذلك الابن من أبناء اله الحرب مارس  
قد قطع علينا الحديث عند أهم نقطة فيما أظن . . . . ولكن اليك الشاى .  
اننى أحب الشاى حباً شديداً هنا . . . . تصور أن فيليب هيوليتوفتشس كان  
يؤكد منذ قليل لذلك المستأجر الآخر المجدور أن البرلمان الانجليزى قد  
شكل فى القرن الماضى لجنة من رجال القانون مهمتها أن تدرس جميع  
الجوانب من دعوى المسيح أمام كبير الكهنة وبيلات ، لا لشيء الا أن يعرف  
كيف يمكن أن تجرى الأمور اذا طبقت قوانيننا ، وقد هيئت لهذه التمثيلية  
جميع أسباب الأبهة والجلال ، وحشد لها جهاز قضائى كبير ، فمن محلفين  
الى محامين الى سائر ما هنالك . . . . وأن المحلفين قد اضطروا بعد مداوات  
أجروها فى قاعتهم المغلقة أن يخرجوا بقرار ادانة . . . . شىء يثير الدهشة!  
وقد أخذ المستأجر الغبى يناقش ويجادل ، ثم غضب وسخط وأعلن أنه  
سيترك البيت منذ الغد . . . . وأخذت المؤجرة تذرف دموعاً غزيرة لأنها  
ستفقد بتركة البيت ايراداً . . . . « ولكن دعنا من هذا » . ان فى هذه  
المشارب عنادل أحياناً . هل تعرف تلك الحكاية الموسكوبية القديمة التى  
تروى على غرار حكايات بطرس هيوليتوفتشس ؟ يقال ان عندليباً كان يغرد  
فى مشرب بموسكو . فدخل المشرب واحد من أولئك التجار الذين  
لا يحبون هذا الغناء الذى يجرى على وتيرة واحدة . وقال يسأل : « كم  
نمن العندليب ؟ » فقبل له « مائة روبل » فقال : « اقلوه وجيئونى به ! » ،  
ففعلوا ، فلما صار العندليب على مائدته قال : « اقطعوا لى منه شريحة

بفرشين ! ، ، لقد رويت هذه الحكاية يوماً لبطرس هيبوليتوفتش ، ولكنه لم يشأ أن يصدقها ، حتى لقد استاء . . . .

وتكلم فرسيلوف كثيراً أيضاً . اننى لا أروى هذه الجمل التى قالها الا على سبيل المثال . وكان يقاطعنى كلما فتحت فمى لأشعر فى سرد قصتى ، فيمضى يقول ترهات لا يربط بينها رابط ولا علاقة لها بما نحن فيه . وكان يتكلم بحرارة ومرح كأنه نمل . وكان يضحك لكل أمر من الأمور ، بل كان يقهقه هازئاً ، وذلك ما لم أعهده فيه من قبل قط . وقد شرب كأساً من الشاي دفعة واحدة ، وسكب لنفسه كأساً أخرى . اننى أفهم الآن الحالة النفسية التى كان فيها : كان مثله كمثل رجل تلقى رسالة عزيزة غالية هامة طال انتظاره لها ، فلما وصلته وضعها أمامه وتعمد أن لا يفضها ، فهو يقلبها بين أصابعه مدة طويلة ، وينعم النظر فى غلافها ، ويتأمل خاتم البريد الذى عليها ، ويمضى الى غرفة أخرى يصدر أوامره الى الخدم ، أى هو يؤجل الدقيقة الهامة التى يعلم أنها لن تفلت منه ، وذلك ليزيد لذته ومتعته وبهجته .

قصصت عليه كل شىء طبعاً . . كل شىء . . من البداية . . . . ودام حديثى قرابة ساعة . وكيف لا أقص عليه كل شىء ؟ لقد كنت شديد الظمأ الى الكلام حتى قبل ذلك . بدأت بالحديث عن لقائنا الأول فى منزل الأمير المعجوز عقب وصولها . ثم رويت له كيف تتابعت الأحداث شيئاً بعد شىء . لم أغفل شيئاً ، لم أسقط شيئاً ، ولا كان فى امكاني أن أسقط شيئاً : كان هو نفسه يضعنى فى الطريق ، ويحزر ، ويلقننى ، حتى خيل فى بعض اللحظات أننى أعيش حكاية خيالية ، وأنه كان دائماً هناك ، جالساً أو واقفاً فى مكان ما وراء الباب ، فى كل مرة ، طوال هذين الشهرين : كان يعرف سلفاً كل حركة من حركاتى وكل عاطفة من عواطفى . ووجدت فى هذا الاعتراف له لذة لا نهاية لها ، لأننى كنت أرى فيه كثيراً من اللطف والرقه والمودة ، وكثيراً من نفاذ

الصبر في النفس الانسانية ، ورأيت فيه قدرة مدهشة على أن يحزر كل شيء ، من نصف كلمة • وكان يصني الى اصغاء فيه حب وحنان ، كما تصفى امرأة • وقد استطاع خاصة أن يحسن التصرف فما شعرت بأى خجل • وكان يستوقفني في بعض الأحيان بغته ليسألني عن أمر تفصيلي ، وكثيراً ما كان يقاطعني ويردد بلهجة عصبية قائلاً : « لا تنس التفاصيل ، التفاصيل خاصة ، فكلما كانت واقعة من الوقائع أصغر شأنًا في نظر المرء لأول وهلة ، كانت أعظم خطراً في حقيقة الأمر أحياناً • » وقد عاد الى هذه الفكرة مراراً • وطبعي انني في بداية قصتي قد تعاليت قليلاً ، ولكن سرعان ما رجعت الى الحقيقة ، فرويت له صادقاً أنني كنت مستعداً لأن أقبل المكان الذي تطوَّها قدمها من أرض الغرفة • وكان أروع وأجمل ما في الأمر أنه فهم فهمًا كاملاً أن في وسع امرأة أن « تتعذب خوفاً من وثيقة » ، وأن تبقى في الوقت نفسه طاهرة نقية لا مأخذ عليها ، كما ظهرت لي في هذا اليوم • وقد فهم كذلك كلمتي الطالب والطالبة حق فهمها • ولكن حين شارفت على النهاية لاحظت أن ابتسامته الطيبة كان يلوح فيها من حين الى حين نوع من نفاذ الصبر ، والقسوة ، والذهول • وكان هذا واضحاً وضوحاً شديداً وحين وصلت الى « الوثيقة » • تساءلت بيني وبين نفسي : « أقول له الحقيقة أم لا ؟ » ، ثم لم أقلها له رغم حماستي كلها • أسجل هذا هنا لأذكره مدى الحياة • لقد شرحت له أمر الوثيقة على نحو ما شرحته لها هي ، أي أفحمت كرافت • فالتمعت عيناه ، وارتسم على جبهته غضن غريب شديد القامة ، وقال يسألني :

- أتذكر تذكرًا واضحاً أن تلك الرسالة قد أحرقها كرافت بلهب شمعتة ؟ ألسنت متوهماً ؟

فأجبتة مؤكداً :

- لا ، لست متوهماً

– ذلك أن لهذه الرسالة شأنًا خطيراً عندها ، فإذا كانت بين يديك  
كان في وسعك منذ اليوم أن ...

ما الذى « فى وسعى أن ... » ؟ لم يذكر هذا . وانما تابع كلامه  
يسألنى :

– هل صحيح حقاً أن الرسالة زالت فليست الآن بين يديك ؟

فارتعشت ، ولكن فى داخل نفسى لا فى ظاهرها . أما فى الظاهر  
فأتنى لم أفصح أمرى بشيء ، ولا طرقت لى عين . حتى اتنى أردت أن  
لا أصدق سؤاله ، فقلت :

– ماذا ؟ بين يدي ، الرسالة بين يدي ؟ كيف تكون بين يدي  
وقد حرقها كرافت ؟

– حرقها ؟

وحدق الى بنظرة من نار ، نظرة جامدة ما أزال أذكرها . وظل مع  
ذلك مبتسماً ، غير أن كل ما كان فى وجهه من طيبة ، ومن رقة قد  
اختفى فجأة . وعبرت هيئته عن خيرة وابهام . وازداد ما كان يظهر عليه  
من ذهول . فلو كان أكثر سيطرة على نفسه ، لو أنه سيطر على نفسه  
كما كان يسيطر عليها حتى الآن ، لما ألقى على ذلك السؤال عن الوثيقة .  
أما وأنه فعل ، فهذا دليل أكيد على أنه كان خارجاً عن طوره . ولكننى  
اليوم انما أقول هذا الكلام . أما فى ذلك الوقت فأتنى لم أدرك التغير الذى  
أصابه ، بمثل هذه السرعة ، وظللت أظير ، وظلت نفسى زاخرة بتلك  
الموسيقى نفسها . ولكن قصتى انتهت . ونظرت اليه . فقال لى فجأة منذ  
فرغت من الحديث :

– شيء غريب ، غريب يا صديقى : تقول انك كنت هناك من الساعة

الثالثة الى الساعة الرابعة ، وان تاتيانا بافلوفنا لم تكن فى البيت ، أليس كذلك ؟

- من الساعة الثالثة الى الساعة الرابعة والنصف تماماً .

- تصور أنى ذهبت الى تاتيانا بافلوفنا فى الساعة الثالثة والنصف تماماً ، فاستقبلتنى فى المطبخ . اتنى أصدد إليها على سّلم الخدمة فى كل مرة تقريباً فهتفت أقول وأنا أتقهقر الى وراء من شدة الدهشة :

- ماذا ؟ استقبلتك فى المطبخ ؟

- نعم ، وقالت لى انها لا تستطيع أن تستقبلنى ، فلم أمكث الا دقيقتين . وما كنت قد ذهبت إليها الا لأدعوها الى الغداء على كل حال .

- لعلها وصلت فى تلك اللحظة نفسها ؟

- لا أدرى . ولكن لا . مستحيل . لقد كانت لابسة قميصاً . كانت الساعة هى الثالثة والنصف تماماً .

- ولكن ... ألم تقل لك تاتيانا بافلوفنا اتنى عندها ؟

- لا ... لم تقل لى انك هناك ... والا لكنت عرفت فما سألتك

عن شىء ...

- اسمع ، هذا أمر خطير جداً ...

- خطير أو غير خطير ، ذلك يتوقف على الجهة التى تنظر اليه منها ... ولكننى أرى أن وجهك قد اصفر لونه ... فأين الخطورة فى الأمر ؟

- لقد 'ضحك على كما 'يضحك على طفل ...

- بل كل ما فى الأمر أنها « خافت من حرارة اندفاعك » ، كما

قالت لك ، فاخبتأت وراء تاتيانا بافلوفنا .

- ما هذه القصة يارب؟ اسمع، لقد أنطقتني ذلك الكلام كله بحضور شخص ثالث، أمام تاتيانا بأفلوفنا. معنى هذا أن تاتيانا بأفلوفنا سمعت ما قلته! هذا... هذا رهيب! بل رهيب تصوره!

- كل شيء نسبي يا عزيزي! ثم انك قد ناديت برحابة الفكر، للمرأة عامة، وهتفت تقول: «عاشت رحابة الفكر».

- لو كنت أنا عطيل، وكنت أنت ياجو، لما استطعت أن تقول خيراً من هذا... ولكنني أفرح... أضحك... فلا يمكن أن يكون ههنا عطيل، إذ ليس ثمة علاقات من هذا النوع. وكيف لا أضحك؟ ليكن ما كان! انني أظل رغم كل شيء مؤمناً بما هو أسمى مني كثيراً، ولا أفقد مثلي الأعلى!... ان كان ذلك مزاحاً منها، فاني أعفوه لها. ماذا أن تمزح مع مراهق مسكين؟ انني أقبل منها هذا المزاح واضحك... أنا من جهتي لم ألبس أي قناع. والطالب... الطالب، كان هناك رغم كل شيء... كان... كان في قلبها، كان في نفسها... كان وبقي وسيبقى. وكفى الآن! اسمع: ما رأيك؟ أمضي إليها فوراً فأعرف الحقيقة كلها، أم لا؟

قلت «أضحك»، ولكن الدموع كانت تترقق في عيني.

- افعل ما يحلو لك يا صديقي، اذهب إليها اذا كنت ترغب في

ذلك.

- أحس أنني لطخت نفسي إذ قصصت عليك هذا كله. لا تزعل، ولكنني أرى أنه لا يجوز لرجل أن يتحدث عن امرأة إلى شخص آخر. ذلك رأيي أكرره وأصر عليه. ان من تتخذة نجياً وتفضي إليه بأسرارك لن يفهم أبداً. الملاك نفسه لن يفهم. حين تحترم امرأة فلا تتخذ لك

نجياً تبوح له بأمورك • وإذا كنت تحترم نفسك فلا تفعل ذلك أيضاً • اننى  
الآن لا أحترم نفسى • الى اللقاء • لن أغفر لنفسى ما فعلت •••

- دعك يا صديقى ، انك تبالغ ! أنت نفسك قلت « انه لم يحدث  
شيء » •••

وخرجنا ، وودع كل منا الآخر • وقال لى وفى صوته ارتعاش  
خاص :

- ولكن ألا تريد أن تقبلنى يوماً من كل قلبك ، كما يقبل ابن  
اباه ؟

فقبلته بحرارة •

قال :

- عزيزى ••• كن طاهراً نقياً على الدوام كما أنت طاهر نقى فى  
هذه اللحظة •

لم أقبله قبل هذه المرة فى حياتى ، ولا كان يمكنى أن أتصور أن  
يطلب منى هو نفسه ذلك •

# دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذللين المباينين" فاذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

الكسندر ف. سربريفيف